

صوفيا.. رياح الشمال



الطبعة الأولى
١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

اسم الكتاب	: صوفيا .. رياح الشمال
اسم المؤلف	: إبراهيم. س. زويل
الغلاف	: إيمان صلاح
التصحيح اللغوي	: خالد رجب عواد
الطبعة	: الأولى
رقم الإيداع	: ٢٠١٦ / ٢٣١٣٧
الترقيم الدولي	: ٧-٠٨٥-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠ - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

ghorabpublishing@hotmail.com

صوفيا .. رياح الشمال

إبراهيم . س . زويل

دار النشر والتوزيع

الإهداء

إلى أمي وأبي، سرّ وجودي..
إلى ابنتي، روعي الخالدة في جسدي البالي..
إلى زوجتي، دار سكني..
إلى الأستاذة نجاة عبد الرحمن معلمتي الأولى..
إلى روح المغفور له بإذن الله، العالم الجليل
د. أحمد زويل..

إلى روح المغفور له بإذن الله. د. إسلام متولي..
أتقدّم بجزيل الشكر والعرفان وخالص مودتي
لأصدقائي..

عابد عامر

فتححي صديق

عمرو البدالي

عماد الصايغ

غادة الشريف

لولاكم لما خرجت صوفيا إلى النور..

إلى أبناء الحرب..

إلى أبناء الحصار..

إلى أبناء النكسة والعبور..

«إلى روسا مارتينيث جونثاليث»

الفصل الأول

شاطئ سان ستيفانو-كورنيس الإسكندرية - شتاء عام ٢٠٠٠

تُشيرُ لوحة توقيت الساعة إلى الواحدة صباحًا.. بداخل سيارة
مرسيدس فارهة رمادية اللون، مُظَلَّلة بالورود الملونة موشاة بالحرير
اللامع.. تُعطي إشارة الانتظار وقد أنارت سواد الليل بإضاءاتها
المُشعة..

ترجّل منها رجلٌ عجوزٌ أشيب الرأس، مُتجهّم، يرتدي نظارة
طبية سوداء لا تكاد تُبرزُ معالم وجهه.. يمشي بُبطءٍ بجسده الهزيل فوق
رصيف الكورنيس.. وحيدًا مُتجهًّا إلى الشاطئ وهو يجرُّ قدميه فوق
الرمال المبللة بمياه البحر.. وسط سكون لم يُبدِ أي انزعاج سوى من
أصوات زخّات المطر..

بدا الظلام دامسًا في غياب القمر واختفاء النجوم خلف الغيوم
الرمادية، التي اكتست بسواد الليل فزادته عتمة.. هدج العجوز وهو لا
يعرف أكان الظلام سببه الليل أو من العين التي قد أمست لا تقوى على
أن ترى الشمس نهارًا، ولا تستطع أن تتذكّر جمال القمر ليلاً؟

دَلَفَ ببطءٍ حتى ألقى جسده الواهن فوق الرمال وهو ينزغُ رابطة العنق.. فانخرط ببذله السوداء الداكنة وسط الظلام، مُخْتَفِيًا عن أنظار أيِّ شخصٍ قد يُمَرُّ عليه..

وبينما هو جالسٌ واجماً وقد خلع نظارته التي أظهرت عينيه المُثْقَلَتَيْنِ بالدموع وملامح وجهه الذي قد ارتسمت عليه تضاريس الزمن، تنهَّد الرجلُ وهو يتأمل تلاطم الأمواج وكأنها صفحات الماضي تمرُّ من أمامه.. فأطل بوجهه إلى الأفق الذي اختفي وسط الظلام باحثاً عن نورٍ يهديه إلى سبيل الرشاد..

التفتَ خلفه ليجِدَ رجلاً طويل القامة، دميمَ الخَلْقَةِ، قبيحَ الطَّلَعَةِ.. تبينتُ ملامحه المُنفَرَّةَ عبر شعره ولحيته الكثة البيضاء التي أزاحت ظلام تلك الليلة لوهلة خاطفة.. كان يرتدي ملابس غريبة رثة رمادية اللون.. أمّا عيناه السوداوان الشاخصان لم تتوقفا عن رمق العجوز الآخر بنظراتٍ حادة كَأَسْئَلَةٍ لا يعرف إجابتها سوى كليهما.. حتى بادره العجوز الغريب سائلاً:

- أرى ليلتك كسابقاتها.. فلتستيقظ أيُّها البائس من سجن هذا الحلم.. أما آن الوقت لكي تمضي معي بدلاً من الهروب مني؟
لم يلتفت إليه العجوزُ، ولم يُعِرْهُ أيَّ انتباه.. بينما أخذ يُتمتم بعبارات غير مفهومة، ارتطمت بحجاب نفسه المختلجة وعيناه معلقتان بأمواج البحر المتلاطمة:

- تلك الليلة كنتُ أنتظرها عن كثبٍ.. فالיום فقط أوصلت صوفيا وهي ترتدي ثوب أمّها الأبيض إلى مَنْ أطمئنُ عليها معه..
سأله الغريب بضحكةٍ مأكرة:

- وماذا عن صوفيا؟

مرّت دقائق ولم ينبس العجوز ببنت شفة حتى أعادَ عليه الغريبُ السؤال صارخاً في وجهه:

- وماذا عن سجانتيك صوفيا؟ أفقُ يا رجل، وفرّ من محبسك الانفراديّ هذا، وإلا سيكون مصيرك كسابقك، إعدام يجعل من روحك سبية عالقة في هذا الحلم للأبد..

- مالك ومالي ومال الماضي الذي يمضي كالبرق أمامي.. دعني وشأني.. لماذا تُلاحقني وأنا لا أطيق الهواء الذي يجمعنا؟!

- أمازلت غارقاً في ظلال الماضي؟ أمازلت تبحثُ عن العذاب وأنا رفيقك الذي يتمنى أن يساعدك على الشفاء وأنت سقيم؟
أردفَ الرجلُ الغريب بينما تركَ العِنانَ لنظراته في أن تُلَاحِقَ العجوز وقد حاصرت صمته:

- كثيراً ما قلتُ لك من قبل إنني سأجذُك حيثما كنت.. لما إذا لم تأتِ إليّ حيث كنتُ دوماً في انتظارك؟

- أبداً، لم تكن تنتظري، بل كنتَ تنتظر أن تنال من الشيء الوحيد الذي أبقاني حياً حتى الآن..

- أستظلُّ دومًا ذاك الضعيف المتَّحِب؟! أسير الوهم القابع بين ضلوعه، خانعًا كما كنتَ في تلك الليلة المظلمة عند بئر مسعود، حيثُ وجدتُك مُنكبًّا على وجهك ضائعًا، فوهبتُك صداقتي الأبدية.. وهأنت تجحدُ صُنعي، تُنكرُ جميلي حين أنقذتُك من السقوط في هاوية تلك البئر!

- لم تكن قط صديقي ولن تكون.. لقد فررت من الإيمان وحين أودعتُ أسراري بين يديك، كفرت بحبِّها لي، وألقيت بعهدي لها أدراج الرياح.

- أنتَ من بحثتَ عني دومًا في داخلِك، وتمنيتَ أن تُقابلني لأكون لك صديقًا حين تركتُك هي.. لتعاني كمن سَبَقَكَ من أولئك البائسين مُثيرين الشَّفقة.

- ما فعلته بي طوال تلك السنين الطويلة هو البؤس ذاته..

- لا تكنْ جحودًا صديقي العزيز.. فهل نسيْتَ تلك الليالي حين استجرتَ بي فأجرتُك؟ أيامًا وليالي طوالاً قضيتها معك ولكَ وحدك.. تاركًا كل شيءٍ من أجلك أنتَ والآن تصف ذلك بالبؤس؟!

- لقد كنتُ حبيسَ زنانتك التي أودعتني إياها بكامل إرادتي..

- أفقدتَ عقلك أيُّها العجوز؟!

مضى العجوز بين سيل كلماته دون أن يُعير كلمات الغريب انتباهًا، التي أخذت نبرتها في الصُّعُود ليحتدم الحوار بينهما:

- زنانة بلا أبواب ولا أقفال ولا قضبان.. فقط أسوار من الهواء

السامِّ الذي حَجَبَ عني نسَمَات نورها.

- كفاك تَراهايتِ، ولا تُلقِي نفسك في هاوية أوهامك القديمة..
- لن أَسْتَسْلِمَ لك بعد الآن.. فأنتَ حقًّا الوهم الوحيد الذي قد
أدركني..

- وأنا لن أَتَخَلَّى عنك أبدًا.. كما عاهدتُك تلك الليلة، ولتذكَّر
أنك دائمًا ما كنتَ تلجأ لي مُستنجِدًا بي، مُستجِدًّا لِأُخَفِّفَ عنك الضَّيْمَ
والأسى.

انتفضَّ العجوزُ وهو ينفُضُ الرمال عن ملابسه، وزخات المطر
المُتساقطة تتسارعُ كي تمسحَ دموعه المنهمرة:

- قلتُ لك ألف مرةٍ لا أريدُ أن أراك حين أمسي وحين أغدو
وحين أصبح.. فلتذهبْ للجحيم إلى الأبد..

قالها وهو يُهرع ناحية سيارته الفارهة، صارخًا بصوتٍ ذابَ في
دَوِيِّ الرعد.. لِيزلزل الأرض التي تساقطت عليها حَبَّات البرد
باطضراد:

- فلتذهبْ إلى الجحيم حيث تنتمي.. لتذهبْ إلى جحيم
يستحقُّك.. عليك لعنةُ ربي..

- أنتَ الذي تعيش في الجحيم واللجنة هي لعنة صوفيا.. ولا
تنسَ أني رفيقُك الوحيد وسبيلك إلى الراحة..

رَدَّ عليه الغريب بصوتٍ أجش أدرك العجوز وهو يُلقى جسده
داخل السيارة.. فما كان منه سوى أن ينطلقَ مُسرِّعًا بسيارته والطريق

خالٍ من كل شيء سوى الظلام والأمطار، والغريب الذي يراه من مرآة السيارة أخذ يُلَوِّح له بيده، وكأنه يعلم أنه يراه الآن في المرآة.

- لن أدعك تتمكّن مني بعد الآن.. لقد حاصرني وجعلت مني مدينةً من الأشباح حيث الأطلال القديمة.. لن أدعك تكون كأسوار طروادة الفولاذية، فأنا من جعلتك لعنتي بعدما جعلت هي من محنتي منحة..

لقد قطعتُ الرحلة وسِرْتُ الطريق، ثلاثون عامًا منذ أن فعلتها.. كم طال الزمان ولكني من أطلته.. لقد نسيتُ وتناسيتُ العهد والميثاق، فكفني نيران نفسي عن النَّيلِ من رُوحِي المُحَبَّة..

لن تتمكّن من حياتي بعد الحين أيُّها اللَّعين.. فالليلة سأستردُّ ما أَلقيتَ به على شاطئ مدينتي المفقودة..

وأجهش بالبكاء مرة أخرى، ناظرًا في مرآة سيارته، مُتَابِعًا ذلك الغريب الذي بزغ يلوح كالشبح:

- كفّاك نظرًا إلى المِرآة.. مرآة الماضي.. أنظر أمامك ستجدها بجوارك.. هكذا قالت لي..

مَضَى العجوز بسيارته مُحَاوِلًا أن يستجمع شتات نفسه.. بعد أن همَّ بمسح الدموع التي قد أزاحها المطر، وقد غَسَلَ ما سقطَ من السماء ما كان ينهمر من عينين تواريهما النظارة السوداء.. التي ما برح يرتديها وقد نَظَرَ إلى جواره.. فظهرت من بين تضاريس وجهه الشكلى ابتسامة نَضِرَة منحته الطُمأنينة:

- يا إلهي! يا له من شعورٍ مهيبٍ.. أتدري كيف تكون الحياة بدونك؟! لا شيء، أقسم لك أنها لا شيء.. فما هي إلا ظلام حالك.. الآن قابع أنا ها هنا وحيداً.. على أمل أن تُلاطفني نسيمات صباح جديد.. كذلك الصباح الذي أسرني كل يوم.. أنتظره، ولكن الليل قد طال، وما زلتُ أتنفّس الصُعداء كي يأتي ذاك الصباح مرةً أخرى.. مرةً أخيرة.. ظلام.. لم يتبقَّ لي سوى ظلام.. لا شيء عدا تلك الظلمات حولي.. هل هو الموت؟ لا أظنُّ.. أعتقد أنني قد احتضرتُ.. لا، فما زلتُ أذوق سكرات الموت آلاف المرات، وكل ما أنشدُه هو ذلك الصباح الذي يُشرقُ في عينيك الزرقاوين.. نعم عينيك أنت..

أنتظرُك ولم تأتيني وأنا مُكبَّلٌ.. مُكبَّلٌ بسلاسل الضعف.. وكم أخشى أن تريني ضعيفاً.. فلا شيء كان يدعوني كي أحيأ إذا ما رُمقت في عيني ضعفاً أو انكساراً.. أتساءل دومًا: هل عندما أتيتني أول مرة.. سألتني فأجبتُك.. والآن أسألك: متى سيأتي ذاك النسيم إلى جوارِي؟ أتحسّسه وهو يلطف من قِبط تلك النار الحارقة التي ألهبني دائماً، وأضحّت لي دَرْباً وزُفياً.. هأنذا الآن ما زلتُ هائماً.. حائراً.. لا أعرفُ الطريق.. الوقت يمرُّ كالدهور.. إذا ما كنتَ هدية الصباح أو أهديتني إياه فستدركين إذن لكم أمُقتُ ذلك الليل.. أمسى الشيء الوحيد الذي يُلوحُّ لي بالأمل هي تلك الهالة على شفّتك التي تُنيرُ لي وحدي ذلك الليل الطويل..

اختلفت أحاديث الماضي بأفكار الحاضر.. فحاصرَ وجدان العجوز صراعه مع ذلك الطيف، الذي قد صار له سَجَانٌ وسجن

يصفده بسلاسل الشَّجن وُقُيود الوهن.. فكيف السبيل إلى إدراك الفؤاد لعشقه؟ والآن يلوح في الأفق ذلك الوحش الكاسر الذي أضحي صائداً يُريدُ الفتك بطريدته حين اشتدَّ الحنين بؤساً وازداد الولع إيلاًماً..

- لمْ قد خَلَقْتَ من الداء دواءً يُداويني لنسيان ما لبشر يستطع نسيانه وقد تمكَّن الداء مني وصارَ سرطاناً ضارياً؟!

القُرب منه كان السبيل الوحيد لمواساة الفؤاد الجريح، فكيف أستطيع أن أبعدَ ذلك الشبح وقد جعلت منه مارداً يُلاحقني وقد نال مني؟!

راحة النفس تستوجب الاستسلام له الآن.. ولكن ذلك يعني خيانة العهد مع مَنْ ملكت القلب، واللعنة الأبدية التي لا أتوقُّ إليها..

ثوانٍ ولحظاتٍ اصطدمتُ بسيلٍ من الأسئلة، وفي المرأة ما زال ذلك الرجل طيفاً يُلوحُ في الأفقِ البعيد، مُلوّحاً بأن دروب الهروب مستحيلة.. وما عادت باليد حيلة إلا المضيُّ قُدماً مُبتعداً، فلربما يصير المستحيل هبة الشتاء للصحرى الجذباء في رحلة الوصول إلى واحة الراحة الأبدية..



توقَّفت إحدى سيارات الإسعاف بجوار سيارة شرطة المرور.. صفارة إنذارها تُدويُّ بأرجاء منطقة كامب شيزار بطريق الكورنيش..

وسط هطول الأمطار الغزيرة أمام سيارة مرسيدس رمادية اللون، استقرت على أحد جانبيها بالجزيرة الوسطى لطريق الكورنيش.. بعدما انتزعت عدة أعمدة إنارة وقد تناثر الزجاج في محيط السيارة الفارهة المُهشَّمة، التي لم يلبث أن تصاعدَ من أجزاء المحرك الأمامية المنبعجة الدخان الأبيض ..

أخرج المُسعفان ذلك الرجل العجوز فاقد الوعي، والدماء تُغطي وجهه تمامًا، تُلطِّخُ ملابسه التي قد بللتها الأمطار المنهمرة.. من ثم حملاه بلطفٍ وحذرٍ فوق النقالة المتحركة ليصعدا به إلى سيارة الإسعاف، التي أغلقت أبوابها، وهُرعت لنجدة العجوز المُصاب الذي علَّق له رجلا الإسعاف أجهزة التنفس الاصطناعي..

دقائق حتى وصلت سيارة الإسعاف إلى مستشفى القوات المسلحة بمصطفى كامل.. ترجَّل المسعفان وهما يُقدِّمان التقرير المبدئي لطبيب الطوارئ الذي بدا من ملامح وجهه الصارمة تجاوزه العقد الخامس من عمره.. الذي قد هُرِعَ لاستقبال الحالة برُققة ممرضة في العقد الرابع من عمرها، في حين قاما المسعفان الشابان بإنزال العجوز.. شرع أحدهما في شَرْح حالة العجوز للطبيب، مُحاولًا استجماع أنفاسه المُتصاعدة، التي راحت تلتهم هواء رثته وهم في طريقهم مهرولين إلى رواق المشفى الضخم:

- حادث سيارة.. والتقرير المبدئي.. غيبوبة.. مؤقتة.. ربما يكون.. سببها ارتجاج في المخ.. مع احتمالية نزيف.. داخلي، بجانب

ذلك.. هناك جروح.. سطحية.. وكدمات في الوجه.. اشتباه.. في..
كسر في.. المعصم الأيسر.. وجرح.. غائر.. في القدم اليسرى..
وجروح.. سطحية متفرقة.. في أنحاء الجسد..

باغته الطبيب وهو يُسرّع نحو غرفة الطوارئ:

- فلتلتقط أنفاسك وأخبرني.. هل استُدِّل على هُويّة المُصاب؟!
- نعم من أوراقه الثبوتية.. يُدعى يعقوب صبري أيوب.. يَقطن
في ٥.. فيلا صوفيا بلوران.. وقُمنا بإبلاغ ابنته عبر هاتفه.. الجوال الذي
كان بحوزته.

- أحسستم يا شباب..

- يبدو لي من تلعثمك ولهجتك المتحفّزة في سرد تفاصيل تقريرك
الدقيق، وحماستك الشديدة، وكأنه يومك الأول مُسعفاً..

ألقت عليه الممرضة عبارتها التهكمية المتوارية وراء ستار نبرتها
الحادة.. ثوان لحقتها كلمات الممرض الشاب:

- نعم إنه يومي الأول، ولكن سيدي، كان من الغريب سماعي
العجوز يتحدث عن سيدة أو إليها في لحظات عاد إليه وعيه.. بينما
حاول إبعادي ظناً منه أنني شخص آخر اسمه وحيد.. من الواضح أنه
شخص يبغضه كثيراً.. لا أدري إذا ما كان شخص ما سبباً في هذا
الحادث، ولكنه كان وحده حيث وجدناه!

- فلتُهدّئ من رُوعك أيّها المُحدّث، فغالباً ما يحدث هذا في
حالات مُتشابهة..

تمتَ لهما الطبيبُ بنبرةٍ حادةٍ قاطعةٍ، وقد أدركتهم أبواب غرفة الطوارئ:

- فلتنحَّ جانبًا أيُّها المسعف، ولتذهبْ إلى الاستقبال لإتمام تسجيل بيانات المُصاب هناك تستطيع الثرثرة مع رجال الشرطة كيفما تشاء.. أما أنتِ فلتصمتي ولنُسرعْ لإنقاذ حياة هذا العجوز البائس.

ما إن قام الطبيب بدفع ضلفتي باب غرفة الطوارئ، حتى بزغت بالداخل ممرضة أخرى مُتأهِّبة بجوار أجهزة أشعة ضخمة.. بعد إجراء الفحوصات الطبية العاجلة والأشعة بدقائق، خرج الطبيب بجانب ممرضتين وهما تدفعان السرير المتحرك.. الذي استقرَّ فوقه العجوز ويتدلى من عموديه كيس يحوي محلولًا يتصل برسغه، وبرسغه الآخر كيس من الدم.. وهم يتجهون ناحية غرفة العمليات..

صارع العجوز الغيبوبة من أجل اغتنام بضع الدقائق مُحافظًا على وعيه، وقد لحقت به شابةٌ شديدة الجمال في أواخر العشرينيات.. ذات عينين زرقاوين، يتدلى من تحت إشاربها الأسود خصلات من شعرها البنيِّ الناعم، ودموعها تنهمر.. وكان بجوارها شابٌ وسيمٌ في أواخر العشرينيات.. متوسط الطول ترتسم على وجهه علاماتُ القلق والتجهم، وهو يُسرِعُ الخطى مُحاولًا اللحاق بها..

وما إن أطبقت يديها الصغيرتين على يد العجوز حتى برقت عيناه وهو يبتسم.. بينما أخذ يُلمِّمُ العبارات في فمه ليبدأ في الحديث بلسان إسباني:

- صوفيا حببتي.. لقد صُنْتُ العهد، وكنتُ لك دائماً، فلا
تركيني الآن يا زوجتي الحبيبة.
- ردت عليه الفتاة وهي تجهش بالبكاء:
- لن أتركك أبداً.. فلتسترد عافيتك فأنت حصني الذي أحتمي
به دائماً..
- ما الذي جاء بهذا الوغد العجوز الآن.. أبعديه عني يا صوفيا،
فما عدتُ أطيعُ النظرَ إليه بعدما سلبني سنين حياتي..
- مَنْ يا أبي؟ لا يوجد هنا سواي أنا وصفي!
- بينما أسرعَتْ بالنظر خلفها، أشار إليها الطبيب بمجاراته بعدما
قام رفيقها في ترجمة طلاسَم كلماته إليه.. فاستطردت:
- سيرحل الآن يا حبيبي.. فلتهدأ الآن، فأنا هنا بجوارك.. لا
عليك من أي شيء..
- اشتقتُ إليك صوفيا، كم من الألم عانيتُ وأنتِ بعيدةٌ عني،
قريبة مني.. كم أحبُّك صوفيا!
- هنا غاب العجوز عن الوعي تماماً وهو برفقة الطاقم الطبي، على
أعتاب غرفة العمليات التي أوصدت أبوابها في وجه الابنة المنهارة..
التي لم تجد ملاذاً سوى أحضان ذلك الشاب الذي ظلَّ برُفقتها، مُحاولاً
أن يهدئَ من رُوعها..

خَرَجَ الطبيب، ومن خلفه الطاقم الطبي بعد مرور ساعتين في غرفة العمليات.. فانتفضت الشابة راكضةً صوب الطبيب، ومن خلفها رفيقها مُسرِعًا الخُطى للَّحاق بها وهي ترتجف، كي تطمئنَ على سلامة العجوز، الذي نقلته مُمرضتان إلى غرفة العناية الفائقة..

بلسانٍ إنجليزيٍّ يكسوه رداء من الهلع والترُّب، مُقترنًا بنحيب تسيلُ له الدموعُ سارعت صوفيا بسؤال الطبيب:

- كيف حال أبي أيها الطبيب؟!

- أهو والدك أم زوجك؟ فلقد ظننتُ أنك

باغتته الابنة مقاطعة حديثه وهي تجهش باكية:

- إنني ابنته الوحيدة أيها الطبيب..أتوسَّل إليك أن تخبرني بحقيقة حالة والدي.

- لن أخفي عليك حالته الخطرة، فقد عاجلنا النزيف الداخلي، ولكنه في حالة حرجة للغاية.. تماسكي يا ابنتي ولتُصلي لله من أجله.. فالله قادرٌ على كل شيء..

- من فضلك ..أتوسَّل إليك، أريدُ أن أظَلَّ بجواره حتى يستفيق..

- ممنوع يا آنستي الوجود بجوار المريض في غرفة العناية الفائقة..

- أستحلفُك بالله، وأتوسَّل إليك أن تدعني أراه ولو دقيقة..

- حسنًا، سأمرُّ عليكِ بعد نصف ساعة لأصطحبكِ إليه، ولكن لا مجال للحديث معه.. وعليكِ التماسكُ أمامه وإلا فلن أسمحَ لكِ بزيارته.

- أشكركُ شكرًا جزيلاً أيُّها الطبيب..

تركها الطبيب لرفيقها ومضى وقد خارت قُواها، فسقطت على الأرضية الرُّخامية وهي تبكي والدها في يوم زفافها، بينما سيطر الحُزن والأسى على مُرافقها، الذي راح يبحثُ عن كلمات المُواساة المبعثرة على شفتيه وهو يُطالِبُها بالدعاء له، فلعل الله يستجيب لها ولجموع المؤمنين من الناس، الذين سيتأهبون في تُضرُّعٍ لمُلاقاة الله في صلاة الفجر ..

رَقَدَ العجوز في غرفة الرعاية الفائقة وأصداء أجهزة الإعاشة تضجُّ نابضةً في أرجاء الغرفة، وقد وَقَفَ بالقُرب من سريره صديقه الغريب، غريمه الذي لم يتوقَّف عن رمقه بتلك النظرات الاستنكارية المصحوبة بابتسامات صفراء شامته..

- أعتقد أنه سيجدي الفرار مني يا صديقي؟! فهأنت الآن راقِدٌ بلا حراك.. لا تقوى حتى على غلق عينيكِ الثقلتين بالآلام والمآسي!

حاولَ العجوز أن يُحرِّكَ رأسه، وقد استشاط غضبًا من رؤية هذا الرجل.. وبصعوبة بالغة، حرَّكَ أنامله باحثًا عن زِرِّ النجدة المُتدلي بجوار وسادته..

- سيدخلون عليكِ الآن.. ستدخل صوفيا بجسدها الجديد الذي وهبته في عُرْسٍ مشهود إلى رجل آخر يتنعم بها.. وأنت تعلم علم اليقين

سلفاً أن بفعلتك هذه ستحلُّ عليك لعنة الماضي، وستذهب أدراج الرياح قُبيلَ الفجر الجديد..

- بل أنت لعنة الماضي، وستغرُبُ عن وجهي إلى الأبد..

لفظها العجوز بصعوبةٍ وسبابته تضغطُ على الزَّرْ طالباً المساعدة..
بينما تجمّد الرجل في مكانه وقد أصابت وجهه خيبةُ الأمل الممزوجة بالغضب الذي توارى خلف بسماته الاستفزازية..

بعد أن دخلَ الطَّبيب وإحدى الممرضات الغرفة، وهما يتحققان من أجهزة الإعاشة والتنفس الصناعي .. بصوتٍ خافتٍ طلب يعقوب إلى الطبيب رؤية ابنته..

حينها دفعت الابنة بجسدها إلى الغرفة .. وهي ترسُم على وجهها الساحر ابتسامة مُفعمةً بالحزن، دانية ببطء ناحية الأب، وقد مالت عليه واحتضنته وقلْبها يتسارع ودموعها مُجمدةٌ خلف ثلوج الأسى..

راح يعقوب يستجمع قُواه وبلسانٍ إسبانيٍّ مُثقلٍ بوهن شديد وبصوتٍ خافتٍ يتردّد في حلقة استوقفته همسات متحشجة.. شرع في حديثه مع ابنته المكلومة:

- اسمعيني حبيبتي صوفيا ولا تُقاطعيني.. فأرى من وراء عينيك تلك الروح التي أَسْرَنتني يوم رأيتها لأول وهلة.. ولدتُ يوم رأيْتُ الروح التي تسكن جسدك الآن.. وحييت في لعنة أَلْقَتها إحدى الساحرات على صوفيا.. ولا أدري أكانت حقاً هبةً لجميع عاشقيها؟!

- عَمَّ تتحدث؟ لا أفهم ما تقوله.. فلتهدأ الآن واسترخ
..ولتَقصَّ عليَّ ما تشاء غداً..أبي!

- أنصتي ولا تُقاطِعيني.. فأكاد أنَسَمُّ عليل رياح الشمال..
الوقت قد حان، ولم يتبقَّ لي سوى القليل لأتنفَّسه..ولكن لا بُدَّ أن يخرج
الجميع خارج تلك الغرفة عدا رفيق دَرْبِكَ الجديد..

نَظَرَ الطبيبُ المُناوِبُ إلى الممرضة، وأشار إليها بالخروج وهو يربت
على كتف الابنة المكلومة بعدما انتهى الشاب من ترجمة كلماته .. وهنا
نَظَرَ العجوز إلى صديقه بينما كان ينظر إليه بعدم اكتراثٍ ولا مبالاة..
فاستجمع العجوز قُوَّتَه حتى صرَخَ عاليًا:

- فلتدعني وشأني أيها اللَّصُّ الذي سلَّبتني حياتي، التي منحتني
إيَّاهُ صوفيا بكامل إرادتي..إلى الخارج..الآن..

نَظَرَت صوفيا بتعجُّبٍ وهي في حيرةٍ شديدةٍ من أمرها إلى
والدها..وقد أدارت وجهها صوب رفيقها الشاب بدهشةٍ وذهول
تامِّينٍ.. وفي تلك الأثناء، أشار إليه صديقه بالصمت مُلوِّحًا له بالكف
عن الصراخ وهو يخرج خُلُسة من الغرفة..هنا هداً العجوز وطلب إلى
ابنته أن تُوصِدَ باب الغرفة وأن تأتي لتجلس إلى جواره..

- الآن أنصتي لي جيِّداً، ولتأخذي ما أقوله لكِ على مَحْمَلِ الجدِّ.
فاسمعي وعي..

- كلي آذان مُصغيةً لك يا حبيبي..

- قبل أن يُواري السيد أَدانَ زوجك الأول جسدك الشرى يوم ميلادك الثاني، تركت لي خريطة الطريق لخلاصي في الكتاب القرمزي الذي أورثه إياك أبَاؤُكَ الأولون.. كتاب حفظه أَدانُ لك بجانب كتاب آخر يخصه.. إلى أن قابلتُكِ وتزوجتُكِ بعدما لقيَ أَدانُ ربَّه بيده وقد أبى أن يُفارقَ الحياة ليلة زفافنا.. سنوات بعد أن احتضنك جسدُ زوجتي التي أودعتُ روحها جسدك، واستودعته يوم صرخت أول صرخة..

وهأنا اليوم أودّعك يوم زفافكِ، ولتعلمي أنك ستتركين جسدك هذا، يوم أن ترتدي جسد ابنتك صوفيا.. ربما يتوقّف كل شيء الآن.. ربما توقّف يوم هُرعْتَ إليك.. ولعل رَجُلَكَ الجديد هو من حرّرك من تلك اللعنة أو الهبة أو سمّيتها تعويذة إذا ما شئت..

بينما استطرد الأب في حديثه، أخذت الابنة ترمُق رفيقها وقد تلبّدت سماء وجهها بغيوم الوجوم، والدهشة والاستغراب البالغ، فما كان من فتاها إلا أن همس في أذنيها بحنوّ ورفق:

- للموت سكرات يا حبيبتي.. يذهبنّ بالعقل فلا تقاطعيه، وأنصتي إليه، ففي ذلك راحة له..

بعد أن فرغت كلمات الزوج الشاب، أجهشت صوفيا بالبكاء بينما أردفَ والدها:

- أحببتكِ منذُ رأيتكِ.. وقررتِ مفارقتي يوم ابتغيتُ أن أكون أباً لك في حياة جديدة تنعمين فيها بالسلام.. ولكن نسيت الخلاص

والسلام منذ زمنٍ بعيد.. فلتحرّروا أنفسكم بالخلاص الذي هو أنت يا
حبّيتي..

ستجدين في مكتبتني إرثك الأول وميراثك من أحبائك.. ربما
ستدركين ما قاله عجوز أصابه مَسٌّ من الجنون منذ زمن، وهو يمضي في
فراش الموت الآن.. أمام ناظريك اللذين يملؤهما الشفقة على ما أصابه
من ذهاب العقل..

- أحبك والدي، ولن أفارقك أبدًا.. فقط عليك أن تُقاتِلَ من
أجلي.. من أجل صوفيا.. فلتنظر إليَّ يا أبي وأنت تقصُّ عليَّ حكايتك مع
صوفيا..

- أراكِ كما رآكِ القلب تلك الليلة المُعتمة التي تحرّرت فيها من
قيود الظلام.. مجموعة نجمة الشمال الفريدة التي كانت لي بوصلة
وخريطة مُقدسة.. أنقذتني من صحراء التيه القاسية لتدقَّ عُنقي بعدها
أسافيرُ الليالي، حين تركتني على حافة هاوية الكون.. الذي سحقتني
كباقي المُعذّبين في مُذنب الوحدة..

تلعثم العجوز وهو يبكي مُبتسمًا ناظرًا إلى النافذة الزجاجية وأذان
الفجر يعلو من مكبرات المآذن:

- يا ربي كم كنتَ رحيماً! دعوتُك من ضيقي فاستجابت لي..
صرختُ من جوف الهاوية فسمعت صوتي.. لأنك طرحتني في العمق
في قلب البحار، فأحاط بي نهر جازت فوقه جميع تياراتك ولججك..

فقلتُ قد طردت من أمام عينيك ولكنني أعودُ أنظر إلى هيكل قدسك..
قد اكتفتني مياه إلى النفس أحاط بي غمر التف عشب البحر برأسي..
نزلت إلى أسافل الجبال مغاليق الأرض عليَّ إلى الأبد، ثم أصعدت من
الوعدة حياتي أيها الرَّبُّ إلهي.. حين أعييت في نفسي ذكرت الرب
فجاءت إليك صلاتي إلى هيكل قدسك..الذين يراعون أباطيل كاذبة
يتركون نعمتهم.. أما أنا فبصوت الحمد أذبح لك وأوفي بما نذرته للرَّبِّ
الخلاص..

اتسعت مقلته وهو يتطلع إلى السماء بنظرةٍ حانيةٍ وبسمةٍ وضاءٍ
مُرَدَّدًا آخر كلمات نطقت بها شفاته:

- الآن أدركتني صوفيا.. اليوم أُولدُ لك من جديد.

أغمضت عينيه لتُسَلِّمَ الروح لبارئها.. تعالت صرخات الابنة التي
دَوَّت بأرجاء المشفى وهي تحتضن والدها بعباراتِ الحسرة التي تعتصر
قلبها مُرَدَّدَةً:

- فلتكْمِلْ يا أبي حديثك إليَّ ولا تتركني حتى نهاية عُمري
..سأظلُّ أستمع لك بأذان مصغية حتى إذا ما كان عليك أن تسلكَ
دَرْبَ الجنون هذا.. عُدْ إليَّ يا أبتِ.. لا تتركني في هذا اليوم..

هنا احتضنها زَوْجُها بشدَّةٍ مُرَدَّدًا:

- لا عليكِ حبيبتي.. ابكيه وارثيه، لكن لتعلمي أَنَا لله وإنا إليه
راجعون.. ابكي حبيبتي فقد هدأت عاصفة حياته الآن، ولتدعي له
بالرحمة.. فهذا أدرك هو خلاصه إلى جنة الله مع حبيبته..

أجهش العروسان بالبكاء والنحيب، بينما هُرع الأطباء إلى الغرفة
مُعلنين ساعة الوفاة وتاريخها في سجلاتهم.. تُوفي في تمام الخامسة
والثلث فجر يوم الأحد ٢٣ ديسمبر ٢٠٠٠..

الفصل الثاني

مدينة السادس من أكتوبر الثلاثاء ١٦ سبتمبر ٢٠١٤

على مشارف مدينة السادس من أكتوبر.. تنعطف سيارة بي إم دابليو، ألمانية رياضية فارهة.. ذات دفع رباعيٍّ من الطريق الصحراويِّ صوب إحدى الطرق الجانبية الطويلة، المُعبَّدة الممتدة بمحاذاة أحد المنتجعات الخاصة، الذي تحدُّه الأسوار العالية المكسوَّة بالطوب الحراري البارز، ويبرُّز من خلفها سياجٌ عالٍ من أشجار الفيكس العالية المُشدَّبة.. على اليمين تظهر لافتات إرشادية مُتباعدة على طول الطريق، طُبِعَ عليها بحروفٍ كبيرةٍ بارزةٍ بالعربية والإنجليزية: "منتجع الشفاء للصَّحة النفسية".

تُبطئُ السيارة وهي تدنو من مدخل المنتجع المترامي الأطراف، وتظهر بوابة رئيسة ضخمة على يمينها باب فرعي صغير، خرج منه أحد مسؤولي الأمن حاملاً في يده دفترًا كبيرًا وقد انَّجَه صَوَّب قائد السيارة التي توقَّفت أمام البوابة المغلقة ليتحقَّق من هويَّته.

- صباح الخير..
- صباح الخير.
- نأسف لإزعاج سيادتكم .. أستاذُ معاليك، بطاقة الهوية الخاصة بحضرتكم..

هَمَّ قائد السيارة بخلع نظارته الشمسية الثمينة، لتظهر ملامح رجل في أواخر العقد الرابع من عمره.. ذي عينين بُيَّتِي اللَّون، حليق الذقن، أبيض الوجه، شعره كستنائي كثيف مُصَفَّفٌ بعناية.. وسيم تبدو عليه سمات الرصانة والهدوء، وتبزغ عليه علامات الشراء والأبهة..

قام بإخراج بطاقة الهوية الخاصة به من جيب سترته السوداء الأنيقة التي التقطها رجل الأمن، الذي أخذ يُمَعِنُ النظر فيها وهو يُسَجِّلُ بياناتها في الدفتر الكبير الذي يحمله..

- السيد. صفي الدين مختار عبد الآخر غازي.. محل الإقامة فيلا صوفيا- لوران- الإسكندرية..متزوج..رقم البطاقة ٣٤٥٦...

هنا قاطعه قائد السيارة وهو يرمُّقه بابتسامة هادئة مُرتدياً نظارته تارةً أخرى قائلاً:

- الغرض من الزيارة.. زيارة السيدة صوفيا يعقوب.. غرفة رقم ..٩٢٣

بعد أن أتمَّ رجل الأمن تسجيل البيانات رَدَّ إلى الرجل أوراقه الثبوتية بابتسامةٍ عريضة، شاكرًا إيَّاه على اتساع صدره للإجراءات

الروتينية وقد اتجه إلى البوابة التي خرج منها .. لتلتقف يده اليمنى جهازًا لاسلكيًا صغيرًا، وقد أخذ يُتمتم بعدة عبارات .. حينها تباعدَ ببطءٍ شطر البوابة الحديدية السوداء الضخمة، وقد انبرى عنها طريق طويل، يمتدُّ عبر حديقةٍ كبيرةٍ شاسعةٍ تنتهي بمبنىٍ ضخمٍ يجاوره عدة مبانٍ أخرى لا تُوازيه في الحجم ..

ما إن انفتحت البوابة على مصراعيهما، أدار صفي سيارته سالكًا طريقه للداخل إلى أن توقّف أمام المبنى الكبير، فترجّل عن سيارته مُلمِّمًا هاتفه المحمول وحافظة صفراء اللون كانت مُلقاةً على الكرسي المجاور له ..

بضع ثوانٍ ووافاه أحد المشرفين عن المبنى ويده جهاز لاسلكي ليصطحبه إلى داخل المبنى الكبير الذي اكتست واجهته بالمرايا الزجاجية ..

برفقة مسؤول آخر عبر مدخل المشفى، بعدما ترك السيارة الفارهة برفقة العديد من السيارات الفاخرة المتكدسة في المرأب المُتأخَّم للمبنى الرئيس .. فهو كبير يتوسطه شاهد من الجرانيت صُقلَ عليه نقشٌ نُحِتَ باليونانية والعربية ..

"وأما الحكمة التي من فوق فهي أولا طاهرة، ثم مُسالمة، مُترَفِّقة، مُدعنة، مملوءة رحمةً وأثارًا صالحة عديمة الريب والرياء (يع: ٣-١٧)"

من خلفه أربعة مصاعد كهربائية، يحفُّهم من الجانبين درج من السلام الجرانيتية يولج إلى الطوابق العليا .. عن جانبي الشاهد

الجرانيتي الأيمن والأيسر، عَجَّت ممرات طويلة بحركة المرور ذهابًا وإيابًا..

برزت له إحدى الممرضات ذات ملامح آسيوية مسرعةً، بعدما خرجت من الغرفة الوحيدة الواضحة في تلك الردهة الكبيرة.. وافتهم لتغرس في سترته بطاقة ذات خلفية خضراء، وبحروفٍ بيضاء طُبِعَتْ عليه بالإنجليزية كلمة "زائر" لتُطْلَقَ لسانها المُتَشَحَّح بالإنجليزية قائلة:

- مرحبًا بِكَ سيد صفي.. ميعاد زيارتك الشهرية، أليس كذلك؟ بصوتٍ أجش يكسوه نبرةٌ حازمة، يَعْتَرِيها مَزِيدٌ من الحِدَّةِ العنيفة:

- لا أيتها الممرضة.. لم يحن وقت الزيارة الشهرية، ولكنني حَدَّدْتُ مقابلة مع الدكتور توفيق الشاهد، وَمِنْ ثَمَّ زيارة للغرفة ٩٢٣، وهي بالقطع ليست الزيارة الدورية كما قلتُ لك..

- ولكننا جميعًا - وعلى رأسنا السيدة صوفيا - في انتظارك اليوم.. لقد أخبرتنا بقُدومك البارحة..

- ماذا؟! أنا لم أُخبر أحدًا - وزوجتي على وجه الخصوص - بزيارتي هذه!

- حسنًا سيد صفي، ربما اختلط عليَّ الأمر، عُذْرًا، ولكن وَجَبَ علينا إذن التوجُّه للمصعد، ونحن في طريقنا صعودًا إلى الطابق الأعلى يجب عليك كالمعتاد ملء تلك الاستمارة.

- إنها الاستمارة الثالثة والثمانون التي أملؤها.. وكما عهدتوني سأطلب منك ذلك القلم ذا المداد الأحمر، لأخطَّ به بياناتي المطلوبة..

تلعثمت الممرضة وهي تستجمع كلماتها المقتضبة، وقد أعطته القلم:

- ساحني سيدي، ولكنه نظام المصحّة، ولعلك على دراية كافية بذلك بعد تلك الفترة الطويلة..

- لا عليك أنستي، فلندع مداد قلمك يملأ فراغات ورقتك.

همّ الرجل المتجهّم في ترك أصابعه التي تحرّكت بعفويةٍ لتحتضن المداد، الذي بدا وكأنه ينساب بتلقائية غاضبة على وجه الورقة البيضاء البائسة.. وقد صفعها بشدة تاركاً أثراً ليخضبها بصبغته الحمراء، خاطأً بيانات الزائر التّعسة..

قَبْلَ أن يدقّ ناقوس المصعد إيداناً بالخروج وصولاً للدور الثاني، همّ الرجل وقد رَسَمَ على وجهه المتجهّم ضحكة مبتسرة وهو يسلم الممرضة الاستمارة يُرافقها ورقة نقدية كم فئة المائتي جنيه:

- أتمنى أن تمحو تلك الورقة الصغيرة وقاحتي غير المقصودة، بيد أن رحلة السفر وحرارة الجو قد أذابت حدود أدبي.. ولعل اعتذاري الواجب لك يُلَقَى القبول، لتثلج ابتسامة غفرانك صدري الذي قد ملأه الغضب المؤلم، الذي قد تأذيت منه..

- سيدي، لا عليك، فالجميع هنا وأنا على رأسهم يشهدون بدمائة حُلُقكم، وطيب كرمكم، وأنفهمّ تمامًا ما قد يُصيبك من عناء الزيارة.. فصدقاً قد شَرُفْتُ بمُرافقتك إلى هنا بعدما شملتني بلُطفِ

شخصك المهذب الكريم.. ولتتعطف بالانتظار ثواني معدوداتٍ حتى
يأذن لنا الدكتور بالدخول..

ثواني حملت الرجل إلى أيامٍ مَصَتْ.. ذكريات كانت عالية راسخة
كالجبال التي تتوارى من تحتها صغائر الحزن ولم الآلام، ومن فوقها
يسيل فيض من أنهار الحب وماء الحياة الغصّ الصافي.. لتدثره تحت
ثرى الماضي بما له وما عليه.. أعاده من هناك صوتُ الممرضة وهي تُشيرُ
إليه بالدخول:

- سيد صفى يمكنك الدخول الآن، فالدكتور توفيق بانتظارك..

بخطوات ثابتةٍ قام صفى بالدخول إلى غرفة كبيرة غُلِّت جُدرانها
الأربعة بمكتبة كبيرة عامرة بعشرات الكتب، تعجُّ بالكثير من الملفات..
يتوسَّطُها أمام الباب مكتب كبير من خلفه، هَبَّ ليعتدل واقفاً مُرحَّباً
بالضيف الزائر، كان رجلاً في نهاية العقد الخامس من عمره.. أصهب
الشَّعرِ واللحية، تظهر عيناه الكستنائيتان من خلف نظارة طبية مُستديرة
يرتديها.. يعتمر رداء الأطباء الأبيض، ومن تحته تبرز بَزَّة سوداء
اللون.. على وجهه الأبيض ارتسمت ابتسامةٌ ترحيبٍ قامت بدورها في
تحية الزائر.

- أسعدَ الله صباحك سيد غازي.. كيف الحال؟

- بخير الحمد لله.. كيف حال صوفيا؟ لم يستجدَّ أيَّ شيءٍ منذ
مكالمتنا الأخيرة؟

انعقد لسان الطبيب برهةً من الوقت وقد غادر من وراء مكتبه، تاركاً مقعده مُتجهًا ناحية الزوج وبعد أن ربت على كتفه، استوى جالساً على المقعد المقابل له.. مُخَلِّفاً على منضدة صغيرة تفصله عنه، ملفاً ضخماً يعجُّ بالأوراق.. تبرز منه صورٌ لأشعة وتحاليل طبية.. خَلَعَ بعدها نظارته التي أظهرت حاجبيه المُقطبين وشفتيه الممتعشتين تحت وطأة التفكير الحادّ.. ليتبادلا الحديث:

- دائماً ما يكون هناك جديد سيدي الفاضل.. فعلى الرغم من تلك المعاناة الأليمة طوال أشهر وسنين مضت، وانبرت في رحلة علاجية صعبة شهدت تحسناً ونكساتٍ عدة، فإنه في النهاية ينبغي لنا أن نتشبَّث بالأمل والثقة بالله الذي خلق الداء ومنه الدواء..

- عذراً دكتور توفيق.. لكن في هذه الأيام اختلطت أوراق الأمور جميعاً، وتشابكت الأوهام بالسَّراب، فضاعت الأحلام والأمان، وما عُدْتُ أرى وجهها للحقيقة..

الآن بُتُّ على خطوة واحدة من اعتقادي ما تُطلقون عليه أنتم معشر الأطباء؛ هلاوس وأضغاث أحلام..

- سيد صفي، جميعنا يعلم منذ بداية الأمر أن ما تعانيه السيدة صوفيا هو أمرٌ صعبٌ ومؤلمٌ للجميع.. ورحلة المرض كالإبحار في بحرٍ هائج، بين أمواجٍ عاتيةٍ وسفينة العلاج دائماً ما تكون بحاجةٍ ماسّةٍ إلى رُبَّانٍ حكيمٍ وحَصيفٍ، يستطيعُ إدارة دَفَّةِ الأمور بهدوءٍ ورصانةٍ حتى تنكشِفَ العاصفة، ونصلَ بالمريض إلى برِّ الأمان ومرفاً السلامة..

- لا يا دكتور توفيق.. أخطأت أنا حينما أَلقيْتُ بها هنا..
- بينما توقفت قاطرة لسان الزوج المكلوم عن الحديث، انفجر بركان الكلمات في رأسه متمتما:
- أَلقيْتُ بها على شفا جُرْفِ هارِ فانهار بي إلى الهاوية.. بينما اجتثَّ ما تسمُّونه علاجًا زهرة شبابها من فوق أرض جنتي.. فراحَت تذبُّلُ يوماً تلو الآخر حتى أمست مُصَفَّدَةً بأغلال الضعف والوهن..
- صَمَتَ الطبيب هُنيهةً باحثاً عن كلمات تتسَّق وحديث زوج مريضته حتى رَدَّ بنبرته الهادئة:
- سيد صفي، لقد فعلت الصواب منذ سبع سنوات حينما زُدْتُ عن زوجتك كفارسٍ نبيلٍ..
- أما من ناحيتنا، فنبذُ قِصارى جهدنا ونحن نسير فوق جسرٍ من علاج صعبٍ وشاقٍّ.. صدقني ستصل زوجتك في نهاية الأمر وقریباً إلى بر الأمان.
- وهل من فارس نبيل يُلقِي أعز ما يملك في مصحَّة للأمراض النفسية بعدما انساق وراء هواجس عمياء، وقد ضَلَّ سبيل الرشاد؟!
- لم تَضِلَّ سبيل الرشاد سيد صفي الدين.. على الإطلاق، فزوجُك ليست واحدة من أصحاب الكرامات.. فلم تُطَوِّ لها الأرض ولم تكشف الغيب..
- حالة السيدة صوفيا مُعقَّدة بعدما تشابكَ فيها المرض النفسي واختلط باعتلال الجسد المُتوارث..

- ماذا لو لم يكن ذلك الإرث علة ولا مرضاً؟ ماذا لو كانت هي التي على صواب طوال الوقت في حين أننا قد سلكنا سبيل البغي بعدما أنكرنا منحة منه وقلبناها لتكون محنة لنا؟!

دكتور توفيق، لن أستطيع المُضيَّ قُدُماً، فقلبي يُعْتَصِرُ لما آلت إليه الأمور وقد تدهورت حالتها الصَّحَّةُ.. فالنوم يَجْفُونِي وعذاب الضمير يُؤرِّقُنِي، ودقات قلبي ما هي إلا رصاصات تصرَّعُنِي بعدما ابتلعت الأرض نهر الحياة، وأقلعت السماء، وأمسكت غيَّثها عني، وَغِيَضَ الماء في باطن أرض الحقيقة، حيث تركتُ صوفياً..

- سيد صفي الدين، بعد فحص حالة زوجتك وعَرَضِها على فريق من كبار أساتذة الطَّبِّ النفسيِّ هنا توصلنا إلى أنه قد اجتمعت الكثير من أعراض الفِصام في زوجتك، من بارانويا وهلاوس سمعية من الشخص الثالث.. انسحاب فكر وإقحام.. وسواس ووهم.. توهُم وإدراك وهمي.. وأسبابه من استعداد وراثي وإحباطات البيئة المُحيطة بها، وانهيار في الحيل الدفاعية، إلى جانب جرمانها في الطفولة..

لقد رأيتَ بعينيك نتائج التصوير بالرنين المغناطيسي التي أجريناها في مصر، وبعد رحلتنا العلاجية الصيف الماضي في مصحَّة الدكتور سياستيان في لوزان بسويسرا..

- نعم، رأيتُ ما أشرْتُم إليه من خَلَلٍ في الموجات الكهربائية في الدماغ، وَخَلَلٍ في الجهاز العصبيِّ.. لست بحاجة لأن تذكرني بتلك الرحلة المُريرة التي أدت إلى انتكاسةٍ حادةٍ ومضاعفاتٍ صِحَّةٍ من تَلَيُّفٍ في الكبد، ونقصٍ حادٍّ في كُرَاتِ الدم البيضاء و.....

- قاطعہ الطیب بصوتہ المادی مُحاولاً تلطیف الأجواء المتوترة:
- ربما أخطأنا في تقدير جرعات الكلوربرومازين أو عقار البرفينازين ابنتاث طويل المدى و ...
 - قاطعہ صفی الدین بنبرۃ استنکاریۃ مُکَمِّلاً بإسہاب:
 - أو الستيلازين أو الريسبريدون، وربما الكيوتيابين أو الكلوزاين و....

- قاطع الطیب بنبرۃ حاسمۃ الزوج للمرة الثانية قائلاً:
- حسنًا سيد. صفی الدین. أعترفُ لك أنه قد جائبَ الدكتور سياستيان الصواب حينما أمرَ بإعطائها جرعاتٍ مُضاعَفَةٍ من ذلك العقار..
 - نعم، ولقد زاد الطين بلة بعدما لجأ إلى حصص من الصدمات الكهربائية، التي كادت تُودي بحياتها بعدما كاد قلبها الضعيف ينهار تمامًا..

دكتور توفيق، لقد أخطأنا جميعًا، وأنا في مقدمتكم، ولم يعد هناك سوى ذلك الاحتمال البعيد المتبقي بعد رحلة حافلة بالخطأ والخطيئة.. إن العلم قد يقف أحيانًا عاجزًا أمام ظواهر ما زالت خارقة عَصِيَّةً على التفسير..

- يا سيدي العزيز، يحضرني قولٌ مأثور لأديب مصري مغمور قال: "إن قتل الهواجس لا يتطلب حتمًا رصاصة الحقيقة، فتصويبها نحو

وجه الشكوك قد يُخطئ الهدف أحياناً.. ويبقى صرير برائن الشكوك
دوماً أشد قسوةً على النفس من طعنات خنجر الحقيقة" ..

- لا يا دكتور، لقد طعنتُها أنا بخنجر الشكِّ وألقيتها رهينة
الحبس الفردي في تلك الغرفة المنعزلة، بعدها أنزلَ الله عقابه بي.. عذاباً
لا يُطاقُ في جحيم الندم.. فجرحي لها يدمي بداخلي أنا نازفاً، وتسعّبُ
الآن الجروح دماء لا تنقطع.

هنا خارت قوى الزوج المكلوم، وأجهشت عيناه المغرورتان
بالدموع فانتحب باكياً بكاء مكتوماً.. فسارَعَ الطبيب مُتوجّهاً ناحية
ثلاجة المشروبات الصغيرة المجاورة لمكتبه، فأخرجَ منها علبةً عصير
ليمون وقد فتحها ليضعها في يد الزوج المُتَحَسِّر، وما زال يربت على
كتفه:

- فلتهدأ سيدي الفاضل، فلا تثريب عليك بعد الآن.

باغته الزوج مُقاطِعاً إيّاه بصوتٍ مُنفعلٍ يرتدي سِترة الحنَقِ
والتذمُّر:

- نعم، فاليوم قد جئتُ لأصطحب زوجتي إلى بيتها حيثُ ينبغي
أن تكون، ولعلها تغفر لي ما سببته لها من مُعاناةٍ وعذابٍ طوال تلك
السنين الغابرة..

- سيد. صفني الدين، فلتُهدئ من رَوْعِكَ الآن، ولتُعُدْ إلى
صوابك حتى يتسنَّى لك العودة بزوجتك بكامل عافيتها النفسية

والعضوية، فلا تنسَ أن زوجتك المسكينة لا تزال تؤمن بأنها ستنسلخ عن جسدها يوم ميلادها الشهر الجاري لتسمو كسابقيها من أسلافها..زوجتك سيدى تعاني فصامًا حادًا..

- كيف لمريضة فصام ان تخبر الجميع امس بزيارتى اليوم، على الرغم من كونها زيارة استثنائية اعدنا لها هاتفيا صباح يومنا هذا؟! فجميع من لاقانى صرح لى انهم على علم بتلك الزيارة منذ البارحة حينما اخبرتهم هي بذلك؟

- سيد. غازي، لقد مرَّ على زيارتك الأخيرة أكثر من شهرٍ، ولعل ما قالته زوجتك لطاغم التمريض والطبيب المناوب بالأمس هو تخمين قد وافقه الصواب..

بعيدًا عن تلك الواقعة أحملُ لك خبرًا سارًا، لهذا أجريتُ الاتصال مبكرًا اليوم، فبعد قليل سنبدأ علاجًا مُتطوِّرًا على يد البروفيسور الروسي فلاديمير تيريسكي، راسلته على مدار السنة البائدة بخصوص حالة السيدة صوفيا، وقد أبدى اهتمامًا ملحوظًا بها، وها قد وَصَلَ القاهرة أول أمس.. بعدما أخبرته بتدهور حالة زوجتك الصحية..وسيبداً بعد زيارتك لصوفيا مباشرة أولى جلساته معها.

- ما سيقوم به لن يُجدي نفعًا دكتور توفيق..

- صدقني، سنجني ثمار هذا العلاج سريعًا، فهو في الأساس يعتمد على منهج تحفيز الذاكرة الاسترجاعية واستنهاضها عبر التنويم المغناطيسي..

- وماذا لو فشلَ كسابقيه؟
- أعدك إذا لم يُجدِ علاجهُ نفعًا، سأترك لك الخيار لتفعل ما تشاء وما تراه صوابًا..

انفرت أسارير وجه الزوج المُتجهِّم قليلًا وردَّ قائلاً:

- أعتقد أنه سيحدثُ فارقٌ بعد مرور تلك السنين العجاف؟
- عليك ألا تثبِّط من همِّك بعد الآن.. ربما كان مُقدَّرًا لك أن تأتي اليوم لتتابع بعينيك أولى تلك الجلسات للعلاج الجديد.
- لن أترك نفسي عرضةً أن يجرفني نهر التفاؤل لأجد نفسي أهوي إلى الدركِ الأسفل من جحيم خيبة الأمل..

- لتجعل من إحباطك آملًا، ولا تيأس أبدًا من رحمة الله.. فمهما ينلُ ذلك المرض من الإنسان، يظل العلاج هنا وهناك يتحين الفرصة المناسبة ليطوق ذلك المارد الشرس ويكبِّله بالسلاسل والأغلال رويدًا رويدًا.. حتى يطويه داخل قُمقمه، ليحدَّ من ظُهور ذلك الخبيث المتواري خلف عقل المريض وذهنه..

ذلك قطعًا بالتوازي مع تعاطي العقَّار المناسب في الجو الملائم.. بعيدًا عن المحفزات السلبية التي تستعديه إلى الخارج..

- ما الذي يتعيَّن عليَّ فعله الآن؟

- فقط أن تجهز نفسك الآن، وتستعد لمُلاقاة السيدة صوفيا، فلا بد أن تُهيَّأ الأجواء لما قبل العلاج.. مُهدِّدا لها الدرب كي يسهُل ارتياده..

- متى ستبدأ أولى الجلسات؟

- بمشيئة الله عَقَبَ مغادرتك غرفتها، سنبدأ على الفور أولى جلسات العلاج الجديد لها بمشاركة الأستاذ الدكتور رافع صدقي والأستاذ الدكتور ريمون ألفريد وشخصي المتواضع تحت إشراف البروفيسور فلاديمير..

خرج الزوج برُفقة ممرضة أخرى، ارتسمت على وجهها ابتسامة ترحيب بزيارة مُرتقبة بعدما أُرسلَ بطلبها عبر الهاتف الدكتور توفيق.. لتُرافق الزوج الزائر إلى غرفة ٩٢٣، حيث تنتظره الزوجة المريضة..

وَجَبَ عليهما ارتيادُ المصعد نزولاً ليخرجا عبر إحدى البوابات الخلفية، حيث استقلّا سيارة الجولف، إحدى مركبات المصحة الداخلية ليصلا إلى أحد المباني الصغيرة، وقد صعدا درج السلم ليتسلمه ممرض آخر بنفس الابتسامة ليدخل الرَّمز السَّرِّي لينفتح بابٌ ممرّ تنأثر على جانبيه بضع عُرفٍ..

توقّف الزوج الذي تغيّرت ملامحه، وقد بدت عليه معالم الارتباك والتردّد، مُستترّاً خلف الممرض ضخّم الجثة الذي همّ بفتح باب الغرفة.. تسلّلت إلى عيني الزوج حواجب الشمس المبهرة المتدفقة عبر النافذة الكبيرة داخل الغرفة التي اكتست جدرانها بألواح بيضاء من الفلين الطَّبِّيّ المقوى المُخضَّب باللون الأبيض..

فوق سرير يتوسّط الغرفة الصغيرة، تلحفت امرأة بملاءة بيضاء غير آبهة بمن يدقّون باب عزلتها، فهي لم تُبدِ أية إشارة حينما سكنت

مُستلقية فوق سريرها على جنبها الأيمن، وقد أعطت وجهها للسماء
عبر النافذة وظهرها للزائرين..

بنبرة رقيقة هادئة تبدو عليها معالم الإعياء خرج صوتها بلسانٍ
إسبانيٍّ دون أن تتحرَّك قيد أنملة:

- هل أشرقت شمس زوجي الحبيب في سماء يومي أم ما زال
مُتعثراً وراء غيوم طريق رحلته؟

هنا أجاب صوت الزوج المُستكين بنبرة يكسوها الحنو والرَّفق
ويدها قد أوصدت الباب بعدما أشارت إلى الممرض بالانصراف:

- نعم حبيبتى، ولكن لن تشرق الشمس حتى تكشفني النقاب
عن سماء عينيك اللتين تحتضنان تلك الشمس..

استدارت الزوجة ببطء يكشف عن حالتها المتأخرة من الضعف
والوهن.. لتظهر امرأة في أواخر الثلاثينيات من عمرها ينساب شعرها
الطويل الداكن عبر وجهها الشاحب ناصع البياض، الذي يتزيّن
بملامح ملائكية.. ورغم ما قد ألمَّ بها من وهنٍ، فإنه لا يزال على عهده
لوحة بديعة من الجمال المُخضَّب بألوانٍ ربانية.. فالأعين سماء زرقاء،
وتقاسيم الوجه نجوم صغيرة مُتألَّئة تزيّنه..

- اشتقتُ إليك حبيبي، وزاد اشتياقي حينما أدركتُك عيناى
اللتان حرمتها رؤيتك لما يُناهزُ الشهر..

- لا تتحدثي عن الشوق، فحُمم بركانه تُصلي القلب.. ولكن
ياللعجب ممَّا رأيته هنا اليوم حبيبتى!

- ماذا؟ ما الذي جرى؟
- العجيب أن يكون الجميع بانتظاري هنا على الرغم من طلبي زيارتك صباح اليوم، أليس هذا بشيء غريب؟
- قرة عيني، الجميع هنا بانتظارك، وأنا كنت كذلك على أحرّ من الجمر منذ الشهر المنصرم، كيف حالك وحال صغيرتنا؟
- كل شيء على ما يُرام، والصغيرة تُمطرُك بغزير السلام، و تُهديك مئات القبلات الحارة.. سأتي بها بمشيئة الله يوم ميلادك لنحتفل به ثلاثتنا في بيتنا الذي ينتظرك بفارغ الصبر..
- سنحتفل معًا يا عَشَقَ الماضي.. يا أب المستقبل.. كيف حال الزوج الحبيب والأب العطوف؟
- زوجك في أمْس الحاجة إليك صوفيا.. بعدما صارت الدنيا أرضًا من الضباب وسماء من الغيوم الرمادية..
- فليكن قلبك هو قبلتك ولتولّه شطر السماء، حينها فقط ستجد الحقيقة جليّة، وستنشع عن دنياك غيوم الوهم وأوهام الضباب.
- أتتحدثين عن قلبي صوفيا، والقلب قد صار مدينة من الأشباح، أشباح تكبل أصداء العشق الجريح في محبسه الذي أودعته يديّ هاتين هنا؟!!
- لا تقسُ على نفسك هكذا، فلست مَنْ يضع الأسئلة والاختبار، بل عليك فقط محاولة إيجاد الإجابات، ولك حينئذ ثواب المحاولة حتى لا تكتوي بنار الحيرة.

حلّقت كلمات صوفيا في سماء الزوج الملبدة بغيوم الحَنَقِ والحزن،
وزوابع الآلام والشعور بالذنب.. كالتائر الذي حمل على جناحيه
الصغيرين تلك الغيوم بعيدًا، فهدأت الرياح لتصير نسيمات من أريج
الشجن في لفح نهار قاسٍ، وسكنت النفوس ووجلّت القلوب بُرْهَةً
.. بنبرة هادئة حزينة تابع الزوج مُبتسمًا:

- ما تزال أطياف أريج كلماتك بين أنفاسي طيرًا مُهاجرًا، مُذْبَذَبًا
ما بين الترقُّب والرحيل..

- فلترحل مُسرَّعًا، ولا تنتظر فوات الآوان، فسنوات التيه
أوشكت على الفرار.. وأخشى أن تشرق شمس الحقيقة عليك، وما
زلت تُصَفِّدُ روحك بسلاسل النار وأغلال رماد الليل القديم.. ولتعلم
أن ألسنة اللهب وسط مهب رياح الشمال لن ينجلي عن رحمها شيء
سوى النيران المتقدة..

- حبيبي.. لم أعد أقوى على أن أبُصِرَ الحقيقة، فلقد استسلمتُ
لحقائق الأطباء الصماء حول ما رأيته اعتلالًا عينان أصابها الضعف..
ورحْتُ أهيم دون بصيرةٍ ولا بصر وراء أناسٍ يرون كل ما لا يقبله
العقل خرافاتٍ وتُرّهاتٍ..

منذ ذلك الحين تملك مرضك المزعوم مني .. الجميع مرضى
مكلومون سواك أنتِ حبيبي.. لم يترك صبار صمتك تلك السنين
سبيلًا للرأفة، ولا مُتَسَعًا للرحمة، فأذاقني شوكة مرارة لا حدود لها،
شعورًا بالذنب مكتويًا بلهيب الشوق والبعاد..

باغتته صوفيا بحنوٍّ ورفقٍ وهي تطبع بشفتيها الصغيرتين قبلةً
أوصدت فاه، الذي أجذبته صحراء نفسه بقيظها المؤلم، وأناملها قد
عانقت وجنتيه بلمسةٍ دافئةٍ بُغية أن تُدثِّرَه من بردِ روعه.. تراشقت
أعينها بنظرات العتاب والغفران.. لحظات النجوى بدت كسنين طوال،
مرّت حتى قاطعها الزوج وهو يُقبِّل يديها مُتوسِّلاً بدموع نادمة تجمّدت
داخل عينيه المضطربتين في حين غلّف صوته نبرة من القوة والتهاكُّ.

- أستحلفك بالله أن تحرريني، كي أستطيع الولوج بك عبر ذلك
النفق المظلم.. ربما قد ارتكبتُ في حقك جرماً عظيماً لن أسامح نفسي
عليه أبداً، فجُلّ ما فعلته حرصاً مني عليك بدافع عشقي الأبدي لك
بعدما عجز العقل عن إدراك الإيمان بك وفكّ طلاسّم أعاجيب صوفيا
الخيالية..

تنهّدت صوفيا وقد ألقت ظلال غفرانها على زوجها بنظرة حانية:

- حبيبي رفقا بنفسك، كيف تسألني الغفران عن ذنبٍ لم ترتكبه
في الأصل؟!

صدّقاً ما زلتُ أزهو فخراً بك منذ قاتلت من أجل الزواج بي حتى
تلك اللحظة.. في حقيقة الأمر ما أنت سوى كاهن يُقدّس عشقي في
محرابه.. وما زلت على عهد السابقين، ربما الذين أحرقوا حقيقة الإيمان
الطاهرة بنار رداء الشعوذة والهرطقة، الخرافات بعدها قد صارت
حقائق، وقد أضحت اليوم تاريخاً غابراً.. وما أنا سوى آية متفردة يراها
البعض خُرافةً، ولكنها ستنتهي حقيقة حينما يحين الوقت الذي قُدِّرَ
سلفاً في كتابٍ معلوم.

- حبي لك سيعيدك إليّ مرة أخرى، هكذا قلت لي منذ سنين حين التقينا، لكن ساعديني وألقي بطوق النجاة لي، كي ننجو معاً.. لقد غللت عنقك أنا وعقاقير الأطباء بأساور فراش المرض، بينما تقاريرهم وطلاسمها حبستني في كهف الشتات والسقم.. سامحيني صوفيا فالقلب يُعصر ألماً، والعين تدمي كل ليلة منذ أودعتك حبيسة ذلك المشفى..

بعد صمتٍ ونظراتٍ حائرة بضع دقائق، نظرت صوفيا عبر نافذتها الكبيرة وأناملها تتحسّس القضبان المكسوة بطبقة من الورق المقوى، قضبان تحول بينها وتلك الشمس الساطعة خلف النافذة الزجاجية.. وبصوتها الدافئ الحليم قالت له:

- ستغرب شمسي قريباً يا زوجي العزيز، وستشرق في جسد ابنتنا حينما تطأ قدمها جسر خريفها الثالث عشر..

قاطعها الزوج بصوتٍ حادٍّ حازم، وقد احتقنت عيناه بالدموع المثقلة بآلامه الداخلية قائلاً:

- أستحلفك بالله أن تكفّي عن هذا الحديث البغيض، فلن ترحلي بل سنعطيهم معاً فرصتهم الأخيرة.. فقد بعثوا بطلب طبيب روسي شهير إلى هنا، وسيبدأ العلاج معك بدءاً من اليوم وسأتي إليك بعد أسبوع من اليوم لأعيدك وابنتنا إلى بيتنا يوم ميلادكما..

لن ترحلي صوفيا إلى أي مكان دوني، وإذا ما كان عليك الرحيل سترحلين إليّ أنا.. إلى زوجك حيث.....

برزت أنامل صوفيا فوق شفتي زوجها مكفهر الوجه لتمنعه من
أن يستفيض مُسهبًا في الحديث وهي ترمقه بابتسامة يشدوها الرفق
والحنو قائلة:

- تلك هي الحقيقة عزيزي صفي.. أعلم كم تتألم من أجل ما
مضى، لكن ستمضي الحياة قُدُمًا ولن تتوقّف.. حين تعود إلى البيت
تأمل وجه ابنتنا جيدًا لترى بذرة الماضي وثمره المستقبل، بعدها لتبحث
عن مفتاح غرفة والدي المغلقة والمجاورة للقبو السفلي، الموصدة منذ أن
وافته المنية عشية زفافي إليك.. في الداخل ستجد كل ما هُرعَت وراء
سرابه المزمع خلال سنوات التيه..

أجفل الزوج وهلة من الوقت وقد فغر فاه، وذرت رياح الحزن
تهيج بين ضلوعه.. فسارع باحتضان زوجته بقوة وهو يطرها بقبلات
حزينة، ودموعه تسيل بعدما اشتدت رياح مشاعر الحزن المتربصة بهما..
وهو يُردّد عليها تلك العبارة قائلًا:

- سأعود إليك صوفيا حين يغمرني نور اليقين، حينها سأغادر
ذلك الكهف اللعين للأبد..

- وسأكون بانتظارك روحًا في جسد ابنتي.. فزهرة النار شمعة
أينما احترقت، وهي تُنيرُ دروب من ينهل رحيق عشقها، أودعت ثمرة
تضحيتها هبة تحترق من جديد كي يُذيق مَنْ يُحيط بها طعم الحياة..

ما إن انتهت صوفيا من كلمتها الأخيرة، حتى انفجر الزوجان في
نوبة من النشيج والنحيب وهما يتبادلان العناق الهستيري.. وسط

نظرات حائرة يشوبها الخوف من أن يكون هذا هو اللقاء الأخير.. انهمرت الدموع الساخنة وقد نحتت وجهيهما لتختلط ومعها أمواج من المشاعر الجارفة الهائجة، ورمال من الآمال التي تحطّمت عليها ذكريات الماضي المؤلمة على شاطئ الوداع المرعب.. هناك عصفت الهواجس بقارب النجاة الذي توارى بعيداً حينما اقتحم الممرض المناوب، مشرف المبنى الغرفة سائلاً الزوج أن يُرافقه للخارج.. فخرج الزوج وهو يجرّ ساقيه إلى الخارج، مُلقياً بنظرات واجمة ودموع منهمة..

لحظة توقفت عجلة الزمان عن الدوران.. حينما رمقت الزوجة المستلقية بجسدها الهزيل فوق مهداها بنظرة باسمة، تزدان بالرضا والكفاف، وقد كشفت عن نواجزها لتهدأ العاصفة الهوجاء في صدر الزوج.. بعدها هرول الزمن مُسرّعاً ليمضي بعدما اختفت صوفيا خلف الباب الذي قد أوصد عليها، ليتكشف للزوج وهو يغادر العديد من الأبواب الموصدة التي يخدم مُتوارياً خلفها بركان ثائرٍ على وشك الانفجار في وجه الشكوك القائمة أو ربما في وجهه.. وجهه الذي أثقلته أعباء مكدسة، تراكت فوق عاتق الأيام المكبلة لعنته..

ارتقى بوجهه ليجد في مرمى أفق بصره الضبابي لفيّاً من الأطباء يتوسّطهم الدكتور توفيق، وقد أخذوا في الاقتراب منه حتى لَوَّحَ له بيديه وهو يتمتم لمرافقيه بالإنجليزية.. بعدها بثوانٍ معدودات لاقوه بالقرب من باب غرفة زوجته الموصد، ليصافحه الطبيب مرة أخرى، مُقدِّماً إليهم الزوج وجمع المرافقين له للزوج..

- السيد صفى الدين غازي.. أودُّ أن أتشرّف بتقديم السادة الأطباء ومن قبلهم البروفيسير فلاديمير إلى حضرتك.
- لي عظيمُ الشَّرَفُ لمُقابلة حضراتكم..

هَمَّ الزوج بمصافحة الطبيب الروسي العجوز، ومن بعده فريق الأطباء المرافق له، الذين راحت أسماؤهم تقع على أذنيه للمرة الأخيرة كالصدى المكتوم خلف جبال من الترقُّب والقلق.. بعدها طالبهم الدكتور توفيق بالتوجُّه إلى غرفتي الجلسات والمراقبة، غرفتان متاخمتان يفصلهما حائط زجاجي يكشف ما يجري في غرفة الجلسات، وتواري مرآته غرفة المراقبة التي اقتحمها البروفيسير الروسي والطبيب المصري واثنان من مساعديه، اللذان بدت عليهم معالم التركيز والانشغال بإعداد وتجهيز الغرفة بأجهزتها الطَّيِّبَةِ لاستقبال الزوجة المريضة..

ظهر أحد المساعدين كمرّجم مرافق للبروفيسير الروسي من خلال ملاصقته له من خلفه.. امتطى جميعهم الكراسي الجلدية المتناثرة حول أحد الأسرة التي باتت جاهزة لاستقبال السيدة صوفيا.. هنالك انشغلت إحدى الممرضات باهتمام بالغ بتحضير جهاز التسجيل الصوتي والتأكد من ولوج الصوت إلى غرفة المراقبة المتاخمة، حيث يوجد الزوج الذي ما انفكَّ يترقَّب ما يجري على قدمٍ وساقٍ في الغرفة الأخرى..

انتفض الزوج بعد أن ارتقى فوق أحد المقاعد حينما وجد زوجته تقتحم الغرفة من فوق كرسي متحرك، يدفعه ذلك الممرض ضخم الجثة

مفتول العضلات.. أخذ يدفعها حتى وصل بها إلى السرير الطبيّ المجهز ليرتكها إلى الممرضة الأخرى التي همّت مُسرعةً في حمل صوفيا بين ذراعيها بسلاسةٍ، ويُسر لتضعها برفق فوق سريرها المُعد لها حتى استلقت السيدة المريضة، التي بدت عليها علامات الإنهاك والاستكانة الكاملة في سكونٍ تامٍّ، وقد تذرّثت بغطاء من الهدوء المبين..

بادر الدكتور توفيق بالضغط على زرٍّ جانبيٍّ ليرتقي الجزء الأعلى من السرير، ومن فوقه رأس صوفيا حتى اعتدلت بجذعها.. حينها قدم الدكتور توفيق البروفيسير فلاديمير لها، وما إن أَلقت التحية على الطبيب الروسي مُرحّبةً به بصوتها الهادئ حتى استأذن الدكتور توفيق لمغادرة الغرفة تاركًا إيّاها برفقة الفريق الطبي الموجود..

غادر الغرفة على الفور وقد همّ داخلاً بسرعة غرفة المراقبة المجاورة، جالسًا بجوار الزوج مُتابعًا مجريات الأمور، والحديث الذي بات وشيك البدء بين صوفيا وطبيبها الروسي الجديد..

- مرحبًا مُجدّدًا. ستتابع الآن من هنا إجراء أولى جلسات علاج زوجتك الجديد..

- لستُ أدري أسيكون باستطاعتي المُتابعة من هنا.. صدقني، فإنه من الصعب أن أتابع مثل هذه المشاهد مرة أخرى بعد تلك السنوات المخضبة بصدأ الآلام والآثام..

- حسنًا، سيبدأ البروفيسير الروسي الآن، لا عليك سوى الاستماع عبر مُكبّر الصوت هذا ولا تتعجل الأمور.. وإذا ما صُعبت

عليك الأمور، فلتغادرِ الجلسة، ولكن يقينًا، سيُجدي ذلك العلاج
وسُيؤتي ثماره إن شاء الله.. نظرًا لتمرُّس البروفيسير وقدراته الفذة
وعِلاجه مثل هذه الحالات الكثير من المرات..

تسلَّل الحديث الذي بدأ للتو في الغرفة الأخرى عبر الساعات
الملتصقة بالحائط أعلى الزجاج الكاشف.. فتوقَّف سيل الحديث الجانبي
ليبدأ الجميع في حالة تأهُّبٍ منصتين باهتمامٍ بالغٍ مانحين آذانهم فقط
للحوار المُرتقب بين صوفيا والروسي العجوز ومترجمه المُرافق، الذي
قاطعته صوفيا حينها بدأ في نُقلِ أولى كلمات البروفيسير فلاديمير:

- البروفيسير فلاديمير يُلقي عليك التحية سيدة صوفي....

- أستمِئُحك عُذرًا سيدي المترجم، ولكن أودُّ أن يجلس الطبيب
المحترم إلى جوارِي مباشرة.. ولترسُلْ له تحياتي وشكري العميق لُقْدومه
سالمًا ولتحمِّله عناء مشقَّة الرحلة إلى هنا، ولعل ما ستبأشُرُه أذناه
سيُضيف إليه فيضًا من الاستفادة في أبحاثه العِلْمية ومشاواره المهني..

ما إن انتهى المترجم الشاب من عبارته بالروسية، مُترجمًا ما
صرحت به السيدة المُعتلة بصوتها الدافئ الهادئ حتى اقترب البروفيسير
فلاديمير بكرسيه إلى جوارها وقد رَسَمَ على وجهه ابتسامة صارمة
تفيض بالسكون..

وبينما بدأت الممرضة في تثبيت جهاز مقياس التأكسج النبضي في
سبابة صوفيا، وبضعة مجسات أخرى أعلى رأسها وجبهتها، وبعدما

انتهت من إسدال الستائر الدكناء.. التي حجبت نور شمس النهار وقد أضيئت الغرفة بأنوار زرقاء، وضُخَّت جرعة من الثورازين في وريد الزوجة، بدأ المترجم بدقة بالغة في نقل كل كلمة خرجت من في الروسي لخطوات زيارته، مُقْتَحِمًا الجزء المظلم من وجدان صوفيا الضبابي:

- سيدة صوفيا.. هل لك أن تُمعني النظر في عينيَّ هاتين وتخبريني بلونهما؟

- نعم سيدي الطبيب، إنهما خضراوان كالمرج النَّضْرَة..

- هل لي أن أطلب إليك أن تلصقي كفيك إحداهما بالأخرى عند الراحتين، ولتخيلي أنهما ملتصقتان بينما تستمر عيناك بالنظر مباشرة إلى بؤبؤي عينيَّ الخضراوين؟

- هكذا سيد الطبيب؟

- نعم سيدة صوفيا، هل يستطيع السيد المترجم نَزْعُ إحداهما من الأخرى إذا ما تفضلتما؟

بعد أن حاول المترجم إبعاد اليدين أحدهما عن الأخرى، ولم يستطع، استطرد البروفيسير سائلاً إياها، لافظاً كلماته وإيحاءاته بهدوء ووضوح، وبنبرة صوتٍ أقرب إلى الهمس:

- لم يستطع أن يبعدهما.. أليس كذلك؟

- لم يستطع سيدي الطبيب لأنهما ملتصقتان أحدهما بالأخرى..

- حسنًا صوفيا، فلترفعي عينيك لأعلى، ولا تتوقفي عن التحديق في عيني، ألا تشعرين حقًا بحرقان في عينيك؟
- بلى.

- فلسترخي تمامًا، لقد أخذت عيناك بالتعب، لقد أخذت أعضاؤك بالتراخي، إنك تدخلين في نوم عميق.. ستنامين حتى أوقظك، بعدها ستنسرين كل شيء حدث لك..
- نعم.

وقد تابع قوله هذا بصورة رتيبة حتى بدأت أجفانها بالتراخي، وبدأت تجد صعوبة في فتح عينيها، تابع بصوته الهامس بالقرب من أذنيها قائلاً:

- سأقوم بالعد من واحد لخمسة حتى تستغرقني في نوم عميق يحتاجه جسدك المثقل بالإرهاق..
- حسنًا..

- واحد: عيناك تتأقلان وترتجفان وعضلاتهما قد وهنت..
- اثنان: فلستخدامي تخيلتك وخيالك وكأن أثقالاً حديدية على أجفانك تجعلها ثقيلة..
- ثلاثة: تزداد الأثقال أكثر فأكثر، والآن تجولين أنت في عوالم خيالية بديعة..

- أربعة: فلتدعي موجة من الاسترخاء تعبرُ عبر جسدك المرهق حتى تصل إلى روحك..

- خمسة: الآن تذهبين في أعماق أعماقك الدفينة، وعيناك تنطبقان، إنهما تنطبقان أكثر فأكثر، والنوم يستولي عليك رويدًا رويدًا.. إنك الآن عاجزة عن فتح عينيك، حاولي أن تفتحيهما..

وما إن فشلت صوفيا في زحزحة أجفانها الموصدة. قام البروفيسير الروسي ليتأكد أنها لم تكن تتلاعبُ به، فقال لها:

- صوفيا، يدك اليسرى بدأت تتخدر، وستفقدن عمًا قريب الإحساس والشعور بها.

ما إن تراخت يد صوفيا حتى أخذها البروفيسير فلاديمير وغرس فيها دبوسًا مُعَقَّمًا فلم تُقاوم السيدة، ولم تُبدِ إحساسا بأيٍّ وجعٍ.. أمّا عندما جرَّبَ اليد الأخرى، فما كاد يُلامِسُها بالدبوس حتى سحبت يدها. فتأكد أنها استغرقت في النوم.

- صوفيا.. أنتِ الآن في حالة تنويم.. ما أريدُه منك الآن أن تُحدثيني عن نفسك قليلًا..

- لماذا يتعيّن علينا اللجوء إلى مُترجمٍ بينما نستطيع تجاذب أطراف الحديث وحدنا؟

فغر المترجم فاهُ وتجمّد جسدهُ وكأن صاعقة ضربته، والجميع في الغرفة المجاورة برزوا واقفين مذهولين بما قامت به صوفيا.. بعدما تلعث لسان المترجم الشاب وهو يقول بالعربية ثم متابعا بالروسية:

- إنها تتحدث الروسية بطلاقة.. بروفيسير فلاديمير: إنها تتحدث الروسية بطلاقة!

أمر الطبيب الروسي المترجم بالكفّ عن الحديث، وأشار إليه بالذهاب إلى غرفة المراقبة على الفور بعدما اعترته حالة من الذهول التام، ليبدأ الطبيب الروسي حديثاً بلا وسيط بينه وبين صوفيا:

- أراكِ تتحدثين لغتي بطلاقة.. أسألك أية جملة مناسبة تعبر عنك في تلك اللحظة..

- لقد نهلتُ من آنية الدهر كؤوس خمر من أفواه ثعابين عتمة الليل وأفاعي الغدرة، فجباني القدير قَدَرًا بأن أحيأ يومًا لا ينتهي حتى...

- حتى؟ حتى ماذا صوفيا؟

- حتى ميقات معلوم..

- لقد أدهشتنا حقيقةً، وأنتِ تتحدثين لغتي، أين تعلّمتِ الروسية؟

- في نجمة الشمال.. مملكة الليالي البيضاء..

- أتقصدين سان بطرسبورج، أليس كذلك؟

- لا، أقصد لينينجراد، هكذا كان اسمها حين عشتُ هناك.

- هل تستطيعين الرجوع إلى أول تجربة تتذكرينها هناك؟

- نعم، أستطيع بالقطع، ولكن لماذا؟
 - فقط إذا ما سمحت لي، فيمكنك سردها لي..
- ساد الصمت برهة من الوقت إلى أن انحنت صوفيا بجسدها،
شاخصةً بوجهها نحو الطبيب ويدها قد تشبثا بمعصميه قائلةً بصوت
هادئ:
- يا من تبحثُ عن مُداواة الأُنفس المُعتلة، سَتُبَجِّرُ معي في ذلك
النهر المُتدفِّقُ بعدل ليس بجبروتٍ جافٍّ ولا صارمٍ، بمحبةٍ ليست
بوداعة مُدَلَّةٍ ولا مُهينة..
- فلتتجرد أيتها الطبيب من داء الدنيا حتى تستطيع نفسك الإذعان
إلى روحك وهي صاغرة.. حينها فقط ستمضي عبر مُنحدر الشَّكِّ
والخواء إلى دار اليقين بسلامٍ وسكينة..
- حسنًا.. أودُّ لو تخبريني متى وُلِدَتِ؟
 - لقد وُلِدَتِ الرُّوحُ مباركةً منذ بدء الخليقة، مُتلحفة في الخفاء
برداء زهرة بروتياس.
 - وما الحاجة إلى أن تتخفَى روحك في رداء زهرة كتلك؟
 - وما الحاجة إلى أن يُقدَّسَ الإغريق إلهًا يتخفَى في ألف صورةٍ
وصورة، حتى لا تراه الأعين ولا يُدركه من الورى سوى أفئدتهم؟!
 - حسنًا، الآن وصلني مُبتغى حديثك. فلتخبريني إذن متى
غُرست تلك الزهرة؟

- غُرست في فؤاد الأرض حين خَفَقَ لأول وهلة لنور السماء المقدّس.

- ربما لم يبلغك مقصدي، فما أعنيه هاهنا هو زمان ميلادك سيّدة صوفيا؟

- الزمن والروح عينا الحياة، لن تستطيع تقدير الزمان دون إدراك جوهر الروح..

- أعتقد أنه كان من غير اللائق أن أسأل سيّدة جميلة مثلك عن عمرها.. سأمحيني فقد بات من الصعب على عقلي الآن أن يلحق بثنايا أحاجيك المُبهمّة، عندما رددت على ذلك السؤال الأعمى.. أعتذرُ لك على تطفلي الزائد، ولكن كم أودُّ أن أعرف عن حياتك كل شيءٍ منذ مُبتدائها وحتى هذه اللحظة..

- سأقصُّ عليك كل شيءٍ في حينه، ولكن لكي تعي ماهية حياتي فلا بد لك سلفاً أن تؤمن بعقيدة أن حياتنا ما هي إلا وميض ذلك الشهاب المتوهج في سماء القدر.. لو هلة أبدية أضرمت في ذلك النجم نيران النور في مرآة الكون أعلننا وفي داخلنا.. وهلة يتلاشى فيها الشُّهب سريعاً في أثناء رحلة سقوطها من السماء إلى الأرض ..

هكذا يظنُّ البعض، ولكن في الواقع إن تلك اللحظة السَّرمديّة هي حياة بلا نهاية لمن سكن فيها مُحتمياً داخل مدارها.. ومن حوله النجوم في أفقٍ من الظلام الدامس القاحل تنتظر شهادة ميلاد شُهب الحياة من بينها.. تتوق لوعدِ حيوات شُهبٍ سَرمديّةٍ أخرى، سكّنت نار النور بداخلها للأبد.

- أَتَفْقُ معَكَ على الرغم من صعوبة مجازاة تعقيدات تعبيراتك، ولكنني الآن معك على متن نفس القارب، واعذريني إذا ما رأيت ذلك تضييقاً؛ لذا سأقتبس من قاموسك وأنا أُعيد عليك صياغة ذلك السؤال: أين ومتى ظهرَ ذلك الشهاب في السماء، سيدة صوفيا؟

بينما اعتدلت صوفيا وهي تتكىء على راسها متأملة حوائط الغرفة، اخترقت نظرة عميقة الجدار الزجاجي الذي يفصلها عن رؤية زوجها في غرفة المراقبة لتستقرَّ النظرة في عيني زوجها، الذي هبَّ مُتَفِضاً على الفور طالباً الرحيل، وما زالت عينا زوجته تُطَوِّقان وهي تحرُّسه بابتسامة هادئة خاطبت وجدانه المضطرب..

ألقي الدكتور توفيق تلك المدونة التي انشغل بملء مئات الملاحظات فيها في أثناء ترجمة الشاب في غرفة المراقبة للحوار الدائر بين صوفيا والبروفيسير فلاديمير في جلستهما الأولى، ألقاها لياغت الزوج سائلاً إياه:

- إلى أين سيد. صفني الدين؟
- إلى الإسكندرية حيث أردتني زوجتي أن أكون كي أزيح الستار عن نافذة الشكِّ، لأخرج بها من هذه المحنة المؤلمة.
- كنتُ أودُّ أن تظلَّ هنا حتى نفرِّغ من جلستنا الأولى..
- لن تنبسَ بكلمة واحدة حتى أرحل.. ثِقْ بذلك، ولتعلم أن ما ستقوله بعدما أرحل، سأدرِّكه لاحقاً وسأتحقِّق منه هناك..

- أين ستتحقق منه؟
- هنالك حيث يجب عليّ أن أكون..
- إذن سنراك الأسبوع القادم سيد غازي.
- نعم سآراك الثلاثاء القادم دكتور توفيق.. سأتي لأعيدها إلى بيتها، لا تنس ذلك.
- أتمنى لك عودةً سالمةً محفوظاً برعاية الله في رحلتك إن شاء الله.
- شكراً جزيلاً سيدي الطبيب، ورجاءً أن تعتني بسلامة زوجتي حتى إياي..

انفرج لسان صوفيا الذي كبّله وجود زوجها إلى أن غادر.. غادرَ الغرفة مُهرولاً إلى الردهة ويتساقط من بركان الشكّ الذي انفجر في رأسه سيلٌ حُمَم من أسئلة.. استقلّ المصعد للدور الأرضي، ومن ثم هُرِعَ راکضاً إلى خارج البناية ليُلقي جسده المرتجف من نزغات الأمس وآلام اليوم وترقّب الغد القريب داخل سيارته، التي أدار مُحركَها على عجلةٍ من أمره، وكلمات زوجته تصول وتجول برأسه حتى استقرَّ وعده لها أن يكشف النقابَ عما تُخبئه عُرفة والدها..

حماء الذي لَقِيَ نحبه تلك الليلة بعدما رَفَّ إليه صوفيا.. أخذت سرعة السيارة في الزيادة باضطراد إلى أن غادرَ بها البوابة الرئيسة، لتلاحق ذاكرته أطيافُ تلك الليلة التي تسارعت فيها وتيرة الأحداث حتى بلغت الذروة..

الفصل الثالث

ساليانس - أستورياس شمال إسبانيا.. الثلاثاء ٢١ سبتمبر عام

١٩٣٧..

منزلٌ ريفيٌّ كبير، ذو طراز معماريٍّ فاخرٍ، مُكوَّنٌ من طابقين،
لواجهة كل طابق اثنتا عشرة نافذة تعطيه مزيدًا من الفخامة.. سلام
خارجية من الجرانيت الفاخر تُزيّن رواق المنزل، الذي يحتضنه من
الأمم بستانٌ واسعٌ نُسق ورده العبق الفوّاح مُتنوّع الأشكال والألوان،
وقد كست الأرض المعشوشبة.. تتزيّن أرجاء الروضة بأحواضٍ
حجريةٍ ومزهرياتٍ كاسية مفرحة، توازيها ممرات من البلاط والحصى..
تناسقٌ عفويٌّ يتناغم وعَبَقُ الرحيق..

يتألّق وسط الحديقة بفسقية رخامية مستديرة أرضيتها من المرمر
الأبيض، اختلطت المياه فيها بأوراق الشجر الجافة السابحة من فوقها..
ازدان قلبها بنافورة داخلها تمثالٌ إغريقي كبير لثلاثة من الملائكة
المُجنّحين.. التأمّت أجسادهم بعضها ببعض، رافعين أكفَّ الضراعة

للسماء مبتهلين.. مشهد بديع توذُّ لو أن تملأ كؤوس عينيك من سحره فما
يزيدك خمرة سوى ظمأ وثالة.. من الخلف مئات الهكتارات من
الأراضي الخضراء المزروعة تنتهي بغابة من أشجار الصنوبر الكثيفة
التي تحول دون رؤية بحر كانتابريا.. بجوار المنزل ومن كتل الأشجار
الضخمة شُيِّدَ إصطبل للخيل والدواب..

تُسَيِّجُ البيت شُجيراتُ الحُور المتساقطة وخائل أشجار التوت
البري، يحدوه سورٌ خشبيٌّ ضخَم ذو مدخل أماميٍّ وبوابةٍ صغيرة من
الخلف، تعبر بك عبر طريق ضيقٍ وسط الأراضي الخضراء المزروعة إلى
تلك الغابة.. هناك يُدَاعِبُ نسيم البحر العليل أغصان أشجار
السنديان، التي تجلس أسفل واحدة منها فتاة يافعة رسمت طبيعة المكان
الساحر أجمل لوحة على طلعتها بألوانها الخلابة.. فوجهها ناصعُ
البياض، تكاد لا تُميِّزه عن ثلج الشتاء.. عيناها اللتان أضفى عليهما
البحر زُرْقته الصافية تُغرقانك في يَم عميقٍ من السَّحر، أمَّا شَعْرُها البُنِّيُّ
الطويل الناعم فينسب بين ضفيرتين تحضنانه كالحرير.. رقيقة الطلعة
باشَّة، أضفى فستانها أرجواني اللون الضيق، قصير الكمَّين عليها مزيدًا
من الصُّبا والجمال..

توقَّفت وهي تلهث بينما تتعالى ضحكاتها، مُتَعَبَةً أنفاسها
المتسارعة من أثر العَدُوِّ هَوًّا.. لِحَقَّ بها ذلك الفتى اليافع وسيم الخلقة،
الذي تعلو رأسه قلنسوة بنية تُغطي شعره الأشقر الكثَّ.. يرتدي
قميصًا كريمًا مائلًا للبيج، وبنطالًا بُنيًّا طويلًا، تلاحق عيناه الخضراوان

بفضول وتلقائية كل حركة تقوم بها الفتاة.. يتبسم باشتياق وحرارة،
كلما كشفت هي عن نواجزها ..

التقطا الاثنان أنفاسهما، وهما يحتميان بشجرة ضخمة مُتشعبة
الأغصان، يستعدُّ ساكنوها للرحيل إلى الجنوب ..

- صوفيا.. قد أوشك خريفك الثالث عشر على زيارتك، فقط
بضعة أيام تفصلك عن لقائه وأخشى عليك من الأحاديث التي تدور
مؤخرًا بين أمي وأبي طوال الوقت عن تلك الأحداث المجنونة، التي
أصبحت طاعونًا يحصد أرواح الأحياء والأقرباء ..

- نعم أدان.. لقد كانت ليلة أمس طويلة، بعدما أيقظني أباي
وقبعنا في قبو المنزل بضع ساعات خوفًا من تلك القذائف أن تصيب
منزلنا.. كانت أمي تبكي على خواكين أخي الكبير، الذي ما انفكَّ يحثُّ
أبي على أن يطلق جماحه للذهاب مُدافعًا عمًا نملك، لقتال أولئك
الغوغاء الذين يريدون سلبَ أراضينا حتى تترك البيت منذ عدة أيام ..

تنهَّد أدان وهو يتطلع إلى أوراق الأشجار المحتضرة التي تهوي على
الأرض باحثة عن مثواها الأخير قائلاً:

- أه يا صوفيا .. البارحة وبعد العشاء سمعتُ أمي تنتحبُ من
البكاء على أخيها، الذي قد التحقَ بقوات الجمهوريين .. وقد أهدرَ دمها
هي وأبي لدعمهما للقوميين، الذين انقلبوا على الجمهورية ..

استشاط أبي غضبًا حتى استبدَّ به مُلقياً كأس النبيذ، مُحطِّماً ما تبقي
من زجاج في البيت.. بينما أخذَ هو يلعن الحرب التي تُفرِّق بين الإخوة
وتُلحق العار والالام بالجميع ..

- هل تعتقد أَدان أن مصيرنا سيكون كتلك الأوراق؟ أم أننا سنظلُ نستمع بزهور الفيرونيكا وعُشب سان روبرتو هذا، بين أكناف غابة الصَّنوبر والسَّنديان ذات الرائحة الذكية؟!

جال كلاهما بين جنبات متاهة الصمت، وبعد بضع دقائق من تأمل أسراب الطيور التي رحلت خِصاصًا وها قد عادت مُتخمة، سألها الفتى بصوتٍ هادئ:

- أتتذكرين تلك العرَّافة التي أوقفتك على سلام كنيسة سانت توماس كانتابريا في أبيليس، وقد سألتك أن تقرأ عليك طالعك الربيع الماضي.. بعدما ألحَّت عليك في الطلب، مُدَّعيةً أنك صاحبة نبوءة؟
- نعم أَدان.. أتذكَّرُ هذا اليوم كل ليلة، ولكن يقولون إن ليس كل ما يقوله المنجمون صحيحًا..

- ولكن لقد أقسمت تلك الرِّحالة أن حربًا ستندلع، وأنه حينما يُدركُك خريفُك الثالث عشر ستقومين أنت وابنتك من بعدك بالرحلة، وستودعك رياح الشمال حتى تدركها رُوحُك.. التي ستكون في ابنتك حتى يأتي بكِ إلى هنا ذلك الفاتح..

وجمت صوفيا وهي تُحدِّق في الشمس الحمراء، وتشعرُ بها وهي تحتضن الأمواج الدافئة وبصوتٍ خافتٍ وبوجهٍ باسم يعتريه الحيرة:
- أَدان، تلك المشعوذة فعلت ذلك لأنني لم أعطيها شيئًا في المقابل.. فأنا وُلِدْتُ هنا كأمي ولن أترك إستورياس أبدًا.

- لا يا صوفيا.. أبداً لم تطلب إليك تلك المعتمرة الغريبة شيئاً،
فهي قالت لنا إنها بعد زيارتها لدير سانتياجو دي كومبوستيلا وفي طريق
عودتها، أُوحِيَ إليها بزيارة كنيسة القديس توماس حيثما التقيناها..

هنا هبَّت صوفيا راكضةً وهي تصرخ ضاحكةً:

- كفأك حديثاً عن تلك الشمطاء.. فإن لم تلحق بي، فالقابادا
والبايا سيكونان لي وحدي الليلة، ولن أدعوك للعشاء معي أدان..
- لا، سألحقُ بك، وسأكونُ أول من يجلس بجوار العمة
ميرثيدس، لكي أحصل على طبق يخنة الفول الإسباني الساخن الشهيّ
الكبير، لي وحدي مع الخبز اليابس.. ليت السيدة ميرثيدس تُعلّمني
كيف تطهوها!

- فاصوليا بيضاء.. زعفران.. بودنج أسود.. مأكولات بحرية..
أو.. قطع.. من.. اللحم..

- وماذا عن البايا.. صوفيا؟

- طبق الأرز.. مع.. مرق.. المأكولات.. البحرية.. طماطم..
مبشورة.. بالزعفران.. و.. التوابل.. الجافة..

مضى كلاهما يتسابقان وسط الأشجار العالية وأصوات أقدامهما
تُدوي وهما يهشمان الأوراق الجافة المتساقطة حتى أدركا ذلك الطريق،
الذي يلوح في أفقه ذلك المنزل الأبيض، الذي يتصاعد من مدخته
الخلفية دخانٌ يكاد يُلامِسُ أشعة الشمس الحمراء..

أطلق أدان عنان لسانه بصوت أجش مُتَقَطَّعًا وهو يعدو مُحَاوِلًا
اللَّحَاقَ بِهَا:

- أتدريَنَ يا صوفيا أنني سأكون لك دومًا ملاكك الحارس شئتَ
أم أبييتَ. ولن أتركك أبدًا في رحلتك..

- الحقُّ بي أولاً، وإلا كيف ستكون فارسي المخلص؟

ردت عليه صوفيا بثبات وهي تعدو سابقة الرياح كالمهرة، وقد
فاقته بخطواتٍ راحت تتزايدُ كلما دنت منها الباحة الخلفية للمنزل ومن
خلفها ينظر إليها أدان مُبتَسِمًا مُرَدِّدًا بصوتٍ يسمعه هو وحده:

- دائماً سأكونُ فارسَكَ المخلص.. الذي يحمي لك ظَهْرَكَ من
شُرور المُحدِّقين بكِ..

وصلا الباحة الخلفية، وصعدت صوفيا قافزة السلام الثلاثة، مُلقيةً
جسدها داخل المنزل، وقد التفت بوجهها المتورد الباسم صوبَ أدان
ليتوارى جمال البيت وحديقته الغنَّاء وراء سحر صوفيا وهي تُرَدِّدُ:

- ها قد سبقتُ رياح الشمال لأَصِلَ قبلها إلى بيتي..

أردفت بعد أن غمزت بعينها اليسرى قائلة:

- صدقت الغجربة حينما قالت سيكون السَّحر هو لُعنَتي وهبَتي
لِمَنْ يُحبونني وأُحِبُّهم..

تعلقت عينا الفتى وهو يلتقط أنفاسه المتسارعة بابتسامةٍ حانيةٍ
بجمال صوفيا، الذي تضاءلت نفحات أريج بستان بيتها العَطر أمام

تلك المشاعر التي يفيض بها البيت ويغمر محيطه، ومن حوله الضيعة بأسرها..

اندفعت صوفيا إلى داخل المنزل وبصوت عالٍ مُتَقَطِّعٌ تُنادي:

- ماريا! ماريا! لقد عدتُ أنا وأدان..

وقفت وهي تلتقط أنفاسها وتنظر من حولها لعل عينيها تُقابلان ماريا.. ثوانٍ معدودة وظهرت بالأعلى سيدة أنيقة في أواخر الثلاثينيات، طويلة القامة، ممشوقة القوام، بيضاء اللون، بهية الطلعة، يبدو عليها ملامح علية القوم.. ترتدي فستانًا أبيض أنيق، وقِطْعًا من الحُلِيِّ الذهبية، وفي صوتٍ ناعمٍ رَدَّتْ عليها قائلة:

- تعذّر على ماريا القدوم اليوم.. فلقد أبلغتنا هي وبيدرو بعدم المجيء.. لقد رحلا يا صوفيا..

بصوت بدا عليه الحُزن الجُمُّ، ألقت صوفيا باستفهام استنكاريّ:

- رحلا؟! إلى أين يا أمي؟! ولماذا لم تأتِ لتودّعني؟

سكتت هنيئَةً ثم تابعت:

- كيف يا أمي أنا لا أستطيع أن أحتملَ مُرور يومٍ بدونها..

هنا دخلَ أدان في هدوءٍ وسكينة رافعًا قُبْعَتَه الصغيرة، مُلقياً التحية

على السيدة ميرثيديس:

- مساء الخير يا سيدتي.

أخذ يدنو من صوفيا وقد وَقَفَ بجوارها ليربت على كتفها،

هامساً بصوت خافتٍ حنونٍ يَمْلؤه الدَّفءُ:

- لا عليك يا صوفيا .. ما زلتُ ها هنا فارسك، ولن أتركك أبداً
ما حيئتُ ..

لم تكثرث صوفيا لكلماته بعدما تركته واقفاً وحده بين أثاث المنزل
الراقي، وقد ركضت مُنكبةً على وجهها إلى أعلى بينما كانت السيدة
ميرثيديس تنزل بثباتٍ إلى الأسفل حتى أدركت الفتى ..

- لا عليك أداً ستهذا الآن .. فأنت تعلم جيداً أنها من قامت
برعايتها تلك السنين الطويلة، فهي كأمٍ أخرى لها ولكن وجبَ عليها
الرحيل إلى أقاربها في ليون، فربما غادروا إلى فرنسا هرباً ممّا يُلاحقنا
هنا ..

اقتربت منه وبحنوٍ قبلته وهي تربت على كتفه:

- أداً، اصعد لتهوّن عليها، فالجميع على وشك
الانهيار .. وسأذهب أنا لأنتهي من إعداد العشاء لنا ..

- هل سيكون العشاء فابادا، سيدة ميرثيديس؟

بخفة ظلّ سأها وهو في طريقه إلى درج السلم صاعداً لأعلى ..

- نعم سيكون العشاء فابادا بفواكه البحر، فلعل السيد خوان
يلحق بنا عائداً من خيخون ..

ردّ عليها باسمًا مُحاولاً أن يهوّنَ عنها:

- سأهوّنُ عنها سيدتي ريثما تنتهين من إعداد الفابادا.

مرّت الأم التي لاحت على وجهها قسّات الحُزن من بين الأثاث
الباذخ بثباتٍ، وهي تتحسّس الجدران التي تحمل لوحات زيتية .. تجمع

إحداها صورتها هي وزوجها وصوفيا وابنها الأكبر خواكين.. وبعين
تملؤها دموع مختبئة وراء رباطة جأشها، راحت تُلقِي نظرات الحسرة على
تلك الستائر الفخمة، التي تُخفي النوافذ التي غطيت بالأجولة لتجنب
ويل قصف الطائرات المغيّرة..

راحت عيناها تتفقدان ثريا ضخمة معلقة في أحضان السقف
المُطعم بالجرانيت المزركش البارز، ومن أسفلها مائدة كبيرة ضخمة يُحيطُ
بها عشرون من الكراسي ذات الطابع الفرنسي.. عبرت من البهو الى
غرفة كبيرة تبدو عليها غرفة المعيشة ذات الأرائك الأمريكية، ومنها إلى
ممرٍ يؤدي إلى المطبخ. وحينما دخلت أجهشت بالبكاء العنيف وهي تكتم
صرخاتها:

- لا أستطيع أن أتحمل المزيد... يا ربي لقد عشت سعيدة ما
حييت طفلة وفتاة وزوجة.. ربي لا تحرم ابنتي من تلك السعادة،
واجعل لها دربا تسيره بقوة، ورفيقا يحنو عليها.. يا ربي لقد فرّ ابني
ليُقاتلَ عائلته، وقد فرّ أجداده ليحتموا بالقوميين واليوم قد أطلعوني
على نبأ إعدام أخي وزوجته، وسيأتون لا محالة للتخلص منّا..

لا أستطيع أن أتحمل المزيد، فقد فاض بي الكيل.. ساعدني باسمك
وباسم العذراء مريم..

بينما توارت بدموعها خلف مائدة تعلوها أوانٍ مملوءة بالخضار
والفاكهة، والأسماك وفواكه البحر، وبجوارها فرنٌ كبير مُوقد.. ترك
أدان في الأعلى درج السلم وهو يتمايل برأسه مُستمتعاً بعطر السيدة

ميرثديس الذي ما زال يملأ الطابق العلوي بأكمله، الزاخر بالعديد من الغرف المتراسة على الجانبين، وقطع الأثاث الفخم الذي استوى من تحته سجاد مزركش قد كسا أرضيات الطابق بالكامل..

قَدِمَ الفتى واقفاً أمام إحدى الغرف وقد أخذَ يَطْرُقُ بابها:

- صوفيا.. ها قد أتى فارسك.. هل لي أن أدخل؟
- صوفيا.. أعني ذلك أنك ترفضين أن تمنحيني شرف العشاء معك الليلة؟

بعدما لم يستطع أنتزاع ردٍّ منها، اقترب ليسترق السمع بحزن يعتصره كلما تسلَّل صوتها وهي تتحب..

- صوفيا إذا لم تُجيبيني، فسأقوم بتحطيم الباب، وبعدها سأقفز من النافذة أمام عينيك لاحقاً بهاريا كي أقتلها..

هنا رَدَّت عليه بصوتٍ دافئ:

- ادخل أدان. فلقد انتهيتُ ممَّا كنتُ فيه..

فتح الباب برفق، ومن ثم دخل الغرفة التي بدت عليها أبهة ذلك البيت الكبير ذي الأسقف العالية.. بداخل تلك الغرفة الواسعة تراءى سريرٌ كبيرٌ ذو أربعة أعمدة خشبية تنساب منها ستائر من الحرير الشفاف، وبجواره دولا ب كبير به مرآة ضخمة مُطعَّمة بألوان الذهب.. بزغت نافذة كبيرة أمام سرير صوفيا، لاحت من خلالها أشعة الشمس القرمزية التي استلسمت ليل الشاب، وقد توارت خلف

الأشجار التي حالت دون رؤيتها غارقة وهي تدمي بين أحضان بحر
كانتأبريا في الأفق البعيد ..

أخذ أدان يتطلّع إلى الغرفة المكلومة، وأطلال الشمس الجريحة
بدموع صوفيا مُقترَبًا ناحيتها بهدوءٍ وبرفقٍ بالغِ:

- صوفيا نحن الآن في محنة كبيرة.. فبلادنا الجميلة التي كانت
تنعم بالسلام قد تفسّى بها وباء الحروب، ولم يعد أجدُ يدركُ الفرق بين
العدو من الصديق ..

ما إن أكمل ألفي عبارته حتى دوى صوت انفجار شديد اهتزت له
جدران المنزل.. فهُرعَ مُمسكًا بها وهو يحضن يديها مُسرّعًا إلى أسفل،
صارخًا بصوت عالٍ دوى في المنزل الكبير بفزع:

- سيدة ميرثيديس.. سيدة ميرثيديس.. هل أنت بخير؟
- هيا إلى القبو فقد عادت الطائرات لتُغيّر علينا مرةً أخرى..
- ردّت عليه بصوتٍ مضطرب يلازمه الخوف.

تبدّل حال صوفيا وهي تُسرّعُ الخطى من أجل اللّحاق بفتاها، وقد
بدا على وجه الفتاة الصغيرة الإحساس بالأمان والراحة بالرغم من
دويّ الانفجارات التي غدت تقتربُ أكثر فأكثر..

- لا تُشدّ على يدي هكذا، فيدُك تؤلّني أدان..

قالتها صوفيا بصوتٍ حنونٍ يبدو عليه السكينة، وهي تجري من
خلفه على أدراج السُّلم.

لم ينتبه الفتى لكلمات صوفيا وهو يمضي كالمجنون، وهُمَّه الأُوحد
أن يحملها إن استطاع، وأن يغوص بها إلى الأسفل سريعاً كيلا تتأذى أو
يلحق بها مكروه، إذا ما أصابت إحدى قذائف الطائرات المُنيرة المنزل..
إلى أن أدركت أقدامهم المطبخ، حيث كانت السيدة ميرثيديس تفتح
باب القبو وفي يدها الأخرى سراج زجاجيٌّ كبير، لكي ينير لهم وهم
يحتمون بالقبو من قذائف الطائرات.

- كل شيء على ما يُرام.. لا تقلقا سيكون كل شيء على ما يُرام.
أعدكم بذلك..

نزلت كلمات السيدة ميرثيديس عليهما فأثلجت صدورهما،
وزادهما سكينه صوتهما العذب وهي تغني إليهما كيلا يفزعا أكثر من
دويِّ القذائف..

ظَلَّتْ تُغني والفتى لا يزال مُمسكاً بيد صوفيا حتى هدأ روعهم
الثلاثة.. في تلك الأثناء أَحسَّت الأم أن غياب خواكين، الأخ الكبير لن
يؤثر في صوفيا، وأدركت إن ارتباط أدان بها قوي وصلد.. فما كان منها
أن قد راحت تبسم في وجه الصبي وهي تشدو بصوتها الدافئ، فغرق
ثلاثتهم في حالة من هدوء النفس والسكينة وهم يتأنسون بعضهم
ببعض..

فينة من الوقت وتنهدت ميرثيديس، وقد أوقفها لوحة الأمل
المتجسدة في نظرات الصغيرين نحوها.. بعد أن عبرا على اصضاء صوتها
من ذلك النفق المظلم إلى شاطئ النور وقد تناسيا دويِّ الانفجارات
القوية من حولها.

- كم من العجيب أن تولد أجمل الذكريات من جديد أمام أعيننا، التي باتت بصعوبة ترى بعدما أعيته مراقبة أشباح الخوف البائسة.. فالآن فقط أتذكر لحظة ميلاد ذلك الحب الذي جمعني بوالدك، صوفيا..

اعتدلت صوفيا مُشرَّبةً وقد ارتدى وجهها الباسم رداء الفضول البريء:

- نعم أمي كم أتوق إلى سماع كيف كان أول لقاء جمعكما.. هيا يا أمي احكي لي..

- حسنًا.. في بيتنا الصيفي أقام والدي حفلة شاي على شرف زيارة عائلة جدك الدوق فيليبي ماركيث، في صيف عام ١٩٢٠.. وعبر نافذة غرفتي الكبيرة المُطلّة على بستان ضيعة بيتنا الواقع على أطراف سان سيباستيان، شاهدتهم وهم يترجّلون من سياراتهم، وقد أتوا من إستورياس لقضاء بضعة أيام، ومن ناحية أخرى إنهاء بعد التفاهُمات التي تخصّ المعاملات التجارية مع والدي.. حينها كنتُ صاحبة الثمانية عشرة عامًا، كنتُ صعبة المراس، مزهوة بجمالي الذي افتتنَ به وتعذّب من أجله فتيةٌ كثيرون ورجال أكثر..

- ما زلتِ جمّة الحُسن سيدة ميرثديس والجمال يفيضُ بكِ.
بتلقائية وبابتسامة عريضة قاطعها أدان:

- نعم يا أمي، فأنتِ كما عهدتُك دومًا سيدة الحُسن..

- حينها كان جمال الصبا والقوام هو سحر نفاذ لم يستطع أحدٌ مُقاومته قط.. ولكنني في ذلك الوقت كنتُ بلهاء ضيقة الأفق، فقد

تملكني الغرور من عبارات الغزل التي كانت تنهال على أذنيّ من الفتية والرجال.. فما زادني هذا وقتها إلا كِبَرًا وزهواً..

حسنًا، حينها أرسلت أمي بمريتي دولوريس لطلبي، وقد كدْتُ أنتهي من التبرج وارتداء الحُلِيِّ.. بخطوات ثابتة هممتُ بالنزول، وحذائي يطرق درج السلم الرُّخامي المَغْطى بقطع السجاد الفاخر.. وما إن دخلتُ غرفة الزوار الكبرى حتى أُلقيتُ عليهم التحية، وقد توجَّهت إلى ذلك الكرسي الخشبي، المَطْلِيّ بماء الذهب والمجاور للبيانو..

بين أصواتهم المتداخلة رحتُ أتبيّن تلك الوجوه التي تتطلَّع إليّ من فينة إلى أخرى بشغفٍ.. عدا ذلك الشاب الوسيم الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، الجالس بالقرب من الشرفة، الذي لم يُعرَ لي انتباهه على عكس باقي من في الغرفة..

- راح هو يرتشف الشاي من فنجانه، وعيناه تُلاحقان شيئًا ما في الخارج.. شيئًا لم أعتدّه من قبل ألاّ تُلاحقني نظرات رجل يجلس بجواري ولا يسعى إلى مُجالستي. فبادرتُ سريعًا بخلع قفازي الأبيض، وشرعت بالعزف على البيانو كي ألفت انتباهه الشارد.. فسكنت الأصوات خلف أصداء عزفي المُبهر، الذي تعلمته على أيدي الموسيقار لازار، أحد الموسيقيين الفرنسيين ذائعي الصيت في مارسيليا..

من فينة لأخرى رحتُ أبحثُ بناظري في الخفاء عمّا إذا قد التفت بوجهه نحوي ليغمرنى بتلك النظرات التي بتُّ أبغي اقتلاعها منه هو فقط..

لكن ما حدث كان عكس ما تمنيته، فلقد انتفض مُتَجَهًّا ببطء إلى الشرفة ليتركني وحيدة وأنا أنهي العزف وعبارات الشاء ونظرات الإعجاب المعتادة قد انهالت عليّ..

ولكن شعورًا غريبًا راح يُؤرّقني، وسؤال حائر طفق يجوب في جنبات رأسي عن ذلك الشاب، وسبب عدم اكترائه بي.. وراحت مئات الإجابات تغدو وتروح بداخلي.. فربما لم يرني، وربما لم يستمع إلى معزوفتي المبهرة.. ربما كان الرجل أصم وأبكم! دَوَّت ضحكة صوفيا بأرجاء القبو قائلة:

- والدي من الصم والبكم!

بادلتها ميرثديس التي ارتسم عليها الخجل ببسمة حانية وهي تُردفُ:

- لقد كانت أفكارا صبيانية مشوشة حبيبتني..

قاطعها أدان بشغفٍ وهو يقول:

- دَعِكِ من صوفيا يا سيدة ميرثديس ولتكلمي..

- إذن هناك شيء ما خاطئ.. ربما ذلك فاقد السمع هو الآخر

فاقد البصر!؟ كان من الغريب الشعور بتلك الرغبة الجامحة التي تملكنتني وهي رغبتني الشديدة في معرفة لماذا قد فقد سحري فاعليته مع هذا المُتعجرف..

- إذن فقد سقاك أبي من نفس الكأس التي جرعتني به المساكين

الذين وقعوا في شرك حبك.. كم أنت رائع يا أبي!

ابتسمت ميرثديس في وجه صوفيا وتابعت:

- بدا ذلك واضحًا حبيبي، فكان اندهاش أختي كارينا وأمي جليًا حين رأوني، وقد كدتُ أستشيطُ غضبًا، حتى أطفأتُه أُمي بسؤالها للسيدة الجالسة بجوارها عن خوان..

ذلك الرجل الفتى الذي لم يكثر حتى ذاك الحين لجمال ميرثيديس، وقد راحت أذناي تتحسسان بشغف عبارات الإطراء من تلك السيدة على ذلك الشاب الذي عاد من المغرب منذ بضعة أشهر إثر إصابته في إحدى المعارك في حروب الريف هناك، فأخذتني تلك الكلمات بعيدًا حينها كان هو ..

قمتُ بعدها وأنا أحمل فنجانًا من الشاي مُتجهةً إلى التراس حيث ظل واقفًا مُحدِّقًا بعينه ناحية المروج والتلال التي تحتضنها:

➤ عمت مساءً ومرحبًا بك في سان سيباستيان سيد...؟!!

أدار خوان رأسه حيث وقفت ميرثيديس والتقف فنجان الشاي منها وانحنى ليحييها مُقبلاً يدها قائلاً:

➤ خوان.. اسمي خوان ماركيث، ولكم جزيل الشكر على

حفاوة استقبالكم لنا آنسة...؟!!

➤ إذن أنت الفارس خوان ماركيث الذي لم يكفوا عن الحديث

عنه بالداخل.. اسمي ميرثيديس مارتينيث، ويمكنك مُنادي ميرثيديس مع بالغ اعتذاري لك إذا ما أزعجتك معزوفتي.

➤ لا. على الإطلاق، لم تُزعجيني، فسحر عزفك قد لمس شيئًا ما

بداخلي، يُورِّقني منذ بضعة أشهر.

➤ أراك حذرًا في كلامك، أنت قليل الكلام هكذا أم أنك من

هؤلاء الرجال الذين يتلذذون بالغموض؟!!

➤ ربما أكون قليل الكلام، ولكن كل من تشرفت بمعرفته أخبرني أنني واضح كضوء النهار.

- كان من الرائع الاستماع إلى تلك الكلمات الموجزة المضمخة بدماء قلبه، التي أدفأني، وأشعلت النار في قلبي.. رحْتُ أهيمُ وأهيمُ بين كلماته التي انتزعتها منه نزعًا، وراحت أذناه أسيرتي حديثي.. أخبرته عن كل شيء، وكلما أخبرته شعرت بالتعطُّش إلى المزيد لأسرده وأرويه..

أمضينا اليوم هكذا حتى المساء.. كان هو حتمًا ذلك العشق من أول نظرة.. ربما عندما نطقت شفتاه باسمي حينها سقطت أسوار مدينتي الحصينة ففتحتها هو وتملك كل شيء بداخلها.. ملكني وكم أحببتُ هذا الشعور..

أمضينا الوقت معًا صباحًا في ركوب الخيل بين المروج على شاطئ أونداريتا، عانقتنا مياه الأطلنطي ونحن نسبح.. من فوق جبل أورجول انشرح القلب وامتلأ الصدر بنسمات المحيط المنعشة، ونحن نتأمل غروب الشمس وقد سعدنا معًا قلعة لاموتا..

كم كان المساء رائعًا في البستان ونحن نتسامر وهو يحدثني عن حياته في أستورياس، التي عشقتها قبل أن أزورها..

حدَّثني عن آلامه في المغرب، وكم كانت الحرب قاسية على الجميع فتوجَّع قلبي، وبكت عيناى.. حدَّثني عن إصابته وهو يُدافع عن امرأة أمازيغية وطفليها من بطش رفاقه.. كان فارسًا وكان نبيلًا حقًا..

أتذكّر يوم كنا معاً أمام كنيسة سانتا ماريا تلك الكنيسة الباروكية التي شهدت تصريحي بحبي له.. بعدها مرت الأيام سريعاً وجاء الوداع مُراً.. فقد غرس الصبار في القلب حين رحل هو وعائلته.. غاب عن عيني فاعتزلت الحياة، ورحتُ أصلي كل ليلة، وأدعو الله أن يعود لي..

دعوتُ الله، وابتهلتُ إلى مريم العذراء أن تهني نوراً من الله إذا ما عاد ليحملني فوق فرسه الأبيض، فتقبّل الله دعواتي وصلواتي، وما إن مرّ أسبوع من آلام البعاد عنه حتى أرسلَ إلي والدي طالباً يدي، فتزوجنا في الشتاء، وكان زفافاً عظيماً تحاكى به الناس شهوراً طويلة من الباسك حتى أستورياس..

اكتظت كاتدرائية سان سيباستيان الراعي الصالح وباحتها بالفود من شتى بقاع إسبانيا، حتى إن الملك ألفونسو الثالث عشر أوفد مندوباً شخصياً عنه من البلاط الملكي لتقديم التهاني، وأهدانا تلك المسبحة الثمينة، ودعانا إلى زيارة قصر آرانخويت الملكي بمديرد..

أمطرت السماء يومها حباً وفرحاً عمّ الجميع وأنا أمشي بجواره بذاك الفستان الأبيض الضيق الطويل المتدلي على الأرض، الذي صمّم خصيصاً لب في فرنسا، وقد أسدلْتُ على وجهي تلك الطرحة الشفافة ليلمع من تحتها قرط وقلادة من الألماس ومن بين يدي باقة من زهور الياسمين..

ملكْتُ به الأرض ولمست بحبه السماء وطاف بي بين النجوم وعاد بي إلى الأرض ليُنهلني من نهر حبه خمرًا ليسكرني بين أكناف جنته..

رأيت العالم بعد زواجي به.. لم أر رجلاً حنوناً مثله.. ذهبنا إلى مصر هناك عرفت الحب والتضحية حينما عرفت إيزيس وأوزوريس، أمضينا الليالي على ضفاف النيل بالقرب من الصروح التي تعبد فيها القدماء باحثين عن السلام الأبدي.. هناك أثمرت شجرة الحب عن أول زهرة..

بتر أدان سيل حديثها بسيف سؤاله:

- مَنْ إيزيس وأوزوريس سيدة ميرثيديس؟

أجابت صوفيا بسرعة خاطفة:

- أوزوريس هو أحد الآلهة عند الفراعنة.. قتله إله آخر يُدعى ست، وراحت إيزيس تبحث عن جثة زوجها حتى وجدتها، فهمَّ الإله ست بسرقة الجثة وقطَّعها إلى اثنتين وأربعين قطعة.. لكن الزوجة لم تكلَّ حتى جمعت أشلاء زوجها، الذي بُثَّت روحه مُجدداً بمساعدة الآلهة الأخرى برهةً حتى تتمكن إيزيس أن تحمل منه ابنتها الإله حورس، ليصير بعد الضعف قوياً فتياً ليطالب بميراثه الشرعي، وفي النهاية يتمكن الحق الذي ولد من جديد من هزيمة ست الشرير ويطرده إلى الصحراء الجذباء ليعيش الناس في سلامٍ وأمان.. الآن يمكنكِ المتابعة بلا توقُّفٍ يا أُمِّي..

- حسناً، قلتُ عزيزتي صوفيا، فصدقاً قد شملني السلام والأمان، وأنا في كنف والدك حتى عدتُ إلى ساليناس لأحمل الحب بين يدي وأتنشَّق نسيم الفروودس يوم رأيتُ الضوء يغمر عيني خواكين..

ارتسمت البهجة والسعادة على وجه الحياة التي أعيشها..ولهذا لم أكفّ
قط عن الصلاة في كنيسة القديس توماس وأنا أبتهل للعذراء مريم أن
يهبني الله نورًا من عنده ..

عندما بلغَ خواكين عامه الثالث، سافرنا نحن الثلاثة إلى روما
لحضور قداس عيد الميلاد، أمضينا هناك أسعد الأوقات، أسعدها على
الإطلاق كان ذلك اليوم الذي ذهبت وحدي إلى كتدرائية القديس
بطرس..

تسارعت دقات قلبي وأنا أسير مُسرعة فوق البلاط الجرانيتي
الأسود الذي رُصفت به ساحة القديس بطرس، ورحتُ أعبرُ رواق
الكاتدرائية، وقد اشتدَّ هطول الأمطار، ودَوَّى صوت الرعد بأرجاء
نفسي، كان الرخام الأبيض الذي يُغطي الواجهة الخارجية للكنيسة،
التي تزينها أعمدة كورنثية، كالثلج الذي يزين جبل النور..

أمام تمثالي القديس بطرس وبولس وقفتُ كي أخلع ردائي الذي
ابتلَّ عن آخره من مياه المطر. فتلَّحفت بالشَّال على كتفي وبإيشارب
فوق رأسي، وأنا أتحسَّس خطواتي قارعة أحد الأبواب الخمسة لكنيسة
القديس بطرس..

- أهى كبيرة يا أمى كنيسة القديس توماس؟
- لا يا حبيبتي، إنها عظيمة وضخمة، فهي حوالي نصف مساحة
الفاتيكان، فهي تحوي بضعةً وأربعين مذبحةً وعشرات التماثيل
والمنحوتات..

- فلتكلمي سيدة ميرثيديس، رجاءً..

- إذن، لن أستطيع أن أجد كلماتٍ لتعبر لكم عن روعة ما رأيته عيناى وقتها.. شعور آخذ للقلب والروح.. حينها ما عدتُ أدري ما يحدث لي، وما يدور من حولي إلى أن وطأت قدماى داخل الكنيسة، فما إن اقتربت من مذبح الاعتراف القائم فوق ضريح القديس بطرس حتى غبتُ عن الوعي برهةً بينما كنتُ أصلي، أبصرت عيناى حين أفقتُ نوراً قوياً راح يخفُت ببطءٍ لا أدري حتى اليوم إذا ما كان مصدره عشرات الشُّرج التي تتزيّن بها الفسحة التي تقع أمام المذبح أم هو بركة من العذراء أم النور..

- ربما أصبتُ بالإعياء بسبب الأمطار والبرد سيّدة ميرثيديس..
- لا يا عزيزي أدان لم يكن هذا.
- إذن ماذا حلّ بك ذلك اليوم أمي؟
- لا أدري حبيبتى كل ما أتذكّره هو ذلك النور ولساني يُردّدُ عبارة: "لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان، وذلك ليس منكم هو عطية الله"... ورائحة تلك الزهرة الأسطورية العجيبة تغمر أرجاء المكان..
- وما تلك الزهرة الأسطورية العجيبة التي غمرت الكنيسة؟
- حين نزلنا ديار مصر أبحرنا في النيل صوب الجنوب بُغية زيارة عجائب الفراعنة من معابد، وكشف أسرار الآثار المترامية على ضفتي النهر العظيم.. بعد معابد الأقصر وأسوان أدركنا قلب الديار، دنقلا العجوز، عاصمة مملكة المغرب..

هناك التقينا بأكثر الناس غرابة على الإطلاق، شيخ عجوز اسمه عبد القدوس يحمله الجميع هناك صغيراً وكبيراً ملكاً على قلوبهم قبل

عقولهم.. أوقف ركاب سيرنا ودعانا إلى احتساء مشروب التمر الهندي أو كما كانوا يسمونه هناك عراذيب.. أخذ يتحدث وكأنه كان في انتظارنا، والغريب في الأمر أنني أحسستُ كذلك وقد بدا وكأن طلبتي من خوان الاستمرار في الإبحار جنوبًا كان واعزًا لهذا اللقاء..

لم يكن يتحدث بلساننا، ولكنني لم أكن بحاجة للدليل المصري الذي رافقنا حينها بعد أن فهمت الروح خطابًا بلسانٍ غريب..

حين انتفض، قمتُ ساعيةً إليه، كأنه طلب مني ذلك.. سرنا نحو بستان صغير، وتوقَّف من خلفي وهو يتمم بكلمات لم أعها، ولكنني رحتُ أنتسم أريج زهور هذا البستان حتى وقعت عينيَّ على تلك الزهرة.. وقفت أمامها، وكأنني أفقُ أمام وليدتي التي غرسَ حبُّها في داخلي منذ الأزل، أخذت أنامي تتحسَّسها برفقٍ والشيخ العجوز لم يكف عن التمتمة.. حملتها وعدنا معًا إلى خوان، بينما قصَّ الدليل المصري على مسامعنا كلمات العجوز وقصته عن تلك الزهرة الأسطورية العجيبة..

زهرة النار الخالدة عاشقة الأمطار المقدسة، التي لا تُغرس إلا في قلب الأرض، الملاذ الآمن للجميع، تنمو إلى أن يشتعل نار العطاء فيها لتتفسخ كاشفة النقاب عن الكنز، تلك البذرة رفيقة تتركب الرياح إلى ديارٍ بعيدة لتولد من نار من جديد، وتبعث من نار مرة أخرى وتحيا في نار إلى يوم معلوم..

- يا لها من زهرة غريبة! كم كنتُ أتمنى أن أشتمَّ أريجها سيدة

ميرثيديس!

- أريجها فريد عزيزي أَدان.. ذلك اليوم أهداني الشيخ العجوز بذرة لزهرة بروتياس العجيبة وأعطاني إياها في يدي، وسألني أن أتمنى أمنية كي يغرسها لي حين يحين الوقت.. تمنيت ابنة جميلة حين أنظر إلى وجهها أتسم عيرها، فوهبني الله صوفيا بعد خواكين ببضع سنوات..
- وماذا عن تلك الحادثة في الكنيسة؟ أكان ما حدث هناك يومها خيرًا أم شيئًا سيئًا، سيدة ميرثديس؟
- كانت بشرى من السماء عزيزي أَدان، فليلتها أنزلت السماء بركتها عليّ، وحملت بصوفيا وعدنا إلى ساليناس، وعشنا بسعادة حتى يومنا هذا..
- كم أعشّق حكاياتك أُمي، ولكن صدّقًا هذه أروع قصة سمعتها على الإطلاق..

ابتسمت ميرثديس وقد احتضنت صوفيا وأَدان، بعد أن غرست بغنائها السكينة في قلوب الصغيرين وغمرتهما السعادة بسماع قصة حب تلك السيدة الجميلة..

في ذلك الحين ابتعد أزيز الطائرات، وتوقّف دويّ الانفجارات، ليسمعوا بعدها صوت محرك سيارة بدت وكأنها توقّفت أمام البيت ليدويّ صوت خطوات مسرعة تطأ دَرَج سُلّم الدار الخارجي.. فما كان من ميرثديس إلا أن توصلت باب القبو عليهم، وقد أشارت لهم بألا ينبسوا ببنت شفة.. فحبسوا الأنفاس داخل صدورهم، وهم يترقبون بحذر أسيكون القادم حبيبًا يحمل لهم خيرًا أم عدوًّا يضرهم الشرور؟

الفصل الرابع

مدينة أوييدو شمال إسبانيا.. ظهيرة يوم الثلاثاء، ٢١ سبتمبر

١٩٣٧

في باحة كاتدرائية سان سالبادور تصافح للتو رجلان، تبدو عليهما ملامح الصرامة والتجهم.. رجل طويل القامة، نحيف، أبيض الوجه، ذو لحية مهذبة. حسن المظهر.. يتنسم على استحياء والآخر متوسط القامة، ممتلئ البدن، ذو شعر طويل، خمري اللون، نظراته الحادة تنم عن قلقٍ بالغٍ وريبةٍ مضطردة..

بعد أن ألقيا التحية أحدهما على الآخر راحا يسيران جنباً إلى جنبٍ بخطى ثابتة:

- سيد بابلو مياخا.. عمت مساءً.
- عمت مساءً سيد خوان ماركيث..

- أعتذر عن إقحام نفسي في مشاغلك، في خضم تلك الأوقات العصيبة، ولكنني في عَجالةٍ سأشرحُ لك ما جئتُ من أجله. فاسمح لي من فضلك..

- تفضّل سيد خوان، فمنذ الأمس وأنا أنتظر سماع ما لديك..

- في عَجالةٍ، لقد بتُّ على علم أنك تقوم بترتيبات خاصة لمغادرة البلاد خلال اليومين القادمين، فلقد أطلعني على هذا الأمر المهم بالغ الخطورة، شخص أمين يعرفه كلانا.. السيد خيسوس جوثاليث، الذي سيودعك ابنه أمانة في عنقك، هروبًا من هذا الجحيم..

- إذن فأنت تعرفُ بأمر رحلتنا إلى الاتحاد السوفيتي؟

- نعم سيد بابلو، وأطلبُ منك بالخاص أن ترافقك ابنتي صوفيا. وإذا ما تطلّب الأمر سأبذل مالي وحياتي من أجل سلامتها، فما عدت أدري ماذا ستحمّله لنا الأيام القليلة القادمة، وكلانا على علم أن القوميين قد باتوا قاب قوسين أو أدنى من إحكام قبضتهم على أستورياس، والكل هنا يعلم مَنْ يُسانِد فريق الجمهوريين، ومن يدعم معسكر القوميين، وربما قد تناثرت الأقوال عن انضمام خواكين ابني للمقاومة الشعبية بعدما غادر المنزل منذ عدة أيام، ولا أعرفُ هل سآراه مرة أخرى أم لا؟ ولا أخفي عليك سرًّا بفخري به واعتزازي له لانخراطه في الدفاع عن بلاده بشرفٍ وإخلاص..

- سيد خوان، لا أدري ما أستطيع القيام به، ولكن كم تبلغ ابنتك من العمر؟

- سَتَمُ اثنتا عشرة سنة في أول أيام الخريف أي بعد يومين اثنين..
- حسنًا سأندبّر هذا الأمر لك.. والشيء بالشيء يُذكر، فلقد قابلتُ شابًا يحمل ملاحك ولَقَبَكَ منذ بضعة أيامٍ متحصنًا في أحد المواقع على طريق أوبيدو-إيبليس..
- معقول؟! أقابلتُ خواكين؟ أهو بخير؟
- نعم سيد خوان، إنه ورفاقه بخير من أجل إسبانيا..
- إذن هل لك أن تطلعني كيف ستندبّر أمر صوفيا، سيد بابلو؟
- حسنًا، عليك أن تأتي بها إلى ميناء الموصل في مدينة خيخون مسترًا في عباءة الليل، ولن أوصيك أن تأخذ حذرك من الطريق.. عندما تصل إلى هناك ابحث عن سفينة شحن فرنسية تُدعى الدير يجرينا، هناك سأكون بانتظارك مساء يوم الثالث والعشرين فستحرك السفينة قبيل فجر يوم الرابع والعشرين..
- إذن عليّ الرجوع فورًا لتجهيز وإعداد حقائب صوفيا..
- سيد خوان، لن أطلب منك الحرص والتكثُّم على هذا الأمر، فأرواح أبنائنا على المحكّ..
- لا تقلق سيد بابلو.. فما أفعله من أجل أعلى ما أملك.. أعلم أن ابتيبي سيكون لها شأنٌ عظيمٌ في المستقبل، لذلك أدخرها من أجل

إسبانبا فهي الأمل.. لكن عليك أن تعدني أنها ستكون بخير وبأمان أينما كنت أنت، وأنت سترعاها كما لو كانت ابنتك الوحيدة إلى أن تعود إلى أحضاننا سالمة بمشيئة الله..

- لا عليك سيد خوان فسيكون هناك أكثر من ألف طفل من أستورياس سيرعاهم الاتحاد السوفيتي حتى تستقر الأوضاع ويستتب الأمن هنا..

- أعتقد أن تلك الحرب الملعونة ستنتهي قريباً سيد بابلو؟
- لا أعلم سيد خوان، ولكني أصلي من أجل أن ينتهي هذا الكابوس قريباً..

- نعم، إنه كابوس لا أستطيع الاستفاقة منه.. فلقد أعدم أخي في مدريد على أيدي أبناء عمومته.. الشيطان قد تملك من الجميع، فالأهل صاروا أعداء، والأعداء ينحرون بعضهم بعضاً بلا رحمة أو هوادة.. فلتصل لي معك، فإيماني بربي أمسى نهراً يجفُّ يوماً تلو الآخر..
- عليك أن تتحلّى بالإيمان والأمل.. فالحرية لها ثمن تدفعه الأمم دفعاً للديكتاتورية..

- عليّ أن أتحرك الآن.. فأخشى أن أخرج فلا أجد سيارتي..
- هوّن عليك سيد خوان.. تدبّر أمرك، وسنلتقي في المرفأ حيث مرسى السفينة ليلة الثالث والعشرين..
- أجل سيد بابلو، لك مني جزيل الشكر والتقدير لهذا المعروف، الذي لن أنساه لك قط..

- لا عليك سيد خوان، ولكن كُنْ حَذِرًا مِنْ طَرِيقِكَ أَنْتَ وعائلات أبيليس الذين سيوصلون أبناءهم مثلك. تواصل مع السيد خيسوس باثكيث، فابنه سيلحق بي هناك..

- بالطبع سيد بابلو. بالطبع. أشكرك مرة أخرى وإلى أن نلتقي..

- صحبتك السلامة سيد خوان.

خرج كلا الرجلين من باحة الكاتدرائية، باحثين عن طريق العودة أدراجهما في ظلّ دويّ القصف المتقطع الذي راح يقترب تارةً ويتعدّ تارةً أخرى.

خرج خوان ماركيث، أحد أغنياء أستورياس، سلسيل البلاط الملكي الإسباني، حامل الدماء الملكية الخالصة، والذي قد خرج عن عباءة أسرته منذ عدة سنوات لميله صوب الأفكار اليسارية، عرف بنشاطه الداعم للجمهوريين وتبرعاته السخية لهم إبان انقلاب جنرالات إسبانيا بقيادة الجنرال فرانكو، قدم كل أشكال الدعم المادي والمعنوي للمرابطين في مدن أستورياس ضد القوميين..

ضيعته الممتدة أمام شواطئ ساليناس وتجارته الرائجة أورثته ثروة طائلة استطاع خفية طيها سبائك من الذهب في أحد الأماكن السريّة التي أمن لها بعدما قرّب ابنه الأكبر خواكين في سبيل الدفاع عن جمهورية إسبانيا الثانية من أجل الحرية.. ومصيره وسط تلك الحرب الضروس سيكون حتمًا فاتكًا به وأسرته مع اقتراب القوميين من الديار أكثر فأكثر، وقُرب حسمهم للمعركة..

آثَرَ بعدها خوان إرسال ابنته الجميلة صوفيا إلى الاتحاد السوفييتي لكي تنعم بالأمان إلى أن يمضي الله أمراً كان مفعولاً.. خَرَجَ الرجل والكلمات تتساقط من فمه:

- كيف سأستطيع القيام بذلك؟ وماذا عن ميرثيديس؟! كيف سأصارعها برحيل ابنتها بعدما صار مصير ابنها العزيز غامضاً وسط تلك العاصفة الرمضاء؟!!

قَفَزَ خوان داخل سيارته البويك الفخمة موديل عام ١٩٣٦ وهو يتمتم بتلك الكلمات، ومن حوله تكاد تخلو الطُرُقَات التي تحوَّلت إلى حصون هي وما تبقى من بيوت، ما باتت تكفي أن تُستخدم ملاذاً يحتمي به أولئك المدافعين عن علم الجمهورية الذي تمزَّقت أوصاله بدماء إخوة يقاتلون بعضهم البعض، صرعى من أجل رسالة لم يعد أحدٌ يستطيع قراءتها، ووسط ظلام ليلٍ أعمى الجميع..

مضى في طريقه وقد تشابهت كل البلدات والقرى الصغيرة، جميعها اكتست بالسواد حِدادًا وخوفًا وغضبًا.. من أوبيدو وبعيدًا عن القصف ابتعد بسيارته ليجد الناس في فيتوريا يهيمون في الأرض، باحثين عن أرض السلام.. لكن أين هي، وقد كَفَرَ الجميع بآيات السلام.. صراخ في كوينثيس وعويل على أبواب كورونيو وآلام في بوسادا وجروح في كاثينيس ونزيف في نوبليدو إلى أن وصل ولم يعد يدرك من الوقت مَرَّةً عليه كي يرى آلام المسيح على الأرض مرة أخرى في جسد إسبانيا التي تبكي دم أبنائها..

- أما آن الوقت لصلاقي الأخيرة في كنيسة القديس توماس؟! لا، سأصلي بجوار صوفيا ونحن في طريقنا إلى خيخون..

أنَّجِه خوان ببصر بلا بصيرة، وبجسد بلا روح مُتَّجِهًا إلى دياره، التي ستكون أطلالًا بعدما ترحل عنه أميرته الصغيرة.. هُرِّعَ وشمس الصيف تلوح له في الأفق، وهي راحلة تاركة وراءها أشعتها القرمزية التي أصبغت الأرض نزفًا من أنين الطيور المهاجرة.. أخذ هو يُرَدِّدُ:

- ترحل الآن الشمس عنا ونحن في أمس الحاجة إلى دفئها الحنون الذي جمعنا دومًا فوق الربوع الخضراء، وتحت أشجار الصنوبر، وعلى شواطئ كانتابريا.. أَلْقَتْ بنا سفينة الشمس في نهر الخريف الضبابي وعلى ضفتيه تتساقط أوراق السلام الجذباء من شجرة الحياة المباركة المحتضرة.. تذرنا كي توقع بنا في بحر الظلام، حينها سيكون صدى صوتنا الباكي صريحا لمخالب المجهول.. وها هي الساعة التاسعة، والوطن يصرخ بصوت عظيم.. إيلي إيلي لما شبقتني!

ألقى خوان بساعته الروليكس الثمينة وهو يصرخ بعبارات خرجت كالحُمَم من بركان صدره الثائر:

- إلهي! إلهي! لماذا تركتني.. الوطن مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا.. والليلة هي ليلة آلامي وبين أحبابي في عشائي الأخير مُتَنَظِّرًا الخلاص على صليب الوطن.. سأصلي بهم.. هو ذا تأتي ساعة وقد أتت الآن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتكونني وحدي. وأنا لستُ وحدي لأنَّ الربَّ معي..

أوقف خوان سيارته على جانب الطريق الخالي، وقد أجهش باكياً
وأخذ ينتحب بصُراخه المُدوي:

- بل أنا وحدي فأين أنت يا ربي!؟

أدار سيارته تارة أخرى، وقد أخذت صرخاته تعلو وسط دوي
الانفجارات هو يرى داره في الأفق:

- ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد.

- سنكون واحداً كما أننا نحن واحد.

- سنكون واحداً كما أنت يا ربي واحد.....

ضاعت صرخاته وسط دوي القصف الذي قد خُفَّت سريعاً..
وبسرعةٍ أخرج منديلاً ليجفف به دموعه، وأخذ يدنو مُسرِعاً كي
يطمئنَّ على أحبائه..



برفقة الغسق القرمزي للشمس الجريحة رحلت الطائرات بعدما
ألقت شرورها على جسد الوطن المتمزق الأوصال.. ترَجَّل خوان وهو
يعدو باحثاً بعينه المضطربتين وصوته الذي أخذ يعلو باسمي صوفيا
وميرثيديس، حتى ألقي جسده داخل البيت، حينها وقف واجماً برهةً
وسط أصداء صوته التي راحت تدوي داخل جنبات المنزل..

بنظراتٍ قلقة تبحث عن جواب الطمأنينة، مرت الثواني كالدهور
إلى أن خرجت ميرثيديس من القبو وهي تخفي دموعها المتجمدة في
عينها بسمّةٍ وهي تُردّد:

- كلنا بخير أنا وصوفيا وأدان..

- حمدًا لله على سلامتكم يا حبيبتي، وأستميحك عُذرًا على تأخري، فسأقصّ عليك ما لديّ ونحن نتناول عشاءنا الليلة.

- لا عليك عزيزي، فالعشاء سيتأخر قليلًا، فلتصعد للطابق العلوي لتغتسل وتُغيّر ملابسك وتستريح حتى أنتهي من إعداد الطعام..

ببسماتٍ واجهةٍ ونظراتٍ حائرة، وبخطوات أثقلتها قدمان..
تجمّدت فيهما الدماء من الهلع والفرع اتّجه خوان إلى السّلم صاعدًا أعلى،
حينها أطلقت ميرثيديس بصوتٍ خافتٍ سؤالًا، أصاب زوجها على
حين غرّة من ظهره ليستقرّ في سُويداء القلب مباشرةً وهي تمضي ناحية
المطبخ:

- هل من أخبار عن ابني خواكين؟

استدار خوان ببطء باحثًا عن الدّرج كيلا تنهار قدماه من تحته،
مُستجمعًا قُواه حتى تدراك الموقف ليحتوي قلق زوجته وهو يردُّ
بصوتٍ أجش:

- إنه بخير يا عزيزتي.. اطمئني.. ولتحني على زوجك العزيز
بزجاجة من النبيذ الفاخر من الصندوق الثالث أسفل أرفف القبو
الوسطى، فكم أودُّ ونحن نتناول العشاء أن أشرب كأسًا من النبيذ
الأحمر مستمتعًا بجمالك، الذي لم أستفق من سُكره منذ التقيتُك..

لم تستطع كلمات الزوج أن تُخَفِّفَ من وطأة معالم الخوف والقلق على وجه الزوجة الجميلة، ولكنها استطاعت أن تُذيب الدماء المتجمدة من هلع دويّ انفجارات الغارة..

- إذن تُريدُ أن تحتفل الليلة! ولكن سيخيب ظنُّك فلا لحوم على مائدة العشاء، فقط فواكه البحر والسمك المشويّ والبايا.

قاطعها خوان بصوتٍ يكتسي برداء من البسمات الزائفة المصطنعة:
- نبِذْ أحمر يا حبيبتى.. لا أريد نبِيذًا أبيض.. وليكن العشاء الليلة فاخرًا على أضواء الشموع.

ردّت عليه ميرثيديس بصوتٍ أخذ في الخُفُوت، وقد شارفت على دخول المطبخ حين ارتقى خوان الطابق الأعلى:

- لا تنسَ أنه طلبك يا حبيبي، فجَدُّك هو مَنْ صَنَعَه منذ ستة عقود.

تابعت صوفيا وأدان تلك المحادثة العابرة، وهم يتلحفون بالأريكة بنظراتٍ حاملة، اعترتها البسمات، وهم يتهامسون مُتناسين تلك الأوقات العصيبة، وقد انتفضوا ليساعدوا ميرثيديس لإعداد العشاء..

في الوقت الذي تلحّف الصغيران بكرسيين متجاورين، منتظرين قدوم الوالدين وسط أضواء الشموع، وقد تزيّنت مائدة الطعام الكبيرة بالأطباق الساخنة المختلفة الشهية، التي كانت روائعها الذكية كافية أن تصل إلى الطابق الأعلى لتكون رسولًا لخوان تخبره بالانتهاء من إعداد وجبة العشاء.

وما انفكت ميرثيديس من دخول غرفة الطعام، حاملة زجاجة النيذ بين يديها وهي تُنادي على خوان، حتى لمحته بطرف عينها مُسرِعاً صوبها من الخلف، ليحتضنها برفقٍ من خلفها هامساً:

- اشتقتُ إليك حبيتي.

احمّرت وجنتا صوفيا من الخجل، وهي تبتسم في وجه أَدان، وكلاهما يتأمل مشاعر الحبِّ والودِّ التي تملأ البيت.. جلسوا جميعاً وهلةً، وهم يتأملون بعضهم البعض مُتَظَِّرين خوان أن يعطيهم إشارة البدء في تناول الطعام حتى قاطَعَ انتظارهم، وقد مدَّ يديه لتشابكا بيدي صوفيا وميرثيديس الذين شبكوا أيديهم بيدي أَدان..

- فلنصلُّ جميعاً معاً.. فكم نحن بحاجة للتضرُّع الآن..

بصوتٍ حنونٍ هادئٍ وبنظراتٍ عميقةٍ من الشجن والحب والألم بدء صلاة العشاء الأخير مُردِّداً:

- ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله.. يا ربنا أنت المنبع الدائم لجميع الخيرات، إليك نتوسَّل بأن تبارك وتقُدِّس لنا هذا الطعام الذي نستلمه من وجودك لكي نستعمل مأكلنا بتعقُّل كما أنك تتوقَّع ذلك منا. ساعدنا لنعرِّف بك دومًا كالأب السماوي صانع كل الخيرات، وأن نطلب قبل كل شيء الغذاء الروحي الكائن في كلمته المقدسة لكي تتغذى أرواحنا أبدياً بيسوع المسيح مخلصنا.

هنا تعالى صوت ميرثيديس مستطردة وهم ينظرون إليها:

- نشكرك يا أبانا السماوي من أجل كل الخيرات التي أغدقتها علينا بدون انقطاع حسب رحمتك اللامتناهية. ليتبارك اسمك لأنك تعتنى بأجسادنا بإعطائها كل ما يلزم ولحفظها في هذه الحياة، وخاصة لأن سِرِّكَ بأن تجدد حياتنا في رجاء حياة أفضل التي أعلنتها لنا في إنجيلك المقدس.. نتضرّع إليك يا إلهنا بألا تسمح لنا بأن ننشغل بأمور ومخاوف هذا العالم الفاني.

بدأ صوت الزوجة الحنون يضطرب لتجهش في البكاء وسط نظراتٍ مُنكسرةٍ مُفعمةٍ بدموع تسيل برفقٍ وباضطراد.. فبادر خوان بلملمة الموقف وهو يشدُّ على يد ميرثيديس المرتجفة، وتابع بصوتٍ يكبحُ به بكاءه:

- بل ساعدنا لكي ننظر إلى الأعلى رافعين أعيننا إلى السماء، ومنتظرين دومًا يسوع المسيح الذي، سيأتي من السماء لفدائنا ولخلاصنا. تحوَّلت أنظارهم إلى ميرثيديس التي ذرفت عيناها دمعتان وبصوتٍ خافتٍ يعتصره الحُزن استكملت:

- أبانا الذي في السماوات، ليتقدَّس اسمُك. ليأتِ ملكوتك. لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض. خبزنا كفافنا، أعطنا اليوم، واغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر أيضًا للمذنبين إلينا. ولا تدخلنا في تجربةٍ لكن نجِّنا من الشرير. لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد، آمين.

فردّد الجميع: آمين، وهم واجمون يرمقون بعضهم البعض بنظراتٍ حائرة، وسط أنفاسٍ مجهشة بالبكاء المتواري خلف صدى الصمت الذي بات يعمُّ أرجاء المكان..

ارتسمت على صوفيا معالم الترقُّب، وهي تبحث في وجه والديها عن دار من الأمان والسلام، فلم تجد سوى منزل آيل للسقوط على وشك الانهيار، فراحت تهيم بخيالها وسط دُجى الخوف إلى أن أخرجها إلى النور صوت والدها، الذي دعاها إلى تناول العشاء الأخير..

غربت البهجة، وعمّ التجهُّم بين الجميع بانتهاء الصلاة وسط عيون تحتلس النظرات السارقة باحثّة عن شمس الحقيقة وسط غابة الضباب، التي باتت تتصيّد وحوش الغد، وسط تكالُبِ ظلام الليل الظالم.. إلى أن اقترب خوان من أذن زوجته وبحنوٍّ همّس في أذنيها بُرهةً فارتسم على وجهها المنهك بسمّةٌ حركت مياه الحزن الراكدة.. أخذ يهمس ويهمس، فإذا بها تلقى الشوكة والسكين من يديها لتمسك بوجنتيه وهي تبتسم، بينما أخذت تتحسّس وجهه بعينيها وكأنهم يتبادلون الحديث بلغة الأعين، وما إن انتهوا من قرع قدحي النيذ، فرمقت ميرثيديس الصغار بنظرةٍ، وبصوتٍ ساخرٍ أمرتهم بالبدء فوراً بتناول الطعام مُقتبسةً المثل الإسباني الشهير "البطن المليئة، تسعد القلب"..

- تعالت أصواتهم، ومن ثم ضحكاتهم، التي شيئاً فشيئاً أزاحت تلك الغيوم الباكية عن سماء ليلتنا.. فكان بحثنا عن الاستمتاع بالطعام

الشهي لتناسى آلامنا كالبحث عن الدفء وسط البرد القارس في شتاء
ليالي ساليناس.. لم نعرف كم من الوقت مرَّ ونحن ننهي على الأطباق،
فلم ندرى كم من الضحكات أطلقنا! وكم من الأحاديث قد
تجاوزنا.. كل ما أستطيع أن أقوله أنه كان عشاءنا الأخير إبان عيد الميلاد
الخاص بي..

امتلات البطون بالطعام، وامتزجت بالخوف والترقب داخل
الأبدان.. امتلات الأمعاء بدفء الطعام، ولكن القلوب ما زالت خاوية
تُصارعُ في سبيل قليل من السلام..

قامت صوفيا ومعها أذان لينقلون الأطباق من فوق المائدة، بينما
خرجت ميرثيدس غاطة في حضن خوان الدافئ، الذي مضى حاملاً في
يد زجاجة النبيذ الأحمر، وفي يده الأخرى كأسين، متجهين إلى شُرْفة
المنزل..

ارتقيا فوق تلك الأريكة، وكلاهما ينظر إلى السماء، وقد تزيّنت
بمئات النجوم المتلألئة، التي بزغت كالجنود تحمي البدر الوليد من
ظلمات الليل.. أمّا رياح الشمال التي تحمل طراوة أريج الزهور المنتشرة
في ربوع ساليناس، أضفت على الليلة الساكنة مزيجاً من اللطف والهدوء
والشجن..

ارتشف الزوجان النبيذ من كأسيهما، وما زالت الزجاجة تحمل لهما
المزيد، واكتفى كلاهما بالنظر إلى السماء، وتأمّل ذلك المنظر البديع،
وأنامل ميرثيدس تتحسّس برفق وجه خوان وهي بين أحضانه.. توقّف

الزمن، وطبع تلك الصورة على شجرة ذكرياتها في خريفها المدمر الذي ربما يوشك أن يكون الأخير لها..

- أوتدرين كم صليتُ لله شكرًا لوجودك جاري فقط ليوم واحد، فما بالك والعين أدركتك كل يوم سنين طوال، كلما نهلت من نهر حبك، زادني الشوق منها للمزيد يا زهرة القلب؟!

- أراك كما عهدتك منذ سبعة عشر عامًا، ولكن وراء دفء الكلمات أخشى قىظ ما سيحمله الغد لنا.

- ميرثيديس.. الأمس كان خير صديق، واليوم ها نحن نُودّعه والغد سيحلُّ صديقًا لصوفيا وخواكين، لقد فعلت كل ما يجب عليّ كأب كي أحيطهم بمستقبل مشرق.. وليكن إيمانك بأنه قد غرست مأساة اليوم لتكون لهم شجرة الغد، تحميهم من قىظ المستقبل.

- كيف كان حال خواكين؟ متى سيعود إلينا ليحتمي بنا ويحمينا؟

- خواكين صار رجلاً شجاعاً، وما إن تهدأ الأمور سيعود إلينا، ولكنه الآن يُدافع عن إسبانيا المستقبل.

- لا أخشى على نفسي خوان، ولكن صوفيا الصغيرة أخشى عليها من أن يُصيبتها مكروهٌ وسط غابة الوحوش التي كانت بالأمس القريب جنة الملائكة، ربما يكون هذا هو عقاب الرب عن حروب الريف في المغرب وغينيا الاستوائية.

- فلتنحي الماضي جانباً، ودعينا نعمل على المستقبل، فغداً سنذهب لنوصل صوفيا إلى بر الأمان.

شحب وجه ميرثديس، وهي تعتدل بجسدها لتجلس أمام خوان، وبأيدٍ مُرتعشة ترتجف خوفاً مما ستقوم بسماعه، وصلت الكأس التي كان بين أصابعها إلى الأرض وهي تترقب رداً بعدما خرجت الكلمات بصعوبة من فمهما وهي تتلعثم:

- برّ الأمان؟! صوفيا؟!

- نعم، برّ الأمان ميرثديس.. هذا ما كنتُ أودُّ أن أشرحه لك منذ عدة أيام، فلقد استطعتُ أن أجد لصوفيا وخواكين مخرجاً من هذا الجحيم، وغداً سنذهب إلى أبيليس للبحث عنه وستتجه إلى ميناء الموسل بخيخون سراً لتوديعهم.

- تقصد أننا سنذهب جميعاً؟!

- ثقي بي ميرثديس، سنودّعهم اليوم، وسنلقاهم بعد حين.. لقد أعددتُ للأمر جيّداً، ولتعلمي أنني قد صهرتُ كل أموالي سبائك ذهبية أودعتها مكاناً أميناً هنا، ففي ظلّ ما يجري ومناصري للجمهورية، أخشى إذا ما سقطت أستورياس، ووقعنا في أيدي القوميين أن يسلبونا كل أموالنا..

لذلك أنيئُ اليوم إجراءات نقل ملكية البيت والضيعة باسمك.. فوالداك مُناصران للجنرالات، وبذلك إذا ما حدث ما نخشاه سيكون البيت والضيعة في مأمنٍ منهم.

دخلت ميرثديس في نوبةٍ من البكاء المستيري وهي تصرخُ:

- لا، لا أبداً، لن أترك أبنائي لمخالب الغدر.. فلتنهي عليّ قبل أن
تنتزع من عيني نورهما الذي أبصر به.

ضمَّها خوان إلى صدره بشدةٍ وهو يربت على ظهرها قائلاً بصوتٍ
حنونٍ:

- اهْدئي حبيتي.. اهْدئي ميرثديس، فهي مجرد أيام حتى نلحق
بهم.. غداً ونحن في الطريق إلى أبيليس ستشكرين الله على ما هداني
رشدي إليه.

- حبيتي، فلنمضي في طريقنا، ولنكتشف أسرار نهر رايشيس في
هذه الليلة البديعة.. لنستجمع قوانا من جذورنا التي تنبع من مياهه..
دعينا نَسِرْ حتى تهدأ أنفسنا ونستعيدَ سبيل الرشاد داخلنا، فلطالما كنتِ
لي خير معين في الملمة أشلاء نفسي في أوقات الضعف، فكوني لي كما
كنتِ السلوى والسُّلوان.. فلنُنقِّ أذهاننا، ولنحتكم للعقل بهدوءٍ
متجاوزين أسوار الخوف لنعبر النفق المظلم لنصل جميعاً إلى برِّ الأمان.

تنهدت ميرثديس بعمقٍ ونظرت إلى السماء، وأمعت النظر في
وجه القمر الوليد برهةً، ثم رمقت خوان الذي ألقى زجاجة النيذ
جانباً وهو يتأمل بركان غضبها، وقد حَمَدَ بعدما أَلقت بالحُمم من
صدرها، فعاد إليها الهدوء الواجم والنظرات الحائرة.. قامت بهدوءٍ
وجذبت يدي خوان برفقٍ لينهض ولتشابك الأيدي، وهما يمضيان

خارج حديقة البيت، مدلجين بأفئدتها جنوبًا ناحية النهر دون أن تنطق شفاههما كلمة..

أطلق كلاهما العنان لصرخات الأفئدة اليائسة أن تدوي بين جنبات الليل الهادئ، الذي امتزجت فيه نداءات صرصار الليل الشارد بترانيم الكروان الباكي.. تعالى صدى الصمت بين جنبات الطريق إلى النهر، فكان خريره أنشودة الأمل في وقت الضياع..

سكنت الآلام وتوارات خلف سكون الليل، وقد لاح في الأفق النهر، الذي كان دومًا شاهدًا على الحب.. ألقى كلاهما جسديهما ليجلسا أسفل شجرة الصفصاف الكبيرة على ضفة النهر الصغير، الذي صبغ ضياء القمر الحديد مياحه فصار صفحة من اللجين المتلألئ فاستراحت الأعين، وقد غمر الأنفس بالصفاء..

احتضن كلُّ منهما الآخر، وكلاهما يتطلع إلى السماء التي تُواري عنهما ما سيحمله لهم الغد القريب من نور أو نار..

- فلنعدْ إلى بيتنا خوان، لا أدري كم من الوقت قد مضى ونحن هنا، فالصغار في البيت وحدهم، وعلينا العودة كيلا يتعرضوا إلى أي مكروهٍ..

- نعم حبيبتي، فلنعدْ أدراجنا، فلدينا الكثير لنفعله خلال اليومين القادمين، ويجب علينا الاستعداد..

قام كلاهما وهما ينفُضان الغبار عن ملابسهما عائدين أدراجهما، وقد بدت على سرائرهما معالم الارتياح والسكينة.. وما إن مضت بضع

دقائق من السَّير حتى سمعا صرخات مُتداخلة، تزامنت مع إطلاق
أعيرة نارية فتوقفوا برهة مُنصتين وقد ارتعدت فرائصهم.. فصرخت
ميرثديس:

- يا إلهي! أسمعَت طلقات الرصاص يا خوان؟! الأولاد في
المنزل! يا إلهي!

فما كان من خوان سوى أن ردَّ سريعاً بصوتٍ حازم:

- صه ميرثديس، فالصوتُ آتٍ من الناحية الشرقية..

وما كاد يُنهي الكلمة حتى سمع دويَّ إطلاق النار مرة أخرى،
وصهيل قطعٍ من الأحصنة يأتي بالفعل من الطريق الغربي فأكمل
بصوتٍ متشنجٍ خافٍ:

- عائلة خمينيث!

فردَّت ميرثديس بتلقائية:

- يا إلهي والدي أدان! لقد أصابهم مكروه! يا إلهي!

- ميرثديس! أنصتي لي جيداً.. فلتعودي إلى البيت مسرعةً
ولتاخذي الصغار إلى القبو واختبئوا حتى أطمئنَّ على عائلة
خمينيث.. اركضي الآن، هيا..

وما إن خلعت ميرثديس نعلها ممسكة الحذاء في يديها، وهي
تجري كالمجنونة صوب الشمال في طريقها إلى البيت وقد تابعها خوان

بنظرات خاطفة وهو يركض شرقاً.. حينها أخذت أصوات ديبب الخيول تتباعد شيئاً فشيئاً، بعيداً كلما أخذ يقترب من منزل عائلة خمينيث..

غمرت الأدخنة أرجاء الطريق، وقد تصاعدت ألسنة النيران في بيت السيد إبرام خمينيث.. أصيب خوان بالهلع والنيران تأتي على واجهة المنزل الكبير.. أخذ يهرول وهو يدور حول المنزل، فإذا به يجد السيدة لاورا مُلقاةً على الأرض غارقة في دماؤها، وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة مستنجدة بخوان بصوتٍ مُرتعدٍ مُتقطع:

- سيد خوان! اهتَمَّ بأمر أدان.. ابني أدان.. لقد قتلنا أخي.. أخي الذي كان كابن لي..

لقد ذهب الحرب بعقله وأشعل النار في بيتنا.. سيد خوان فليكن وعدك لي وأنا أفارق الدنيا أن ترعى أدان وتحافظ عليه، وليكن ابناً لك.."

وما خرج ردُّ خوان بالرد إيجاباً حتى لفظت المرأة النفس الأخير.. انهمرت عينا خوان بالدموع وهو يصرخ:

- سيد إبرام! أين أنت سيد إبرام؟

هُرِعَ خوان مُقترباً من النيران في الخلف، ليجد جثة السيد خمينيث معلقة على الباب الخلفي والنيران تلتهمها كالوحش الذي يلتهم الطريدة.. فما كان منه سوى أن يتسمّر في مكانه كما الشجرة من

هول المنظر، والدموع تسيل من عينيه بغزارة وهو يُهمِّهمُ ويتمتم بكلماتٍ غير مفهومة، بينما أخذت النيران تشتعل وتعلو والصهد يكاد يُعمي عينيه، التي فقدت القدرة على إدراك ما تراه..

على بُعد ثلاثة أميال وقفت ميرثيديس وهي تلتقط أنفاسها وقد استدارات لترى ألسنة النيران تعلو ومن فوقها أعمدة الدخان، التي تكاد تصل إلى عَنان السماء فصرخت:

- يا إلهي، احفظ لي زوجي.. وليعد لنا بسلام.

استدارت ميرثيديس وقد أدارات ظهرها للمشهد المرعب الذي قد حاصر زوجها وحده.. أخذت تعدو حتى دخلت إلى المنزل وغُلِّقت الأبواب..

استفاق خوان بفعل الدخان الكثيف بعدما جاءت النيران وقد التهمت كل شيء.. انتفض ليجد جثة السيدة لاورا، وقد أصبحت غارقة تمامًا في بحر من الدماء، حملها إلى جوار حظيرة الدواب حيث شجرة سنديان ضخمة عجوز.. وبعد أن عثر على جاروف كبير، أخذ يحفر ويحفز وهو في خضم حالة هستيرية تعالت فيها صرخاته:

- لقد سممت بذور الحرب الملعونة قلوب الناس، فمات الإيمان وصارت الشياطين تحكم الأجساد الملعونة.. سأحييك الآن يا سيدة لاورا من أخيك الملعون الذي قتلك بدم بارد.. فلتكن الأرض رحيمة بك كرحمة المسيح بنا، وليكن خلاصي قريبًا.. فما عادت العين تبغي رؤية الشرور..

استمر خوان يصرخ ويحفّر حتى انتهى من دفن المرأة البائسة، فخرّ فوق قبرها يصرخُ ويبيكي وسط سكون تامّ سادّ، إلى أن بلغه صوت هدهد أخذ يتعالى من بعيد، والذي بدا كما لو كان صوت نحيب السماء ورثاء الأرض للسيدة لاورا وزوجها..

بعد مُضي الوقت ببطء وقد ناهز الساعتين، أخذ الباب يقرع بقوة أكثر فأكثر حتى خرجت ميرثيديس من القبو تاركة الصغار مخبئين وهي تسترق السمع، والطَّرْق يزداد قوة، فما كاد يُنهي خوان كلمتي "افتحي الباب" حتى هُرعَت لتفتح الباب لتجده مَشْدُوهاً واجماً في حالةٍ يرثى لها، وقد صبغ غبار الدخان وجهه، وامتزج مع التراب فكان كبقع من الصلصال والطين اتَّسَخَ وجهه وثيابه بها..

دَخَلَ دون أن يفتح فمه وحالة من الذهول التام قد سكتته.. مضى وهو يصعد السلم الداخليّ مُمسكاً بدرابزينه بصعوبة وكأنه يجبو.. فأدركت حينها ميرثيديس أن عائلة خيمينيث قد باتت جزءاً من مأساة اليوم، فما كان منها إلا أن انهمرت في نوبة من البكاء وهي تجرُّ قدميها صاعدة خلف زوجها إلى الطابق العلوي وصوتها يقاوم البكاء، طالبة من الصغار الخروج من القبو..

خرجت صوفيا وأدان، وكلاهما لا يدري ماذا حدث في الخارج، ولم كانت كل هذه الجلبة فاتجها ناحية النافذة المغطاة بالجوال راغبين بفضول الصغار في إدراك الواقعة التي حدثت، فلم يجدا إجابةً واضحة سوى صوت السيدة ميرثيديس وهي تُنادي على صوفيا بعد بضع دقائق:

- صوفيا.. جهزي غرفة خواكين لأدان، فهو سيمضي الليلة هنا.
بادر أَدان بصوتٍ عالٍ يكسوه الدهشة سائلاً:
- سيدة ميرثيديس! هل والدي بخير، ولم لا أعود إلى البيت الليلة؟
- فما انفكا من سماع وقع قدمي السيدة ميرثيديس بالأعلى تقترب ناحية أعلى السلم حتى ظهرت وهي تردُّ بثبات:
- إنهم بخير، وهذا هو طلبهم يا صغيري.. فلقد استدعاهم جدُّك إلى المدينة، وقد طلبوا من السيد خوان أن نرعاك حتى ذلك الحين.
- ردَّ عليها الصغير، وقد تهلَّلت أساريه فرحًا بقضاء مزيدٍ من الوقت بجانبِ صوفيا:
- السمع والطاعة سيدة ميرثيديس.
- اصعدا الآن، ولتعدَّا الفراش، ولتناما، فغدًا لدينا الكثير لنفعله.
- قالتها السيدة ميرثيديس وذهبت، حتى سمع الصغار الباب يُغلق فابتسم كلاهما في وجه الآخر بينما أسرع صوفيا إلى أعلى السلم قائلة وهي تُداعِب أَدان:
- فلتلحق بي أيها الكسول.

فما كان لأدان الصغير سوى أن ركض خلفها ليلحق بها وقد سبقته
إلى الطابق العلوي، ليقضي الجميع الليلة، وكل منهم في همّه ما بين قضاء
الليلة وانقضائها..

الفصل الخامس

يوم جديد غابت عنه شمس الصباح، وما أشبه اليوم بالبارحة،
دَثَّرَ كل من أمضى ليلته الطويلة أحلامه تحت ثرى الأمس، وغرق
ساكنو الليل في سُباتٍ عميقٍ، مُودَّعين ومستودعين الأحباء الذين باتوا
دموعًا تتساقط من السماء، حالمين وحاملين الخلاص بين صدورهم
وفوق رؤوسهم طير السلام..

أعمار من النسيان تمضي في دقائق من الشقاء فلا قضاء بلا قاضي،
ولا شقاء بلا شقيٍّ وشاق، شقاق في رحم الوطن، شق الفؤاد وأدمى
العيون فصار الجميع يبصرون بلا بصيرة ويعيشون موتى فوق مذبح
الحياة..

لم تقوَ ميرثيديس على سؤال الزوج المكلوم عن مصير عائلة
خيمينيث، فرائحة موتهم قد غمرت أرجاء المكان وهي تفوح من
ملابسه المتسخة بغبار الصدمة وأدخنة هول الكارثة، التي أصابت

خوان فقبر جسده فوق سريره نائماً لعل السبات قد يحمل له ترياق النسيان..

لكنه استيقظ بأعين زائغةٍ وقلب يرتجف وجسد شاحب على إثر قبلة حنون من شفتي زوجته:

- فلتستحم الآن كي تزيل آثار الأمس من فوق جسدك.. ولتكن مياه الله المقدسة غسولاً لشروور الشيطان.. استجمع قواك خوان، ولنستعد إلى رحلة توديع الصغار.

أجابت عيناى الزوج دون أن ينبس ببنت شفة، وقد همَّ يللمم شتات نفسه متدثراً بأحضان زوجته الدافئة، حيث أضحت الدموع حبيسة زنانة الأمس الأليم..

- سأذهب الآن لإعداد الفطور، ومن ثم تحضير حقائب صغارنا الثلاثة وتجهيز الطفلين النائمين، فمن اليوم صار أذان جزءاً من غدنا..

ربت خوان على كتفي زوجته مكتفياً بنظرة عميقة، والعقل يستحضر الجهود المضنية التي يستوجب العمل عليها، فلا وجود لحقيقة واقعة أو واقعة حقيقية بين كل هذه الجروح الغائرة المتقرحة.

في ذلك الحين وفي غرفة صوفيا المجاورة لهم لم يختلف الوضع كثيراً، فقد أمضى الصغيران ليلتهما، وقد تشاركَا سكن الدار ودار السكن.. كلُّ منهما يحمل أحلامه الخاصة التي تتشابك جذورها بأغصانها دون أن يدري أيُّ منهما كم من الأوراق سيلملهاها معاً، كي تدفئ لهم شتاء الغد..

ليلة صوفيا أمضتها وهي بين يدي العرافة العجرية، وهي تقصُّ عليها مرة أخرى أخيرة عهد كتابها المقدس، وقد حفرت على جدران معبد الذاكرة أسطورة الحياة والموت، ووعد بأن ينتظرها أدان في قدس الأقداس بأكاليل الغار..

استيقظت صوفيا على صدى صوت أدان وهو ينادي اسمها برفق محاولاً إيقاظها.. فما إن أُنِجحت جفون السحاب حتى رأى أدان سحر السماء الزرقاء البراقة في عينيها، السحر الذي قد سلب قلبه وذهب بعقله بعيداً في عالم الخيال والأرواح.

- أكانت تلك العجرية الحمقاء تعكر صفو أحلام ليلتك؟
- لا أدري أدان إذا ما كان كابوساً أو رؤياً فهي لم تؤذني على الإطلاق، بل كانت تتودّد لي كي تقصّ عليّ قصصاً أغرب من الخيال.
- ولكنك صوفيا كنتِ ترتجفين وأنتِ تهمهمين بكلماتٍ غير مفهومة.
- لا أعلم أدان.. فما أتذكره الآن أنها قد قالت لي إنني سأنسى كل شيءٍ حتى نتذكره معاً..
- نتذكره معاً؟! إلى مَنْ تشير كلمة معاً؟!
- نحن أدان.. أنا وأنت.
- يروق لي أن نكون معاً ولكن أخشى إذا ما كان هذا سوى أضغاث أحلام بسبب ما يحيط بنا من كوابيس.

- لا أدرى أَدان، ولكنني مُتوجِّسة خيفة لما هو آتٍ من خلف تلك الأبواب.

على حين غرة قطع النقر على الباب جمل حديثهما، وقد دفعت ميرثيديس الباب الموصد، ملقية عليهما ابتسامة الطمأنينة التي أدخلت إلى قلوبهم الصغيرة السكينة.

- عِمتم صباحًا يا صغاري الأحباء. فلتنهضوا الآن بلا تأخير ولتغتسلوا، بعدها ستتناول الفطور معًا، ومن ثم ستصعدن صوفيا لإعداد حقيبة لك وآخرين اثنين، إحدهما لخواكين والأخرى لأَدان من بين ملابس أخيك التي ستناسبه.

قاطعتها صوفيا وقد انتفضت مترجلة فوق السرير:

- لماذا يا أُمي؟ إلى أين سنذهب؟

- سيدة ميرثيديس ولماذا لا أعود إلى بيتي كي أستأذن والدي وأحضر ملابس الشخصية؟!

هنا بادرت ميرثيديس بالردّ عليهم بحزم، مقاطعة أصواتهم المتداخلة:

- ستنفذان ما قلته الآن بلا أسئلة.. يا عزيزي أَدان.. فكما قلتُ لك بالأمس إنه قد يجب على والديك الذهاب إلى جدك لأمر عاجل، وقد طلبا منا التكفُّل برعايتك حتى تستقرَّ الأوضاع.

الوقت الآن بات ضيقًا، ويجب علينا التحرك بسرعة قبل أن يجِدَّ في الأمر شيءٌ يصيبنا بمكروه.. فلنتحرك الآن، فلدينا يوم طويل كي نستمتع به.. هيا هيا يا نجوم سمائي.

سرعان ما امتثل الصغيران لأمر ميرثيديس.. لم يتسنَّ للجميع تناول الإجابات التي يستطيع العقل هضمها بسهولة على مائدة الإفطار التي التفوا من حولها.. فكان من الصعب إلقاء الأسئلة وكان من الأصعب الكفَّ عن تلقي نظرات الهروب من الإجابات الملقاة في سلة الخبز بجوار شطائر عجة البيض الساخنة، الشهيرة بالتورتيا وفطائر الفاكهة المَحَلَّة بالعسل المُصَفَّى..

غادروا مقاعدهم وقد أجمعوا على أن صوم الأفواه عن الحديث قد أفقد شهية الأنفس، وباتت مصائر البطون مرهونة بإشباع العقول بالحلم.. حتى قاطعَ خوان أصداء الصمت الذي قد طال وقد نفذ معه صبر الصغار لإدراك الحقائق، وقد صارت الحيرة سيلاً جارفاً يكاد يُجْهِزُ على ما تبقى لديهم من جسور الثقة بينهم والقدرة على التحمُّل.. فبعد أن أدفأ قلبه، وأشبع صدره بهواء أنفاسهم، بدأ بإلقاء ما بداخله على أسماعهم، وقد توجَّهت أفئدتهم إليه بتوق:

- سنخرج الآن في رحلة ليست باليسيرة.. عائلة واحدة، قلب واحد ويدٍ واحدة.. ولتذكروا أن عناء هذه الرحلة سيكفل لنا جميعاً المضي قُدُماً وعبور جسر الخوف الذي ينهار، ومن تحته صرخات العذاب وجحيم الآلام.. فقط تذكروا أن الطريق إلى هذا الجسر محفوف

بالمخاطر والمآسي من جانبيه، فلا سبيل للرجوع ولا مجال للتنازل عن هذا الحلم..

ستدركون سفينة نوح التي ستعصمكم من هذا السيل الذي قد بات يغرق الجميع في آثام الآخرين، فلتتشبثوا بالخلاص حتى ندرككم قريباً، وإذا ما باعدت بيننا الأمواج الغاضبة، فلتحفظوا ما بداخل هذا الكتاب المقدس فبداخله خريطة العودة إلى جنتكم ها هنا..

وسط حالة من الوجوم والدهشة سكنت وجهي الصغيرين، ليس فقط مما قد ذكرته ميرثديس سالفاً، ومما أسهب خوان في الحديث عنه الآن، ولكن حينما نظر الصغيران أحدهما للآخر، استحضروا كلمات العرافة، متذكرين الرحلة المزعومة التي أشارت لها المعتمرة الغجرية، حتى بدا على الأمر وكأنها قد صارت حقيقة واقعة، لتوقع الخوف والترقب في أفئدتهم ..

دار بين صوفيا وأدان حوار صامت، عادوا به للوراء عام ويزيد، ليتذكروا وجه تلك المرأة الغريبة وهي تقصُّ على مسامع صوفيا كلمات بدت كالأغاز وطلاسم.. تشابكت فيه الحقيقة والخيال وامتزجت فيه الأحلام بالواقع..

تساقطت الأسئلة على أجساد أنفسهم العارية ككرات البرد الثلجي القارسة.. ماذا لو صدقت أدق تفاصيل رواية المنجمة؟ هل ستتخلّى عن حياتنا هكذا بسهولة؟ أين ستكون الحقيقة؟ هل سنرى الأشياء التي اعتدناها واعتدنا رؤيتها كل حين؟ ومتى ستصير المحن

مِنْحًا؟ كيف ستمسي اللعنة هبة؟ هل سيفارقني أَدان؟ ماذا لو رحلت عني صوفيا؟ لم العذاب سيضحى هوى؟ وكيف للعشق أن يكون عذابًا؟ هل ستمنى يومًا لو تعود بنا الأيام للوراء كي نولد بلا حاضرنَا هذا؟ أم سنودُّ لو أن نسلك نفس الدرب مرارًا وتكرارًا؟!

مدَّ خوان يديه بالكتاب المقدس كي تلتقفه يدا صوفيا وهو يُردف:

- هذا هو ميراثي لك صوفيا، فحافظي عليه ما حييتي، فسيكون لك حياة جديدة، ولا تخلعي حافظته حتى يحفظك وتعودي به يومًا إلى ضيعتك هنا.

وهنا استدار بوجهه لِيُقَابِلَ وجه أَدان الذي قد ارتسم إدراكه لحقيقة الرحلة الأخيرة على وجهه الواجم:

- أَدان ستكون رفيقًا لدرب صوفيا للوصول إلى ميناء الأمان، واعلم تمام العلم أنك وُلِدْتَ لكي تكون رجلًا.. فكن لها دائمًا هكذا رجلًا، ولتكن لها بصيرتها قبل بصرها، وقلبها قبل قالبها حتى نلتقي مُجَدِّدًا.

بينما فرغ خوان من حديثه حتى سالت الدموع من الجميع فذهب الزوج بناظريه إلى ميرثيديس مستطرّدًا:

- سنذهبُ الآن ميرثيديس.. سنذهبُ إلى أبيليس لأخذ بركة رحلتنا من القديس توماس وبعدها سنبحث عن خواكين في تراسونا، ثم سنكمل طريقنا مُتخفيين حتى نصل إلى الميناء حيث تنتظرنا سفينة نجاة أولادنا.

سارعت الأمُّ في تجفيف دموعها وهي تبتسم في وجه الأطفال
لتمسح عنهم غمام الحزن، ولتشرق في أعينهم شمس الطمأنينة
والسكينة، وقامت متجهة إلى أذان قائلة:

- هيا اصعدا وانتهيا من حزم الحقائب، فلديكما فقط نصف
ساعة وبعدها سنمضي في رحلة ليست بالقصيرة.. لدينا الكثير لنقوم به
في أبيليس..أسرعا هيا.

هنا قام الصغيران، وقد أثقل كاهلهما وقع الحقيقة التي نفذت إلى
قلوبهم كالسهم، فما شعرا بالألم قط، بل ارتطما بجدار الغربة مبكراً
وقاموا وهم يترنحون، باحثين عن درهم للانتهاء من حزم حقائب
حقبة قد شاب فيها الصغير بعدما تجرَّع مرارة صبار الحرب الذي قد
غرسه الكبير في حلقه ورواه بدمائه، فصارت أغصانه أشواكا تغصُّ لها
الأمّة وتدمي لها عيونُ المستقبل.

حمل الصغار الحقائب الثلاث إلى أسفل ومن خلفهم نزلت الأم
وقد اكتست بالسواد رداءً وقفاراً وغطاءً للرأس.. راحت تتأمل البيت
وهي تستودعه بين يدي الله حتى يلتقي الأحبة مرةً أخرى، ولكن
القلب قد غص وعيناها تُلَاحِظان الصغار، وهم يودعون البيت بنظرات
باكية.. فما إن وطئت قدمها الأرض مبتعدة عن السلم حتى نظرت إلى
أعلى متلحفة بذكريات الماضي التي جمعها هذا البيت، ثم استدارات
وعيناها متعلقتان بأعلى وبنبرة يكسوها الألم نادت على زوجها، فجاء
من خلفها وهو يحتضنها بشدة هامساً في أذنيها ..

- لقد أقفلتُ باب السرداب السَّرِّيِّ في القبو، بعدما اطمأنت عيناى والقلب على مستقبل الصغار.. حببتي لا بد أن نفعل ذلك معاً من أجل فلذات أكبادنا. فلتساعديني حباً لمريم العذراء.

أجابته ميرثيديس بحنوٍ بعد أن أمسكت يديه لتضمهما لصدرها وقد انحنى لتقبلهما:

- الآن فقط أدركت لم تفعل ذلك، فدائماً كنت لي مُحلِّصاً والآن سأصلي من أجل أن يكون خلاص الصغار على هاتين اليدين.

- إذن هيا بنا واحرصي على ألا يرى الصغار ويلات وآلام إسبانيا على قارعة الطريق.. فالماشي تعمُ الطريق ميرثيديس.

- سأحاول قدر استطاعتي خوان.. فلا وقت لدينا.. فلنذهب الآن عزيزي خوان.

بينما انحنى خوان حاملاً الحقائق ليدسها داخل السيارة، ظهر مسدس صغير قد طواه في الجانب الأيسر من سترته فتوقفت ميرثيديس مندهشة:

- ما هذا خوان؟ أستقوم بحمل هذا السلاح وبجوارك الصغار؟!

- نعم حببتي، فذلك من أجل حمايتهم من سُرور الطريق.. لا تقلقي.. هيا بنا..

اتَّجه الوالدان نحو السيارة، وبانتظارهم الصغار مَشْدُوهين واجمين، فصعدوا بالحقائق داخل السيارة جميعاً، وقد تعلَّقت أيدي الصغار

بزجاج السيارة الخلفي وأعينهم تُودّع البيت الكبير ورواقه، ومن ثم
الفسقية، ومن بعدها البوابة والمنزل يتباعد والقلب يخفق متسارعاً كلما
أسرعت السيارة في رحلتهم إلى المجهول..

اعتدل الصغار داخل السيارة والتصق أدان بنافذة السيارة اليسرى
الخلفية، وما زالت صوفيا كما هي، متعلقة بالزجاج الخلفي، وكلٌّ منهما
يسعى أن يُغلق صندوق الذكريات على كل ما تحفره الأعين الآن،
وكلاهما يتأملُ مروج وحقول وغابة السهول التي يحتضنها نهر رايشس،
وقد تعلّقت الأعين بالدروب، التي شهدت اللهو والمرح وأيام الصبا
المبهجة..

انْتصف النهار وهم يتجهون شرقاً عبر طرق جانبية مُعبدة، ومن
أمامهم الوالدان يتابعانهم عبر مرآة السيارة باهتمامٍ بالغٍ وهم يمضون
في صمتٍ صوب مدينة أبيليس..

- حمداً لله أنك لم تَرْتَدِ الطُّرُق الرئيسة إلى أبيليس يا خوان.

- لا بد من توخي الحذر، فالطُّرُق مراقبة والمعارك ضارية على
أشدّها، وتوشك مدن أستورياس على السقوط وسلامة الصغار على
المحك ميرثيديس.

- أخشى ألا نجد خواكين في أبيليس، وأخشى عليه من عُنفوان
الشباب أن يدفعه دفعاً إلى المهالك.

- حبييتي لقد توجّه خواكين بالأمس إلى تراسونا، هناك سنبحث
عنه، وربما قد يكون في إحدى الشكنات المنتشرة على الطريق إلى سييلوتا.

تنهّدت ميرثيديس بعمق وهي تنظر عبر نافذة السيارة التي يتسارع خطاها وشدة الريح تزداد وتكاد تنزعُ القُبعة التي تعتمرها من فوق رأسها، وقد غطت بين أمواج بحر من الأفكار التي تعالت، ليترنح قارب نجاة الأمل الباقي لإنقاذ ابنها صعب المراس المتمرد، الذي ارتدى لباس الشجاعة ليخوض معركة محتومة المصير مسبقاً.

لاحت مشارف مدينة أبيليس في الأفق البعيد، ولاحت ألسنة الدخان فيها ومن حولها وتقطعت الدروب فكان لزاماً السير في الطريق الرئيس.

- يا صغيري الآن أغلقا النافذتين المجاورتين لكما.. فمن الآن عليكما تجنبُ إلقاء النظر على ما يدور في الخارج والابتعاد عن المشاركة في الحوارات مع أيّ من أبناء السبيل، الذين تقطعت بهم الطرق ومن قبلهم رجال الحماية الشعبية أو حتى رجال الشرطة أو الجيش إذا ما لاقيناهم في طريقنا..

ستترجلون عن السيارة حينما أسمح لكم وستصعدون حينما أصرح بذلك، وحذارٍ من التواصّل مع أيّ من كان حتى إذا كان خواكين أو أحد رفاقه. رحلتنا محفوفة بالمخاطر فلذلك وجب عليّ التنويه.

ميرثيديس أغلقت زجاج نافذتك من فضلك.

كانت إيلاء رأس الصغيرين كفيلاً بالردّ إيجاباً على الوالد بعدما خاطبهما وعيناه تابعاها عبر مرآة السيارة الأمامية وهو يمسك بالمقود..

في أثناء ذلك اعتدلت ميرثديس بجسدها وهي تغلق زجاج النافذة لترى المنظر الصادم المروّع الذي قد خبأه عنها زوجها خلال الأيام الماضية، فالحواز البداية المعمول بها كنقاط للتفتيش قد التصقت بتقاطعات شوارع المدينة التي تحولت إلى ثكنة عسكرية كبرى، أما رجال المدينة المسلحون المحتمون بين أطلال المنازل المتهدمة، وحتى النساء قد ارتدين رداء القتال..

رائحة الموت النفاذة المتعلقة بالأدخنة المتصاعدة هنا وهناك اخترقت نوافذ السيارة المغلقة لتصل إلى صدور العائلة المشبعة بالخوف.. وجوه كبار السن الذين تجمّع البعض منهم أمام بنايات بيوتهم يتبادلون حديث الصمت مترقبين وقد شحبت وجوههم من أثر الخوف، ربما ولكن من المؤكد أن السبب الأساسي هو قلة المؤن والغذاء..

لم يستطع الصغيران الالتزام بتعليمات الوالدين المشددة بأن ينزويا قابعين أسفل الكرسيين، مُحتميين بدواسة السيارة. فما كان منهما إلا أن يختلسا النظر ليشبعا فضولهما الطُّفوليّ وهما يشاهوان مدينتهما الجميلة، التي بدت لهما دائماً كعروس في يوم زفافها.. ولكن اليوم غابت العروس خلف أسوار الحزن والأسى.. خلف برائن الدمار..

تشابهت الشوارع ولم يعد للطُّرق معالم تميزها سوى الدمار الكائن في كل مكان.. أصوات أزيز الطائرات راحت تقترب.. هنالك أسرع الأب بسيارته ليحتمي بأسوار كنيسة القديس توماس.. أصوات قصف

الطائرات في كل مكان.. الأرض تهتزُّ والأصوات تتعالى.. صفارات
تُدوي هنا وهناك.. طلقات النيران تخرج من البنادق لتصيب قلب
الوطن الذي بات جثة تُحتضر..

مرت الغارة على صوفيا وأدان كالدهر.. الصغيران اللذان تابعت
أعينهما الهرج والمرج، سقوط القتلى والجرحى، واشتعال النيران في
البيوت.. وأيديهم المرتعدة على آذانهم كي تحجبَ عنهما الصرخات
والصرير.. لكن ما عادت الآذان تسمع سوى طنين خلفته الانفجارات
القوية..

دقائق حتى غاب صوت صرير مخالب الوحوش المتحينة للفتك
والقتل، فدوّت صرخات الجرحى لتصل عَنان السماء، وهي تكاد
تلصق اللعنات بضائير من لطخوا أيديهم بدماء إخوانهم في الوطن..

انتفض الوالدان لكي يطمئنا على الصغيرين، ومن ثم فتح خوان
باب السيارة كي يؤمِّنَ سلامة الطريق إلى داخل الكنيسة، فنادى صارخاً
عدة مرات طالباً من الصغار النزول، ولكن على ما يبدو أن حالة الهلع
قد تمكّنت منهما.. فترجّلت ميرثديس لتجذبهما إلى خارج السيارة
ليصعدوا سلاّم الكنيسة العالية مسرعين إلى الداخل..

سكن شبح الخوف أجساد الجميع داخل الكنيسة، وبحث الجميع
عن السلام حينها.. فقلما وجده أحدهم في تلك الآونة وسط صرخات
وأنين وعويل من الخارج، ودموع وانتحاب وقلوب مرتعدة في
الداخل..

دقت الأجراس وبدأ القُدَّاس وارتفعت نداءات الأب في بيت الله في حين بكت العذراء والروح القدس في السموات على ما آل إليه حال الأبناء في الأرض.. صلى الجميع من أجل السلام الذي بات الحصول عليه هو الخلاص على صليب أبناء المسيح في إسبانيا.. ثم خرجوا وقد نالوا البركات من أجل السلام والسلامة لرحلتهم..

خرجوا والعيون تبكي، والقلوب تدمي.. خرجوا ولم يقوَ الصغيران على الخروج فخنعوا لعاصفة الخوف الثلجية التي سكنتهم ليصيروا حبيسي أجساد عارية تُقاتِلُ البرد القارس باحثين عن شمس الخلاص التي أقسمت أن تُشرق ولكن على أرضٍ أخرى غير هذه ..

تركهما الوالدان فلربما يكون هدوء بركان الفزع بداخلهما هو تذكرة عبورهما بسلام دون الشعور بآلام الفراق الوقتية حتى يلتقوا، فقسوة ما رآته الأعين منذ قليل حتمًا ستدعهم في رحلتهم في البحث عن السلام..

قاد خوان السيارة مُودِّعًا أبيليس متجهًا إلى تراسونا، وقد تشابهت الطرق، فكانت رحمة الله بالصغيرين أنهما قد غطا في سُبَاتٍ عميقٍ هربًا من حالة الصدمة المستيرية التي انتابتها.. الجثث والأشلاء على جانبي الطرق الجانية.. المنازل المحترقة والمُهْدَمة تحكي قصصًا مُروِّعة عن أُسرٍ سُردت وأهالٍ فُرِّقت، وزوجاتٍ رُمِّلت، وأطفالٍ يُتِّمَّت..

أصوات القنابل كالرعد تدوي من بعيد، وتحمل معها برقًا يُشعل الفزع في قلوب الوالدين خوفًا على ابنهما الذي من الممكن أن يكون في مرمى نيران تلك القنابل الحارقة..

وصلوا إلى تراسونا ولم تختلف كثيرًا عن أبيليس بل كانت أسوأ، فالجميع هرب من وطأة النيران، ومن تبقى هم قليل يودعون وينتشلون عشرات الجثث من قوارع الطريق، وبعد جهود مُضنية بسؤال المتطوعين من المقاومة أخبروهم أن الابن قد رحل منذ ساعات للذود عن بلدة تاباثا شرق تراسونا.. فتوقفوا برهةً وأيقظوا الصغيرين اللذين ما زالا يقضيان في عالم آخر أثر الصدمة لتناول الطعام، فقد اقتربت الشمس المطفأة على الرحيل..

وما إن انتهوا من الطعام وقضاء حوائجهم، غطَّ الصغيران مرة أخرى نيامًا، وأكمل خوان وميرثديس طريقهم إلى تابثا عبر دروب سييلوتا..

لاح الدمار في كل مكان، بل كلما اتجهوا شرقًا زاد الدمار واتسعت رقعته.. فقد التفوا حول بلدة سييلوتا المغلقة تمامًا فمئات الطيور الجارحة غطت سماء البلدة التي هجرتها الحياة تمامًا.. عبروا ومروا وسكن الليل قلوبهم قبل أن يسكن السماء، وعلى أبواب تاباثا نيران مشتعلة في كل مكان.. الشوارع مهجورة من البشر، مئات الجثث جُمعت على أطرافها.. بعد البحث والتدقيق في شوارع البلدة الصغيرة اتخذوا قرارًا بقضاء الليلة هناك للراحة ولل سؤال عن خواكين، فاحتموا بمنزل يبدو أن أصحابه قد تركوه في عجالة. فكل شيء مُرتَّب ومنظَّم، وبعد أن اطمأنَّ عليهم الوالد، ذهب للبحث عن ولده تاركًا الصغيرين والأم نيامًا في قبو المنزل الذي تشابهت نوافذه المغطاة بالأجولة بمنزلهم في ساليناس، لدرء خطر الشظايا الناجمة عن القصف..

عاد خوان بعد ساعات ليغط في النوم متلحفًا بأحضان زوجته المستيقظة بعدما أخبرها أنه لا أخبار عن خواكين، فقد أخبرته إحدى العائلات المختبئة في وسط البلدة أن الكثيرين قد رحلوا منذ ساعات إلى منطقة المونتيه، وآخرين ذهبوا شمالاً إلى مدينة خيخون.. أنبأها أنهم سيستكملون في الصباح الباكر رحلتهم شرقاً قاصدين المونتيه، فلعلهم يتمكنون من العثور على الابن هناك وهم في الطريق إلى ميناء الموسل..

استيقظ الجميع مُبكرًا على دويّ القصف العنيف، فتناولوا القليل من الطعام، واستعاروا بعض المؤن من المنزل تاركين نقودًا بجوار رسالة شكر لأصحاب المنزل مع أمنياتهم لهم بالعودة إلى منزلهم سالمين..

تدبّر الوالد حاجته من الوقود للسيارة، واتخذ إحدى الطرق الفرعية المؤدية إلى المونتيه، فمرّ على الكثير من القرى التي تشابهت مع باقي مدن إسبانيا المتألمة..

حاول الوالدين الترفيه على الصغيرين، ولكن دون جدوى، فما زالت آثار الصدمة التي أودعت الصمت في جوفهم مسيطرة عليهما.. ظلّ خوان يقود بحذرٍ حتى أوقفه أحد الحواجز الأمنية، وقد طُلب منه إيقاف السيارة والنزول، فترجّل عن سيارته مُهيئًا المسدس في وضعية مناسبة في حال احتاجه للذود عن عائلته، وقف ليتحدث مع بضع رجال دقائق معدودة، وما إن عاد لداخل السيارة والسعادة تغمره شاكرًا من كان يتجاذب معه أطراف الحديث خارج السيارة:

- شكرًا لك سيد جارثيا. إلى أن أراك في طريق العودة.

وقد انفرجت أسارير وجهه، وراح يُقبّل ميرثديس مُبشِّراً إيّاها
بسلامة خواكين.. فقد تعرف إلى صورته أحد الرجال الذي أخبره أن
الابن قد مرّ عليهم بالأمس مُتجهاً إلى بيرينيا..

كان لسماع الزوجين خبر سلامة خواكين مفعول السحر عليهما
فراحا يتغنيان بجمال الطبيعة الساحرة لسهول وأودية الشمال الضحلة
التي تحتمي بالتلال الصغيرة الخضراء، متناسين ويلات كل ما رآياه،
وتبعات لقائهما القادم بخواكين، ونتائج رحلتها التي ستنتهي هذه
الليلة.. فدبت قسّات السعادة على وجوهيهما، بينما راحت ميرثديس
تشدو بصوتها العذب مانحة الصغيرين قسطاً من السلام الذي نزل على
صدرهما سهلاً فأثْلجها قليلاً عدا الفتاة الصغيرة.. حتى إنهم قد مروا
بإحدى الطرق الجانبية لנاحية المونتيه، ولم يلتفتوا لما أصابها لكثرة ما
رأته أعينهم سابقاً من مشاهد تقشعرُّ لها الأبدان..

غادروا ليعرجوا صوب بلدة بيرينيا بعد الظهيرة بقليل.. في تلك
الأنثناء لم يتبدل حال صوفيا فانعكست عليها حالة الضياع ما بعد
الصدمة، عكس رفيق دربها أدان، فقد بدّت عليه ملامح تقبّل التواصل
مع العالم الخارجي، فراح يملئ عينيه بالحياة الغضة التي تعج بها أراضي
الشمال بعيداً عن سكون العدم الأبدي.. الذي أضحى مصير الجميع
عبر بوابة الموت الذي يطارد الأرواح البائسة.

لم يكف الفتى اليافع عن النظر إلى صوفيا التي توقّف عندها العالم
والزمن، فراحت تهيم بين أطياف اللاشيء في انتظار عبور جسر البرزخ
لتصل إلى السعادة الأبدية أو الشقاء الأزلي..

لم يكف الفتى عن تذكُّر تلك المرأة العجربة صاحبة النبوءة أو اللعنة التي ألقته على صوفيا وقد باتت حقيقة واقعة.. لم يتوقَّف الفتى عن البحث عن سببٍ يُبرِّرُ له غياب والديه، وقد بات العقل والمنطق قاب قوسين من إدراك الحقائق.. لم يتوقف الفتى عن التشبُّث بالأمل الضائع بعيداً حيث تولد البسمات على شفاه والديه داخل دار السعادة الأبدية..

استمرت السيارة تسير باحثة عن الشرق مدفوعة بقوة رياح الشمال وشمس النهار راحلة في الاتجاه الآخر، بينما لم يكفَّ أيُّ منهم عن خوض الصراع بين آلام النفس وآمال الروح بعد أن أحكم الجميع إغلاق أقفال خزانة الذكريات، مبتعدين عن الديار التي قصم البعاد عنها ظهورهم فانحنى القامات أمام خضم القتال بين الشمس ورياح الشمال.. فقامت روح صوفيا بعد السبات لتقهر النفس وتمتطي رياح الشمال باحثة عن شمس الديار..

كانت رفقة الطريق ملحوظة فقد ظهرت متباعدة العديد من السيارات التي تحمل أطفالاً مُتخفِّين متوجهين صوب ميناء الموسل شرق مدينة خيخون، حيث كان الجميع متخوفاً من اكتشاف أمرهم، فأخذوا في الالتفاف حول الطُّرق وسلوك طُرُقٍ ودروبٍ جانبية بعيدة عن الأنظار..

في ذلك الحين تابع خوان القيادة صوب بيرينيا بعدما عبروا منطقة كيباران والقلوب أخذت في الخفقان متشوقة لطمأنة الأعين برؤية الابن

البطل.. لم يحسبوا عدد الأكمنة والحواجز، ولم يعد أيُّ منهم يكثرث للمشاهد المؤلة للجلث الملقاة بجوار السيارات أو على جانبي الطُّرق أو بين أنقاض المنازل المهدَّمة فقد فاضت الأعين بأهوال شبعت القلوب بالجمود فصارت كالجمود..

في تلك الأثناء وبعيداً عنهم، نثر الغسق حواجب شمسهِ القرمزية الجريحة على سفح أفق بقعة صبغتها الحرب الضروس بدماء أوصال جسد الوطن المتقطعة.. هنالك انسلخ ليلُ الخريف من نهار الصيف الأخير..

على نغمات القيثارة الإسبانية احتشد لفيف من فتيةٍ وفتيات يافعين أشداء ارتدوا زِيَّ جبهة المقاومة الشعبية العسكريِّ، وقد حملوا على كاهلهم وبين أيديهم سلاح الشرف والعدالة.. التفوا حول ألسنة جذوة النار المشرَّبة لعنان السماء، مبتهلة غير آبهة لجمْرِها وهو يلتهم بنات حطب الخوف كيلا تموت النار ويحيا رمادها المسموم شاهداً على الفناء..

التفوا حولها وهم يسألون ضياءها أن يؤنسهم وأن يعصمهم من غدر ليل الأعداء وموته الأحمر.. أشعلوا نيران الحماسة من أغصان أشجار اغتالها قذائف الاستبداد والطغيان.. تعالت أصواتهم كلما احتدمت النار ملتزمة المزيـد من الألم بداخلهم لتلهب وجدانهم المنتشي بأصداء ألحانهم والصدى لأغانيهم وهم يُردِّدون:

العواصف السوداء تستنهض همم الأجواء

تمنعنا السُّحب الداكنة من الرؤية،
بينما ننتظر الألم والموت،
ينادينا الواجب في مواجهة العدو.
فالحرية هي الخير الأغلى ثمنًا..
يجب علينا أن ندافع عنها بإيمان وشجاعة،
ارفع العلم الثوري..
الذي سيقود الناس إلى التحرُّر..
ارفع العلم الثوري..
الذي سيقود الناس إلى التحرر.
إلى المعركة يقف الشعب العامل
يتعين علينا إسقاطهم برد فعل عنيف.
إلى المتاريس، إلى المتاريس،
من أجل انتصار الاتحاد!
إلى المتاريس، إلى المتاريس،
من أجل انتصار الاتحاد!

لاحت نظرات فتى وسيم، بهي الطلعة يُزيّنُ وجهه لحيّة وشاربٌ
خفيفٌ أضاف إليه مزيداً من الوسامة، وقد ارتدى بزّة الجيش

الجمهوري، يحمل على كتفه بندقية.. لاحت لتلك الفتاة الجميلة متوسطة القامة، ممشوقة القوام، خمرية اللون.. التي يتدلى شعرها الأسود الطويل من تحت قبعتها، وعيناها الزرقاوان تتجاولان بمكر متابعة الفتى الشغوف المطردة لها وهي ترتشف الجعة من تلك الزجاجاة، الذي أخذت هي أن تلوح بها بتناغمٍ على أنغام موسيقى القيثارة..

وما إن فرغت من احتسائها عن آخرها حتى انتفضت وقد ألقته وألقت معها نظرة متغنجة خاطفة رمقت بها الفتى، وقد خطفت بسحرها القاتل لبه لتتبعها بغمزة تدلُّ.. أسرته بين أمواج بحر عينيها الزرقاوين، اللتين بدتا وكأنهما أجهزتا عليه تمامًا حينما داعبته مُلقيةً له بقبلةٍ ساخنةٍ من شفيتها المثيرتين..

انتفض الفتى مُهرولاً صوبها بخطواتٍ مُتسارعةٍ، وما إن أطبقَ يديه على أناملها الرقيقة حتى ارتقى بها من على الأرض وقد احتضنها ليحملها بين ساعديه وهو يُراقصها ليحتدم تصفيق الحضور الحار وترتفع صيحات الاستحسان وعبارات الإشادة الحماسية من قبل الفتية، الذين لم يتوقفوا عن ترنيم اسميهما: خواكين واسبيرانثا وهم يتغنون:

الحقول الجريحة بشظايا كثيرة، البلدات النازفة من الألم الشديد،
والمزارعون عن المعركة، لتدمير الخائن الفاشي.

تاركين المحراث مُلقى على الأرض، حاملين البندقية للقتال،

ونحن نسير مبتهجين صوب الخنادق، حتى تنال إسبانيا الحرية.

نحن الفلاحون، اليوم نحن جنود.

إلى الأمام!

تصرخ أسلحتنا، تصرخ محاربتنا.

إلى الأمام!

إلى الأمام! إلى الأمام!

الدم الذي يتدفق بشجاعة يوميًا، سيتعين عليه يومًا ما أن يغرق في
عاصفتهم

لأعداء البروليتاريا، ولأعداء وحدتنا.

الآن سوف يأتي يوم انتصارنا.

وسيعمُّ السلام العالم، ورش العمل وميادين تتغنى بمجد

من سقطوا من أجل الحرية.

نحن الفلاحون، اليوم نحن جنود.

إلى الأمام!

تصرخ أسلحتنا، تصرخ محاربتنا.

إلى الأمام!

إلى الأمام! إلى الأمام!

ساد الصمت فينةً من الوقت بعدما خملت هادئةً أنغام القيثارة،
وقد انفرط عقد المقاومين.. اهتَمَّ البعض منهم باحتساء ما تبقى لديهم
من خمرٍ وجعة، والاحتماء أثناء ذلك بأطلال ما تبقى من المنازل القليلة
المُهَدَّمة والمتباعدة، لينعموا بقسطٍ من الراحة والمرح بعيداً عن الأعين
والأعداء والحرب، تاركين المجال لآخرين، ما زالوا يتسامرون بجوار
حارس النار متلحفين بها مستأنسين بدفئها، وقد آثروا تجاذب أطراف
الحديث أثناء نوبة حراستهم حول أمور المقاومة ومسائل القتال
وتحديات النصر الغائب..

تعانق ذراعا أيسبيرانثا وخواكين وهما يتعدادان عن أنظار رفاقهما،
متأملين حشود مجموعات النجوم في السماء التي ازدادت قتامةً، إلى أن
أوصلتهم خطوات أقدامهما بعيداً حيث تلك الشجرة الضخمة المميزة..
شجرة الزيزافون بأغصانها الكثيفة المتدلية، التي وارتهم عن أعين
النجوم في سماء ليل الخوف، فوق ثرى وطن نحرته لعنة الكراهية..

تناسيا الواقع المرير وهما ينتزعان من قلب الوطن الحزين لحظاتٍ
من السعادة اختلساها غُنةً وهم يتطارحان الغرام.. لحظات حياةٍ
بأسرها، لم يكل فيها فؤاده عن حرث جنات مُروجها التي أذبلتها
عاصفة رملية ساخنة من الشوق والحرمان.. إلى أن تفجر متدفقاً في
أرضها العطشى القاحلة ينبوعاً من فيضِ عشقه الغامر، لتتورد زهور
البهجة، وتُغرّد طيور الودّ في صدورهما، وقد أينعت شجرة العشق،
التي غرسها في حديقته بعدما ذهبت بهم النشوة بعيداً في عالمٍ سحريٍّ

من الأحلام الوردية المبهجة.. عادوا من ذلك العالم جسداً واحداً
وقلبين متلحفين أحدهما بالآخر من لفح الخوف وبرد الفراق..

دَثَرها خواكين بجسده العاري وهو يحتضنها بحنوٍ بالغ حتى
اعتدلت لتلتقط لفافة من التبغ الداكن من جيب سترتها المُلَقاة تحت
رأسها.. ثوانٍ معدودات واشتعلت جذوة نار لفافة التبغ بسرعة خاطفة
أذهلت عشيقته الجميلة، وبعثت عليها بالحيرة والتعجب مُتسائلة حول
إذا ما تم إشعالها بعود الثقاب المُلقي بجوارهما أو بفضل جسد فتاها
المُلتهب، الذي تحوّل إلى جمره بنار العشق الحارق..

- كم من العجيب خواكين، أن تترتمي فتاة ثائرة ضد ديكتاتورية
الأغنياء بجسدها العاري بين أحضان واحد منهم، عن طيب خاطر
وبقلبٍ فيّاضٍ يغمُرُه حُبّه.

- ولم لا وقد حمل ذلك المقدام السلاح في وجه أولئك اللصوص
من أجلك..

- أتذكّر كل ليلة كم كنت مُثابراً صبوراً حينما أقدمت كثيراً على
تحمّل بذائقي وتعنيفي لك كل مرة هممت لابتیاع الحلوى والسكر
أيام الأحاد من حانوت أبي الصغير القريب من كنيسة القديس
توماس..

- كم كنت جميلةً وأنت تغزلين ثوب القسوة وترتدينه من أجلي
أنا!

- وكم كنت أنت رَحَبَ الصدر وابتسامتك المعهودة تلك تغمرُ وجهك وأنت تتلقَّى جميع كلماتي الحادة المنفّرة المختلطة بتقاسيم وجهي الغاضبة!

- تقاسيم سماء وجهك المشرقة بحرارة شمس كلماتك الحارة تلك، دفعتني دومًا إلى المُضيِّ قُدُمًا والاستمرار في مُحاولاتي التي لم تنقطع للتخليق في سمائك..

علقت أيسير اننا بأناملها على وجتيه برفق لتباغته بقبلة عشق دافئة مُطوّلة لتستطرد بعدها قائلة:

- ينفطر قلبي حين أتذكر أنني كنتُ أراك حينها ذاك الفتى البرجوازيّ الطُفيليّ، الذي ييغاني جارية على أسرة الرُخص كي تُشبع رغباته كلما سنحت له الفرصة خارج برج قصره العاجي العالي.

- تحينت الفرص وقتًا طويلًا.. كنتُ أنتظرُ قداس الأحد على أحرّ من الجمر.. كانتظار الطفل لهدايا أعياد الميلاد، فقط لأتسلل خارج الكنيسة مُستجمعًا تبذد شجاعتى، مُجفّفًا سيل عرق تحبطني وارتباكي، مُواريًا رجفة جسدي بفضل زلزال دقائق قلبي العنيفة.

- ولكن نظراتك المتسلطة عكست لي عكس ذلك!

- كانت تتطاير كالخمر كلمات عشق سهرتُ على حفظها طويلًا حين كنتُ أراك.. حينها كنتُ أختبئ وراء نظرتي المتعجرفة تلك والتي كانت كسياج من الحُتق على نفسي.

- كنت تقسو كثيرًا على نفسك، خواكين.
- ربا، ولكنني فعلتُ أكثر من ذلك وأنا أقنتني أروع هدايا عيد الميلاد، رؤيتك أنتِ حببتي.
- تغيَّر كل شيءٍ حينما قابلتُك في إحدى ندوات الحزب الشيوعيِّ الربيع المنصرم، حينها رأيْتُك كما لم أرك من قبل، وأنتِ تدنو مني برفقة الرفيق رافائيل، بعد أن فرغنا من الندوة ليقدمك إليَّ رفيقًا وعضوًا جديدًا في الحزب.
- لقد التحقْتُ بالحزب من أجل أن أتقربَ إليك، ولرؤيتك قدر المُستطاع.
- ولقد فعلت حين بهرتني خاطفًا وجداني لأول وهلة عندما ألقيت صوتك الأَجش على أذنيَّ قائلاً إن الدولة هي آلةٌ لظلم طبقة من قبل طبقة أخرى.
- قاطعها خواكين مُكمِّلاً عباراتها بصوتٍ أجشٍ قائلاً:
- آلة الغرض منها أن تخضع لطبقة سائر الطبقات المطوعة والحرية في ذلك المجتمع الرأسمالي تبقى دائماً كما كانت في الجمهوريات اليونانية القديمة.. الحرية للمالكي العبيد.
- حقًا خواكين.. لذا أفضلُ وسيلةً لتدمير دولة رأس المال هي إفساد قيمة المال..

- لقد قرأتُ وطالعتُ العديد من الكتب والمنشورات عن الاشتراكية والشيوعية، وعلى الرغم من أنني بتُّ أحفظ الكثير من

أسسها وشعاراتها عن ظهر قلبٍ فإنني حتى تلك اللحظة لا يزال يختلط عليَّ الأمر في التفريق بينهما!

- يا لك من أبله حبيبي خواكين.. الشيوعية هي مرحلة حتمية في تاريخ البشرية، تأتي مباشرة بعد مرحلة الاشتراكية التي تقوم على أنقاض المرحلة اللاقومية..

- لم يكن ذلك بفارق يُعتدُّ به أيتها الرفيقة الحسنة..

- حسنًا أيها المتذاكي.. الاشتراكية هي أن يكون لكلِّ عمله، ولكلِّ حسب جهده.. أما الشيوعية فيكون لكلِّ عمله، ولكلِّ حسب حاجته.. فالهدف من الاشتراكية هو الشيوعية..

- صدَّق ماركس فيلسوف الشيوعية حين قال: أن أيَّ شخص يعرف أيَّ شيء عن التاريخ يدرك أن التغيرات الاجتماعية العظيمة تُعدُّ مستحيلة، ودربًا من الخيال بدون الثورة النسائية..

- صدَّقَت خواكين وصدَّق كارل.. فالجميع فلاسفة شيوعيون، حتى أفلاطون وُلِدَ شُيوعيًّا حين تحدث عن المدينة الفاضلة.

- حقيقة الأمر أيسيرانثا، أن الشعب بحاجة ماسَّة للحرية لأنها صورة من صور الديكتاتورية البرجوازية وطغيان الجنرال فرانكو وزبانيته ما هي إلا الرأسمالية في حالة الاضمحلال .

- حقًا خواكين، وجميع جرائم هؤلاء القتلة البشعة التي سيطرها التاريخ ما هي إلا إنتاج الترف الاجتماعي الناتج عن تراكم

الثورة في قُطب البرجوازيين الضيق، وتراكم الفقر والبؤس في القُطب الآخر الذي يتَّسع لطبقة العمال الكادحة البوليتاريا.. ولتعلم أنه لن يشبع جموع الجماهير الجائعة في ربوع إسبانيا أي قدر من الحرية السياسية، وستدقُّ مقصلة الثورة أعناق عُصبة اللصوص والقتلة هؤلاء.

- يا إلهي القدير.. أشكرُك أن منحتني تجربة أن أعيش الثورة من أجل الكفاح ضد الفاشية، فهي حقًا أكثر إفادة من القراءة عنها وأكثر متعة من الكتابة عن تفاصيلها.

- وما دخل الرب في كل ما يجري ما حولنا وحديثنا هذا حبيبي خواكين؟

- الرب هو خالقنا وخالق الكون من حولنا وهو مخلصنا من ذلك الكرب الأعظم، ولعل تلك الثورة ستكون مطهرنا في الدنيا..

- خواكين الحد الفاصل بين المادية والمثالية هي السببية، والسببية في الأديان والفلسفة هي تسلسل الكون، فأنا أيسبيراثا ابنة خيسوس بن مويسيس بن أدان المخلوق الذي لا خالق له، وهنا تختلف المثالية عن السببية، وأرفض أن يكون الخالق روحًا غير موجودة خَلَقَ المادة الموجودة من اللاشيء..

- على الرغم من أن الكره شعور غير موجود فإنه يُخلَقُ من أجساد تحمله آلة للقتل.. والكون والطبيعة حافلان بآلاف الأمثلة

الأخرى ..أما فكيف ترين الأديان من حولنا كونها رسالة سلام للبشرية؟

- الكون والطبيعة هي مادة في حركة تسير وتتطور وفقًا لقوانين معينة، توصلَ الإنسان إلى اكتشاف بعضها، وما زال يجهل الكثير منها.. أما الديانات ما هي إلا سلطة ووسيلة عند الكهنة لاستغلال أو استعباد الكادحين، ومن ناحية أخرى في أذهان البسطاء تبدو عن إيمان واعتقاد كتقاليد راسخة لن تتغير.

أولئك البؤساء انكبوا منبطحين تحت الكهنة والأجبار الذين سيطرت عليهم دولة الأغنياء الفاشية من أجل تأجيج الصراعات نحو اضطهاد الآخرين وخلق التصادمات بين الناس لشغل بالهم عن حقوقهم المسلوبة.

- أولئك الأغنياء لا يرتقون إلى أن يكونوا حفنة من الطفيليات.. فلماذا السبب قد منعوا الفقراء من قراءة الكتاب المقدس، وقد أصدروا صكوك الغفران لسرقتهم لإدراكهم تمامًا أن الدين هو أفيون الشعوب..

- تتحدث عن الأغنياء كما لو لم تولد منعماً في مهاد قصور عائلتك البرجوازية، لقد وُلِدْتَ شيوعياً خواكين.

- نعم أيسير انثا.. لقد وُلِدْتُ يوم خفق قلبي حين رآك، فأنت الآن عائلتي التي ألقيت وراء ظهري كل شيءٍ من أجله، سأحيا بك ومعك وإليك حتى آخر عمري..

- أحبك خواكين، وعشقتك يسري بداخلي خمرًا وقد غمر القلب والروح حتى الثمالة ..

- وبهذه المناسبة أشدّد على أنه في العائلة، الرجل هو البرجوازي والمرأة تلعب البوليتاريا ..

تعالّت الضحكات الباشّة وهما يُمطران شفاههما بقبلات غزيرة وغطيا حاضنين عشقهم محتضنين بعضهم البعض، وأحداقهم تتهامس بعبارات العشق والهوى ..

مكثا كذلك وهما ينهلان من بحر العشق خمرًا حتى سال على شفاههما، إلى أن تعكّر صفو نهر حبورهما حينما بزغت في الأفق أصداء صوت محرك سيارة مقبلة، فهبّا ليلملا شتات سترهما المبعثر من تحتها ليرتديا ملابسهما .. وليركضا ناحية جمع رفاقهما وهما يتبادلان نظرات الحب المصبوغة بالقلق والترقّب ..

وما إن أدركا الرفاق حتى أطلعوهما على مجريات الأمور كي يأخذ الجميع حذره مُستعدين في أماكنهم حاملين أسلحتهم، مترقبين عابري سبيل، ربما جاؤوا مُعتدين، وربما حلوا عليهم أهلاً لاجئين إليهم ..

* * *

أخيرا وصلت العائلة الحائرة إلى غرب بيرينيا حيث يوجد أعداد غفيرة من قاطني القرى القريبة الذين قد بادروا بالتحرك شرقاً لصدّ أيّ هجومٍ مُحتملٍ عبر شواطئ خيخون .. توقفوا مرة تلو الأخرى سائلين

عن خواكين وبعد قليل أرشدهم شابٌ يحتمي بإحدى السيارات المعطوبة في أحد الشوارع هناك بمكان خواكين المحتمل في أحد المستودعات..

بردٌ فعل لا إراديٌّ ترَجَلت ميرثديس وقد أَلقت جسدها خارج السيارة وهي تتوقَّف بعدما أمطرت السماء غيثًا من البهجة فخدمت نيران الخوف المشتعلة بين ضلوعها.. برز خواكين من بين رفاقه المتأهين بأسلحتهم، وما أن تطلَّع بوجهه ناحية ميرثديس، انَّجَه إليها واثبًا عدة خطوات عسكرية ووقف مُؤدِّيًا التحية العسكرية الجمهورية بقبضة اليد المرفوعة التي اختلفت عن تحية القوميين الرومانية..

توقَّف الزمن فقط حينما عاد الابن إلى قلب أمه بين أحضانها والدموع تنهمر وقبلاهما تمطر وجهه، الذي قد تورَّد خجلًا وأنظار الجميع من حولهم تحاصرهم بشغفٍ يمتزجُ بآلام الفراق عن الأهل والأحبة..

هدأت عاصفة اللقاء، وتوجها إلى الأب الذي استطاع أن يحافظ على رباطة جأشه، فالتفت الأذرع وتشابك الجسدان بقوة الرجال، ومن ثم توجَّه ناحية صوفيا التي انهارت باكيةً وهو يحملها بين ذراعيه طالبًا منها بحنوٍ ورفقٍ السَّكينة وهو يُهدئُ من رَوْعِها..

وبين إلقاء التحية وطمأنة بعضهم على البعض تحركوا ناحية أحد المنازل، القابع عند ناصية مفترق طريقين ليتسامروا بعدما سكنت عاصفة اللقاء الساخنة والاحتفاء الحار ليطلع كل منهم على نبأ خلفية هذا اللقاء الذي يبعد مئات الأميال عن ضيعتهم في ساليناس..

اقتضب الحديث المرتجل، في حين انتهى الوالد من سؤال ابنه بالرحيل خارج البلاد وقد غابت شمس الرحيل، وتوارت معها البسمات الدافئة خلف وجوم خواكين وهو يغدو ويعود عدة خطوات باحثاً عن ردِّ شافٍ لوالديه، وهو يتأمل رفاقه الذين التفوا حول دائرة النار، حتى توقف وقد حسم أمره في الردِّ على طلب والديه:

- لن أستطيع أن أترك إخوتي هارباً وسط احتدام المعركة.. فحتى الآن هم لم يتفهموا وجودي بينهم، وهم يتساءلون: كيف لشاب لا ينتمي إلى طبقة العمال الفقيرة التي قوضها المجتمع أن يُقاتل بين صفوفهم؟!

أنا الآن أنتمي إلى تلك الطبقة الكادحة التي جار عليها المجتمع، وحتى الكنيسة قد رسّخت لهم قبول معاناة الفقر والتهميش والهوان في ظلّ سيطرة حفنة من أثرياء البلاط الملكي المحتمين بجنرالات الجيش، الذين جلبوا مرتزقة من المغرب وأفريقيا لإسقاط الجمهورية الثانية الجديدة التي تسعى إلى الحرية والمساواة والعدل..

انظروا إليهم.. انظروا إلى ثرى الوطن الذي خضبته دماء الإخوة، الذين سفكوا دماء بعضهم البعض متناحرين، فصاروا أعداء وغرباء في رحم الوطن..

قاطعته ميرثديس وقد خرت على ركبتيها بتوشلٍ وحسرةٍ مُمسكةً بيديه:

- فلتذهب مع صوفيا، حبيبتك الغالية.. لتسهر على رعايتها، فهي وطن لك في الغرب، أرجوك خواكين من فضلك..

ردَّ عليها خواكين بحزم مُفلتًا يديها بينما انهارت هي من عاصفة
البكاء:

- لن أستطيع يا أمي، لن أستطيع أن أدير ظهري لبلادي حينما
طلبت مني أن أُلبي نداءها مُدافعًا عنها.

هنا تدخل الوالد بحكمة للملمة شتات الحديث المبعثر بين أمّ
مُنهارة وابن حزم أمره بخوض معركته حتى النهاية، فذهب لمساعدة
زوجته المكلومة على النهوض:

- إذن لك ما تريد يا ولدي، ولكننا سنتدبّر الأمر معًا صباح الغد
في طريق العودة بعد الاطمئنان على رحيل صوفيا وأدان عن النار
المضرمة في بلادنا، وسنستكمل طريقنا، فإذا ما أثرت البقاء للدفاع عن
الوطن، فأجدي لك أن تدافع عن والديك وهما في حضن الوطن.

هدأت كلمات الزوج الحكيم من روع زوجته التي أشعرتها بقدرة
الأب على احتواء عنفوان شباب الابن بعدما وافق خواكين على
استكمال الحوار في وقت لاحق..

احتضن خواكين صوفيا وهو يُواري دموع الوداع، حبيسة عينيه
وقد احتضن كفيه وجهها الصغير متأملاً عينها الساحرتين ووجهها
منقطع النظر.. اقترب من أذنيها قائلاً:

- ستعودين يا صوفيا.. ستعودين فقط كي تُشرق الشمس هنا.

قَبَّلَهَا بَحْنُوْ وَذَهَبَ إِلَى أَدَان رَفِيقِ رَحْلَتِهَا حَاضِنًا إِيَّاهُ بِقُوَّةٍ، طَالِبًا
مِنْهُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى عَاتِقِهِ حِمَايَةَ صُوفِيَا، فَمَا كَانَ مِنْ أَدَان إِلَّا تَأْكِيدُ أَنَّهُ
سَيَبْذُلُ حَيَاتَهُ إِذَا مَا تَطَلَّبَ الْأَمْرُ مِنْ أَجْلِ صُوفِيَا..

لَمْ يَتَبَقَّ الْمَزِيدُ مِنَ الْوَقْتِ، فَكَانَ لِرِزَامًا عَلَيْهِمُ الْإِنْطِلَاقَ سَرِيعًا
صُوبَ مِينَاءِ الْمَوْسَلِ شِمَالِ شَرْقِ تِلْكَ الْبَقْعَةِ لِتَوْدِيعِ الصَّغِيرَيْنِ،
فَاسْرَعُوا بِرُكُوبِ السَّيَّارَةِ وَالْإِنْطِلَاقِ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَقَفَ خَوَاكِينُ
مُودِّعًا أُخْتَهُ وَرَبِّهَا عَائِلَتَهُ لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ وَقَدْ تَضَارَبَتِ الْأَنْبَاءُ عَنْ هُجُومِ
بَرِّيٍّ وَشَيْكٍ يُشْنُهُ الْقَوْمِيُّونَ مَدْعُومِينَ بِسِلَاحِ النَّازِيَيْنِ الْأَلْمَانِ وَالْفَاشِيِّينَ
الطَّلِيَّانِ.. وَدَّعَهُمْ بِقَلْبٍ جَرِيحٍ بِفَعْلٍ وَدَاعٍ أَحْبَبْتَهُ وَمَمَزَقَ بِفَعْلٍ الطَّاعُونَ
الْمُتَفَشِّيَّ فِي جَسَدِ الْوَطَنِ.. مُرَدِّدًا:

- سَأُظَلُّ أَبْكِي بِأَخْعَا هَاهُنَا إِلَى أَنْ تَفِيضَ الْأَعْيُنُ
بِالْكَلَامِ.. سَأُظَلُّ أَشْكُو نَادِمًا حَتَّى يَجْفَ اللِّسَانُ عَنِ الْكَلَامِ.. فَوَاللَّهِ لَنْ
تُجِدِي الْعِبْرَاتِ، وَقَدْ أَضَحَتْ كِهَاءُ الْبَحْرِ كُلَّمَا ارْتَشَفَتْ مِنْهُ شَرِبَةً، زَادَ
النَّهْمُ لِأَقْدَاحِهِ حَتَّى امْتَلَأَتْ الْبَطُونُ مِنْ ظَمْئِهِ وَزَادَتْ الصُّدُورُ أَلْمًا
وَصَمَّتِ الْحَنَاجِرُ كَمْدًا..

أَيْنَ السَّبِيلُ؟! أَيْنَ السَّبِيلُ وَقَدْ فَاضَ بِئْرُ عِشْقِ الْأَحْبَةِ بَغِيْثِ
الْعِبْرَاتِ وَمَا زِلْتُ أُرْهِنُ شُكُوَايَ لِمَسَامِعِ الْوَرَى.. أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى سَكَنِ
الْأَفْتَدَةِ وَقَدْ بَاتَتْ هَاجِعَةً فِي دُجَى لَيْالٍ مَا مَلَأَهَا سِوَى دَنْسِ
الثَّرَى.. أَذَلِكَ الْقَابِعُ بَيْنَ الضُّلُوعِ قَدَبَاتٍ غَرِيبًا فِي دُرُوبِ مَدْنِهَا! لَيْتَ
شُعْرِي فَلَمْ أَصْدُقْ عَيْنِي لَمَّا غَرَسُوا مَخَالِبَ الْغَدْرِ فِيهَا فَخَرَجَتْ قُلُوبًا

عابدةٌ ساجدةٌ لأصنام صنعها الغشُّ، وركعت أسفل أقدام عرش
الزيف والخيانة.. أبداً لن تكون نفسي قشة تلطمها أمواج الأيام.. غريقة
في بحر الضلال.. إذن ما أنت مني.. لكنك نبتةٌ شيطانية من طلح
بستانها الذي نفشى فيه الطاعون..

بستان الهلاك.. الذي سرت إليه عبر جحيم صحراء عشقها
القفر.. حيث اكتويت فيه بلهيب الشهد والجفاء، فحينما دخلت جنة
ملكها جاثياً من آثار الجرح والألم، رأيت أناساً ما هم ببشر.. أسراب
غيم بلا مطر.. وجدت العذاب والظلم أوراقا تتساقط من أعلى الشجر،
فلمست قلباً قد خلِقَ من حجرٍ.. حدثوني قبلها عن الألوف الصرعي
من قبلي، ولم ينفطر.. نظرتُ إليها باحثاً عن سيف السؤال فلم أجد
سوى خنجر الغدر وقد احتضنه فؤاد الوطن راضياً.. راضياً بالهوان
والظلم والمذلة.. فما كان لي سوى أن أطهرَ الجسد من دنسها.. فنزعت
طلح ثمرها ونحرتَه بيدي فلم يمت بسمّها، ورغم أنين الجروح
وأوجاع الآلام فإنها ما زالت تذرف دماً من أعين الوطن..

اختفت السيارة وسط الظلام، ولم يتبقَّ سوى كلمات في الصدور
يحركها ضوء القمر، الذي حجبهُ طيور الظلام التي راحت تُلقِي
شرورها فوق رؤوس حُماة الوطن..

وما إن ابتعدت السيارة البويك عدة أميال عن بيرينيا حتى أغارت
الطائرات مرة أخرى، ولكن دويّ الانفجارات هذه المرة كان شديداً،
فانقبضت معها قلوبُ من تابعوا درهم مستمرين في المضيّ قدماً صوب
ميناء الموصل..

الفصل السادس

زاغت الأعين واستقرت فورة الاضطراب والبلبلّة في قلب الطريق
المُعتم.. تباعدت المسافات، وتقاربت المشاعر الحائرة حول حقيقة
واحدة غابت ورحلت مع غروب الشمس الباكية.. تجمّدت العبرات في
العيون والعبارات في الصدور وسط سماء مُلبّدة بغيوم الغموض..
اقتربت حُمم براكين الأنفس الشائرة من إدراك أمواج بحر الظلمات
العاتية، مُودّعة أفئدة وأرواحا ستمتطي سفن الشمس، باحثة عن
مصيرها المحتوم..

وسط أجواء ظلام الليل الحالك وأصداء الصمت الساكن أشعت
صوفيا ببهاء نور روحها الوليد، الذي أضحى سراجاً يُنير دُجى الهائمين
بحثاً عن ميناء الصمت.. لم يكن توهّج وجه صوفيا في تلك الليلة هو
الغريب، ولكن الأغرب على الإطلاق كان نشور روحها في جسدها
الهامد وإياها برفقة تلك الهالة المبهرة التي تمكّنت منها، واحتضنت
نفسها المختلجة..

اعتدلت صوفيا فوق مقعدها وقد بدت عليها معالم الحيوية التي
أسبغتها سالفاً، التي قد ضاعت بين أطلال محرابها المقدس لتعود لها تارةً
أخرى..

- هل أدركتنا الطيور المهاجرة اليوم يا والدي؟

بزغت كلمات صوفيا التي توارت خلف ظلال يومها البائت
كالبرق في أعين الوالدين المتعبة، اللذين بدت عليهما معالم الدهشة
الشديدة من السؤال المفاجئ الذي كَسَرَ جُمُود المخاوف المسيطرة عليهما،
فلم يستوعبا ماهية السؤال، فكان بديهيّاً غيَابُ الإجابة عن سؤال
زادهم حيرةً..

أجابت ميرثديس باقتطابٍ وبصوت مهموم مُتعب:

- ربما، ولكن لم تستوقفنا اليوم مشاهدة الطيور المهاجرة عزيزي
صوفيا.

- لم يتبقَّ لنا سوى ساعتين كي نصل إلى الميناء، هناك سنفترق إلى
حينٍ من الزمن.. حتى نصل إلى هناك، أبتغي أن أقص عليكم نبأ الطيور
المهاجرة..

تبادل الزوجان نظرات التعجب وانغمسا في قالب من الحيرة
والاستغراب مما آل إليه حال صوفيا، فما كان من خوان سوى أن قام
بالرد عليها، مُحاولاً رسم ابتسامة لاستيعاب رغبة الصغيرة في الحديث:

- حسناً.. لا بأس صوفيا، فلتؤنس كلماتك دربنا حتى نصل إلى
وجهتنا.

- عشرون ألف ميل هي رحلة الطيور المقدسة من أجل البحث عن وطن .. وطن يضمن لهم إشباع جوعهم ويُظِلُّهم بالسلام والأمان من أجل نشر الحب بينهم، ليسكن بعضهم لبعض عبر رباط الزواج المُقدَّس ..

آلاف يهاجرون صُحبةً في أسراب يستدلون بالشواطئ والموانئ يحفرون في ذاكرتهم جغرافيا تاريخ رحلتهم .. ضربات أجنحتهم المختلفة الخاصة بكل واحد منهم تبدو كأنهم يضربون جسد الماضي البغيض هاربين من شبح الآلام وعذاباته المريعة .. ينحرفون يومين عن مسار رحلتهم المقدرة لهم، تاركين عنان أجنحتهم لرياح الشمال كي تحمل أجسادهم الصغيرة المرهقة لتسرتيح من المتاعب والأوجاع ..

يبحثون عن الريح أحيانا، ولكن هدفهم الأسمى الأوحـد دوـما هي شمس الآمال، التي هي طريقهم إلى الوطن، فهم لا يستطيعون اللحاق بركب الأرض المقدسة إلا عبرها، وما بداخل كل طائر من روابط وتفاعلات معها سوى حكم إلهي مُحْكَمٍ بالارتباط الأرضي الحتمي ..

حتى في دُجى الليل لا تقوى الطيور المهاجرة على استكمال دربها سوى بتوجيه مواقع النجوم السابحة في فلك الشمس ليلا، فإذا ما ترملت السماء بالغيوم توقفت عن الطيران، فإذا ما عاندت القدر فإدراك الهلاك هو المصير المحتوم.

أسهبت صوفيا متحدثة عن حقائق تعجز عقول البالغين عن إدراكها، فأدرك الذهول عقل الوالدين وأدان ووجدانهم .. ذهول

انعكس على مرآة وجوههم إعصاراً عصف بالكلمات في أفواههم،
وأعجزهم عن إدراك ما ألمَّ بصوفيا الصغيرة.. أمّا أدان فكان أقلهم
حيرةً في أمر صوفيا حيث بدأت تنجلي في وجدانه بالفعل نبوءة السيدة
العجرية..

لم تتوقّف صوفيا عن الحديث إلى والديها وهما منها في حيرة ودهشة
تعاظم كلما اصطدمت كلماتها الجديدة على مسامعهم بعقولهم المشوشة
أصلاً.. حتى أوقفت ميرثيديس سيل حديث صوفيا الرشيد، موجهة
إليها السؤال بتعجّب شديد:

- توقفي صوفيا.. وأخبريناها هنا.. من قام بقصّ ذلك
عليك؟! فما عهدناه في كتبك المدرسية أو في مكتبة والدك!
- يا أمي ما هذا إلا غيظ من فيضٍ بداخلي، يُوحى إليّ عبر
صدى يصدر بداخلي منذ غابت شمس الأمس
- أتعين ما تقولين صوفيا؟! ويحك ابنتي! فلا أنا ولا والدك عدنا
نتدبّر ما يصدر عنك منذ ساعة وأكثر!
- أوافقك الرأي زوجتي الحبيبة.. أمرك بات غريباً للغاية حببتي
صوفيا..

واستطرد بصوتٍ خافتٍ ينحصر به زوجته:
- لعلها آثار الويلات المفجعة التي ألمّت بنا وقد شاهدتها بأمّ
عينها..

ردت صوفيا بصوت هادئ:

- يا والدي لا تقلقا، ستدركان كل شيء في حينه..الآن يا أبي عليك الاستدارة وإيقاف السيارة لفينة من الوقت حتى يتسنى لنا الترجُّل، كي نتوجه إلى سفينة الشحن المرابطة هنالك..

تجاوزَ التعجُّب والخيبة المدى حينما تدبَّر الوالدان الطريق، وقد أدركت أبصارهما حدود ميناء الموسل، ليريا الأطفال يترجلون أولاً صوب أحد الأرصفة الذي ترسو على جانبه سفينة بضائع..

تعانقت تراتيل الهدى وترانيم الأمل مع سكون الآلام تحت سماء الخوف في ميناء الصمت، وقد حزم الجميع حقائب الرحيل باكين على ماضٍ ينتحب وحاضر ينزف..

في ميناء الصمت كان أنين أبناء الحرب المكلمين أهزوجة رثاء لثرى الوطن الباكي على رحيلهم.. أطفال تبكي خوفاً وقلوب ذويهم تحترق ألماً على ما آلت إليه الأمور.. نواح لأمهات ثكلى وصراخ تكتمه أيادٍ مُرتعدة.. صغار يستصرخون آباءهم ألا يلقوهم في تهلكة المجهول، وصغيرات يتوسلن لأمهاتهن ألا يفارقن أحضانهن الدافئة، وآخرون يلقون اللعنات وهم يصعدون على متن سفينة الغيب..

سفينة شحن فرنسية تُسمى ديريجيرينا ما زالت هناك في الأفق القريب.. في مرمى بصر عائلة صوفيا التي تورات متهية لتوديع فلذات أكبادهم..كان من الغريب في تلك الأثناء تبدُّل الأحوال، فمَنْ كان يَدَّعي الثبات خارت قُواه، ومن كان هائماً في مُستنقع الخوف دبَّت فيه قوة غريبة أذعن لها الشحن والألم..

- لقد حان الوقت يا والدي.. فلقد كُتِبَ عليَّ الرحيل لكني عائدة.. ستعود روح صوفيا بقلب جديد إلى جسد الوطن الذي سينفض غُبار الماضي.. فلا بكاء اليوم.. دعوني أتذكَّرُ وجوهكم القوية الباسمة ولتكن مشيئة الله نافذة.

- ابنتي الحبيبة تذكَّري هذا ولا تنسيه، احتفظي بهذا الكتاب المقدس؛ ففيه خلاصُك إرثُك الذي تركته لك.. تدبَّري أمره واحفظيه، فهو حافظُك و تدبَّري غلافه القرمزي وما يحويه، فهو خريطة لدرب جنتك في الأرض..

وألقى بناظره إلى أدان ليُواصل الحديث مُسترسلاً:

- اعلمْ أنك كأخ لها، فكنْ لها خير معين.. احفظها واسهر على راحتها ولا تنسَ أن تهتمَّ بنفسك يا أدان، لا تدعَ أحداً يعبت بكتابكم هذا.. يوماً ما ستدرك الأمر وتعي مغزى قولي هذا.

- سيد خوان سأسهرُ دوماً على رعاية صوفيا، ولعلنا ندرككم قريباً.. سيد خوان أقدِّرُ لك ما فعلته من أجلي وفاءً لعهدِ قطعته لوالديا.. فلتتذكر أن حياتي ستكون دائماً ثمناً بخساً فداءً لصوفيا.

- ابنتي الحبيبة فليحفظك اللهُ ويرعاك في رحلتك تلك، ولتكن تلك المسبحة الغالية في يدك أينما تكوني، بين يدي الله في أي مكانٍ حتى نلتقي مرة أخرى..

استقرَّ الكتاب المقدس ذو الغلاف القرمزي السميك والمسبحة الثمينة في يدي صوفيا، لتطويهم على الفور بين ثنايا حقيبتها..

استعادت كتابها بعد أن استنجد به خوان بكنيسة سانت توماس في أيبليس .. ابتسمت صوفيا وهي تتأملُ قسَمات وجه الأم الحانية الودود وإيحاءات الأب المتطلعة إلى كشف النَّقاب عمَّا أودعه لصوفيا من إرث عظيم ..

- فلتعلم يا أبتِ أنه قد قُدِّر لي أن أقوم بهذه الرحلة، وستعود صوفيا إلى ضيعتها، ستجمع حصاد ما طرحته لي هنا... الآن علينا الذهاب، فالفجر قد أوشك على الطُّلوع، ولم يُقدِّر لنا الله أن نرى الشمس الوليدة هنا..

هنا تبادل الأم و الأب المُلتاعان، مفطورا القلوب توديع ابنتهما الغالية بإلقاء القبلات المبللة بالدموع والأحضان الدافئة من نار البعاد المُرتقب وهم يحاولون التشبُّث بها وفي طريقهم المسدود صوب نهاية المرفأ حيث تنتظر سفينة الخلاص ..

مشهدٌ مهيبٌ حينما تسارعت أقدام الجميع نحو السفينة، وتسارعت معها دقات الأُفئدة المطردة وانفرطت الأيادي، وزاغت الأبصار وتناثرت زخَّات الدمع لتغرس بذور البعاد شوكةً في الصدور ..

ساد الهرج والمرج والسفينة تكاد تُقلعُ مع دنوُّ الفجر الجديد، ولولا توسُّلات ميرثديس وتدخلُ خوان ما كان لأدان أن يستقل السفينة بجوار صوفيا حينما رفض القائمون على أمر السفينة السماح له بالصعود على متنها .. بحجة تجاوزه السادسة عشرة، بسبب طول قامته وظهور معالم البلوغ عليه، ولكن بعد محاولات مُضنية عدَّة وعشرات

التوسّلات والإيمان لهم أنه لم يتجاوز الخامسة عشرة، دفعهم ذلك في نهاية المطاف إلى قبوله ليكتمل عقد السفينة ب ١١٠٠ طفل وطفلة متوجهين إلى ميناء بوردو في فرنسا..

صعدت صوفيا برفقة أذان بثباتٍ على متن السفينة التي ارتدت ثوبًا من القُبْح والقذارة.. حينما ارتادا السُّلَم متجهين إلى أسفل، وجدا مئات الأطفال الذين وُزّعوا هنا وهناك في قبو السفينة..

وسط تعالي صرخات الصغار ونحيبهم كان للمشرفين على أمرهم دورٌ بارزٌ في التهذئة من روعهم، وكان للسيدة آجيذا رويث تورييوس عظيم الأثر بفضل حنوّها وقُدّرتها اللامتناهية على استيعاب الأطفال المرتعدين خوفًا والمتألمين من ويلات ما لاقته أعينهم من مأسٍ ومن آلام الفراق عن أهلهم..

لم تكن سفينة البضائع مُعدّة لاستقبال ركاب على متنها.. فتعيّن على ألف ومائة طفل أن يتدبّروا أمرهم، آخذين من القشّ أسِرّة لهم وقد تلحفوا بسُتراتهم كبطاطين تؤويهم من البرد..

كان الصمت في مطلع اليوم الأول هو اللغة السائدة وسط نظرات حائرة وعيون ارتسم عليها الاستسلام للمجهول، الذي أضحى يدقُّ أبواب صدورهم.. اتخذ بعض المهاجرين الصغار من أجساد رفاقهم ملاذًا يحتمون بهم من وحشة الصمت القاتل، بينما الوقت الذي لم يكن بالإمكان تدبره ودقائقه تمرُّ كالشهور وساعاته تمرُّ سنين وعقودًا على جميع الجاثمين في قبو سفينة الشحن تلك، أخذ يمر كالجلاد يلدغهم

بسوط طعام شحيح لا يكاد يكفي وُجِدَ بداخل السفينة، وقد ألقى لهم أطباق الترقُب والخوف طعامًا ألبس مسغبة الجميع رداء الشبع..

لم يمضِ كثيرٌ من الوقت قرب نهاية اليوم حتى صدحت صوفيا بالغناء، وبات صوتها العذب يشدو مُحْتَضِنًا أفئدة الصغار ليدفع لهم صدورهم من الرهبة.. صغار وصغيرات من مدن وبلدات وقرى أستورياس وإقليم الباسك.. صغار وصغيرات اكتسبوا مناعة خالصة لمقاومة الشعور بالحياة..

كان من الممنوع على الصغار الصعود لسفح السفينة، فاعتادوا قلة الحركة وكثرة الخلود للنوم محاولين تجاوز الزمن.. فلم تطأ الشمس رؤوس أبناء الحرب بضعة أيام، ولن تستطيع خطواتهم الصغيرة أن تحتضن ثرى الوطن الغائب، ربما سنين مهما تقصُر ستصبح طويلة..

أضحى من المُحَيَّر تعلُّق أعين الجميع بصوفيا وأدان بجوارها قد خلق من أحضان ذراعه مَحْدَعًا لها، وكان من العجيب أن تهفو قلوبهم إلى روايات صوفيا الغريبة، التي باتت لا تكفُّ عن سردها.. روايات تروي أراضٍ إنسانيتهم الظمأى وبشريتهم العطشى التي كادت تجذب وسط معول الحرب الدامية.. أمست تُذيب جبال الثلج من فوق الحناجر، وأصبحت تفجر ينابيع البراءة، فأبحروا في نهر السلام.. روايات وقصص كان مدادها مياه البحر الذي احتضن رحلتهم، مداد لا ينفد كماء البحر.. حينئذ تشابهت البسمات الخائفة والضحكات الباكية..

تشابهت وجوه الأمل الهاربة من شجرة العصفير المحترقة.. أخيرا
تمكنت صوفيا من إزاحة ركام الحزن ورماد الخوف.. تسامرت الأفئدة
حين خلت الأمعاء فشبت الأرواح من فاكهة جنان الروح.. حرث
أبناء الحرب ممن آمنوا بروايات صوفيا لأنفسهم حرثًا ولم يزرعوا في
الأشواك فاختفت البذرة في رحم أرضهم العطشى، فدقت الجذور في
القلوب بأمان حتى ارتوى ظمؤها..

وبينما كانت صوفيا تقصُّ عليهم لفافات الماضي، وتروي أفئدتهم
بقصص الغابرين وأساطير الأولين وهم يُنصتون إليها بشغفٍ وعيونٍ
باسمةٍ، انتفضت وصوتها يُدوي ويكاد يهزُّ جنبات قاع البحر، وهي
تقول:

- لقد غادرت أفئدتنا سماء بلادنا بعدما أحرقتها الآثمون من
أبنائها.. أرباب الشرير على أرضه، وقد أوحى لنا الربُّ أننا سندرك جنة
طيبة تحتض ليالي بيضاء لا مثيل لها.. فلا تخافوا حين تُصاب سفينتنا
هذه.. سنغادر تلك السفينة قريبًا، بعدها سنبحر في أخرى.. حتى نبلغ
أرض الأنجل، أرضًا يُعانقُ رايتها شفيح البلاد، مار جرجس قاتل
التين.. أرضًا تحتضن كاتدرائية كانتربري.. سندركها كي نودّعها
بوجوه متطلعةٍ إلى نجمة الشمال.

وقفت فتاة صغيرة لم يتجاوز عمرها العشر سنوات وبصوتها
الناعم الحالم، وبنبرة تغمُرُها البراءة والنقاء خرج سؤالها عَفْوًا:

- ولماذا قام أبناء بلادنا بتدمير ديارنا وحرق رياضنا؟

- لأن شعبي أحمق. إياي لم يعرفوا. هم بنون جاهلون، وهم غير فاهمين. هم حكماء في عمل الشر، ولعمل الصالح ما يفهمون.. نظرتُ إلى الأرض فإذا هي خربة وخالية، وإلى السماوات فإذا هي بلا نور.. نظرتُ إلى الجبال فإذا هي ترتجف وكل الآكام تقلقلت.. نظرتُ وإذا لا إنسان، وكل طيور السماء هربت..

وهنا أجهشتُ بالبكاء، فبكى الجميع صغيرًا وكبيرًا، ومن ثم استطردت:

- نظرتُ وإذا البستان برية، وكل مدنها نقضت من وجه الرب، من وجه حمو غضبه..

تسمّر كل من كان على متن السفينة بمكانه، شاهدًا لهذا الموقف المهيّب، متأملاً تلك الفتاة التي هزّت الوجدان فبكى، ولمست الفؤاد المجروح ففاض وأفاض..

سكتت صوفيا هنيهةً حتى تسكن الأنفس، ومن ثم تابعت لتدركها الطمأنينة ومن يتابعها:

- لأنه هكذا قال الرب خرابًا تكون كل الأرض، ولكنني لا أفنيها.. من أجل ذلك تنوح الأرض وتظلم السماوات من فوق، من أجل أني قد تكلمت. قصدتُ ولا أندم ولا أرجعُ عنه.. من صوت الفارس ورامي القوس كل المدينة هاربة. دخلوا الغابات وصعدوا على الصخور. كل المدن متروكة، ولا إنسان ساكن فيها.. وأنت أيتها الخربة،

ماذا تعملين؟ إذا لبستِ قرمزا، إذا تزينتِ بزينةٍ من ذهب، إذا كَحَلتِ بالأُثمد عينيكَ، فباطلاً تحسنين ذاتك، فقد ردلك العاشقون، يطلبون نفسك..

- يا إلهي! يعجز عقلي عن استيعاب ما يجري هنا.. أبانا الذي في السماوات فليتقدس اسمك، ولتباركنا العذراء أمُّ المسيح، التي أشعُرُ كما لو كانت أطيافُ روحها تعمُّ أرجاء المكان وتفيض بجنابات السفينة..

- ما هذا؟! كيف يتسنَّى لفتاة صغيرة لم تتجاوز الثالثة عشرة وتكاد تبلغُ الحُلُم، أن تُزيح السُّتار عن سفر من عهود الغابرين، لتخلق من كلمة الله في كتابه المقدس مرآة سحرية تعكس بها حالنا الآن وحالتنا الآنية التي تجسَّدت أمام أحداقنا خراباً حلَّ بمدينة الربِّ بمعول إبليس وبرائن الخطيئة..

- لقد وقفت مشدوهة من جلالِ الموقف المهيب وعظمه، وقد فُغرت أفواه الكثيرين، وارتجفت فرائص البعض، وجال الدمع في عيون آخرين، وجفل القليل برهةً من الوقت.. بينما أخذت تلك الصغيرة توخر أفئدتنا بأشعة النور المقدس لتهدأ عاصفة الخوف، وقد غمرت صدور الجميع صغاراً كانوا أم كباراً بفيضٍ من السَّكينة.

- راقبتها عيناى بحر صٍ شديدٍ وقلبي أسيرٌ بين يديها.. عنفوان صدقها وبلاغة تعابير وجهها احتضنت رفيقها ونحن من حولها، وكأنها كانت تُحدِّثه أو تحدِّثنا عبره.. فلم تُشخِّج بوجهها عنه طوال الحديث، ودموعها تسيل على وجوهنا نحن، وكأنها كانت تُشهدُه علينا أو تُشهدُنَا نحن عليه..

- سيدي أقسم لك بالمسيح في السماء والمجد له في الأعالي أن المحترم أنتونيو قُمص كنيسة القديس توماس لم يستطع أن يؤوّل إصحاح سفر أراميا هذا كما عبّرت عنه تلك الصغيرة بهذه الطريقة الروحانية الفريدة، التي تجلّت بها وأفاضت فيها نفحات نورانية وإلهام رباني مُنقطع النظير.

- سيدة دولوريس، أصدّقك القول فما فعلته تلك الحورية الصغيرة لا يخطر على بال بشر في محيّتنا تلك.. لقد شرحت صدورنا الموصدة بأقفال الغبن والضّيم، صدور أُنطبقت عليها أثقالٌ من غبار قسوة الرحيل وأدخنة حريق الأفتدة على فراق الأحبة في أوطان دنسها الشرير، وكأنه الوداع يوم نهاية العالم.. صورة مؤلمة لما جرى لنا من خرابٍ ودمار نتيجة آثام البعض منا وخطاياهم.

- ربما أرادت أن تُوحى لنا أن الحرب التي أضرمت في أروشليم هي نفس الحرب التي نخوضها الآن في مُجابهة إبليس..

- نعم أعتقد أن هذا ما أرادت أن توصّله إلينا..

- ولكن سيدي.. الكثير ممّن على متن تلك السفينة البائسة قد فقدوا إيمانهم أو هم على حافة هاويته أو قاب قوسين أو أدنى منه..

- صدّقاً آسى لهم وأنا لم كثيراً سيدة دولوريس.. فالإنسان في زمن المحنة إذا ابتعد عن الله، يلجأ في كثير من الأحيان إلى تجرّع خمر الملذات الشهوانية لعالمنا هذا ظناً منه أنها ستنسيه الآلام، وستداوي

الجروح، ولكنه في حقيقة الأمر يتعد عن أسوار الإيمان، حينها فقط يُمسي صيداً سهلاً، لتلقفه براثن إبليس الخبيثة، وحين يستيقظ من غفوته تلك لن يجد سوى آلام العذاب الأبدية في جحيم الظلام.

- حقاً سيدي.. فهو دائماً ما يدفعنا دفعاً لأن نتذمّر على الله بسبب أيّ تجربة مؤلمة لكي نسير في دربه المهلك.

- نعم سيدة دولوريس.. ولكن ما يجري هنا لهؤلاء الأطفال ليس بتجربة مؤلمة أبداً.. ولكنها مُدمّرة للكثير منهم..

- أتفق معك تماماً سيد اليخاندرو..

- ما أتعجّب منه صدقاً هو قدرة تلك الفتاة المذهلة اللامتناهية على استيعابها لأنفسنا وتذكيرها لنا دون أن نشعر أننا قد تناسينا أن حكمة مَنْ خَلَقْنَا كانت في أن يحفظ لنا في كتابه كلمات تحفظنا حين نحفظها عن ظهر قلب.

- لتكون لنا جسراً يربطنا بتلك الأزمنة الغابرة..

- نعم سيدة دولوريس، وليصل بنا ذلك الجسر إلى برّ الأمان حينما لا نفقد الإيمان بداخلنا ولا نتبع شرور أنفسنا الضعيفة، ولا الشرير من حولنا ونحن له صاغرون..

- أظنُّ سيد أليخاندرو أن كل ما جرى منذ قليل هو مصادفة ربّتها تلك الصغيرة مع رفيقها اليافع هذا، فكثيراً ما رأيتها في العِشّة والإبكار تحتضن بين يديها الكتاب المقدس.. أم تعتقد أنها إشارة لنا من

السماء؟

- قولاً واحداً، ما كانت تلك الكلمات لتخرج في ظرفنا هذا سوى من فم حَبْرٍ أو راهبٍ، وربما قديسٍ..

- لا أدري سيدي.. ولكن أشهدك أنها كانت مرّتي الأولى منذ ولدتُ التي أذوقُ فيها حلاوة ذرف دموع الإيمان وهي تنهمر على وجهي هذا بردًا وسلامًا، والقلب بداخلي بدا وكأنه يتنقي مُتطهرًا كما يتنقي الثوب الأبيض من الدّنس، لكنه كان يتطهر في الحقيقة من دنس الذنوب وسواد الشرور.. ولتصدقني فالآن ونحن نتجاذب أطراف الحديث، أشعرُ بمداد كلمات الله يغمر شرايين جسدي ويروي ظمأ روعي العطشى..

- أصدقك سيدة دولوريس.. وأكاد أجزم لك أن الكثير ممن كانوا هنا قد شاركوك هذا الإحساس البديع والشعور المُتفرد..

بينما انتهى الحوار الذي دار بين السيد أليخاندر و طبيب السفينة والسيدة دولوريس الممرضة المساعدة له وهما يُمعنان النظر بصوفيا التي راحت تبكي بحرقة ووجهها لا يزال مُتعلقًا بأدان، نزلت كلمات صوفيا كالصاعقة على سيدة تقف بجوار السيد بابلو مياخا، امرأة في أواخر الأربعينيات من عمرها، قصيرة القامة ممتلئة القوام، ترتدي قميصاً أخضر وتنورة بنية اللون، ويتدلّى من على كتفها شالٌ أسود، وقد سَقَطَ من بين يديها معطفٌ من الصوف، وهي تتلعثم مُحاولَةً أن تستجمع الكلمات الحائرة، وقد ارتسمت ملامح الذهول والدهشة على وجهها، ثوانٍ مرت حتى خرجت كلمات من فمها قائلة:

- يا إلهي في السماوات! من هذه الفتاة سيد بابلو؟!
- إنها صوفيا مارتينيث ماريث عزيزي مارتا.
- يا ربي، من أين أتت تلك الفتاة؟!
- ساليناس، إستورياس عزيزي مارتا..
- هل تدري هي ما قالته توًا، سيد بابلو؟!
- لست أدري عزيزي مارتا، ولكن من يتلو كلمات الله على الأسماع في ذلك الموقف الجلل بتلك الحالة الاستثنائية لا بد أنه يعلم ما تحويه تلك الكلمات من معنى عظيم..
- ولكن من الذي أطلعها على مسار رحلتنا، وقد تكتّمنا الأمر ولم نخبر به أحداً؟!
- صدقاً لا أدري.. أستميحك عذراً سيدة مارتا..
- استجمع السيد بابلو قواه وقد جفّف دموعه التي تساقطت فاقترّب من الصغار المستلقين على الأرض، وقد انتابتهم حالة جماعية من البكاء وبصوت قويّ سألهم:
- أحبائي الصغار، أتدركون ما كانت تقوله العزيزة صوفيا؟!
- تبادّل الصغار إلقاء النظرات على بعضهم البعض فتناثرت أحرف السؤال دون إجابة:
- صغاري الأحباء، أتدركون تفسير ما كانت تقوله صوفيا العزيزة؟!

- لا،

حسنًا لا..

لا نعلم..

تعددت الإجابات من أفواه الصغار، وفحواها كان واحدًا حينما كرّر عليهم السيد بابلو السؤال بصوتٍ أعلى:

- إذن فلماذا تبكون يا أحبائي؟!

- لا أدري... لا أعلم لماذا... لأنه لمَسَ قلوبنا سيد بابلو.

- هل تبكون جميعًا لأن تلك الكلمات لمست قلوبكم فأبكتكم؟!

- نعم.. نعم سيد بابلو.. نعم سيدي.. نعم.....

تبادل السيد بابلو والسيدة مارتا نظرات الارتباك، فعاد السيد بابلو ليسألهم مجددًا:

- أحبائي، الكلمات التي تلمس القلوب لا تُبكي بالضرورة..

فماذا فهتم من تلك الكلمات كي تُبكيكم؟!

- الأشرار يخربون الأرض.. الناس حمقى.. الربُّ حزين ويتألم

بآلامنا التي تعترضنا..

ابتسمت صوفيا وقد اشرأبت لترى لمسة من الحيرة لا تزال تمسح بوجه السيد بابلو، الذي قد جالت عيناه بين أعين الصغار الكاشفة حتى استقرت عليها وهي تستجديها أن تُزيح النقاب عن ذلك الضوء

الخافت، الذي تسعى هي أن يعبر بأولئك الضحايا جسر الخوف ليتحسوا بواطن أمور الدنيا ليُدركوا حكمة الخالق..

- اسمح لي سيد بابلو فأرى أنا وإخوتي، أبناء الحرب ها هنا ما يراه فؤادك المتألم ممّا آلت إليه الأمور حين نزع من الأرض جهاها وزيتها، وقد أظلمت السماء من فوقنا ربما يأسًا من الخلاص، وربما للعمى الذي قد لحق بمن يعتلون سُدة الحكم، ويظنون أنهم يُنيرون أفئدة شعوبهم وعقولهم.. أرض السلام لن تظلّ خرابًا هكذا، فذلك وعدُ الله، ومنْ يستطيعُ أن يمدّ يده إلينا سواه.. فصدق الله حينما أرشدنا إلى سبيل الخلاص بآلا نرتمي في أحضان آثام الخيانة، فلا شيء سيُعفى من قضاء الله سوى خلاص الآلام بالتوبة الحقيقية..

لحظات من الصمت سكنت صدر السيد بابلو الذي زاده شعر الذهول بيتًا من الوجوم وبجواره قد خرت السيدة مارتا راكعة لتُصلي والدموع تنهمر من عينيها:

- خبريني صدقًا، مَنْ أنت؟

- من اسمي ستعرفيني، ومن قولي ستدركيني..

جلست صوفيا وقد تركت الجميع في حالة من التوهُّج الخافت لأحاسيس صادقة تنزع ببطء نزعات الاضطراب.. وكأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، هكذا ارتقى جميع من عانق أريج الفردوس في سماء الخلاص في خضمّ ضراوة آتون الشر الذي يُطارِدُهم للإيقاع بهم في شباك جحيم اللعنة الأبدية على أرض الميعاد.. فكم كان ساحرًا تحطيم

أغلال البؤس والتحليق في أفق حالم أرحب، رسمته تلك الصغيرة التي
افتُتِنَ بها سجناء فلك الضيم صغارًا شبيهم الشيب، وكبارًا أضامتهم
الشبية ..

لم تكد تمر دقائق حتى اهتزت السفينة بشدة، ودوى انفجار مكتوم
فانكبَّ على وجهه جميع من كان واقفًا، فسارع أدان بعفوية لاحتضان
صوفيا، التي رمقته بابتسامة وضاءة تكشف عن امتنانها له، ولكي تُهدئَ
من روعه.. تعالت الصرخات وبُثَّ الرُّعب وجَزَعُ الجميع، ومن ثم
ساد الهرج والمرج حتى تدارك السيد بابلو ومن معه زمام الأمر، وقد
سعوا جاهدين إلى بثِّ الطمانينة مرةً أخرى في قلوب الصغار التي
اعترأها الخوف والهلع.

تعالت نداءات ربَّان السفينة الفرنسي طالبًا النجدة من سلطات
ميناء سانت نازيري الواقع عند مصب نهر اللوار في فرنسا بعدما
تعرضت لإصابة مباشرة في بدن السفينة.. وكان من حُسن الطالع وجود
سفينة الشحن الروسية كوبراسيا التي تعني التعاون بالروسية، السفينة
المسئولة عن نقل أبناء الحرب إلى وجهتهم التالية ..

ساعات مرت على الجميع ثقيلة كالسنين وسط تناثر الأخبار عن
تدفُّق المياه للداخل وغرق بعض من الأجزاء السفلية المتاخمة لغرفة
المحركات .. فصعد الجميع أعلى ليرتقوا سفح السفينة وسط حالة من
الاستنفار والترقُّب.. وسط صراخ وامتعاض وتشنُّج.. بعدها تم
ترتيب نقل الجميع إلى السفينة الروسية عبر قوارب النجاة الصغيرة ..

كان في طليعتهم صوفيا وأدان، اللذان تقدّما الآخرين ليحرروهم ولو قليلاً من شبح الفزع الذي ما فتى يطاردهم.. لم يختلف حال الناقلة الروسية كثيرًا عن الأخرى الفرنسية، فكلاهما كان غير مجهزٍ لاستقبال هذا العدد الكبير من الأطفال.. وبين وجوه جديدة غريبة أمست الآذان تلاحق كلمات غير مفهومة فرنسية كانت أم روسية، ولكن لغة التواصل كانت تلك النظرات الحانية وبسمات الطمأنينة التي اعتادوا استقبالها من غرباء قدّموا إليهم أسمى آيات العطف والودّ، اللاتي قد سلبن منهم على أيدي أبناء أوطانهم..

- ما محطتنا التالية؟ أستكون تلك المدينة الروسية سيد بابلو، أم كما أخبرتنا صوفيا ستنوّجّه أولاً إلى بلاد الإنجليز؟!

- لا.. لن تكون لينينجراد محطتنا القادمة، فستتجه أولاً صوب مدينة لندن عزيزي أدان.

- ولماذا لا نذهب مباشرةً إلى تلك المدينة؟!

- كما أخبرتكم صوفيا، علينا أن نستقلّ سفينة أخرى من هناك التي ستقلنا إلى الاتحاد السوفييتي بعدها..

- بفف..وكم من الوقت ستستغرق رحلتنا كي نصل إلى وجهتنا الأخيرة؟!

- لا أدري كم يومًا سنبحر، ولكن من الممكن أن نصل في غضون بضعة أيام.

- الجميع يصيبه التملل والإرهاق الشديد، والبعض يُعاني حالة من الإعياء لنقص الطعام..
- سنعالج كل شي ريثما نصل إلى لندن فسنزود هناك بالمؤن والطعام الوفير.. وسيكون الجميع على ما يرام.
- جميعنا نثق بك سيد بابلو، فأنت الآن المظلة التي نحتمي بها من قيظ الخوف..
- أنتم جميعاً كأبناء لي وأشرف بتلك الثقة الغالية عزيزي أدان..
- جزيل الشكر لك سيد بابلو.. سأتركك الآن في معية الله..
- الشكر لكم أنتم يا من تحملون على أعناقكم أثقالاً تعجز الجبال أن تحملها.

لم يتسنَّ للجميع معرفة كم من الأيام مضت حبسي قاع السفينة، لكن كان هنالك مَنْ أطلق لقلوبهم العنان فأبحرت أرواحهم في عالم صوفيا السحري بين الفلكِ ولأفلاك أياماً وليالي حتى حطَّت بهم الأمواج على شواطئ لندن ليتدثروا بالسفينة فيلكس دزيرجينسكى، التي سُميت تيمناً بهذا المناضل الذي حرَّره الاتحاد السوفييتي.. البلد الذي يحررهم، هم أنفسهم الآن من برائن السجن والطغيان، فكان لكليهما خير ملجأ وملاذ..

بعد أن أبحروا على متنها صوب لينينجراد، مضوا بقلوب هادئة تتوجَّع، وعقول حاملة تترقَّب، وهم منكبُّون على وجعهم في حضرة روح صوفيا وتحت رعاية السماء لهم.. لم تتوقف ألباب الصغار عن

الأحلام بحياتهم على الجُودي، الذي سيحط عليه الفلك المشحون
هذا.. الذي عصمهم من طوفان أنزله الله ليغرق الأرض ومَن عليها من
المفسدين في بحر سُرورهم.. لكن ظلت بداخلهم آلام البُعد عن
الوطن، والخوف على الأبرياء من ذويهم أن يُغرقهم الطوفان.. آلام
توخزهم وتدميهم بقسوة لا تنتهي..

في أوائل شهر أكتوبر وفي كنف رعاية صوفيا، على سطح سفينة
فيلكس دزيرجينسكى وصل أبناء الحرب إلى ميناء لينينجراد في شمال
غرب روسيا، في دلتا نهر نيفا شرقي خليج فنلندا في بحر البلطيق..
متطلعين إلى استكشاف شمس اليوم التي غابت عنهم أيامًا طوَّالاً
فأرهقهم ظلام الليل الدامس..

بقلوبٍ مُتوجِّسةٍ يعتصرها آلام الأمس مضوا جميعاً يتحسَّسون
خطواتهم الأولى وراء صوفيا التي تصدرت الصفوف تقودهم إلى
حياتهم الجديدة.. فكان لحفاوة الاستقبال من قبل كبار سادة المدينة
وسيداتِها لهم أثرٌ طيب بزغ كمفعول السحر في قلوب الصغار، الذين
حُملوا على الأعناق مُكلَّلين بالورد وهم يحلون أهلاً وينزلون سهلاً على
بيوت الأطفال المختلفة في المدينة الروسية.. والكل من أبناء الحرب،
رفاق الرحلة يسعى ويرغب في أن يكون برفقة صوفيا حيث تكون،
ولكن كان عليهم وداعها وفراقها كما فارقوا وطنهم.. وبينما هم
يغدقون عليها بالقبلات، احتضنها أذان بقوة وكأنه يسعى أن يخبأها بين
ضلوعه كي تشعر بالأمان، ليسطروا معاً أولى أحرف حياتهم الجديدة
في بلاد للعين وللسان غريبة..

الفصل السابع

لينينجراد.. السبت ٢١ يونيو ١٩٤١

بين أحضان مدينة تمّدد جسدها على أكثر من مئة جزيرة، أنجبه رباط مقدس بين البحر والنهر.. ارتبطوا مع بعضهم البعض بعشرات الجسور، التي تعطي أنهار مدينة القياصرة وقنواتها..

هناك توارى الأصيل الوردّي بعيداً عن مدينة العشاق الساحرة، بينما عانق نهرى نيفا وفانتانكا حديقة الصيف، أقدم الحدائق في لينينجراد.. حديقة غناء شيّدها بطرس الأعظم في عام ١٧٠٤ بمرسوم ملكي، تزدان بأشجار ضخمة وشجيرات مُقلّمة ومجموعات من الأزهار، ومروج تفصلها ممراتٌ مُظلّلة، مُمتدّة بتصميم استثنائي بنكهة إنجليزية متفرّدة..

تصميم قد أفعم وجدان الأدباء الروس، بينما أسهبت كتب التاريخ في وصفها بنافورات المياه الصافية والتماثيل الرخامية الخيالية، التي تدفع المرء إلى الشعور بقلب الحياة النابض..

في تلك البقعة الساحرة ارتفعت درجة حرارة قلوب، تعانقت كي
تتنفس أنغام موسيقى ذات شجنٍ .. بأجساد تتمايلُ وعيونٍ تكاد تذرف
الدمع كلما داعبت أنامل فتاة قد تواري وجهها خلف شعرها البُنِّيَّ
الطويل المُتدلي .. بدت كحورية ارتقت بهم لسماء الخيال وهي تعزف على
أوتار أحاسيسهم وقد جرح قلب القيثارة .. احتشد حولها
العاشقون، وقد عانقت أيادٍ الأفئدة بعضهم البعض مُفتنين بهذا السحر
الذي غمر أرواحهم بالسعادة والبهجة، وانتزع من صدورهم الآهات
بفعل شجن الألحان وعذوبة صوت الفتاة التي صدحت فيهم وهي
تشدو بلسانها الروسي عن فقدان الحبيب ولوعة النسيان ..

من بعيدٍ استقرت نظرات ذلك الشاب المتهاففة على هذا الجمع،
بعد أن توقَّف ليُجفِّفَ عرقه، بينما أنفاسُه المُتسارعة قد اختلطت بملامح
الارتياح التي استقرَّت على وجهه .. فراح يهيمُ مع الهائمين، بقلبٍ
يغمره فيضٌ من الأمانى ألا تتوقَّف الفتاة عن حرثها لثرى قلبه الظمآن
في نهار صيفٍ لا ينتهي في هذه الآونة من العام ..

هدأت أمواج أفئدة المتفرجين المختلجة فور توقُّف أنامل الفتاة عن
العزف، وبينما همَّت تزيح يديها الرقيقتين شعرها المُتدلي كاشفة عن
جهاها الإلهي الأخاذ للعقول الذي أشرق على وجوههم، وهي تعتدل
واقفة، هبَّت عاصفة من التصفيق الحار النابع من أشعة شمس الصيف
وهم يلقون عليها زهور الثناء وقصائد المديح، يرجونها ألا تَضِنَّ على
أنفسهم التواقة بهذا الصوت الملائكي وذلك العزف الرائع ..

فما كان منها إلا أن بادرتهم بابتسامة حانية وانحناءة مُتواضعة،
وكلمات شكر مقتضبة دون تكلف، وهي تمضي بعيداً عنهم، وقد
أشارت إلى ذلك الشاب الذي لم تتوقّف عيناه عن اللحاق بها، فأسرع
الحُطى نحوها حتى تلاقى الاثنان .. فهمّ باحتضانها وقد عانقتها ذراعاه
وهو يحملها غير مكترثٍ للحشد الذي ظلّ يُتابعُها بشغفٍ مضطرد من
خلفها ..

تغيرت السنة الشايّين وقد بزغت علامات الرجولة على جسد أدان
ووجه وهو يتأمل مليكته صوفيا، أميرة عرش فؤاده التي ملأت الدنيا
جمالاً وغمرته بهجة وإشراقة ..

بصوتٍ خافتٍ ضاحكٍ أطلقت صوفيا العنان لنفسها أن تداعبه
وقد غيّرت لسانها للإسبانية:

- أفلتني أدان.. فداقت قلبك يهتزُّ بها جسدي الذي قد أطبقت
تلك الأذرع المقتولة عليه.

- لا أريد ذلك صوفيا.. بل أريد أن أطويك بين ضلوعي حتى
تُدركي كم يتعدّب الفؤاد حينما تبتعدي عنه ..

- لقد صرت شاباً يافعاً.. قوي البنية، طويل القامة.. ترمُكُ هنا
الجميلات الشقراوات بنظرات الشوق المُتقد.. يدقون أبوابك كل ليلة
وهم ينادونك بالإسبانية الساحرة في كل مكان وطئته قدماك .. فلم
تُريدني وتعلم تمام العلم أن ما سأتركه لك هو أمل مغموس بالأم؟!

هنا أفلتها أَدان بَحْنُو ليجلس بها على أحد المقاعد.. وقد احتضنتها
عيناه بِسْمَةِ عِتَابٍ، مُتَأَمِّلًا وجهها بدمائة خلقه.. بينما تعلَّقت عيناه بها
كالمُتيم، باحثًا عن جواب يَلِيْقُ بمن يدقُّ فؤاده فقط لحبها..

- أعشَقُ تواضِعك حينما تتحدثين عن الفتيات.. ربما لم تنظري
إلى مرأتك منذ أتينا إلى تلك المدينة.. أو لم تري تلك النظرات التي كادت
أن تلتهمك من عيون من كانوا يتابعونك.. وأنت تصدحين سألبة
عقولهم، أسرة قلوبهم؟! عجبًا.. فسبحانه الذي لم يخلق هذا باطلا حين
رَسَمَ أروع لوحاته، وقد حباكِ بصبغة ربانية.. يقف أمامها بيكاسو
عاجزًا، فأخرجكِ حُوريةً ليست ببشرٍ..

- كفى.. أَدان...

- صوفيا.. تدبّري صيفك السادس عشر وهو يحتضنك.. وقد
نحت وجهك بقسمات ملائكية تنهاوى أمامها رسائل عشق بيدرو
ساليناس، وامتشاق قوامك، فصرت حقًا آية إلهية ترتدي جسد البشر..
كلمات بيكير تعجز عن وصف بسماتك.. جارثيا لوركا لما استطاع أن
يأتي بجملة غزلٍ تليق بك..

أيقظت قلبي الغافل منذ نعومة أظفارك، فصرعه التفكير بك
وبعثته من جديد خالداً في رِحاب جنتك البعيدة.. لا شقاء ولا أحزان
في حضرتك.. حين أصبح، تسقيني من نهر عشقك، نهر يحفه ضفتان
من التبر والزبرجد ومياهه من اللّجين.. رائحته أطيب من المسك،
وطعمه أحلى من العسل.. يسكر الغريق فيه فيحيا غريقاً ويرتوي ظمأ
الأشيب فيشُبُّ شابًا.. حلم سر مديّ أعيشه كل يوم بكِ ولكِ..

احمّرت وجنتا صوفيا خجلاً، وقد قاطعته أطراف أناملها الرقيقة
التي استقرّت على شفّتيه لتغلّقهما بعدما أخجلها سيل المشاعر، الذي
أسهب فيه وأبحر الإِسْباني الساحر.. فأشرقت بسمتها على وجه أدان
قائلة:

- كفى.. كفى.. كفاك حديثاً.. فكلّما تك تحلق بي وكأنني أكاد
الأمس السماء، وقلبي لا يقوى على هذا الخفقان الجنوبي.. أعلم ما تحمله
لي وأخشى عليك من المجهول الذي يُحدِّق بك.. فيكفي هذا الشعور
الفريد الذي يتنبّأني حينما تحملني رياح كلماتك إلى سماء ساليناس
المتشحة بالسواد حداداً وحزناً على الأحباء، الذين وارا هم الثرى بين
أطلال الحب الضائع بعيداً عن الديار وتحت ركام الآلام والعبرات..

- نعم كفاكِ حديثاً صوفيا عن الآلام، ودعينا نحتفِ بأيام
الصيف المبهجة ولياليها، التي سرعان ما ستمضي لتتركنا في شتاء وليل
يمتدُّ ثلثي العام تقريباً.. فلنتحرّك الآن ولنستمتع بما تبقى من هذا
الصباح المشمس.. بعيداً عند السيدة أولجا وجيراننا الأعزاء..

اعتدل الرفيقان، وقد وقفوا عازمين على السير.. بعدما تشابكت
الأيدي وتحركت الأقدام لتحضن ثرى أحد الممرات الظليلة التي ربما
تنتهي بهم خارج الحديقة بالقرب من نهري فانتانكا ومويكا..

- منذ أتينا لم تعانِ الكثير في تعلّم الروسية التي تتحدثينها منذ
ستين كالسيدة أولجا بيتروفا، لم يتعذر عليك التكيّف مع أجواء هذه
المدينة العجيبة.. فلطالما تعجّبت من قدرتك الاستثنائية على التآلف مع

الناس هنا.. وأكاد أجنُّ حين تتجولين في الشوارع والأزقة وترتادين
الأمكن وكأنها جميعاً مألوفة لك منذ زمنٍ بعيدٍ..

ارتسمت هنالك على عيني صوفيا نظرة مأكرة وهي تبسم:

- نعم أدان، ولكن كان لك الفضل الكبير في تهيئة الأجواء لي
أثناء ظلام الشتاء الأول لنا هنا.. فلا تنسَ أنك الآن تتحدث الروسية
بطلاقةٍ والفضل بالطبع يعود لي أنا.. فلا تنسَ ذلك..

- نعم فقد أمضينا أوقاتاً عصيبة في بيوت الأطفال تلك، حتى
قامت السيدة أولجا بالتكفل برعايتنا.. بعد أن غرق زوجها وابنها،
الذي دافعت عنه حينها هاجمه ذاك السكير الأخرق..

- لقد كنتُ تُدافعُ عني أنا أدان.. فذلك الرجل قد هاجمني
مُتحرِّشاً بي، حتى أتى المرحوم فلاديمير الذي لم نكن نعرفه حينها..
شرع في دفع الرجل الضخم عني فكان ردُّه قاسياً حين باغته بضربة
أسقطته أرضاً.. حينها برزت كمصارع الثيران المجنون حين أغرت
عليه بعد سماع صرخاتي، فلقتته درساً لم ينسه وقاطنو الحي حتى الآن..
وما زلتُ حتى هذه اللحظة أتساءل: ما الذي كان يدور في خلدك وأنت
تقف أمام هذا العملاق ولم يكن رأسك يكاد أن يصل إلى كتفيه! ألم
تحش على نفسك أدان؟!

- أتصدقيني أنني لم أتذكَّر كل تلك التفاصيل.. فلقد جنَّ جنوني
حينما سمعتُ صرخاتك.. فهُرعتُ وقد أظلمت الدنيا عينيَّ ولم أفق إلا

وأنا فوق هذا الرجل، ويداي الملطختان بالدماء التي غطت وجهه
تؤلمانني من عزم لكماقي له..

- وَيَحْكْ أدان! لقد مكث هذا الرجل شهرين في المشفى حتى
جاء بصحبة الشرطة ليحزم أمتعته راحلاً عن الحي، ولولا أن أمسكوا
به في حالة ثمالة بيّنة لقضى بضع سنين في السجن.. وبفضلك أنت لم
يتجرأ أحد أن يتعرّض لي ولو بكلمةٍ منذ ذلك اليوم..

- إذن لا تنسَ فضل فارسك المغوار أدان يا مليكتي.. فسيُسعدني
دوماً أن أذود عنك ولو كلّفتني ذلك حياتي.

- لا تَقُلْ ذلك أدان مرةً أخرى.. فيكفي التحاقك بتلك المدرسة
العسكرية هنا والأجواء في الخارج على صفيح ساخن، فالنازيون الألمان
الذين دفعوا ببلادنا دفعاً للهاوية، مُتحالفون مع القوميين، وقد أحرقوا
الغثَّ والنفيس في بلادنا وأخشى أن تدور رحى الحرب هنا فتذهب
إليها بإرادتك دون أن تأتي إليك..

- لن أذهب إلى أيِّ مكانٍ.. فلا أستطيع الحياة بدونك، ولتعلمي
أن دافعي لهذا الأمر قد كان لتعزيز قوتي للدفاع عنك في أي وقتٍ وفي
أي مكانٍ..

استطرد أدان وقد تغيّرت نبرة صوته ليبدو متهكماً وهو يُداعِبُ
صوفيا قائلاً:

- وسأزيدك من الشعر بيتاً، فالأخبار تتناثر أن النازيين يعدّون
الْعُدّة لإسقاط موسكو.. وإسقاط موسكو يتطلب إسقاط لينينجراد
أولاً.. فلا تقلقي فالحرب آتيةٌ شتّت أم أبيتٍ..

وقفت صوفيا فجأة وبدا عليها معالم الضيق والقلق وهي ترمقُ
أدان بنظرة صارمة:

- أدان. لا تتحاذق عليَّ وكفاك هزلاً بالجد.. فلتعلم أنت أن تلك
الأخبار صحيحة.. فلربما لم تستمع إلى الأخبار عبر أثير الراديو في
الأيام الماضية..

هنا اقترب أدان من وجه صوفيا مبتسماً مُحاولاً القفز عن هذا
الموضوع الشائك:

- تعلمين أنني لا أستمع إلى المذيع لاعتقادي أن ما يخرج عنه ما
هو إلا تَرَهّات لا تمتُّ للواقع بصلة.. فدعينا نُكمل نُزهتنا دون الحديث
عن هذا الموضوع المقيت، فلدينا الكثير لتحدث عنه..

وما انفكَّ أن انتهى من جملة، حتى أطبق بذراعيه على صوفيا وهو
يُداعبها بغمزات عينيه الخضراء:

- كم من المدهش أن تصمَّ أذنيك عن طبول الحرب التي تُقرع
الآن من خلفنا.. وربما قريباً ستدقُّ أعناقنا المشرّبة وهي تستمتع
بتحليق الطيور.. التي ستتحين بمخالبتها الحادة الفرصة أن تغير على
رؤوسنا، كي تقنات على ما تبقى من أجسادنا المثقلة بأثامٍ لم ترتكبها،
وأحقاد لم تحملها..

- أظنّين أن لتلك الطيور الداجنة برائن ومخالب؟ لا أوافقك
تماماً.. فما تلك الأسراب إلا مخلوقات بريئة تبتغي السلام في سماء
تزيّنت بالشمس، طيور سلب ألبابها متعة النظر إليك أنت صوفيا.. فهذا

هيا تهيم في السماء كما أهيم أنا في فلكك على الأرض.. فدعينا نستمتع
حييتي بما لدينا، فشمس النهار عُملة صعبة في صيف تلك البلاد
الغريبة..

- ماذا تنتظر ممن خلقوا منا قرايين نحن معشر البشر.. بشرًا
فقدوا العقول، سافكين الدماء.. وهم يقربون من أنفسهم أصحابي
بعضهم لبعض.. في سبيل الجوع والحقد والطمع!

أدرك الخوف قلب أذان.. بعد أن هبَّت عاصفة من الصمت
عليهما، وهما يتبادلان نظرات الحيرة والترقب.. وقد مضوا في دربهم
يتحسَّسون خطواتهم حينما أذابت شمس الصيف جبل الخوف المتجمد
داخل الصدور، وقد انبرت من بين ثنياه فيضٌ من الآمال المفعمة
بالهواجس، التي راحت تُتبدَّد شيئًا فشيئًا.. وأنفاسهم تلاحق نسائم
تعلَّقت بها السعادة التي عمَّت أرجاء المدينة ابتهاجًا وسرورًا بأيام
الصيف المعدودات.. فراحوا يتأملون الأحبة، الذين غطوا مُستمعين
بالقيلولة في أحضان الحديقة القديمة الخلابة.. حيث تتناثر فيها مِتان
وخمسون من التماثيل المنحوتة، التي تُزيّن متاهة من الممرات.. التي تحدو
جنباتها سياج من الشجيرات وعشرات من النافورات التي تتدفَّق بها
مياه قناة فانتانك.. رياض غناء في تلك الجزيرة الساحرة التي تكوَّنت
بفضل قنوات المويكا والفانتانكا والبعجة..

لم يشعر كلاهما بالتعب وقد جابوا أرجاء حديقة الصيف.. لم
يتنبهوا وهم يعبرون قناة مويكا، مغادرين جنة الصيف، متجهين جنوبًا

عبر شارع سادوفايا، ثم إلى شارع نيفسكي ذائع الصيت .. الذي وصفه الأديب الروسي جوجول بشبكة الاتصالات العمومية لمدينة لينينجراد.. وصف استوحاه من شكل شارع تتنوع على جانبيه التصاميم المعمارية للمباني المبهرة الأنيقة، التي تخنغ جميعها لمبدأ وحدة الارتفاع..

يُعانق هذا الشارع ثلاثة أنهار، أو كما يُسميها سكان المدينة قنوات.. وفيه أشهر الجسور التي تزدان بها ليننجراد، التي تنفتح للعاشقين في ساعات الصباح الأولى لتشطر نجمة الشمال إلى جزئين.. ذلك الجسر الشهير بتمائله الرائعة، المتناثرة على أطرافه الأربعة، التي تبدو من النظرة الأولى متماثلة إلا أنها في الواقع تُجسّد مراحل ترويض فرس جامحة من أول لحظات عنفوانها وحتى وصولها إلى الوداعة.

هدج أدان وصوفيا في شارع نيفسكي.. قلب مدينة القياصرة النابض.. سراج نجمة الشمال الساحر، المحفوف بالأشجار والقصور والمتنزهات.. الزاخر بين جنباته بأكبر الصروح جمالاً وأكثر التماثيل فخامة.. تلك التماثيل المطلية بالذهب:

- كم أودُّ لو أن ألقى بتسار نيكولاس كي أقبله، شاكرة إياه منحه عامة الشعب الحق في التمتع بتلك الجنان الممتدة على اثني عشر هكتاراً.. بعد أن كانت حكرًا على صفوة القوم من النبلاء..

- أما أنا أودُّ أن ألتقي بنيفسكي.. أحد أبطال روسيا القديمة.. الذي أبدى شجاعة منقطعة النظر في مقاومة المغول في القرن الثالث عشر..

- وللأسف لن يتأتى لنا ذلك..ربما في حياة أخرى قد نستطيع..
الأحرى بك أن تخبري بما سنقوم به هذه الليلة؟

- سيكون لدينا وقتٌ كافٍ لجولة نهريّة بعد العشاء.. فما أجهل
الاستمتاع برفقتك والتّنعّم بجمالك.. مُبحرينَ ومن خلفك ضفاف قناة
فانتانكا ومويكا، مرورًا بجريبايدوف وصولًا إلى النيفا..

- لكن سيتعين علينا السّهر ريثما تنفتح الجسور لتطلق سراح
المراكب التي باتت في أحضان المدينة طوال الشتاء المظلم..

- تعلمين صوفيا أن النوم ذاته يُجافيني كسائر قاطني المدينة..
فالمدينة تجعلني أنحّي النوم جانبًا، فقط لمشاهدة سحرك الفَتّان على وجه
مرآة الليالي البيضاء..

- حقًا، فالمدينة لا تنام خلال هذين الشهرين.. فالشمس تُعاقبُ
دروب المدينة ساعاتٍ وساعات، وتأبى أن تغيب عن السماء بعد ميلاد
لينينجراد من جديد.. بينما يخرج الليل على استحياء ساعتين، راکعًا
لأضواء النهار الطويل.. الذي قد انتصر بعد حصار شتاء طويل مظلم،
دام ثمانية أشهر.

- نعم صوفيا، فلينينجراد والليالي البيضاء ثنائي لا يمكن
فصله.. فربما قد أتمّوا مراسم زواجهم في كنيسة سانت كاثرين
الكاثوليكية، التي ستصلي بها بعد قليل..

- كم بديعًا ذلك المشهد الذي اعتدت عليه منذ وطئت قدماي
هذه البلاد الغريبة، فقط عندما يعانق العَسَقُ الفجر فتشرق الليالي

بالشمس الساطعة فلا ظلام ولا دُجى .. موسيقى ورقص وبهجة في
أحضان مدينة العاشقين .. لثمانين أمسية .. لثمانين يومًا لا ينتهوا ..
فضوء النهار على مدار الساعة في شوارع مُفعمة بالحياة.

هنا تنهَّدت صوفيا مستطردة:

- يا لها من تجربةٍ فريدةٍ أن تكون الألفة والرومانسية والمرح
مكونات الهواء .. الذي يتنفسه جميع من يجوب أرجاء المدينة، التي
تفيض بالفنِّ والجمال ويُغلفُها جوٌّ من الندرة الفريدة ..

- الجمال يتلأأ به وجهك .. والفن يسري في عروقك عزيزي
صوفيا .. تعزفين الجيتار، تدرسين الفن وترتادين المتاحف التي تعملين
بها طواعية .. تصدحين بصوتك الأسر للألباب والأفئدة .. كل المحن
التي تحيط بك بين يديك تصير منحًا لمن حولك .. يرْمُقني الجميع
بنظراتٍ حاسدة تارة وتارة أخرى بنظرات الغبطة فقط لقُربي منك لا
أكثر .. أعلم أنك ستصدقيني إذا ما قلتُ لك أنكِ النور الذي يهديني
ويخلصني من آثام عصمني منها عَشْقُك ..

اقتربت صوفيا بحنوٍ ورقة وارتمت بين أحضان أَدان، الذي ارتقى
بها ليحملها بين ذراعيه المفتولتين وهي تُلقِي إليه سيلاً من نظرات
الامتنان الودودة، الممزوجة بحُمرَةِ الخجل التي طُبعت على وجهها ..
وكانها جنة الفردوس بين يديه، مضى سائرًا وهو يحملها كالفارس
الأشم مُتباهاً بدخوله جنة الخلد .. وكأنه الجواد المُجَنِّح الذي بسط لها
جناحي الأمان .. مُخلِّقًا بها في سماء السَّكينة ..

ظَلَّ يحملها هكذا حتى بلغوا أعتاب كنيسة القديسة كاثرين.. برفقٍ
أنزلها وعيناه تتودّدان إليها كي تطوف بوجدانه.. أسرعت الخطى وهي
تسلل، دافعة باب كنيسة القديسة كاثرين الخلفي حيث استدارت
بوجهها الذي أشعَّ إشراقاً ملأ الكون بما فيه.. فما لبثت أن رمقته تلك
النظرة الساحرة التي أصابت فؤاده وقد احتضنته، مُحَلِّقة به في عوالم
بعيدة من الأحلام.. بعدها أطلقت ضحكة هزت كيانه وهي تناديه
بسعادة:

- فلتمنح المسيح بعضاً من البهجة التي شملها قلبك بمحبته لك
..ولتصلّ من أجل اليوم المشرق والغد المُرْهَق.

- لن يبتهج المسيح بما فعله أولئك الموتورون المتعصبون، الذين
خربوا بيته هذا، وقد ألقوا بكل محتوياتها في الخارج منذ بضع سنين.. لا
أدري لمْ نأتي خلصة لنصلي هنا بين الأطلال وفي أيام الأحاد نصلي في
كاتدرائية إيساكفيسكي!؟

- الصلاة مكانها القلب العامر بالمحبة عزيزي أدان.. لكن
بدخولي إلى هنا تسكن الروح، وتهدأ النفس، فرائحة بخور القديس
توماس تعمُّ المكان هنا..

- صوفياً.. شتان الفارق بين الصرحين.

وهنا تلعثم فمه وصمت برهة وتابع حديثه:

- كم يشواق قلبي إلى أستورياس.. التي لا تكاد تتذكرها هاتان
العينان..

- لا عليك عزيزي أدان.. ساعهم الله على ما بدر منهم.. فإن مات المؤمنون التائبون حقاً في المحبة، قبل أن يكفروا بشار لا ثقة بالتوبة، عما ارتكبوه أو أهملوه، فستظهر نفوسهم بعد الموت بعقوبات مُطَهِّرة. هذا وإن شفاعات المؤمنين الأحياء ستفيدهم للتخفيف عن هذه العقوبات، وهي ذبيحة القداس والصلوات والصدقات وسائر أعمال التقوى التي اعتاد المؤمنون أن يقوموا بها من أجل سائر المؤمنين. فدعنا نُصلِّ لهم..

باغتها أدان مُتهكماً وقد قاطعها قائلاً:

- ولنا نحن يا عزيزي.. حتى لا نقضي هذا المساء مستمعين إلى أقوى قصائد المهجاء على لسان الشاعرة الروسية أولجا.. وحتى لا تعاقبنا بعدم الخروج ليلاً، فيجفونا النوم تحسُّراً على عدم التنعم بسحر الليالي البيضاء..

- من أجل ذلك دعنا نُصلِّ الآن.. فوراً.. حالاً..

خرَّ الاثنان على ركبتيهما راكعين مُتأهبين للصلاة في بيت الله الذي عبثت به أيدي الضالين، الذين مَسَّهم الشيطان فأغشاهم البُغض وملكتهم الكراهية.. انطوت من بين يديها الرقيقتين وردية العذراء، المسبحة المتزينة بمئة وخمسين خرزة التي تُجسِّد جمال مريم وطهاها وعذوبة رحمتها ومحبتها..

وما رسمت صوفيا إشارة الصليب وتبعها على الفور أدان، فصداح صوتها العذب ساكناً جنبات الكنيسة المهجورة وهي تبتهل قائلة:

- أَيْتُهَا الْعِذْرَاءُ الْقَدِيسَةُ، سُلْطَانَةُ الْوَرْدِيَةِ الْمُقَدَّسَةِ، إِنَّا نُصَلِّي
وَنَتَأَمَّلُ بِخَمْسَةِ أَسْرَارِ النُّورِ، الْمُتَأَلِّقَةِ فِي حَيَاةِ ابْنِكَ الْعَلْنِيَّةِ، وَالْمُشْعَّةِ
عَلَيْكَ وَعَلَيْنَا، وَنَقْدَمُهَا مِنْ أَجْلِ إِخْوَتِنَا الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ فِي ظِلْمَةِ
الْإِبْتِعَادِ عَنْ ابْنِكَ، مُتَوَسِّلِينَ إِلَيْهِ بِشَفَاعَتِكَ، لِيَفْتَحَ بِصَائِرِهِمْ، وَيُضِيءَ
دُرُوبَهُمْ، فَيَكْتَشِفُونَ فِيهِ النُّورَ الَّذِي جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ لِيُخْلَصَهُمْ.. اجْعَلْنِي،
يَا رَبُّ أَدَاةَ لِسْلَامِكَ: فَحِثِ الْبَغْضَ أَزْرِعِ الْحُبَّ، وَحِثِ الْإِسَاءَةَ أَبْشِرْ
بِالْفَرَحِ، وَحِثِ الْفِتْنَةَ أُقِيمِ الْوَحْدَةَ، وَحِثِ الضَّلَالَاتِ أَبْثُ الْحَقِيقَةَ،
وَحِثِ الشَّكِّ أُنْمِ الْإِيمَانَ، وَحِثِ الْيَأْسِ أُنْعِشِ الرَّجَاءَ، وَحِثِ
الظُّلَامِ أُبْعَثْ النُّورَ، وَحِثِ الْحُزَنِ أُنْشِرِ الْفَرَحَ.. قَدِّرْنِي يَا رَبُّ، عَلَى
السَّعْيِ إِلَى أَنْ أُعْزِي لَا إِلَى أَنْ أُعْزَى، وَإِلَى أَنْ أُفْهِمَ لَا إِلَى أَنْ أُفْهَمَ، وَإِلَى
أَنْ أُحِبَّ لَا إِلَى أَنْ أُحَبَّ.. وَذَلِكَ، لِأَنْ مَنْ يُعْطَى يَأْخُذُ، وَمَنْ يُبْذَلُ يَجِدُ،
وَمَنْ يَصْفَحُ يَنَالُ الصَّفْحَ، وَمَنْ يَمُوتُ يُولَدُ فِي الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ. آمِينَ.

كَانَ مِنَ الْغَرِيبِ أَنْ تَلْتَ صُوفِيَا صَلَاةَ مَسْبُوحَةِ الْوَرْدِيَةِ كَامِلَةً
بِأَسْرَارِهَا الثَّلَاثَةِ: الْفَرَحِ، الْحُزَنِ، الْمَجْدِ.. فَكَانَتْ كُلُّ حَبَّةٍ مِنْ حَبَاتِ
الْمَسْبُوحَةِ تَعَانِقُ أُخْتَهَا بَعْدَمَا أَذَابَتْهَا تَوَسُّلَاتُ وَبْكَاءِ صُوفِيَا..

- آمِينَ.. بُورَكَتِ صُوفِيَا وَلَعَلَّ اللَّهَ يَقْبَلُ صَلَوَاتَكَ وَيُبْعَثُ بِنُورِهِ
فِي صُدُورِ الَّذِينَ أَعْمَتَهُمْ تِلْكَ الدُّنْيَا النُّكْرَةَ بِرَيْقِهَا الزَّائِفِ.. فَخَرَّبُوا
الْأَوْطَانَ لَاهِثِينَ وَرَاءَ السُّلْطَةِ.. مَعْتَلِينَ أَبْرَاجَ الْكِنَائِسِ.. وَآخَرُونَ
يُخْرَبُونَ وَهُمْ يَعِيشُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا رَافِعِينَ الصَّلِيبَ وَهُمْ وَاهِمُونَ
وَضَالُونَ..

ما إن غادرا الباب الخلفي لكنيسة سانت كاثرين حتى استقرت
مخالب شرور الحاضر في وجدانهم المتألم من الاضطهاد والغبن وظلم
الإنسان لأخيه الإنسان في أوطان تضيع بأيدي أبنائها..أسرعت صوفيا
في التعلُّق بيدي أدان لتحتمي به وهي تجيب عليه بصوتٍ خافت.

- اضطهد المسيح ومن بعده الحواريون والقديسون وأتباعهم من
الشعب.. تارة باسم الرب، .. وتارة أخرى باسم المعبود.. وأحياناً كثر
باسم الصليب والجهلاء من البسطاء، خرافٌ يتبعون مَنْ يملك أبواق
السلطة، مُعتلياً عرش القصر أو غاصباً لمنابر الله.. جميعهم تجار الجحيم
يبيعون بخساً دماء أبناء المسيح بلا هوادةٍ أو رحمة من أجل أهوائهم
الشیطانية.. تئنُّ باطن الأرض لضحاياهم من هول الآلام وعظم
المآسي.. فالرحمة على والدينا وأوطاننا التي تخضبت بطيب ثراهم وجلال
تضحياتهم..

- عشرات الآلاف قد لقوا نحبهم في الشهور الماضية.. مُعلنين
خوض حربٍ مقدسة وهم يُعمّدون أبناء أوطانهم بدماء إخوانهم..
الجنون قد جاب الأرض من مشارقها إلى مغاربها، وهذا الألماني
المخبول، يهوذا الجديد يزرع الشوك في قلب أوروبا المحتضرة.. يقرع
أجراس الكنائس بقذائفه الملعونة لتأبين آلاف من الأبرياء.. فما إن أجهز
على إسبانيا بأيدي أولادها حتى اجتاحت بولندا، وها قد سقطت باريس
في قبضته السبت الماضي..

- حقاً أدان فهذا المجذوب النازي يتحدث عن سلام المسيح
وهو يحرق الخلاص في قلوب الناس.. ولكن في النهاية سيسود النور
صارعاً قتامة الليل الحالك.

- حمدًا لله أن تكون الليالي ها هنا بيضاء ساحرة.. ولنسرع حبيبتي، فإني أتضوّر جوعًا، وإن لم نصل سريعًا إلى البيت سيكون العقاب عسيرًا علينا هذه الليلة..

وهي بين ساعديه ركض أدان حاملاً صوفيا متجهًا صوب محطة انتظار الحافلات في شارع نيفسكي وضحكاتهم تتعالى، وما إن مضت ثوانٍ حتى لحقت بهم إحدى الحافلات كي توصلهم إلى محطتهم التالية حيث تنتظرهم السيدة أولجا صاحبة القلب الحنون..



هُرَع أدان برفقة صوفيا صوب مدخل أحد المباني الأنيقة المطلة على ميدان فوستانيا في إحدى المناطق الأكثر هدوءًا في شرق شارع نيفسكي القديم .. مبنى ذو طراز معماري قديم وعريق يُكَلِّله القرميد الأحمر، مُوْغِل في حقب التاريخ العبة.. يتكى على حضارات سادت رَدَحًا من الزمن ثم بادت.. طراز خلّفه الأسلاف إبان عصرهم الذهبي الذي ازدهرت فيه فنون العمارة..

في إحدى شرفات المبنى وفي دوره الثاني، ارتسمت على سيدة تتشح بالسواد والتي تبدو في أواخر العقد السادس من عمرها علامات الارتياح بعدما هَمَّت بخلع نظارتها الطبية، وقد بادرت بالدخول على الفور حين رأتهما يهبطان من على متن الحافلة ..

أوصد أدان الباب بعد أن دخل كلاهما بيتًا فسيحًا يغفو في أحضان شارع نيفسكي، ثريٌ بالتفاصيل المريحة الحميمة..

برزت في أرجاء غرفة استقباله الدائرية الواسعة، مقاعد سفرة وثيرة، تشعُّ قطعاً ثرية فوق طاولة الطعام.. يحدوها من ناحية اليمين صالون فرنسي الطراز وأريكة كبيرة، تتناثر في أركانه أنتيكات فرنسية، وقطع أثاث مطبوعة بنقوش الورد..

في الجانب المقابل تقع مدفأة كبيرة في غرفة المعيشة المميزة بزخارف سقفها العالي، الذي يذهب بك إلى أفق بعيدة.. تتأخُّها مكتبة ضخمة واسعة، تحتوي على طاولة ومقاعد صغيرة للجلوس.. يترأى في نهاية غرفة الاستقبال رواق طويل، يُفضي بك إلى شرفة كبيرة أسطوانية، بزغت وكأنها في بيت من شعر..

- العمة أولجا.. لقد عدنا أنا وصوفيا مُبكراً..

- يا عمة أولجا لم يكن من الصعب العودة سريعاً وقد حاصرتنا مُغريات الصيف خارج البيت، فرائحة طعامك الشهي قد أرشدتنا منذ كنا بالقرب قناة فانتانكا حتى أوصلتنا إلى هنا..

تعالت ضحكات السيدة أولجا وهي تخرج من المطبخ ويدها مغرفة وأحد الأطباق الفارغة.. سيدة ما زالت تحتفظ بقسطٍ من الجمال على الرغم من سميتها الملحوظة.. شعرها مُخضب باللون الأحمر وتنبري من بينه بعض الخصلات البيضاء.. عيناها خضراوان، ويظهر العرق السلافي على ملامحها بوضوح..

- حسناً فعلتما بعودتكما المبكرة.. فأنا في أمس الحاجة إليكما كي تساعداني في أعمال الطهة وترتيب المنزل.. الآن بدّلوا ملابسكم، ولتأتوا

إِلَيَّ فِي التَّوَّ وَاللَّحْظَةِ.. حَتَّى نَتَنَاوَلَ الْعِشَاءَ وَنَتَسَامَرَ قَلِيلًا، وَكَيْ يَتَسَنَّى
لَنَا الْإِسْتِمْتَاعَ اللَّيْلَةَ بِأَمْسِيَةٍ رَائِعَةٍ مِنْ أَمْسِيَّاتِ اللَّيْلِ الْبَيْضَاءِ الثَّمَانِينَ..
فَمَنْ الْجَلِيِّ أَنْ شَيْئًا مَا بَاتَ يُدَبَّرُ لَنَا فِي الْخَفَاءِ، وَالْجَمِيعَ هُنَا أَمْسُوا
يَتَحَدَّثُونَ عَنْ حَرْبٍ قَادِمَةٍ لَا مُحَالَةَ.

- لَنْ يَحْدُثَ شَيْءٌ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ سَيِّدَةِ أَوْلَجَا.. فَدَعُوكِ مِنْ تِلْكَ
الْهُوَاجِسِ وَلِتُرَكِّزِي فِي أَطْبَاقِكَ الشَّهِيَّةِ رِيثْمًا نَقُومُ بِتَغْيِيرِ مَلَابِسِنَا أَنَا
وَالْأَمِيرَةُ صُوفِيَا..

- إِذَنْ.. فَلْتَذْهَبَا الْآنَ وَلَا تَتَأَخَّرَا.

غَمَرَتِ الْبَيْتَ الْبَهْجَةَ حِينَمَا سَارَعَتْ أَوْلَجَا إِلَى بَثِّ نَسَائِمِ الْمَوْسِيقَى
فِي أَرْكَانِ وَجَنِبَاتِ الْمَنْزَلِ، فِي حَيْنِ حَلَّقَتْ أَنْعَامُ الْمَوْسِيقَارِ تَشَايَكُوفُسْكِي
الرَّاقِصَةِ فِي أَرْجَاءِ الْمَنْزَلِ عِبْرَ أَثَرِ الْمِذْيَاعِ.. فَكَانَ الْجَوَّ اسْتِثْنَاءً مَفْعَمًا
بَأَجْوَاءِ الْإِحْتِفَالِ وَقَدْ انْهَمَكُوا فِي إِعْدَادِ مَائِدَةِ الْعِشَاءِ.. مَائِدَةُ سَتَعْمَرُ
عَمَّا قَلِيلٍ كَعَادَتِهَا بِأَطْبَاقِ الْبُلُوفِ وَعَصِيدَةِ الْخَنْطَةِ السُّودَاءِ جَرِيَتْشُكَا
وَمَشْرُوبِ الْكَفَاسِ الْأَبْيَضِ.. وَتَتَوَقَّعُ فِي أَنْتَظَارِهِمْ شَمُوعَ الْوَدِّ الدَّافِئَةِ
الْمُزْدَانَةِ بِهَا طَاوِلَةُ الطَّعَامِ رَصِينَةَ التَّصْمِيمِ..

عَلَى وَقَعِ أَقْدَامِ أَدَانَ الْمَلَا حَقَّةً لِأَنْعَامِ الْمَوْسِيقَى، خَرَجَ يُدَاعِبُ
السَّيِّدَةَ الْعَجُوزَ وَهُوَ يُرَاقِصُهَا، مُشَارِكًا إِيَّاهَا إِيدَاعَ طَبَقِ سَتْرُوجَانِينَا،
طَبَقِ شَهِيٍّ مِنْ شَرَائِحِ السَّمَكِ الْمُجَمَّدِ الْمُغْمُوسِ فِي الْفَلْفَلِ فَوْقَ سَفْحِ
الْمَائِدَةِ.. فَعَادَا أَدْرَاجَهُمَا لِدَاخِلِ الْمَطْبَخِ وَصَوْتِ الْمَوْسِيقَى يَتَعَالَى
بِاضْطِرَادٍ، لِيَخْرُجَ تَارَةً أُخْرَى وَبَيْنَ ذِرَاعِيهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ صُوفِيَا.. الَّتِي بَدَتْ

كالفراشة وهي تتمايل في كنفه بثباتٍ ورشاقة منقطعة النظير، وبين يديها إناء شوربة الملفوف تشي، الذي هبط بسلاسةٍ وأمان بجوار تلك الأطباق التي تسلَّلت رائحتها الطيِّبة إلى داخل الأمعاء الصادحة بعواء الجوع الصارخ..

وما إن انتهت المقطوعة الموسيقية من إشباع الأنفس برحيق معذوفتها الشجية حتى قامت صوفيا بتلاوة الصلوات المقتضبة على أسماعهم بصوتها العذب، ومن ثم هبَّ ثلاثتهم بعد ذلك للنَّيلِ ممَّا تعجُّ به الأطباق، فاتكين بشغفٍ وشهيةٍ بما لذَّ وطاب..

دخل الجميع في نوبات من الضحك الذي أخذت وتيرته في التعلالي، وسط دُعابات أدان الساخرة التي راح يُلقِيها هنا وهناك.. مُلاطِّفًا صوفيا تارة وممازحًا السيدة أولجا تارة أخرى، وهم يتلذذون بإفراغ الأطباق عن آخرها من وجبةٍ خَفَقَ فيها في ماعون الدَّفء الأسري حُبًّا دسمًا ببهارات من البهجة، فشبت الأنفُس واستراحت..

بعدما امتلأت البطون بالطعام الشهي، لفينة من الوقت خملت الأجساد.. فعلى الفور بثت السيدة أولجا أشعة من النشاط حينما لوحَت إليهما بناظريهما، معطية إشارة البدء والضوء الأخضر للشائِن برفع الأواني والأطباق، وإنهاء أعمال إعداد المائدة والشاي الساخن .

دقائق وجيزة مرت لتنتفض الأم العجوز حينما رمقت عيناها أدان خارجًا من المطبخ.. وبين يديه صينية يعلوها إبريق وفنجاين الشاي المخملية، المزينة بنقوش الأزهار.. من ورائه هُرعت صوفيا لتلحق بهما،

وقد أتت بقيثارتها الخشبية من غرفتها ليفترشوا آرائك الشرفة الكبيرة،
وقد جلسوا متسامرين..

احتست السيدة أولجا رشفة من الشاي الساخن وقد بدأت في
تجاذب أطراف الحديث مع صوفيا وملاكها الحارس أدان محتفين
بنسمات الهواء المنعش الذي راح يُدغدغ أحاسيسهم الفياضة الجياشة:

- يا لك من فتى عجيبٍ عزيزي أدان!

فصدقاً عجبت لأمرك، فكيف يتسنى لطالب ينبري خانعاً تحت
راية العسكرية الروسية الصارمة، أن يكون هكذا كتلة نارية من خفة
الظل والطرافة؟!

- لا تتعجبي سيدة أولجا، فهكذا نكون نحن الإسبان.. حينما
تكون لحظات الاحتفال مع من ينبض القلب له بالحب والاحترام،
تكون الأحاسيس صافية جلية لا يشوبها شائبة، وتكون عبارات المزاح
صادقة كاشفة للمودة فياضة بال تلقائية..

لكن صدقيني، فهنا فقط بينكم أنتم أكون كذلك.. فليتك
تشاهديني وقادتي يُمطرونني بعبارات الشاء والاستحسان على مدى
صرامتي وسط زملائي، وقوة بأسّي، ورباطة جأشي، وإتقاني الرماية،
وبراعتي في إطلاق النار والقنص.

- نعم سيدة أولجا.. فلقد رأيت ذلك بأم عيني، فلا أول وهلة لم
أصدق ما رأيته من براعة فريدة في إصابته الهدف عبر بندقية القنص

مويسن ناجنت الشهيرة، فالجميع حينها قدّروه التقدير الجَمَّ.. حتّمًا عندما يرتدي أَدان تلك البزة العسكرية يتحول بها إلى شخصٍ مختلفًا تمامًا عمّا ترينه هنا..

- لن أنسى بريق عينيك اللامعتين حينما مررنا بجانب المدرسة العسكرية، وما فعلته لمدة شهر متواصل من الإلحاح والطلب المستمر أن أتقدّم لك بطلب الالتحاق في المدرسة العسكرية..

- حقًا سيدة أولجا لم أعده قطا كتلك الأيام.. فلم أره هكذا لحوحًا من قبل..

- فقط أردتُ لهذا الجسد وذلك العقل مزيدًا من الانضباط والقوة.. كي أستطيع الذود عنكم حين يتطلب الأمر ذلك.. فلا أملك في الحياة شيئًا سواكما..

- صدقًا ابني أَدان، لديك أنت روح طاهرة بريئة.. عليك أن تُبقيها كذلك ولتقصّها عن الخطايا ولعنات الشرور والشرير..

- لن أستطيع أن أجد كلمة تعبر عن مدى امتناني وشكري لك سيدة أولجا، فلقد تبنيّتي ومنحتني اسمك الذي احتضني.. اجذلتنا أنا وصوفيا العطاء اللا محدود وبسطت لنا جناح الرحمة، ووهبتنا هاهنا قلب الأم الحنون فشملتنا بمودتك وحنوك علينا فعوضتنا فقدان الأحبة، فكنت لنا وطنًا ودارًا، وجنّبتنا الكثير من الضيم وغدّر الأيام.

- سأصدقكم القول، فقد كان الرب بي حليماً حينما بعثكم لي نورًا يهديني من جديد إلى سواء السبيل.. كيلا أضلّ الطريق إثر فقدي البوصلة التي وارت الثرى مع رفيق عمري وفلذة كبدي.

كادت الأحداق المغرورة بالدموع أن تكشف عنها، لولا أن
هُرعت صوفيا لتحول دون ذلك.. بعدما هَمَّت باحتضان قيثارها لتبدأ
في دَقِّ عُنق الحزن بعطر عزفها وإحياء السكينة في الصدور بصوتها
العذب الفتّان.. لتلتف الأنفس المعذبة حولها، وليتغلغل بداخل ثلاثتهم
لأول مرة ذلك الشعور الفريد بألفة الأسرة ودفعها..

شعور فقدته جميعهم منذ سنين تحت ركام من الحزن وحطام من
الأم.. شعور بعث من جديد في تلك الأمسية الساحرة.

مرت الساعات و النجوم تتلألأ في السماء وسط سكون وسكينة
إثر ذلك الصوت الملائكي الذي باركته السماء التي أمست تحتضن
الشمس والقمر جنباً إلى جنبٍ وقد شارفَ عليهم منتصف الليل..
تداعت فكرة قضاء الليل خارج المنزل عندما اعتمر الشaban سُترة
الدفاء الأسري.. حلة جديدة حاكتها لهم تلك الأم الموقرة الحنون حيث
أفاضت أحاسيسها نهر الحرمان والعوز المتجمّد بصدور الشابين..

ألقى الثلاثة أرواحهم المنتشية بعطر الليالي البيضاء في نهر النعاس
العذب، بعدما أثقل شدة صوفيا وقيثارها أجفانهم على مدار تلك
السُويعات برؤيا أحلام وردية لعوالم خيالية.. امتزج بها صبغة الحب
بالحنين وأطياف الحزن بالشجن، فقد أسكرتهم صوفيا بصدقها حتى
الثمالة حتى هي الأخرى لحقت بهم لتغطّي في سُباتٍ عميقٍ.

ظنّ الجميع أن أجراس كنيسة المخلص بالدم في وسط المدينة
ستوقظهم من تلك الغفوة ليتابعوا أمسياتهم الساحرة وسط أحلامٍ
حقيقية، ولكن كانت الواقعة..

انكدت فيها النجوم وراء أسراب من طيور الظلام لينطفئ سراج السماء و تتصدع من تحتها بروج البهجة..هزّت صواعق هُمم الجحيم المتساقطة من طائرات الأفئدة والأرض الساكنة، فعاد الفزع والهلع، وعادت ذكريات الحرب لأبناء الحرب .. حرب عقت فيها هُمم أحقاد الفاشية صليب الرحمة، الذي سالت عليه دماء نور الشمس فسقطت راياتُ المحبة المهترئة في مستنقع الغبن بين أوحالِ آلامِ الفِتنةِ والضَّيمِ ..

دَقَّت أجراس الإنذار المتحجّرة تحت ثرى سنين طوال منذ الحرب العالمية الأولى في أرجاء جسد لينينجراد وعموم أطرافها مُترامية الأبعاد..في تمام الثالثة والنصف صباحًا أيقظ دويُّ صفارات وانفجارات قوية جميع أبناء المدينة، استيقظوا على كابوسٍ جديدٍ لحربٍ جديدة تعتمر النازية فيها رداء الفاشية الدينية المقيتة وقبعة من الاستبداد وحذاء من العنصرية ..

اعترى أبناء الحرب حالة من الذعر المختلط بالذهول والارتباك، وكأن الحربَ شبحٌ قُدِّرَ له أن يسعى وراءهم للنَّيلِ منهم كما نال من أحبّتهم بين أحضان الوطن الغائب ..

- أهى الحرب صوفيا؟

- هي الحقيقة أدان، فلقد وُلِدنا أبناء حرب فرَرنا من كيرها في أوطاننا لنكتوي بنارها ها هنا في المهجر ..

- لستم أبناء حرب، فما الحرب إلا لعنة عقيمة تحصد الأرواح وتُسَمِّمُ العقول، وتُطفئ نور الله في أجسادنا..الحرب ولدت من صلب

إبليس في جسد يهوذا بلا رحم ولا رحمة .. لكن الرَّبَّ في ملكوت السماء
فرض علينا تجرُّع مرارة التجربة لإدراك حلاوة الإيمان.

- صدقتِ سيدة أولجا.. لكننا في نهاية المطاف سنحمل شئنا أم
أبينا أسماء وَصَمْنَا بها آباؤنا في أوطاننا البعيدة الساكنة داخل أجسادنا،
بين ضلوعنا تلك.

- صوفيا.. أنتِ والسيدة أولجا وطني وداري وسأبذل نفسي فداءً
لكما.. ريثما تهدأ تلك الغارات، سأجد لكما طريقة للفرار مُجدِّداً من هذا
الجحيم.

- أسيُجدي الفَراؤ الآن يا عزيزي أدان؟ إلى أين المفر ممَّا قُدِّرَ
لنا؟!!

- سأجد لكما حتماً ملاذاً آمناً لكِ صوفيا وللأمِّ أولجا.

- لقد فات الآوان على الهروب أدان.. فنحن الروس نقول هنا إن
البعض يرحلون بالطائرات إلى أعلى وآخرين يرحلون بالنعوش إلى
أسفل، أما أنا فقد بلغ العمر مني مَبْلَغَهُ..

- لذا لن يُسَمَح لي بالهروب، فلقدت هرمت على الرحيل.. هنا
وُلِدْتُ وهنا حييتُ تأتي ساعة موتي، ستقومان أنتما بمُواراتي الثرى
بجوار ابني وزوجي. فلنلذ الآن بأنفسنا الضعيفة إلى الرحيم خالقنا
فالصلاة هي خلاصنا الوحيد.

- كيف لخالق الكون الرحيم، مخلص البشرية من الخطايا أن
يكون هو من دسَّ في أجسادنا المرض وفي نفوسنا الشُّرور؟! كيف له أن
يُزلزل الأرض ويُفجِّر البراكين ويُغرِقنا بالسيول والأعاصير؟!!

- ولأنه إله رحيم حكيم، أخلفَ مرض الجسد وعلته مناعةً تُحصّنه وتُجنّبه المزيد.. خصب الأرض وأثراها بكنوز، لولا البراكين لظَلَّت مدفونة في باطنها، وجنّب الأرض فناءها حينما خلق من الزلازل رئة يتنفس عبرها الضغط الهائل الكامن في صدرها.. فليس كل ما يبدو للعين شراً هو بشراً..

- وماذا عن الشرور بداخلنا والحرب المتربصة بنا من حولنا صوفياً؟

- أَدان.. شرورنا ما هي إلا ظلال تحدو بأجسادنا تختفي.. تظهر وفقاً لنور إيماننا، فالخير هو مطلق عامٌّ، والشر هو عَرَضٌ خاصٌّ.. الحروب توحدنا وتوحد العالم من حولنا، ولا تنسى أن العلم والعمل يتتешان بغزارة في أثناء الحروب، فيُكشف خلاها النقاب عن الاختراعات والكشوفات العلمية.

- حقاً صوفياً.. فلقد اكتشف فلمنج البنسلين إيّان الحرب العظمى المنصرمة..

- نعم سيدة أولجا، ولتعلم أَدان أن الحروب تفرّزُ معادن البشر صالحاً كان أو طالحاً، الشجاع من الجبان.. ويبقى الشرُّ من أنفسنا الضعيفة وليس من روح الله..

- حقاً ابتني، فنقصان العالم هو بذاته عين الكمال..

- حان الوقت لنتحسس أقدارنا وسط العتمة، فتلك الرحلة صارت في أوجها، ولتعلم أَدان أن ما هو قادم سيحمل لك ما تبتغيه وما

تخشاه.. فلقد قُدِّرَ لك أن تُضحى من أجل حياتي وقُدِّرَ لي أن أهبك حياة جديدة، فسيولد من رحم الألم أملًا، فلتحافظ عليها كما ستحافظ عليّ، ليعبر بك نوري الوليد إلى يوم جديد حينما يُرفعَ الظلم ويعودُ الحقُّ.. لن نفرَّ ممَّا قُدِّرَ لنا مُجَاهَتُهُ.. عِدني ألا تنسى ذلك وأن تعمل عليه دومًا دون كللٍ أو مللٍ.

- أعدكُ مليكتي ألا آلو جهدًا في الذودِ عنكِ.

- خيرًا قلتِ صوفيا، فأغصان شجرة مصائرنا قد تشابكت لتصير سياجًا منيعًا، فلنسهر على راحة بعضنا البعض حتى يرفع الله عنا ذاك المَقْت والغضب، ويكتبَ لنا أمرًا كان علينا مفعولًا..

اقتربت السيدة منها شيئًا فشيئًا.. إلى أن تجمعنا بين أحضانها وهم يتطلَّعون بعيونٍ واجهةٍ إلى السنة النيران المتصاعدة على مرمى البصر هنا وهناك، وسط دويِّ صفارات إنذار سيارات الإسعاف والمطافئ التي اختلطت بصرخات الفزع الناجمة عن القصف المستمرِّ دون توقُّفٍ.

لم يبرح أحدٌ منهم مكانه وما زالت أحداقهم متعلقةً بنيران النازية التي تفصلهم حائلة دون رؤيتهم نور السماء.. إلى أن خرج أذان عن صمته مخاطبًا الأم الحنون:

- لم يتوقف القصف، ولم تنتهِ الغارات منذ أن بدأت قبل خمس ساعات..

- نعم أذان، فتلك هي البداية، وعلى قدر قُوَّتنا سيكون عُنفوان القصف، وما تردد قد حدث، والاجتياح قريبٌ وقادِمٌ لا محالة.

- أهى كغارات الحرب العالمىة الأولى سىةة أولجا؟
- لا صوفىا.. لم تكن غارات الأعءاء علىنا فى الحرب العظمى الأولى كهذه..
- لقد مرّت سنون طوال منذ أن وقعت الحرب الأولى أمى أولجا؟!
- نعم كانت أحضان والدى تعصمنى عن الخوف. ذلك الحىن صمءنا وصمءت بلادنا أعزائى..
- هل ستصمء لىنجراد هذه المرة يا سىةة أولجا؟!
- لا أءرى صوفىا.. لكن ما أثق به أننا سنجرع النازىىن من المرارة كؤوسًا وسنؤىقهم الوىل، فلن نكون لُقمةً سائغةً فى أفواههم.. وإن استطاعوا ابتلاعنا لن يقووا على هضمنا.. وإن استطاعوا، ستكون دماؤنا فى عروقهم سُمًا زعافًا وعظامنا فى أمعائهم أشواكا تقطع أوصالهم.. يستصرخون العذاب ألما وهم يولون الأءبار عائىىن إلى الجحىم من حىث أتوا.
- كىف تسقط لىنجراد وفارسُها المُفءى ها هنا سىءاتى الجمىلات؟!
- ها قد عاد أءان إلى سىرته الأولى وهو ىمزح فى أشء الأوقات قتامةً وعتمة..
- هكذا هو ابنى صوفىا.. لن تسقط لىنجراد أءان طالما ستظل روح فارسها مفعمة بذلك التشبُّث والصمود وحب الحىاة.

- يجب علينا الآن أن نستعدَّ لما هو قادم..
- كيف ابنتي صوفيا؟
- بالتحصُّن خَلْفَ قِلاعِ الصبر والجَلَدِ والتمسُّكِ بغريزتنا الأساسية.. الرغبة في البقاء.
- نعم صوفيا.. فبعدما يتوقَّف القصف وتنتهي الغارات سأذهبُ برُفقة الأمِّ أُولجاً للخارج لتأمين احتياجاتنا من المؤن والطعام، فحتماً ستعمُّ الفوضى أرجاء البلاد وبعد الفوضى دائماً يأتي ما هو أسوأ.
- نعم أَدان علينا إعداد العُدَّة لما هو قادم.
- إنه كابوس بغيضٌ ووداعٌ لأيام السلام..
- ابني أَدان، ربما يظنُّ البعض منا أنها تحية ترحيب بكابوسٍ مريرٍ، ويظنُّ آخرون أنها تحية وداع لأيام سلامٍ قد خلت.. ولكن في النهاية سندرِك جميعاً أن مَنْ يُقَلَّبُ أحوال الدهر بين شتاء وصيف، وبردٍ وقيظٍ قطعاً سيقبل الحال من ليل الحرب إلى نهار السلام..
- حقاً سيدة أُولجاء، وبعدها ستفنى الشُّرور حتماً بفناء جسد ذلك البائس الذي مَسَّهُ الشيطان، فسفك دماء الأبرياء.. التي احتضنتها الروح القدس داخل جسدٍ كان في الأصل طيناً.. فإذا ما عاد الطين لأصله، باركت روح الله الأرض من جديدٍ، وطرَد غيث الله الشَّرَّ من الطين لتحضنه على فطرته الأولى.. الفطرة الطيبة النقية كما كانت أول مرة..

- مهما يتهادوا في إراقة الدماء ويسرفوا فيه، لن يركع الاتحاد السوفييتي لأولئك النازيين.. ولتعلموا أبناءى أننا إذا ما تكاتفنا، سنكسر شوكتهم، وستكون الأيام القادمة خير شاهدٍ على ذلك.. وريثما تضع الحرب أوزارها، ستذكروننى أنتم بتلك اللحظة..

- نعم أمى أؤلجا.. سندحرهم إلى جحورهم، وسُنْقَوْضُ قِلاعهم التي نسجوها من خيوط الظلم الواهنة.

- حتماً سيكون مصيرهم كباقي الطواغيت الذين قضوا على أيدي الشعوب الحرّة.

- صدقتما القول سيدة أؤلجا أنتِ وأدان، فلا مناصّ لنا من هزيمة عدونا الجليّ الماثل أمام أعيننا، وليتنا نستطيع يوماً التغلّب على العدو الخفّى بداخلنا الذي لن يألو جهداً حتى يفتك بنا جميعاً.

* * *

تساقطت أوراق شجرة ذكريات صيف ليننجراد الجافة، بهطول الأمطار الغزيرة من أحداق السماء المنتحبة على دنيا الليالي البيضاء، التي تلاشت خلف عتمة العدوان.. تساقطت وقد اشتعلت فيها نيران القذائف، ولم يستطع الغيث أن يُطفئها.. انهمرت القنابل لتحصد أرواح الآلاف من ضحايا الغارات الكثيفة، التي مهّدت الطريق للجيش السادس الألماني لتنفيذ الهجوم البريّ الوحشي الخاطف للعملية العسكرية بارباروسا..

ففي بداية الأسبوع الثاني من شهر يوليو نرح آلاف الفارّين من مدينة بسكوف، هرباً من نيران القوات النازية التي اخترقت دفاعات القوات الروسية، وقد تَخَصَّبت مياه نهر بليوسا بدماء آلاف الأبرياء ممن ارتقوا دون أن يعلموا بأيّ ذنبٍ قد قُتلوا.. لم يختلف مصير سكان مدينة لوجا كثيراً، فطاعون الفاشية تفشّى هناك حتى بات في حضن ضواحي مدينة لينين..

ثلاثمائة ألفٍ قد فرّوا لاجئين إلى ليننجراد بعدما تقطّعت بهم السبلُ في بسكوف ونوفوجورد خلال أشهر الصيف.. لجؤوا ليتحصنوا بها ولكنهم شاهدوا قذفاً لم يتوقّف، بل ازداد الأمر سوءاً.. ممّا دفع الآلاف إلى الهرب مُجَدِّداً إلى موسكو والمدن البعيدة بالقطار حتى حلّ الحادي عشر من أغسطس، ذلك اليوم الذي استولى النازيون فيه على محطة قطار تشودوفو، لتتقطع أوصال السكك الحديدية.. أكتيا برسكايا، التي كانت تربط بين موسكو و ليننجراد.

وسط السُّقوط المدوي لدفاعات الجيش الأحمر وانهيار العديد من الجبهات أمام الاجتياح النازي، لم يتوقّف القصف العنيف المكثف ذلك الحين.. قصف الطائرات والمدفعية الألمانية الذي طال المستشفيات والمدارس، حتى دور العبادة، كنائس وكاتدرائيات، بيوت الله المقدسة لم تسلم منهم.. أصابت القذائف المتاحف والجسور، التماثيل والقصور، التي ازدانت بها المدينة وتزيّنت دائماً من قَبْلُ..

تحت وطأة ذلك الرُّعب كانت لدعوات الإذاعة الوطنية المناشدة لجموع الشعب للبقاء والزّود عن ليننجراد أثر عظيم في إيقاف سيل هروب الآلاف ليدعنوا إلى نداء الوطن في الدفاع عنه.

مرت الأيام سيات فتشابهت لوحات سفك الدماء وتشابكت
الأماني بالوعود والحقيقة بالسراب .. أسبوع قبيل خريف آخر في شجرة
عمر صوفيا.. خريف انبرى من بين ثناياه ظلام مُدقِع من الرعب
والخوف والترقُب.. انهمرت الأمطار بغزارتها المعهودة ولم تتوقف قط،
حتى تحوّلت أراضي لينينجراد وما يتأخّجها من مدنٍ وقرى وضواحٍ إلى
بُحيرات من الأوحال السوداء.. مُستنقعات من الطين اللّزج أبطأ من
السرعة الخاطفة لتقدّم جيوش الشمال النازية من الزحف نحو قلب
المدينة المنكوبة.

حول مائدة طعام متواضعة الحجم والمحتوى، تجمعُ أذان بين
صوفيا والأم الروسية في أحد ممرات البناية التي يقطنون بها.. يتناولون
طعامًا بلا طعم بعدما صرعت الحرب شهية البطون المكلوّمة، ليضحى
غثيان الخوف مُقبلاتٍ إجبارية لكل وجبةٍ يوميةٍ.

أصوات روسية صلدة متحمسة بعبارات اختلطت بموسيقى
المارشات العسكرية والأغاني الوطنية، مدوية في أرجاء البناية عبر أثير
المذياع.. لن تغادر مدينتنا.. سنلزم بيوتنا.. فنحن صناديد أشداء، ذوو
بأسٍ وقوة.. ستضع الحرب أوزارها قريبًا، قريبًا جدًّا..

بنظراتٍ واجحةٍ ونبرة صوتٍ مُثقلقة، ألقت السيدة أولجا سؤالاً
استنكارياً لهما بعدما أخفقت يداها المرتعشتان المتردّدتان بين إخماد
صوت أوهام الأمنيات أو الإبقاء عليه، في ظلّ حقيقة مريرة يتجرعها
الجميع على موائد الطعام:

- أحقًا ستضع الحرب أوزارها عمّا قريب؟!
- السؤال لك أدان، فلتجِب السيدة أولجا.. فها قد بزغ نجمك في سماء المعارك المحترمة على كل الجبهات.
- رفقًا بي صوفيا.. فلن تتواري أبدًا خلف ما قمتُ به وقد شاركتني تنفيذه على أكمل وجهٍ خطوةً بخطوة، يدًا بيدٍ من جمع الكثير والكثير من لوحات متحف الأرميتاج الفنية ونقله، التي تناهز المليون وغيره من القطع الأثرية والتماثيل الفريدة.. بعيدًا عن بطش معول الهدم النازي.. بعيدًا إلى أقاصي الشرق.. إلى سيبيريا وكازان.
- ماذا تقول أدان؟! فأنتَ صاحب الفضل في كل ذلك بشهادة الجميع..
- صوفيا.. لن أبخسك قَدْرَكَ، فلم ولن أنسى وأنا أذكرُ للجميع أنكِ صاحبة الفكرة، والجرأة على تنفيذ ذلك منذ الأسبوع الأول من هجوم جيوش الطغيان علينا.. وكيفيك إطراء حاكم لينينجراد لك، أندريه جدانوف.. أمّا مُشاركتي في هذا الأمر فلا تعدو أن تكون مشاركةً في معارك عسكرية.
- لا تُبالغ في الأمر أدان.. فالجميع من قادتك الميدانيين قد شهدوا لك ببراعتك المذهلة في تنظيم خطوط رجال المقاومة، وإعداد تجهيزاتِ الملاجئ الآمنة وأماكنها، وتدريب الشبان على استخدام الأسلحة المتعددة.. حتى إن الحاكم جدانوف منحك رتبة النقيب منذ عدة أيام، وقلّدتك وسام الدفاع عن لينينجراد بعدما بذلته من جهدٍ، وقد أبليتَ بلاءً حسنًا في معارك شليسنبورج الأسبوع الماضي.

- لقد حاولنا وبذلنا من الأرواح الكثير.. فحقاً قد قدمنا الغالي والنَّفيس لصدِّهم، ولكن في نهاية المعارك نفذ منا العتادُ والسلاح فسقطت القلعة في نهاية الأمر ولا تغمريني بمزيدٍ من الإطراء.. فأنتِ أيضاً نلتِ وسام الدفاع عن لينينجراد وميدالية الشجاعة ووسام المجد..

- إذن لن تنتهي الحرب قريباً ابني؟!

- كيف يتسنى لحربٍ أن تنتهي قريباً وقد أحكمَ النازيون قبضتهم على مداخل المدينة ومخارجها من جميع الاتجاهات لليابسة عداً بحيرة لادوجا..

- إذن لقد بدأ حصارٌ لا يعلم أحدٌ سوى الله متى سينتهي!

- ستسوء الأمور أكثر من ذلك ابني أداً؟

- نعم سيدة أولجا.. فنظام تمويني صارم على وشك التطبيق، وسيحددون من خلاله جرائمات محدودة للخبز الجافّ والسلع الأساسية إذا ما استطاعوا توفيرها.. فلقد أوصدت المتاجر والمحال أبوابها، بعد أن نفذ ما بالمخازن ودُمِّرت مستودعات الغذاء، وتوقَّفت حركة القطارات تماماً.

- يا إلهي! لكننا دحرناهم ابني خارج مُدُننا الكبرى ببسالة دِفاعنا، أليس كذلك؟

- نحن ندفع ثمنًا باهظًا في المقابل سيدة أولجا، فعشرات الآلاف من جنودنا قد لقوا حتفهم، والعديد من فرق الجيوش الثلاث التي

دفعنا بهم لصد الهجوم قد سقطوا ما بين قتلى أو أسرى.. النازيون باتوا يقرعون أبواب لينينجراد وموسكو.

- بل هم في الباحة الخلفية للعاصمتين الصيفية والشتوية، أدان.

- نعم صوفيا فهم يعيشون فسادًا وتخريبًا في كل مكان.. حتى مرتفعات بولكوف وأورتسيك في الشرق باتت قاب قوسين أو أدنى من قبضتهم..

- حقًا أبنائي.. الفوضى تعم أرجاء المدينة قاطبة، فالنوافذ قد أوصدت بألواح خشبية وأكياسٍ من الرمل.. صفارات الإنذار باتت تدوي لإقامة الصلوات وشعائر قداس الجنازات، بدلًا من أجراس الكنائس.. القصف طال كل شيء.. المشافي والملاجئ، والمصانع والكنائس ودور التوليد.. كل شيء، حتى حدائق الحيوان والمقابر لم يدعوها وشأنها.

- إنهم يرجوننا بالقذائف والشتائم عبر إذاعتهم الموجهة إلينا أُمي العزيزة.. الدمار للروس.. سنغرقكم هنا.. سنبيدكم عن بكرة أبيكم.. هكذا يقولون.

- عاجلاً أم آجلاً ستخرصُ ألسنتهم ابني أدان.. حتى يأتي ذلك اليوم، عليك أن تعي جيداً أنه إذا ما مُرِّقت الأشلاء وقُطعت الأوصال، ستبقى الروح عصية على أن تُنتزع أو تُقتلع..

- صدقتِ سيدة أولجا... نعم أدان، فلأن تغرق صامدًا في دوامة المحاولة، خيرٌ لك من السباحة ناجيًا على أمواج الاستسلام.

- سادتي، كل ما تحدثتم عنه يشكل الوجدان ويبعث بالهمم داخلي على الدوام.. لكن إذا ما انتهت الحرب قريباً وأشكُّ في ذلك الأمر تماماً، سيحتاج الجميع وقتاً طويلاً للعودة لسابق حياته الطبيعية، إذا ما استطاعوا فعَل ذلك.. فصفحات التاريخ اليوم تُسطر بمدادِ قوامه دماء ملايين البشر وأرواحهم.

- سأظلُّ أكرِّرها على مسامعكم دون كللٍ أو ملل.. أن تنالوا الحرية في صحراء الآلام، أكرم لنا من الركوع للعبودية المغموسة في نهر السعادة.

- أُمي.. أنا لا أخشى من العدو الماثِل أمامي، فلم أرتعدُ قط من بطش النازيين وقسوتهم في دحر الجيوش الثلاثة التي دفع بها ستالين لصدِّهم.. ما أخشاه حقاً هم أولئك الخونة، عملاءهم من الطابور الخامس المنتشرين في كل مكان..

- لا تُدِرْ بالك لهم أَدان، فلتكن على يقينٍ تامٍّ أن الرَّبَّ سيضع كيدهم في نحرهم وسيلبسهم سرايل من نار الانتقام، حينئذٍ سيمطر عليهم حُمماً لتصهر ما في صدورهم من غلٍّ وغبن حارقاً جلودهم المتلونة بالزيف..

- أحقَّ صوفياً؟! فما زلتُ لا أنفكُ أنظر إلى السماء، بحثاً عن الرب ووعده لنا..

- ابني أَدان لا تبتس ولا تفقد إيمانك بالقدير، فكلمات الرب ووعده ليس بحديثٍ يُفترى.. بل سيقع عليهم وعده الحقُّ المُبين، وسيُصبُّ جامٌ غضبه على أبناء الشياطين من الأفاعي والشعابين.

- ربما كنتُ في انتظار كلماتكم هذه بعد أن هيأت لكم الأجواء المناسبة، لأطلعكم على أمر قد صدر البارحة من قبل القائد جورجي جوكونف بعدما صادقهُ الزعيم ستالين بشخصه..

- لا بد أن يكون أمرٌ جليلاً ابني أدان..

- نعم سيدة أولجا، فنجاحي في هذا الاختبار سيعني الكثير لنا جميعاً، على الأقل سيؤمن لكم احتياجكم من المؤن والطعام ومستلزماتكم في الفترة العصيبة القادمة.

- ابني العزيز، لا نبتغي سوى سلامتك وأمنك بجوارنا، فالطعام لن يشبعنا إذا ما أصابك مكروه..

- سلامتي من سلامتكم أنتم، وصدقاً ما سأفعله سيكون راحةً لي في غيابي عنكم..

- والفشل في تلك المهمة سيكون ثمناً حياتك، أليس كذلك أدان؟

- بلى صوفيا.. قُدِّر لي أن أخوض هذه المهمة الصعبة، سأكون في صدارة المشهد قائداً على جبهة فولوخوف، وسيكون تحت إمرتي فرقة من خيرة جنود سيبيريا الأشداء.. استقدموها مؤخراً للقيام بغارات وعملیات نوعية على قوات العدو..

- يا له من ثعلبٍ مأكِرٍ.. فلقد أيقن ستالين أنه لا خوف من جانب اليابان على روسيا؛ لذا أرسل بمن لا يهاب الثلج ولا الصقيع،

أشرس مُقاتلي الأحرار ليدعم جبهات القتال المحتدمة بوحوشٍ
تفترسُ الألمان..

- نعم سيدة أولجا، ولكن صاحب الفكرة كان القائد جوكونوف
ولاقت استحسانًا كبيرًا من الزعيم ستالين..

- إذن صائدو الدببة لديهم خطة جريئة؟

- نعم صوفيا.. ما نريده الآن هو قَطْعُ خطوط الإمدادات عن
النازيين.. فالأوامر الصادرة سلفًا لأهالي القرى والبلدات قبل فرارهم،
كانت حرق كل شيء خلفهم وعدم ترك أي شيء قد يستفيد به النازيون
بعد رحيلهم.. لا ماء ولا طعام، ولا أخشاب ولا أكواخ.. حتى يقعوا
في شرك البرد وبرائن الجوع..

- سياسة الأرض المحروقة...

- نعم صوفيا..

- جوع يلتهمهم شرور الأرض.. خلاص لها ولي.. مسرة على
الناس..

- صدقت سيدة أولجا.. أدا..! سأصلي من أجلك ألا تفقد
بصيرة نفسك.. ففقدانها يعدُّ موتًا بطيئًا للروح داخل زنزاة الجسد..

- لا تقلقي صوفيا.. فبصيرتي أستمدها من عينيك هاتين.. لتعلمي
أنني آت إليك من الحين للآخر، لأطمئن عليكما، وأزود روعي وقلبي
برؤيتكم.. فلا شيء دفعني لتولي تلك المهمة سوى عهدي لكما بألا

أتوانى عن أمنكما وتلبية احتياجاتكما، ولن يتسنى لي ذلك دون مُقارعة الظلم والفاشية على جبهات القتال..

- متى سترحل أدان؟

- الأسبوع القادم بعد أن نحتفل معًا بعيد ميلادك..

- سنحتفل أبنائي بتلك المناسبة السعيدة، وأعدكم أننا سنقضي يومًا بديعًا معًا..

- لن يكتمل بديع ذلك اليوم حتى تلبي صوفيا دعوتي لها بأن نحتفل بمناسبة أخرى..

- مناسبة أخرى؟! ماذا تعني بذلك أدان؟

- نعم أمي، فدعوتي لصوفيا دعوة مقدسة.. صوفيا.. هل توافقين على الزواج بي؟

- أدان..

- تعلمين صوفيا أنني أحياء بك ولك.. تعلمين أن القلب ينبض بحبك، فلتلبي ندائه لك.. لتوافقي على أملي الوحيد الأوحد بخطبتك لي يوم ميلادك، وليكن زفافنا عشية عيد الميلاد.. بعدها ستحملين لي والعام الجديد الجنة عندما أستطيع أن أحمل بين يدي هاتين ابنة جميلة من رحمك.. فلا تعلمين كم أتوق لذلك..

- أحقًا أدان تبتغي الزواج بي في هذا الوقت العاصف؟

- حبيبتى.. بعيداً عنك حينما سأكون في أرض المعارك، لن أضمن بقائى يوماً واحداً على قيد الحياة، وكل ما أبتغيه هو إذا ما وافتنى المنية هناك بعيداً عنك، أن يكون خاتمك هذا هو مطهري وصك غفرانى، دليلي ومُرشدِي ومِفْتَاحِي لجنّة الخُلد.. حيث سأكون بانتظارك..

- لن تموت أدان.. ستعود من أجل عشقك الأبدي وسأحمل اسمك حتى يوارى جسدك الثرى زوجة وابنة.. وفي النهاية سأحمل إليك ما قُدِّرَ لك أن تمضي خلاله.. فلا تُلقِي صَكَّ غُفرانك، فأخشى ما أخشاه أن تصيبك لعنتي.. لعنة الحب إذا ما خُيِّرْتُ بين حياتي زوجةً أو حياتك لي كابنة..

- لا أستطيع إدراك ما تبغين قوله صوفيا.. ولكن ستكونين زوجتي وابنتي وعشيقتي، ستأتين لي بابتنة صغيرة تُنير لنا حياتنا.. حينها سأكون لكما أباً وزوجاً وعشيْقاً.. يعلم القدير كم أنا مُتِمِّمٌ بعِشقك! وكم أتوق لذلك اليوم الذي ستقفين بجواري على المذبح ليجمعنا الربُّ برباطه المقدس وسرِّه الأعظم للأبد..

- ستدرك ما أقصده في حينه أدان..

- إذن صوفيا فلتلبي نداء ذلك الفتى الشَّقِيَّ، فقلبه بات قاب قوسين أو أدنى أن يَشُقَّ ضلوعه..

- حسناً أدان.. سيكون زفافنا عشية عيد الميلاد بعد أن ينتهي حصارنا هذا.. وأعدك أنني سأقي لك بما تشتهي نفسك.. ولتعلم أيُّها

العاشق أن الحب كالنبيد، لكي ترتشف حلاوته عليك أولاً تجرّع
مرارته، وفي نهاية نشوة السكر، ستُعاني الأمرين من آلام صداعه
المزمن..

- هلموا إليّ أحبائي، ولتأتوا بين كنف أحضاني تلك، فقد
غمرتموني بالبهجة والخُبور من أجلكم.. كم أتمنى أن تزول غُمَّةُ
الحصار هذا قريباً لأزفك إلى أَدان حبيتي صوفياً.. وأن أرى ثمرة ذلك
الحب الفريد لترعاه أحضان يدي ويتربى على نور عيني..

- سيضُمُّنا حضنك الدافئ هذا سيدة أولجا فتاة ورضيعة
وسيرعانا حنوُّك، وسنكون بين كنفك ابنة وحفيدة..

- كم أتوق إلى هذا اليوم أحبائي! فالיום هو أسعد أيام حياتي،
وأنا بينكما أشهدُ حبكما جذوة نار تضيء ظُلْمة الحرب الحالكة..

مكثَ الخطييان بين أحضان الأم المُشتاقَةِ لشعاع من الأمل المضيء
لصباح غدٍ مُشرقٍ..وقد لاحت أخيراً في الأفق لأَدان شمس ذلك
اليوم، الذي سيتنسم فيه عبير الحب من زهرته المقدسة.

ظلت صوفياً متوحدة بداخلها، تستجمع عبارات المعتمرة العجوز
على سلام كنيسة القديس توماس، وقد برزت على وجهها علامات
الترقُّب..

في ذلك الحين انبرى صوت الموسيقىار ديمتري شوستاكوفيتش من
المذياع وهو يصدق بأول خطاب له عبر أثر الإذاعة الوطنية.. خطاب

حماسي عَجَّ بعبارات تحفر على جدران صرح المجد للحرب الوطنية العظمى .. دَوَّى صوته بأرجاء ليننجراد وربوعها لتستقبله الأفتدة والألباب كاستقبال الصحراء للمطر عندما صرخ:

- اليوم السادس عشر من سبتمبر ينبغي لنا أن نتكاتف معًا للدفاع عن ليننجراد.. كونوا جديرين بأسلافكم..

استمعت العائلة الصغيرة للخطاب كاملاً.. مشدوهي الأنفس، دامعي الأعين.. وكأن اليوم الذي وافقت فيه صوفيا على الزواج بأدان كان يوم ميلاد روح النضال في جسد ليننجراد المكلوم..

مضت الأيام سريعة واحتفل أبناء الحرب بعيد ميلاد الخطيبة واحتفيا بخاتم الرباط المقدس.. بعدها استودع الخطيب صوفيا في كنف رعاية الله بأفتدة بارقة لأجساد مفارقة، شهدت حفل ميلاد صوفيا ونبوءتها وارتباطها الأبدي بلعنة ستصيب أذان ومن بعده.. فتية قُدِّرَ لهم ذلك..

مرَّ الخريف برياحه الصرصر، وسط احتفاء الجميع بصوفيا في أحياء المدينة وشوارعها وأزقتها.. بعدما ذاع صيتها في أرجاء ليننجراد كافة.. صوفيا ماركيزوفا.. هكذا لُقِّبت بين أبناء ليننجراد.. البطلة التي لم تستطع أعينُ الأعداء إدراكها، ولكنها بقدرتها الخارقة أوقعت الكثير من عملائهم وجواسيسهم في أغلال القيود وشرَك الاعتقال..

أخذت تصول وتجول يوماً بعد يوم، كالنحلة البرية، تصمُّ أذان الأعداء بطنينها الخارق، تلدغ أعداءها بعمليات خيالية غير متوقعة..

بتأمين نقل ثروات الإنسانية التي لا تُقدَّر بثمن من المتاحف الوطنية إلى أقاصي الشرق، تاركة خلفها أشواكاً سلَّها غصة في جسد عدوها، ومن ناحية أخرى تسقي برحيق صوتها الشادي على نغمات قيثارتها قلوب النساء والشيوخ، الأطفال والمرضى المُروَّعين في الشوارع والحواري..

في المشافي والملاجئ وسط أيدي القصف الطولى حتى دقت أخيرا أشباح الشتاء باب المدينة ودوى معه نفيراً بوق الخطر المدقع المتحين لاستقبال إعصارٍ مُدمرٍ، لن يترك وراءه سوى الآلام والأنين.. موجة مبكرة من البرد القارس تجاوزت الأربعين درجة تحت الصفر.. حوَّل خلالها الصقيع طين الأمطار اللزج الأسود إلى تربة صلبة، شلت حركة الدبابات وناقلات الجنود الذين افتقروا الملابس السمكية.. ممَّا دفعهم إلى القتال من أجل قرية واحدة، ففقدان بيت أو كوخ يعني الموت الخاطف من البرد.. لذلك استقدم جوكونف السيريين من الشرق لخوض تلك المعركة القاسية، فهم لا يخشون البرد ولا الموت..

ازدادت حِدَّةُ قصف المدفعية الألمانية، بينما اشتدت العواصف الثلجية، واحتدمت معها المقاومة، واشتعلت جبهات القتال التي اصطلت بلهيب المعارك الضارية.. معارك أبلت فيها بلاء حسناً القوات الروسية المدعومة بتعزيزات السيريين الأشاوس.. بما لديهم من زلاجاتٍ وكلاب الرنة، المدربة تحت قيادة ميدانية مُحَنِّكة، التي استبسلت في الذود عن كل شبر وعن كل كوخ وكل قرية.. فما كان من قيادة جيوش الشمال النازية سوى التوقُّف عن مهاجمة المدينة، واكتفوا بتطويقها على آمال ضبابية بمعاودة كَرَّة الهجوم تارةً أخرى.. إذا ما سنحت الفُرص عند توافُر ظروفٍ أفضل.

كان العقاب النازيُّ قد صدر منذ الخريف المنصرم، عبر خطابات هتلر المتتالية..

في الثاني والعشرين من سبتمبر..

" ليس لدينا أي اهتمام لإنقاذ أرواح السكان المدنيين " ..

وفي الثامن من نوفمبر في ميونيخ ..

" يجب على لينينجراد أن تموت جوعاً " ..

أوامر جليلة بدكَّ المدينة على رؤوس الجميع، ومسحها من على وجه الأرض، فجميع سكان المدينة المحاصرة صاروا منذ عدة أشهر أهدافاً مُستباحةً لمدفعية النازيين، الذين تكبدوا خسائر لا تُضاهي فداحتها عشرات الآلاف من الجنود والمدنيين العُزّل من الجانب الروسي .

تباعدت زيارات أدان لأسرته الصغيرة شيئاً فشيئاً.. حتى توقّفت بحلول الشتاء، حينما قام الكرملين باستدعاء فوري له بعد تقارير الحاكم جدانوف والقائدين فوروشيلوف وجوكوف قادة جبهتي لينينجراد وفولخوف، الذين أثنوا على دور أدان المحوري كهمزة وصل في التنسيق بين الجبهتين، وشجاعته واستبساله في النّزال على أرض المعارك، ودوره البارز في تقويض حلم النازيين باحتلال قلب لينينجراد..

لم يكن بيده أن يتخلّف أو يُعطى في تلبية أمر القائد الأعظم.. فبعد أن عرج على حي الأميرالية نواة المدينة ليلتقي بصوفيا أمام القصر

الشتوي، مقر القياصرة هو يطلعها على رحلته الخاطفة المحفوفة بالمخاطر إلى موسكو، العاصمة التي بلغ أبوابها النازيون الأسبوع الأول من نوفمبر..

ودَّعها على عجلٍ ولم يكن يدري حينئذ أنه سيذهب بعد تقليد ستالين له ميدالية الشجاعة ووسام المجد في مهمة، ستبعده عن لينينجراد حتى الصيف التالي.. تاركًا إياها أسيرة للليالي الشتاء الطويلة الباردة..

مائة واثنان وثلاثون يومًا قادمة، ستأتي فقط لتطوى أراضى المدينة تحت رداء الثلج أوقاتًا طويلة.. تحت وطأة الحصار وضراوة القصف..

دُمِّرت مكتبة لينينجراد، ونفقت الحيوانات في حدائق الحيوان.. استبدل النازيون القتال في الشوارع وقذائف المدفعية بالجوع الذي عصف بالمدينة المحاصرة بعدما قصفوا جميع مستودعات السلع التموينية حتى أُمست شحيحة، صعبة المنال.. ليُسمي القصف والجوع والبرد ثلوثًا للموت، ينعق في سماء المدينة، ومن تحتها على الأرض آلاف من الأبرياء العزَّل يُصلُّون من أجل معجزة إلهية تنتشلهم من المقابر الجماعية المتحينة لابتلاعهم عمًا قريب.. فراح الإيمان يتلاشى شيئًا فشيئًا، تاركًا المجال خاليًا للهوس والجنون لكي يسطير على أدمغتهم، بينما تمكَّن القُمَّل والبُقُّ والتيفوس من أجسادهم الهزيلة..

في ذلك الحين وعلى إحدى ضفاف نهر نيفا، افترشت صوفيا ركام أحد المقاعد وهي تتأمل ما تبقى من التماثيل التي لم تطلها يد القصف وقد نالت منها يد الإهمال.. أخذت تُمعِنُ النظر بفتاة صغيرة تلعق

الأرض بجوارها، وهي تنتحب باكية بعدما تعثرت وقد سقطت من بين يديها على الأرض زجاجة من الماء المَحَلَّى ..

ذهب هذا المشهد المُرري بذاكرتها إلى الوراء قليلاً.. أسابيع قليلة.. حينما أحرق النازيون مُستودعات باداجيفسكي العامة للمواد الغذائية في الثاني عشر من سبتمبر .. حريق هائل امتدَّ عدة أيام، غطَّى خلالها الدخان سماء لينينجراد.. انكبَّ الجميع على وجهه يومها من أثر الجوع صوب المستودعات التي استوت بالأرض، ليتناولوا التُّراب والرَّمَاد المُختلط بالسُّكَّر والدقيق ..

عادت بذاكرتها وهي تمنع النظر في مياه قناة نيفا وهي تتجمَّد ببطءٍ وقد أضحت يابسة تماماً.. بينما أخذ يعدو من فوقها جروٌ صغير، عابراً الضفة الأخرى، باحثاً عن الأمن والطعام، هارباً من البرد القارس ..

انتفضت صوفيا وقد سقطت على رأسها تفاحة الخلاص من فوق شجرة المعجزات وهي تصرخ:

- بحيرة لادوجا.. هي الحل!

أياماً قليلة بعدها تصدَّرت صورتها صحيفة المدينة المحلية ويعلوها عنوان: "صاحبة طريق الحياة" ..

نجحت خطة صوفيا الجريئة في إجلاء الآلاف من الأطفال والمرضى والجرحى عبر مياه بحيرة لادوجا المتجمدة، مدشنة خطأ لإمدادات الغذاء والوقود لداخل المدينة المحاصرة.. طريق أسمته هي طريق الحياة..

هكذا وهبت صوفيا الحياة لأبناء لينينجراد عبر بطولاتها التي
سطرتها قُبيل العام الجديد.. وبينما كان الجميع يحتفل بأعياد الميلاد
وتلقي الهدايا، كانت الهدايا في لينينجراد هي الحصول على مئة وخمسة
وعشرين جرامًا من الخبز الجاف ..

عشية عيد الميلاد خرجت صوفيا لتعزف بقيثارتها لعابري السبيل
من أبناء لينينجراد.. هائمة بين طرقاتها حتى أوصلتها قدمهاها إلى شارع
روبين شتاين، احتبس الدمع في عينيها عندما أدركت محل الأسماك
والحانة بجانبه.. وقد اختفوا تمامًا من على وجه الأرض..

تابعت وهي تجول هنا وهناك لترى عجوزين يجرّان زلاجة في
شارع باكونين، وقد وضعوا دلوين من ماء الشرب من فوقها.. تابعت
متسائلة وهي تبصرُ جمعًا تفرّق أمام بيوتهم .. هل هم واقفون أمام
أعتاب منازلهم أم على أعتاب قبورهم؟!

بكى الجميع ريشما تغلغلت موسيقى صوفيا وصوتها الملائكي
لداخلهم.. رأتهم ييكون جميعًا عشية عيد ميلاد المخلص.. ييكون حول
المدافن الجماعية التي تعجُّ بها الأحياء..

الجثث وأشلاؤها المتجمدة الملقاة في الشوارع والأزقة.. مَنْ يستطيع
حمل موته، يفعل ذلك بشراف وزلاجة في ظل درجة حرارة تتراوح
بين الثلاثين والأربعين درجة تحت الصفر، التي جمّدت المياه، فباتت
المدينة تُعاني بلا ماءٍ للشرب .. رأتهم يمضون ولم تعد القذائف مخيفة لهم
كالجوع والبرد..

توقَّفت صوفيا عن العزف بعدما وجدت تلك المشاهد المأساوية
مراسم احتفال المحاصرين بأعياد الميلاد.. توقَّفت ولم يكن بالجوَّار
حافلات الترام كي تُعيدها إلى بيتها.. فجميعها توقف تمامًا عن العمل..
إلى أن دوَّت صفارات الإنذار في أرجاء المدينة، فلم يكن للنازيين أن
يتركوا المحاصرين أن ينعموا بالسَّكينة والهدوء عَشِيَّة عيد الميلاد..

ركضت ابنة الحرب وسط دويِّ انفجارات شديدة تهزُّ أرجاء
المدينة.. مرَّ قليلٌ من الوقت حتى لاحت في السماء أسراب كبيرة من
طائرات الشَّرِّ وهي تُلقِي هدايا النازية.. قنابل حارقة ونيران المدفعية
على رؤوس المحتفلين بميلاد يسوع.. أخذت تركض وتركض والأزيز
يشتدُّ والضجيج يُدوي.. مئات القذائف تحصد الأرواح، مئات القنابل
تحرِّق القلوب.

اقتربت صوفيا من المنزل وقد لاحت السيدة أُولجا في الأفق، وهي
تخرج من باب الكنيسة مُتجهَّةً إليها، ناحية الملجأ، الذي يبعد عدة
جادات عن المنزل.. توقَّفت صوفيا في منتصف الطريق على مَقربةٍ من
الملجأ، ومن مسافة ليست بالقريبة أخذت السيدة أُولجا تُلوِّح بيديها لها
أن تبعد.. أن تختبئ..

تطلَّعت صوفيا إلى السماء وهي تنظر، لتجد قذيفة مُوجَّهة سقطت
من إحدى الطائرات وقد استقرَّت فوق الملجأ.. زلزلت الأرض
وتطايرت الشظايا، ومعها صوفيا لتسقرَّ على الأرض مُغمضة العينين
وطنين قد سكن أذنيها.

أُصيب الملجأ إصابة مباشرة، ليدفن من كان يحتتمي بداخله تحت
الركام قتلى.. مئات من الأطفال والنساء الأبرياء والشيوخ قضوا.. بينما
ثوانٍ وعدة أمتار قليلة فقط باعدت صوفيا عن الموت.. فقط لتستريح
قليلاً على فراش المرض..

بكل ما أوتيت من قوة سارعت السيدة أوجا بحملها، وقد اعترتها
حالة هستيرية من البكاء والصراخ والعيول.. إلى أن رمقتها صوفيا
بسمه وهي تطمئن بصوتٍ خافتٍ مُتَقَطِّعٍ، بأنها وُلِدَتْ لكي تحيا ولم
يأتِ ميعاد رحيلها الآن..

بعدها اختبأ يَمُ حذقيها الزرقاوين خلف ستار أجفانها لترحها
ولو قليلاً من رحلتها الطويلة الممتدة، وهي تبتعد بجسدها عن المطهر..
وجسدها بين ذراعي الأم أوجا التي دلجت بحملها مثقلة لداخل البناية
حيث مأوى الدار..



انفرط عقد أيام يناير المكفهرة، ليجثم بعده جفاف جروح فبراير
السوداء كعتمة الليل على صدور المحاصرين في لينينجراد.. بين فكي
وأنياب وحش الممات الكاسر، رقدت المدينة تحت عصفه على أسرة
الآلام لسياط ترتفع وتهوي فتسلخ جلود الأبرياء العارية.. سيات
القصف وسياج الحصار.. هنالك تشظى صوت الإنسانية إلى آلاف من
أصداء بالية، وتناثرت معها شظايا ابنة القوارير المنكسرة في أرجاء
بسيطة الهواجس، وقد جرحت روحها بقسوة الأنين ومن حولها

بشظايا الوحدة الجوفاء والآلام الحادة، وبشظايا ملساء وهشة من
الابتلاء والعوز..

تكتّمت الأم أوجاً تضرّعها بالابتهاال والتوسّل في قلبها الباكي
المختلج، بينما فاضت عينها الشاخستان إلى جسد الفتاة المكلوم
بالتضرّع، وقد انسكبت دموع الرجاء منها بعدما فرغت من تضميد
وإزالة شوائب القيح والصديد عن جروحها الغائرة وبثورها وكدماتها،
وقد طببتها بهلام الصبار بعد غسلها بماء ممزوج بالكحول وآخر
قطرات الحَلِّ المُطهّر..

وقفت واجمة بلا حراكٍ، تتأمل نافذة استبدل زُجاجها المُهشّم
بألواح خشبية .. لم يتبقّ لها سوى ثقبٍ صغير صار ممراً لتنفس الغرفة
هواء الشتاء، ومعبراً لمشاهدة ما يجري بالخارج.. ثقب تسللت من
خلاله رائحة من قضوا تحت ركाम الملجأ المتاخم للمنزل ومئات من
الجثث والأشلاء المتفحّمة من حروق القذائف والزمهرير..

رائحة كريهة عبرت وقد وصلت إلى أنفاس صوفيا، التي بدت
لأكثر من شهر كغريق يُصارع أمواج الاحتضار، بروح مشروخة
مصفدة بجسد مجروح.. وصلت لِتُوقِظَ تلك الروح من غفوتها،
وصلوات الأم الصامته بجوارها لم تضل دربها إلى ينابيع الخير ووأفئدة
السماء حتى استجابت لدعائها الذي لم ينقطع ليلاً طوال..

تسلل مع رائحة الموت تلك، هواجس غارة عيد الميلاد.. قذائف
الجمرات الفاسقة التي أصابت وقد أسقطت نيازك الابتهاال وشُهب

التهليل المحترقة من سماء الخلاص.. عندما سقطت كعناقيد غضبٍ من
شجرة العقاب النازي على رؤوس إيمان المصلين..

أيقظت رائحة الموت صوفيا من سُباتها العميق، وقد صَدَمَهَا
جُلُمود جسدها المتحجر، حبيس مُخَدع الضعف وسجن الألم في
سريرها.. بينما أخذت تَجَرُّ بِشَقِّ الأنفُس مشاعرها الراكدة وأنفاسها
المضطربة، اختلجت تقاسيم وجه الأم أولجا وهي تصلي واشمة
الصليب على وجهها، وقد تقاسَمَ الفرح والحزن دموعها المنهمرة.. فلم
تشرق الضحكات من أجل شروق الحبور، ولم يغرب التجهُّم من أجل
غروب الكروب، فقط اختلط شفقُ الأمل الغائب بغسق البكاء
الحاضر..

- أين أنا سيدة أولجا؟
- حمدًا لله أن استجاب لابتهالاتي.. أنتِ في رحاب بيتكِ يا
صوفيا..
- ما الذي حدثَ منذُ فقدتُ الوعيَ أمس؟
- جرى الكثير يا ابنتي منذ أن فقدتِ الوعي، فأمسك قد أمسى
شهرًا وعدة أيام..
- يا إلهي القدير! لقد فقدتُ الوعي شهرًا كاملاً؟
- نعم ابنتي، أصابتك عدة شظايا، وكادت تنهش عظمة الرسغ
والساعد لولا عناية القدير بك.. فقدتِ الكثير من الدماء والوزن.. لم
يتبقَّ في جسدك سوى جُرْحين غائرين وبضع كدمات..

- أين أدان؟ هل عاد لرؤيتنا وأنا في عالم النسيان؟
- لا يا ابنتي، لم يأت منذ أن قابلتك في نوفمبر الماضي.. حتى إنني ذهبتُ للحاكم جدانوف فأخبرني أنه يقوم بدور بطوليٍّ ملحميٍّ على جبهة بسكوف، وفي ظلِّ الظروف الراهنة لن يتسنَّى له العودة قبل أعياد الفصح..
- يا إلهي.. فلتعلمي سيدة أولجا أن الأمر خارج عن إرادته.. فأنا على درايةٍ كاملةٍ بأدق تفاصيل أدان، وربما قد تورَّط في الأمر دون علمٍ مُسبقٍ..
- أعلمُ ابنتي، وكم كنتُ فخورًا به حينما قبل يدي الرفيق جوفوروف، قائد جبهة فولوخوف ريثما أخبره الحاكم أنني أم أدان.. ليمضي ما يناهز الساعة محتفيًا بي، قاصًّا على مسامعنا بطولاته وشجاعته..
- سيعود إليك سيدة أولجا، فلتتأكدي من ذلك اليقين تمامًا..
- أثق برحمة القدير لي.. ولكن ابنتي ما يؤلمني ويؤرِّق قلبي هي جرائم الحرب تلك، التي تسطر الآن بدماء الضعفاء والمساكين.. مجرمو حرب، جنرالات فاشيون، غلاظ القلوب توحشوا فصاروا أدنى مقامًا من الوحوش وهم يتلذذون بمرأى دماء الأطفال والنساء مُخَضَّبُ الأرض..
- كم كان معول الحرب قاسيًّا! فلقد دمَّر أسوار مدينتنا الحاملة المقدسة حيث خضبت الدماء الثرى فصار الغبار رمادًا يتطاير ليسمم أنفاس الورد المُحتَضِر..

- إنهم يتفاخرون كِبَرًا وتعاضًا، بطرًا وخِيلاء وهم يَخْنُقون كل روح طاهرة بلا قلب ولا رحمة.

- سيدة أولجا، مَنْ يُغلق جميع أبواب الرحمة بصلفه لن يجد مَهْرَبًا سوى نافذة الجحيم..

- مئتا ألف سوفيتيٍّ قد قضوا نحبهم حتى يومنا هذا ابنتي..

- لن يُثينا ذلك عن المقاومة، فلا تنسي أننا بلوكاندسك..مقاومو الحصار..

- سُحِقًا لأولئك الحمقى مَمَّن يدَّعون الرجولة كونهم ذكورًا..يُلقون الحجارة عَشِيَّةً وهم يلهون، وفي الصباح يتعثرون بها، فإذا بهم يلعنون الأقدار حينما ينكبون على وجوههم، لتلحق ألسنتهم لعنة القدير..

- أتعلمين سيدي.. إن كثيرًا منهم يُعاقرون الخمر فقط كي ينسوا واقع ما قدَّمت أيديهم.. ولكن الواقع أنهم يُعاقرون الواقع المُتخَمَّر في آثامهم..

- حقًا.. فما يفعلونه ما هو سوى تلويث عقولهم بسموم الوسوس ونزغات الشيطان..

- ما تلك الرائحة النتنة؟! تبدو وكأنها لجيفة حيوان قضى من البرد القارس؟!!

- لا يا ابنتي..إنها جثث أناس لم يجدو قريبًا لهم يُوارِيهم التُّراب من شدة المرض والإرهاق والجوع.. عشرات الجثث مُلقاة تغسل بدماء

الوطن، والوطن يقف عاجزاً على احتضانهم بداخله.. مئات ما زالوا
متجمدين أو حرقى تحت ركام الملجأ منذ عشية الميلاد..

- فليعزِّهم القدير برحمته وبئس وِرْدُ قاتليهم المورد ورِفْدُهم
المرفود في الدَّرْك الأسفل من الجحيم.. هل لك أن تأتي بمرآتي سيدة
أولجا؟

- ربما كان من الأفضل ألا تفعل ذلك الآن إلى أن تستردي
عافيتك كاملة..

- لم سيدة أولجا؟ متى أعلنت الحداد على زوال جمالي ومتى
سينتهي؟

- حبيتي ما زلت كما أنت، ولكنك فقدت الكثير من الوزن
.. هذا كل شيء.. وإذا ما أردت، فالمرآة خلفك على حافة النافذة..

حاولت صوفيا أن تستجمع قواها وهي تعتدل بجسدها، وما إن
استقام جذعها، وكادت أناملها أن تُمسك بالمرآة حتى خارت قواها،
وسقطت المرأة على الأرض مُتهشِّمة تماماً لأجزاء لا تتعدَّى جناح
بعوضة..

- لا عليك ابنتي، سأحاول أن آتي إليك بمرآة حين أخرج للتزوّد
بالماء، وما أستطيع تدبيره من الغذاء..

- لم لا يوجد ماء لدينا هنا؟!

- لقد فقدنا كل ما لدينا ابنتي بعدما توقفت مواسير المياه
والمجاري عن العمل ولا يوجد ماء بالقرب من البناية؛ لذا يتعيَّن عليَّ
ملء دلوين فوق الزلاجة من شارع باكونين..

- وماذا عن حطب التدفئة؟
- استنزفنا كل شيء في الشهر المنتقضي، ومنذ أسبوع نُحطِّمُ من حين لآخر المنازل الخشبية القريبة لاستخدامها حطبًا للتدفئة؟
- ولا مزيد من الغذاء الذي كان يُوفَّرُ لنا أَدَان. أليس كذلك؟
- لدينا القليل، ولكن الشتاء طويل ابنتي، وبغياب أَدَان ستغيب عنا حصة كاملة، ولكنني سأندبّر الأمر..
- لن أستطيع التئمُّ ولا التبرُّم بعدما تخلفَت عنا رياح الكفاف.. في رحلتنا الشاقة عبر برية قفر قاحلة لدرب الهروب من حبِّ الذات.. سنبقى نعاني وحدنا ظلام جلد الذات الوحشي، بعدما ودعنا راحلة تلك الأمنيات مع الغروب.. أخشى على أنفسنا المُعدَّبة التيه في شتات الدروب..
- لتستردِ عافيتك ابنتي، ولا تشغلي بالك بتلك الصغائر.. ستتدبّر أمرنا معًا حتى يعود إلينا أَدَان.. سأذهب الآن لأعد لك الغذاء.
- أستميحُك عُذْرًا سيدة أُولجاء، ولكن هل لك أن تأتي لي بكتابي المُقدَّس ومسبحتي.. فكما أخبرني والدي أن خلاصي سيكون بداخله..
- حسنًا، ابنتي سآتي به إليك من الطابق الأعلى..
- بجدت صوفيا بسريرها، ولم تبرحه قط لبعض من الوقت بعدما وافتها السيدة أُولجاء بكتابها المُقدَّس.. وما إن فرغت من قراءة مقتطفات

من نفحاته حتى أذابت تلة اليأس الصغيرة، التي جمّدت بعضًا من إيمانها لحظاتٍ قلائل..

نظرت الفتاة الجريحة إلى المرأة بعدما تحطّمت ورقة زجاجها، كانت تقضي بعضًا من الوقت مؤخرًا أمامها كي ترى على صفحتها وجهها المحاط بهالةٍ من الحُزن.. لكنها قد تهشّمت ولم يتبقَّ منها سوى إطارها الذهبي المزّين بنقوش أحرف اسمها، وزُخرف بارز من الزهور.. زهور الأمل تلك أحيانًا ما توجعك بأشواك اليأس المحيطة بها..

اعتدلت صوفيا لتضع كلمة الله على نافذة الحياة الساكنة بجوارها، وقد أَلقت سُترة اليأس البالية وبعين يكتنفُها الكثير من الفضول الجامح، استندت بأناملها المرتعشة إلى النافذة وهي تحاول بمشاهدة أن تُبصر ما يجري في الخارج عبر نفق الفتحة الضيقة تلك..

تأمّلت حفنة من أطفال حالمين، ينشدون الترانيم والأهازيج والأغاني على دويّ القنابل المميّنة، وأصدااء أصوات الرصاص البعيدة.. أَلقت هكذا ويلات الحرب بظلالها الكثيبة عليهم، على أطفال الحصار، وهم يغتمون ما تبقى لهم من وقت ليتنعموا بالقليل ممّا أُتيح لهم حتى لو كان ذلك آثار الموت المفجعة.. ما انفكوا لاهين ملقين دُعاباتٍ مُظلمةٍ بأكل لحوم إخوانهم وحيواناتهم الأليفة.. طرحوها على أرض المجاعة وهم يلعبون بجوار ما أُرِمّت من الجثث المتجمدة، كأنها دُمى أو تماثيل صقلتها أشباح الموت، وأدتها أحلامهم الضائعة، التي قد وقفت على أطلال حاضر، سكنه طيور الظلام وأطياف الرعب ووحوش الوحشة..

تابعت أعين فؤادها هؤلاء الصغار وقد تهللت أساريرهم
بضحكات صافية بريئة، وهم يتلقفون العقاب النازي وكأنهم يتلقون
الهدايا من الحلوى.. حلوى باتت تُوزَّع بين الأطفال جميعًا، حلوى
الموت، سكاكر الإعاقاة، فطائر الجوع المُحلَّاة وخطمي هجرة الوطن..
قذائف وقنابل لم تعد تُرهِّبُ أولئك الأطفال كمارد الجوع المتربص بهم..
لكنها أصابت عروس الوطن، ابنة لينين الجميلة، التي راحت تقصُّ على
مسامع التاريخ الأسود روايتها البائسة بصوت صوفيا، الذي اعتراه
كرير وبحة من أثر غبار الحزن ودخان المرض..

أغيثوني.. أغيثوني، هكذا صرخت ودويّ صدى صُراخها من
المحيط إلى المحيط.. هكذا صرختُ أنا للعالم بأسره، فلم أجد من مُغيثٍ
يؤازرني وجنود الحرب يقتادونني إلى أرض قفر مجهولة، ينبجس البغض
والحقْد متدفقًا من باطنها.. هناك أسكنتني الحرب بين أطلال ديار
مهجورة.. حاولت النِّيلَ مني ساعاتٍ وليالي طوَالًا، جرَّدتني من كل
شيءٍ، ولم يتبقَّ لي سوى بجادي الشرف والكرامة.. كبَلَّتني بعدها
بسلاسل الضعف والجوع والاستكانة، لتخلع بعدها عن جسدي
الضعيف ستر نفسي وقد تركتني فريسة، لُقمة سائغة على مائدة سيِّدها
وسيدهم.. لينهش في لحمي وعِرضي وشرفي في عتمة الليل الجريح
وليالٍ أخرى كثر..

وأنا أصرخُ وأصداء توسلاتي للعالم أجمع لم تلقَ ردًّا ولا إجابة
تنتشلني من بين براثن إبليس اللعينة.. لم يأتِ أحدٌ لنجدي، والمُخلصون

من أنبائي وإخوتي مُصَفَّدون من حولي بآلام البرد والاعتلال والجوع،
وأنا غارقة في بحر من الدماء.. غسلوني بماء مهل الضيم ليحرقوني وهم
يزيلون لطخات الدماء عن جسدي العاري.. لتتبقَّى وصمة العار بي
من آثار دَنَسهم تحت رداءٍ من القهر والذلُّ ألبسوني إياه.. وما زلتُ
عاريةً والجُرذان من حولي وهم يتناوبون الإغارة على نفسي الذليلة، تارة
بماء الدنس الزمهرير، وتارة أخرى وهم يصعقونني ببرق الرُّعب
الصارخ..

مَنْ سينتِشِلُنِي من غياهب الظلم ومن غيوبتي.. من بين ركام
أشلاء حسرتي ودماء عَفَّتِي ودموع كرامتي على مذبح الخلاص في قدس
الأقداس... هكذا أخذت تُغَالِب دموعها على وجه صوفيا التي أخذت
تُرَدِّدُ:

- لقد كُتِب علينا أن نسير في طريق الآلام من باب الأسباط إلى
كنيسة القيامة..



تبدَّلت الأيام، وتشابهت العيشة اللجة.. عيشة لم تعد فيها القذائف
مُخيفة كالجوع، الذي بات إعصارًا يضرب المدينة بجوار بركان المرض
وزلزال البرد..

نَدَرَ الغذاء وشَحَّ وتشابهت روائح الوجبات ومذاقها التي غلب
عليها نخالة المنزل، تفل الزيت.. الذي ما كان قبل الحصار سوى علفًا
للدَّوابِّ والبهائم.. وجبة أضيف إليها الفحم، لتقدمه السيدة أوجها

طبقًا وحيدًا على مائدة الغذاء.. حساء الجلود الذي ابتكرته الأمُّ الروسية الذي تصاعدت أثناء طهوه رائحة صمغ جلود الحقائق والأحذية المستخدمة فيه بديلًا عن اللحم المُقدَّد.. ليقضي الغرض منه على مدار أيام طويلة.. مثلها كأوراق الشجر والعُشب الذي كثيرًا ما ذهبت الوالدة المكلومة إلى حديقة نيفسكي لقطفها وإعداد أطباق من الحساء الساخن بأطعمته المختلفة.. جِيفُ الحيوانات النافقة من البرد كانت أشهى الوجبات المقدمة في غياب المئة والخمسين جرامًا من اللحوم الجافة..

ابتلعت أمعاءُ الجوع الفارغة في معركتها للبقاء أشياء لم تخطر على قلب بشر، على مدار أشهر الشتاء وحتى ربيع مارس.. الذي وصل بسلام مُدرِّكًا السيدتين الوحيدتين، ليستعيدا قواهما عندما شاهدتا ما قام به المحاصرون، بعدما انزاح عنهم البرد القارس والجفاف الشديد.. نظفوا المدينة من جثث الموتى في إبريل، شاحدين الهمم، مُمهِّدين الطريق لشهر مايو الذي أُطلقت فيه حافلات الترام لتعمل مرة أخرى.. عاد ديبب الحركة في لينينجراد مرة أخرى تحت وطأة من القصف الشديد المكثف، وكأن الخوف في هذا الصيف كان من كثافة القصف الذي رَسَمَ لوحةً مُرعبةً ظهرت فيها الأسراب الكبيرة من الطائرات النازية، ومُضادات الطائرات، والضجيج، والأزيز، وصفارات الإنذار، والقنابل الحارقة من قِبَلِ الألمان..

وأخيرا عاد أدان إلى صوفيا باكيًا، ليجدها قد تعافت ممَّا ألم بها من عناء المرض، ولكنه رآها كما لم يرها من قبل، شَبَحًا في الثلاثينيات من عُمرها في حين ما زالت فتاةً شاحبةً لم تُكمل العقد الثاني من عمرها..

عاد أَدان من معارك عملية ليوبان المحتدمة، التي لم تُجَن ثمارها.. لكنه عاد إلى صوفيا قائداً مُؤَزَّراً، وقد أسندوا إليه قيادة إحدى جبهات فولوخوف بعد ما أحرزه من صيتٍ وطيب السمعة على جبهات قتالٍ عدة في الشرق.. آب إلى أحضان أمه أُولجا وشريكة عمره صوفيا، ليعود إليهما الأمان ورَعْدُ العيش اللذان افتقدتهما أثناء الشتاء والربيع المنصرمين..

عاد وقد عادت بعودته من جديد الليالي البيضاء، وافتتحت دور السينما والمسرح والمدارس، وإن كان الحصار لا يزال قائماً والقصف المستمر لأوقات طويلة، قد صار عناقيد من الغضب تنفرط لتطول كل شيء.. كأنهم يعرفون مواقف الترام التي كانت تُستبدلُ يومياً، وقد ركزوا قذائفهم وقنابلهم الحارقة على مواقف الترام البعيدة وعلى الملاجئ ودور التوليد والأماكن المزدحمة المكتظة بالناس.

إنهم أناس قد أدركوا أن اليأس لن يكون أبداً عاقبة الأمل.. بعدما عاد جميعهم أدراجه من رحلتهم البائسة إلى الصحراء، وهم يبحثون هناك عن ثمار أشجار الأمل، وينابيع الحرية المتدفقة، ولم يجدوا إلا وحشة اليأس وظمأ العبودية..

عاد الجميع إلى رُشدِهِم مُتذَكِّرين أوراق شجرة الأمل التي ما زالت تُغطي وجه السماء بعدما تباكوا في الشهور القليلة الماضية على ما كان بين أيديهم من أوراق سقطت منها على الأرض، وقد لطَّخها تُراب الخزي وأحوال العار..

الفصل الثامن

عادت ليالي يونيو البيضاء على أدان بآمالها الخافتة المتوارية، بعيداً عن قلب نجمة الشمال الذي يغصُّ بنواح لينين المُتنيح على حول آخر من حصارها..

اكتوت أطراف المدينة بلهيب المعارك الدامية.. معارك من الكرّ والفرّ، مزّقت أوصال الضواحي عن جسد مدينتهم.. هناك وبعيداً.. على إحدى الجبهات، التي اصطلت شمس الأصيل فيها بلهيب القتال، فاحترق الأخضر واليابس بفعل القذائف الحارقة..

بينما أخذت دموع السماء في الهطول أمطاراً غزيرة، احتدم وطيس صياح رهطٍ من الجنود التفّوا بجوار مدخل قيادة إحدى فرق جبهة لينينجراد- فولخوف حتى أن قائد الفرقة النقيب أدان، هُرعَ مُسرعا خارجاً من خندقه على وقع الهرج والمرج الذي قد عمّ المكان.. خرج ليرى غابةً من السيقان تُطوّق وتكاد تفتك بإحدى الطرائد النازية التي غنموها على ما يبدو، بعدما سقطت في شركِ الأسر..

بين ركلات أقدامهم الزاجرة ولكماتهم القوية، التي أردته طريقًا
لفراش الأرض الموحلة.. لوهلة بدت وكأنها لحدٌ سيبتلعه قريبًا..
بصعوبة انبرت لأدان بزة الأسير العسكرية بلونها الرمادي من بين
الأرجل المتصارعة على النّيل من ذلك الصيد الثمين.

ما إن خرج أدان حتى تجمّدت الدماء في أجساد جميع من وقعت
أعينهم عليه.. بسرعة بارقة وبصوتٍ قوي، ارتدت نبرته بزة الحزم
المعهودة، ألقى أدان بقنبلة صارخة لتنفجر في أسماع حشد الجنود،
مُزلزلة جنابات صدورهم حتى تجمّدت أبدانهم كتماثيل عُرس بين
الأوحال ونُحتت من قِبَل الأمطار، وفرائصهم أخذت في الارتعاد أكثر
فأكثر كلما اقترب منهم القائد أدان:

- الجميع انتباه.. لينصرف الجميع على الفور إلا من أتى بذلك
النازي..

انفضّ الجمع على الفور بينما ظلّ أحد الجنود ماكثًا، ليجيب على
أدان بصوتٍ عالٍ، يكسوه نبرة من الرّهو وهو يُلاحق أنفاسه المتسارعة
تحت الأمطار الغزيرة:

- سيدى القائد.. لقد استطعت أن أوقع بهذا القناص النازي
البغيض في شباك الأسر، بعدما أسقطتُ رصاصاتُ بندقيته الغادرة
العديد من الرفاق قُرب أحد الكائن في طريق فولخوف-لادوجا..

احتمى كالذئب، مدّعيًا الموت بجث من سقطوا من الجنود.. حيلة
لم تنطلِ عليّ.. ما إن شرعت في تصويب بندقيتي إلى رأسه، بينما كان

مُستلقياً على الأرض، حتى انتفض بسرعة وهو يُناور بجسده، مُحاولاً
الفرار..

تداركتُ الموقف سريعاً وأوقفتُه بمساعدة رفيقٍ آخر بعد أن
صفعته بسلاح بندقيتي، أتبعها الرفيق سيرجي ضربةً قويةً على رأسه
أفقدته الوعي .. صفدته وأتيت به إلى هنا..

- وهل من أوراق ثبوتية وجدتموها بحوزته؟
- لا يا سيدي القائد.. لم يكن بحوزته ما يستدلُّ على هويته.
- فقط بندقيته القانصة وهذا الحنجر اللعين.
- نعم سيدي القائد.
- أتبادلُكم الحديث معه في طريقكم إلى هنا؟
- لا سيدي القائد على الإطلاق، لقد حاولنا استجوابه ولكن لم
ينطق لسانه بحرفٍ واحدٍ ولم نتمكن من انتزاع أية كلمة من فمه .. فهو
على قدرٍ عالٍ من التدريب، وعلى ما يبدو أنه من وحدة نخبة
الفيروماخت للاستطلاع، وافن إس إس.
- فلتأتِ به إلى الداخل .. بعدها لتذهب إلى غرفة الرفيق سيرجي
بولديروف كي تُدلي بإفادتكَ وتقريرك عن تلك الواقعة، ولتستعد
جيداً، فثمة وسام رفيع ينتظرك عمّاً قريب.
- على الفور سيدي القائد.. هناك شيءٌ آخر أودُّ إطلاعك عليه..
- فلتفضل بإيجاز أيُّها الرفيق.

- يبدو على هذا الضابط النازي من قسّات وجهه والملاح التي تتجلّى عليه بوضوح العروق الإيطالية..

- أهذا كل شيء؟

- نعم سيدي القائد..

- حسنًا، فلتقمّ بتنفيذ الأمر على الفور..

- عُلِمَ ويُنفَّذ فورًا سيدي القائد.

دقائق معدودات ولحق الجنديُّ بالقائد أدان داخل غرفته بالخندق ومن خلفه أسيرُهُ مُكبَّلًا، وقد أزاحت زخات المطر الطين من على وجهه ولباسه الرمادي المتوسّم بالصليب المعقوف وشارة وحدة النخبة النازية "وافن إس إس" ..

استدار أدان ليجد الضابط النازي وحيدًا بين يديه، بعدما انصرف الجنديُّ وقد رأى وجهه المألوف، الذي تلطّى بالندوب وتوارى قليلاً وراء الكدمات وبعض الجروح الغائرة..

لم يدعن النازي حينها برباطة جأشه وجلّده في ظلّ الموقف العصيب، بينما راح الوقت يمضي ببطء خافت، وكلاهما يتبادل إطلاق النظرات الحادة، في حين ظلّ النازي واقفًا مكبّل اليدين بالقيود من خلفه، وخيوط من الدماء تنزف من رأسه لتنسج مع جروح وجهه وأنفه الذي نزف دماء غزيرة، غطاء يستتر من ورائه مُحفياً آلام وارتماع جسده ..

بادر أدان بتحطيم أسوار الصمت تلك حينما قام بإخراج لفافة من التبغ وقد أشعلها ليزفر دخانها في وجه الضابط النازي، بعدها باغته سائلاً إياه بالألمانية:

- من تعابير قسمات وجهك المتطلعة لدخان لفافتي هذه، تبدو لي مُدخناً وبحاجة إلى سيجارة.. لكن لكي أعطيك التبغ لتعضد جسدك النازف، عليك أولاً منحي إجابات وافية على أسئلتي.

رمقه القناص بنظرة عدم الاكتراث، ليُعيد عليه أدان نفس السؤال بالإيطالية التي تلحّفت ولكنه إسبانية، ليتوارى بعدها النازي خلف أسوار جروحهِ ودماء أنثته.

- ما طبيعة مهمتك؟

- أتخدمُ تحت إمرة فيتمان؟

- أين تتمركز قوّتك وما طبيعة العمليات التي صدرت اليكم الأوامر بتنفيذها؟

لم تعر أسئلة أدان انتباه القناص النازي، ليُلقي الصّمتُ ظلاله عليهما فينةً من الوقت حتى فرغ أدان من لفافة تبغه وقد طرحها أرضاً، ومعها قد طرح سؤالاً أخيراً بالألمانية على غريمه المُصفّد:

- متى كانت المرة الأخيرة التي تواصلت مع مايكل فيتمان؟

لم يتغير من الأمور شيء من جهة النازي، الذي التزم الصمت الأصم.. فانتفض أدان من فوق مقعده ملتفّاً حول مكتبه الحديدي

الصغير وعلامات اللامبالاة المستترة وراءها إعصار من الغضب، مُنهيًا الحوار الدائر من طرفه هو فقط:

- للأسف، كم وددتُ لو أن أكمل هذا الحديث المثمر الشائق، ربما في حياة أخرى نستطيع أن نستكمل هذا الحوار.. لكن أعتقد أنك ستحظى بدرجة عالية من الاهتمام والرعاية مع قادتي في مكانٍ بعيدٍ عن نطاق سُلطتي..

لن أضيع من وقتك الكثير، فالوقت عندنا هنا ثمين للغاية.. سررتُ بقاء وجهك المألوف لي والذي لا يبدو لي إيطاليًا ولا ألمانيًا بالتأكيد..

قبل أن يهم أدان بمناداة الجندي مرة أخرى، باغته النازيُّ بلسانٍ إسبانيٍّ قائلاً:

- وجهك أنت الآخر يبدو مألوفًا لي، وكأننا تقابلنا في إسبانيا من قبل، فبعدما عمدتُ أن تتحدث الإيطالية برداء إسبانيٍّ، رأيتُ أنه من الأفضل أن نستكمل هذا الحوار بلُغتنا التي تجمعنا.

اقترب منه أدان شيئًا فشيئًا، مُمسكًا بمقعد في يده ليستقر فوقه جالسًا أمام النازيَّ وجهًا لوجه وهو يُردّد عبارات تعجبٍ اختلطت بالتهكُّم:

- ضابط إسباني في وحدة قوات نخبة الفيرماخت النازي لجيش الرايخ الثالث الألماني.. يا لها من مصادفةٍ غير مُتوقعة!

- مُفاجأة مُدوِّية لي أن يكون مُحلّصي من برائن زمرة النّباحين هؤلاء، قائداً رَحْب الذراع، خرج من رحم بلادِي ليكون ذا شأن في مقدمة صفوف الأعداء.. وأن تتشلني إحدى يديه الطُّولين القويّتين من أنياب وحش المنية حين وقعتُ في شَرَك الأعداء، وقد كنتُ كالطحين تحت مرضخى النوى مُلطَّخاً بطين العار الأسود اللّزج.. والآن لا تزال يده الأخرى تحمل لي سوط المطهر وسط ضباب الحرب المستعرة.

- عيناك لا تعانيان قصر النظر، فهندامُك العسكري المُلطخ بالراسبوتيتزا ودماء الأبرياء يشير إلى أنك قنّاص مُحترف ومن النخبة.. أُلتمسُ لك العُذر فلربما تأثرت قُدْرَتُك على الإبصار بفضل لكمات رجالي، ولربما قد يكون الطين الذي لا يزال يُلطّخُ وجهك، يعوق عينيك عن رؤية رتبتي!

- إذن الراسبوتيتزا تعني ذلك الطين الأسود اللّزج، ولكن ماذا تعني بذلك الحديث كله؟

- أعني أنني أتيتُ بك إلى هنا من أجل استجواب لا مناص منه.. بعدها سأقرّر ما أنا فاعل بك.

- فلتع جيداً أنني مُقاتلٌ شديد الإيمان، لن أرتعد جاثياً، ولن أذعن مهما يُكلفني الأمر من آلام عذابات التنكيل بي..

- حسناً، فأنت لا تخشى عذاب القدير في الدنيا ليطهركَ وتظنّه تاج الخلاص لك؟!

- بالطبع، فلقد فعلتُ كل شيءٍ من أجل الخلاص، فولائي للمسيح وفؤادي ملكٌ للرَّبِّ.

- إذن لا مناصَّ من إرسالك إلى مكتب المخابرات الحربية، فهناك يعلمون جيدًا كيفية الحصول على معلومات تُفيدُهم، فلديهم خبرات عريضة من رفاق لك يعلنونك رُتبةً سبقوك إليهم.. في نهاية الأمر خضعوا لصوت العقل والحكمة بدلًا من حفر قبورهم بأيديهم.

- لن أنبس بينت شفة مع أحد سواك، فربما إذا ما دار بيننا حوار وديٌّ بعيدًا عن التحقيقات الرسمية، سأطلعك حينها بصورة غير قابلة للتصعيد من قبلك إلى رؤسائك، موافياً إياك بإجابات على قدر استطاعتي.

- إذا ما صدقتني القول خلال ما تسعى إليه من ذلك الحوار الودّي، الذي هو ليس بالرسمي..الذي ستقوم به بمحض إرادتك وكامل حريتك ربما ستحظى بجناح من الأمان قد أبسطه لك، مادّا يد الاحترام الحذر لك.

- ما سيدور بيننا، ينتهي بيننا.. فعلى الرغم من وجودنا في صفوف متناحرة، إلا أننا في نهاية المطاف سيجمعنا رباط رحم وطننا المتين معًا.

- إذن فأنت ضابط من الفرقة الزرقاء الإسبانية؟

- لستُ واحدًا منهم، ولكنني أخدمُ في الفيرماخت الألماني..

- كم يبلغ عدد المقاتلين الألمان خلف خطوطنا؟
- لا تقلق فما يجري مؤخرًا هنا على جبهات القتال ما هو إلا استنزاف لقواتكم الهجومية حتى يأتيانا المدد عبر خطوط طويلة نَجَح ستالين في تمزيقها إربًا حتى هذه اللحظة.. لكن لتعلم جيدًا أن الإمدادات قادمة لا محالة..
- أيعني ذلك أنك لم تكن بصدد عمليةٍ نوعيةٍ مُنظَّمة؟
- على الإطلاق، فبعد أن تناثرت فرقتي في أثناء الأشهر القليلة المنصرمة، كانت آخر التعليقات أن نُضللَّكم بإيحاءات أننا نُجري عملياتٍ مُنهجَّة خلف خطوطكم؟
- إذن لم تتواصل مع قيادتكم؟
- لا، قط، فلم أستطع الاتصال بالقيادة منذ أن عُطِّلت أجهزة الاتصال اللاسلكي منذ بضعة أسابيع..
- إذن فخطوط الاتصال مقطوعة، ولم تتحدث مع رجالي بأيِّ كلمة حتى هذه اللحظة؟
- نعم، ولن يستطع أحدٌ أن يحصل على معلومةٍ واحدةٍ عني أو عن فرقتي المجوقلة..
- ولكنك تُعطيني الكثير دون تضليل أو مُواربة؟
- بدت على النازي بواذر الارتباك، ولكن بسرعة ملحوظة أبعد التلعثم عن لسانه مُتعلِّلًا بجفاف حلقة قائلاً:

- أعطيك ما أشاء حين أشاء.. لأرُدَّ إليك الدِّين الذي بات
مُتعلِّقًا برقبتي هذه، التي لو شئت لنحرتها منذ قليل..
- منذ متى أقحمتَ نفسك مُوحِلًا قدميك في مستنقع الحرب
هذا؟

- منذ البداية الأولى.. فمنذ أن تنفَّس نهار الحرب المقدسة
وتريّنت رايتها بصليب الخلاص، أَلقيت أسقام دنيا الشيطان مُبتغيًا رُفقة
المسيح الأبدية.. فتقدَّمتُ طلائع الصفوف، وعندما سألتهم لبَّوا طلبي..
- أشارككِ في المعارك الأوروبية قبل أن تهبط علينا هنا كحجارةٍ
من سجيل، عاصفًا بالأخضر واليابس؟

- لا تقلِّ شاركت بل قل قُدت.. نعم قُدتُ معارك ضارية
وأخرى يسيرة في بولندا وفنلندا والنمسا وهولندا ولوكسمبورج
وبلجيكا وفرنسا، قبل أن آتي إلى هنا..

- أراك مُزهوًا مُتباهيًا فخورًا بما قمتَ به، وما نِلته من أوسمة
جزاء صنيعه يديك..

- ولم لا أتباهى وقد أغدق عليَّ الرَّبُّ بفيضِ نعمته، فحملت
الصليب في يدٍ وبندقيتي في اليد الأخرى، وقد صرتُ حجرًا في قلعة
المجد، ترسًا في ماكينة الخلاص.. ضابطًا إسبانيًا مسيحيًا في جيش الرب
ضد أعدائه السَّفلة..

هَبَّ أَدان صارخًا وعيناه تنفجران شزراً، وقد استشاط من
الغضب.. كاشفًا عن مخالبه ليدقهم بسرعة خاطفة في عنق النازي، وقد

دفع بجسده المرتعد ليتعلّق بالحائط، وهو يرتجفُ وقدماه المتشنجتان تستنجدان بالأرض أن ترتفع لتلقفهما، وحدقاته تجحطان شيئاً فشيئاً كأنها شبح الموت يدنو منه أكثر فأكثر..

- ضابط في جيش الرب؟! أين أنتم من الربّ بما تفعلونه بالورى؟! أين الرب ممن فعلتموه بي وبآبائي، لتأتي إلى هنا الآن ناكصاً على عقبيك ذليلاً مُتمسّحاً في الرب؟! فلتُعطني سبباً واحداً يمنعني أن أُجهز عليك الآن دون نحرك بخنجرك النازي.

بصوتٍ مُتَحَشِّرٍ قطعه مقارعة الموت خنقاً ونبهة خافتة خرجت من حُلُقومه بصعوبةٍ مُجَيِّاً:

- لأننا سنظلُّ دوماً إخوة في الوطن..

- لم نعدُ إخوة بعد ما ارتكبتوه.. ما أنت سوى نازيٍّ حقيرٍ وقاتلٍ ومُضَلِّلٍ بغیض، أَتَظُنُّني أُحرقُ وقد ابتلعت كأس الهراء التي كنت تسقيني إياها منذ قليل عَمَّا يجري؟!!

- سأرسلُك بالقطار السريع إلى الدَّرَكِ الأسفل من الجحيم في حفرة تليق بك، ولتكن سكرات موتك في الجحيم مُطَهَّراً أبدياً لما قمتَ به..

بدت سكراتُ الموت بازغةً على وجه النازيِّ الذي صُبِغَ باللّون الرماديّ وهو يحاول استجماع أنفاسه المعدودة لقول شيءٍ ما:

- إنهم.. يعدون.. العدة.. لهجومٍ واسعٍ على كورسك..

بينما ارتعدت فرائص النازي وخضّلت دموع الموت جروحه،
وخضّبت سكرات الموت وجهه، وانحبست الأنفاس داخل قلبه
المصفد داخل قفص صدره.. نظر أدان في عيني غريمه المكسدة بأسقام
ماضيه وذنوب حاضره، وقد أفلته من بين يديه مُلقياً به أرضاً، ليشهق
النازي مُتنفّساً الصُعداء زافراً مخالب الموت من حلقه، مُنكبّاً على وجهه
شاكراً المسيح والرب في السماء بدموعٍ بلّلت الأرض..

- الآن لتحدثني في إجابة واحدة عن هذا الهجوم.. وأُقسِمُ لك إن
اشتمتت رائحة مواراة أو تضليل، سأجهز عليك الآن.. فلتتحدّث..

- تلقيتُ أوامر منذ بضعة أيام أن أُنَجّه بفرقتي شرقاً ناحية
بروخوروفكا أو سيتشيوفكا قُرب كورسك قبيل الأسبوع الأول من
يوليو المقبل.. هناك سيستعدون لتنفيذ حركة كماشة لجيب كورسك
وسيخترقون من الشمال ومن الجنوب في آنٍ واحدٍ بالمدرعات
والدبابات ومئات الآلاف من الجنود، بعد ما تكبّدناه من خسائر فادحة
العام المنصرم.. هذا كل ما لديّ وأُقسِمُ لك على ذلك..

مضت فينة من الوقت يتأمّل كلّ منهما الآخر، وكلاهما يمعن
التفكير فيما هو آتٍ والخطوة المُقبلة التي هما بصدددها، بعدها بادر أدان
بإطلاق العنان للسانه قائلاً:

- من الآن فصاعداً لن ينبس فمك بكلمة لأحد دون إذنٍ مني..
وإياك أن تتجرأ على أن تلقّي أيّ سؤالٍ عليّ..

ما إن فرغ أدان من كلماته التي ألقاها ماءً ساخناً على وجه أخيه العدو حتى نادى على أحد الجنود من الخارج الذي لبى النداء على الفور.

- أيتها الرفيق الرقيب، فلتأت بالطبيب روسلايكوف حالاً.. وليقطب جروح ذلك الوغد اللعين.. بعدها لتجهز لي سيارتي الخاصة، فعلينا عدم التباطؤ في تسليم ذلك الحقير النازي إلى قيادة الاستخبارات في لينينجراد ليقوموا باللازم معه..

- عِلِّمْ وَيُنَفِّذْ على الفور سيدي القائد الرفيق..

مرّ ما يُناهزُ الساعة بعدما حَضَرَ الطبيب، وما إن انتهى من تقطيب جروح النازي وتضميدها حتى قاده الجنديُ ليسلمه إلى القائد أدان في سيارته التي أدارها وانطلق بها على الفور.. وما إن ابتعدا عن المعسكر حتى أمر أدان أسيره بخلع بزته العسكرية والاكتفاء بارتداء القميص والبنطال قائلاً له:

- كدت ترى الجحيم على يدي هذا الصباح، فلا تدفعني أن أُلقيك في هاويته مرةً أخرى اليوم..

الآن عليك أن تخلع رداء النازية هذا، ولتتمتع عينيك بصنيعتكم لجنة الليالي البيضاء، حتى يأتي أمر الله بتطهيرك في الجحيم..

- حسناً، وشكراً لك سيدي.. وأنا في انتظار لقاء المسيح الذي طهرني من جحيم إبليس في الدنيا.

قاد أدان سيارته في صمتٍ ساعاتٍ ما بين طُرقات ضواحي مدينة
لينين وشوارعها ودروبها، وعينا النازي تحتلسان النظر في رؤية الدمار
العارم الذي طعن جسد مدينة، بدت على ماضيها القريب معالم خلافة
من الجمال والحضارة..

مرُّوا بشوارع المدينة حتى وصلا إلى شارع نيفسكي لتتوقف
السيارة أمام أحد البنايات التي لا تزال محافظة على عمارتها المتأنقة بعيداً
عن معول الحرب المخرب..

ترجّل أدان عن السيارة، وقد أخرج مُرافقه وشرع في فكّ وثاقه
ونزع الأغلال عنه التي صفّته طوال رحلة الطريق الوعرة شديدة
الخطورة بسبب الحصار المفروض على المدينة لما يُناهز العامين حتى ذلك
الوقت.. بعدها همّ بدخول البناية .

- من الآن وحتى نغادر هذه البناية لاحقاً ستكون ضيفاً علينا
.. سأتناسى الواقع المزري حتى أتدبّر ما ينبغي القيام به تجاهك.

- لا أعلم ما يتوجّب عليّ أن أقوله أو أفعله..

- حللت أهلاً ونزلت سهلاً.. مرحباً بك في بيتنا المتواضع..

- أتطلقون على شقة في تلك البناية التي يرسم عليها من الخارج
معالم الفخامة، ومن الداخل حيث أرى الآن بهورئيس يعدُّ تحفة
معمارية، بيتاً متواضعاً؟!

- نحن لا نُقيم في شقّةٍ، بل نقيم في كل هذه البناية.. هي لنا وحدنا منذ اندلعت الحرب هنا.. و سترى عندما تطأ قدماك الطوابق العليا ما نحظى به من ترفٍ وبذخٍ!.

- إذن هناك مَنْ يُشاركك الإقامة في هذا المبنى الضخم؟

استمرّت نبرة التهكم مسيطرة على عبارات أدان وهما يتابعان صعود درج السلم ليستطرد مُتهكِّمًا:

- للأسف الشديد، لقد سرّحنا طاقم الخدم والحشم حِفاظًا على سلامة إقامتك، وحرصًا منا على أمن زيارتك الكريمة لنا وخصوصيتها.. لم يتبقَّ أعلى سوى خطيتي، التي ستكون في شرف انتظارك بعدما غادرت أُمي الروسية لتدبر قضاء بعض الأمور المهمة..

- ربما سألتقي بها لاحقًا هذه الليلة؟

- ربما فقط ليكون لها شرف مقابلة إسبانيٍّ آخر هنا..

وما إن وصلا رُدهة الطابق الثالث، توجّه به أدان ناحية إحدى الممرات التي تتراصّ على جنباتها بضع الشقق، خُلِعَ الكثير من أبوابها الخشبية.. لينادي أدان بصوته الأَجَش على صوفيا..

ثوانٍ قليلة خرجت صوفيا من إحدى الشقق مهرولة بسعادة تبدّلت إلى استغراب بالغٍ حينما وافتها وقد رأت وجهًا إسبانيًّا آخر إلى جوار أدان..

بادر أدان بادئًا الحديث إلى صوفيا بلسانه الإسبانيّ قائلاً:

- صوفيا أودُّ أن أقدم لك أحد الأصدقاء من إسبانيا، جاء خَصِيصًا من هناك قاطعًا آلاف الأميال، مُحاطًا بحياته فقط كي يُلقِي عليك التحية وليتناول عشاءً من صُنع يديك.
- أجبْت من جبهة القتال مُحاطًا لكي تسخر مني أمام رفيقك؟
- لا يا حبيبتِي، تعلمين أنني لا أقوى على السخرية منك.. لكن ربما وجدتها فرصة ثمينة ستسمح لك الليلة لتذكري الحديث بالإسبانية مع شخصٍ آخر غيري هنا في لينينجراد.
- أحقًا أنك من إسبانيا سيد...؟
- أدولفو، اسمي أدولفو وأنحدر من أستورياس.. لكن اسمحي لي لو تفضلتِ بأن تُفسّري لي ما الذي أتى بكما إلى هنا؟!
- أرى أنه من الأجدي لنا توجيه ذلك السؤال لك سيد أدولفو!
- لقد أتى بي السيد أدان إلى هنا، بعدما أمر مَنْ أوقعوني في الأسر على جبهة القتال من جنوده بعدم الفتك بي.. وحقيقة الأمر، أنني غارق في يَمٍّ من الحيرة والرَّيبة في أمره عمّا إذا كانت نيَّاته تجاهي حسنة أم أنه يُضمرُّ لي من السوء شيئًا..
- عصفت رياح القلق والاضطراب على وجه صوفيا، وغلبَ على نبرة صوتها التوتر حين سألت أدان بلسانها الروسي:
- لماذا أدان؟! لن أسمح أبدًا لرغبات الشيطان والشرير أن يمتطيا نفسك الجالحة الآن، وأن تسبح في تيارهم عبدًا لأمانهم، تقتل وتسفك دماء امرأ أعزل بين يديك، بعيدًا عن ساحة القتال.

فما كان من أدان سوى بثّ رسائل الطمأنينة عبر تعابير وجهه الهادئة، وعباراتٍ من الطمأنينة أرسلها بلسانٍ روسيّ ارتدى نبرة تبعث على الهدوء:

- لا تنزعجي صوفيا.. فلا داعي للقلق على الإطلاق.. صدقًا لا أكيد له شيئًا مطلقًا.. ريثما تقومين بإعداد الطعام لنا، عشاء يليق بضابط في الفيرماخت النازي، ساهتم بمعضلة رائحته الكريهة في حوض استحماننا الخاص، أتخيّل من تلك الرائحة التتنة النفاذة أن الماء لم يمس جسده منذ الخريف الماضي.. بعدها سألبسه قطعًا من ملابس النظيفة وبعد أن نفرغ من عشنا سأذهب به مودعًا إياه ليرحل بسلام الى مشواه القادم.

- أدان من فضلك، إن.....

- حبيتي، لو شئت لتركته بين مخالب الرفاق هناك لتنهش لحمه وتسحق عظامه.. من فضلك اصعدي إلى الطابق العلوي، ولتنتهي من إعداد العشاء سريعًا كي نتناوله مع من أتى من بلادنا البعيدة.. دار الحرب..

بهدوء تركتهم صوفيا ومعالم الترقّب والقلق قد ارتسمت على وجهها، بعدها توجه الغريمان إلى إحدى الشقق الخالية من الأثاث تمامًا عدا حوض الاستحمام الذي نقلوه ليتوسّط الغرفة الرئيسة.. بعدما سأل أدان ضيفه النازي أن يغتسل، وقد أتى إليه بملابس نظيفة..

في صمتٍ تامٍّ ألقى أدولفو بجسده الذي تعرّى عن آخره، ليظهر رداء جلده وقد حيّك عليه الكثير من الجروح والبثور.. غمرت المياه

الصافية جسده حيث أمضى ما يُقارب الساعة مُتَنَعِّمًا برفاهية الاستحمام
وبدفع الماء الذي افتقده شهوًّا طويلة، مضى الوقت حتى تعكر لون
الماء تمامًا.. بعدها خرجا إلى الممر وقد ارتدى الضيف ثيابًا جديدة ومعه
أدان الذي استقرَّ فوق أرضية الممر بالقرب من نافذة تكشف الباحة
الحلفية للمنزل..

- إذا تقيمون في ممرات البناية.. فكل طابق يعدُّ غرفة
مستقلة.. أليس كذلك؟

- بلى، هكذا نمضي الوقت هنا حتى نتجنب شظايا قذائف الشر
من جيش الطاغوت النازيِّ.

- لكن لم خلعتم الكثير من أبواب الشقق وأتعجب أين ذهبتم
بها؟

- لقد ابتلعتها نار المدفأة في الشتاء الماضي، لعل الحرب تضع
أوزارها قبل الشتاء المقبل حتى لا نضطر إلى التصرف في الأثاث المُتَبَقِّي
لدينا..

تناثرت عشرات الأسئلة الصامتة عبر نظرات أدولفو الحائرة وقد
افترش الأرض جالسًا أمام أدان الذي راح يمطره بسيل من النظرات
الباردة الماكرة:

- تعتصر من الحيرة بداخلك عمَّا دفعني لأن أنزع طوق الأغلال
عن عنقك، لأصطحبك في نزهة ليست بالقصيرة بين شوارع لينينجراد
وضواحيها المترامية، وبعدها إلى هنا.. إلى بيتي.. أليس كذلك؟

- بلى، ولعل ما دفعك لذلك هو عودة الإيمان لداخلك كوننا إخوة، تجمعنا لغة المحبة الواحدة، ونحدر من ذات الأرض الكريمة وذات المعمودية المقدسة..

- حسنًا.. فعلى الرغم من حوارنا هذا على أرضٍ طيبة احتضنتني أنا وصوفيا، بعدما غرقت أرضنا البعيدة.. التي قد صارت لاحقًا بلاد الأعداء، حاضنة الويل والهلاك في يَمِّ طوفان من دماء آبائي وإخوتي، الذين أخرستموني عن التحدث معهم بلسانهم الذي تحاورني به الآن.. لذا إنني ما زلت أراك حتى هذه اللحظة العدو النازي البغيض..

- إذن ما الداعي من وراء استضافتك لي والعناية بي مُقدِّمًا الملاذ الآمن والمأكل واللباس النظيف، وقد خلعت الأصفاد عن يدي.. بينما في ذات الحين لا تراني سوى عدو! ألا ترى أن ما فعلته وتفعله تجاهي الآن يتناقض جملةً وتفصيلاً مع ما تصرح به إليّ؟!

- ربما لأعطيك فرصة التطهّر من آثامك، بينما يداك لا تزالان على عهدهما، ملطختين بدماء مئات الآلاف وملايين آخرين من الأبرياء الذين قضوا نحبهم دون أن يعرفوا بأيّ جريمةٍ قد قُتلوا.. ربما ابتغيت أن تخلع عن جسدك الذي تفوح منه رائحة الموت، ثياب الشرّ ورداء الكراهية والتعصّب، الذي أورثه إياك الشرير، وقد ارتدّيته بمحض إرادتك وعن طيب خاطر، مزهوّاً به، مُصعِّراً خدك بين الورى.

- أراك تذهب بعيداً عن الحقيقة، فلبناء مذابح كنيستنا علينا تولي أمر تدمير المذابح الوثنية.. لذا فأنا أو من أنني أتصرّف وفقاً لمشيئة الرّبّ

الخالق العظيم، أجاهدُ من أجل عمل المسيح بالدفاع عن نفسي ضد الشرير..

- ونحن نسير في شوارع مدينتنا هذه التي قدستها أرواح أبنائها الذين قضوا، ألم ترَ بأعيننا قدرتك التدميرية اللامتناهية المذهلة على بناء صرح شيطانيٍّ، شيدتموه على أساسٍ من منتجات فقهية، لذهنية مصابة بالوسواس، أعمدته من فصام وبارانويا وشيزوفرنيا الخطاب الديني المتطرف وسقفه من العنصرية والكراهية وتمجيد العرقية.. بنيتموه على أنقاض جنة الله وجثث أبناؤه في أرضه المقدسة؟!

- ليسو أبناء الله على الإطلاق، لم ولن يكونوا.. بل هم أبناء الشياطين يتربصون بنا، وهم يلوثون جنة الله بدمائهم الموبوءة..

أخي أدان، لقد سقطت في شرك تلك الحيل اليهودية، فهي كالتنويم المغناطيسي الذي تمارسه اليهودية الغازية للعلم بمساعدة بعض الكنائس المسيحية العميلة لهم.. جميعهم سلافاً أم غجراً أم يهوداً لم ولن يكونوا سوى عناصر ضارة لا بد من إبادتها.

- أتريدُ أن تُفني كل ما هو ليس على دينك أو عرقك أو ثقافتك؟!

- ولم لا أقضي عليهم وهم كالبكتيريا والطفيليات التي تعيش على دماء الآخرين، مهيمنين على الاقتصاد وأقوات يومنا وهم يدعون أنهم عرق سام، وشعب مختار، وفي الواقع هم يعيقون التكامل بين شعب المؤمنين، أبناء المسيح..

- مذهل المدى الذي حققوه في تضليلك ومن ورائك حشود من القُطعان، بعدما نجحوا في تفريغ جسد الخطاب الديني من هواء ثوابته النقي.. ليتسنى لهم بثُ السموم في شرايين عقول البسطاء من الفلاحين والمهمشين من الدهماء و عقولهم، حتى فسدت أرواحهم تحت راية عمياء علقتموها زيفاً على عباءة دين المحبة والسلام..

- أظنُّ فينا أننا أناس مُضللون؟

- نعم أنتم كذلك.. تقتلون المعاقين والأقزام تارة باسم تطهير شعب المؤمنين من المشوَّهين وأشباه البشر، وتنحرون السلافيين والغجر تارة أخرى باسم الدين وتحرقون اليهود كل باسم المسيح..

- ما نسعى إليه تطهير الأرض من الدنس والخطايا وتنقية شعب المؤمنين من المدنسين..

- وماذا بعدما طوعتم فزاعة الأفكار الحديثة كالماركسية والشيوعية لتصير حياً يهودية من أجل السيطرة على العالم!

تُخيفون الناس منها بأقنعة الحيل، وما أكثر الحيل اليهودية الأزلية عندكم للقضاء على من يعارضكم الرأي.. لقد نجحوا بالفعل في خلق أناسٍ بلا أرواح، يمضون مثلك كالأموات الأحياء.. لا عقل يتدبَّر، ولا مشاعر تدرك.. فقط آلات للقتل بدمٍ باردٍ.

- تتحدَّث وكأنك لستَ بابن للمعمودية الكاثوليكية.. تتحدَّث وكأنك مُغيَّب العقل أو منزوع الإيمان.. تتحدَّث عني كأنني آلة بلا قلبٍ

ولا مشاعر.. أودُّ أن أُحيطكَ علماً بأن مشاعري كوني مسيحياً وظفتني
لربي ومنقذي كمقاتل وجعلتني اتبع الرجل الذي كان وحيداً محاطاً من
قبل قلائل، عرف اليهود على حقيقتهم..

- ماذا قرأت لتعرف اليهود على حقيقتهم أيها الساذج؟

- قرأت كيف أن الرب في المرة الأخيرة في ملكه قد استولى على
السوط لقيادة أبناء الأفاعي.. كم كانت رهيبة معركته للعالم ضد السُّمِّ
اليهودي، واليوم بعد ألف سنة وبأعمق عاطفة، وبصدق أعرف بشدة
أكثر من أي وقتٍ مضى حقيقة لماذا كان عليه أن يريق دمه على الصليب،
لهذا لديّ واجب مقدس في أن أكون مُقاتلاً للحقيقة والعدالة.

- يا لك من أبله تنتشي بأفكارهم في بحر من الضياع! كفاك
الحديث عن هذا الهراء.. فلقد تمكّن منك هذا الأفيون وهو يسري الآن
دمًا في عروقك فلا علاج لك بعد الآن ومصيرك محتوم فلا جدوى ولا
نفع من الحوار معك..

عمد الغريبان إلى الارتكان للصمت والسكون فينة من الوقت، إلى
أن قطعت صوفيها بندائها حالتهم تلك من أجل أن يأتوا لتناول
الطعام..

مضى أذان ومن خلفه أدولفو يتحسس كلاهما الطريق إلى الطابق
العلوي، مُنساقين وراء رائحة الطعام الذكية، وما إن صعدا إلى أعلى
وأدركا الطابق العلوي حتى وجدا طاولة من الطعام تترقّب وصولهم،

افترشتها عدة أطباق ساخنة من طعام حقيقيّ قلما وجد في تلك الأيام
البائسة تحت وطأة الحصار وشحّ الغذاء والسلع..

بادرت صوفيا بتلاوة الصلوات بإيجاز ليتلذذ الشابان بالتطلّع إلى
وجه صوفيا وهما يتناولان ما قامت هي بطهوه:

- اشتقتُ إلى مذاق الطعام في كنف العائلة، بدون مواراة أحسدك
سيد أَدان على امرأتك، فهي بديعة الجمال، ومن ناحية أخرى طاهية
ماهرة..

- سيد أدولفو، نحن أيضًا اشتقنا إلى مذاق الطعام في كنف
عائلاتنا، الذين قُتلوا على أيدي أمثالك.. بعدما ألقانا آباؤنا في سفينة
النجاة بعيدا عن أيدي الأشرار هناك.

- سيد أَدان، صدقني إنني أتمنى أن نعود ثلاثتنا سالمين آمنين إلى
وطننا، لننعم به جميعًا..

- عذراً سيد أدولفو، ولكن من الأحرى الآن أن ندع بطوننا
تحدّث عن جودة الطعام وطيبه.. لتحدثنا قليلاً عن نفسك في رحاب
وطننا الغائب بينما تتناول عشاءك الأخير معنا..

- حقاً أَدان، كم أودُّ من سيد أدولفو أن يقصَّ علينا بالإسبانية..
فكم أتوقُّ إلى الاستماع إلى لسانٍ إسبانيٍّ آخر، وسأكون شاكراً لك سيد
أدولفو..

- حسناً آنسة صوفيا، العناية الإلهية قد قدّرت لي أن أكون
كاثوليكيّاً، فلقد وُلِدْتُ وعُمِّدْتُ كاثوليكيّاً في أستورياس، التحقْتُ في

سنٌ مبكرةٍ عندما اشتدَّ عودي بمدرسة تابعة لأحد الأديرة، وكنت في رحلتي الذهاب والعودة أرى شعار الدير بارزًا على قوس حجري..
- حقًا كان له شعارٌ مختلف سيد أدولفو؟

- نعم آنسة صوفيا، كان شعارًا افتتنت به دومًا وحُفِرَ في الوجدان وفي القلب ووشمته في عقلي.. كان صليبيًا معقوفًا..

- صليب السلام الذي عقفتموه بحُمم نار الكراهية فصار نصل الحصيد، شفرة تسلخون بها الجلود المحترقة بآلام العنصرية، نصلًا تنحرون به رقاب المحبة، وخنجرًا تقطعون به الأوصال إربًا حاصدين به الأرواح..
نبرة هادئة مداعبة لأدان، أرادت صوفيا تهدئة الموقف المضطرب وتلطيف الأجواء المحتقنة..

- أدان. رفقًا به من فضلك ولتدعه، يكمل ما بدأه.. فما أبتغيه هو سماع صوته لا صوتك أنت.. ولتكمل سيد أدولفو..

- حسنًا آنسة صوفيا، كم كنتُ محظوظًا حينها.. فالناس يحتاجون دومًا للإيمان، وقد وجدت مَنْ يهتمُّ بي صغيرًا ويرعاني في كنف تربية دينية صادقة وصارمة..
في الكنيسة كنتُ خادم الكاهن وكنتُ مصليًا.. حينما صرْتُ فتى

ونبت شاربي كان هدي الوحيد وأملِي أن أصبح جندي يسوع، أتذكّر كم تمنيت قبلها أن أكون قسًا أو زعيمًا كي أهدي البرايا إلى سبيل الرشاد وأشقُّ صدور الخطائين كي أنزع الشرَّ الكامن بداخلهم..
٢٤٨

- كم من الرائع أن يكون لفتى في مقتبل عمره في سن مبكرة أمنية عظيمة كتلك..
- نعم آنستي..ذاك الوقت كنت مشغولاً ومكثرتُ بشؤون الناس وأموارهم التي عقدتها الخطيئة والشرير..فقررتُ ان أرسمَ في هذا السنَّ المُبكرة خريطة الخلاص للعالم..
- أوقد رسمت خريطة للخلاص؟ ما الذي سعت إليه من خلال تلك الخريطة سيد أدولفو؟
- أردتُ أن أبطل الإجهاض..أردتُ أن أشنَّ حرباً ضروساً على الفسقة من أتباع قوم لوط..أردتُ أن أمنح حق العقاب البدني في البيوت والمدارس..كي أخرجَ جيلاً وطنياً مثالياً يُقدِّسُ العلم ويؤمن بأنه وحده القادر على تحديد الصالح والطالح، الخير والشرير..
- أظنك تُؤمن بأن العلم حقيقةً هو وحده المرجعية النهائية لكل شيء..
- بالضبط آنسة صوفيا.. فلقد أردتُ ذلك بشدة كي أخرجَ جيلاً يُقدِّسُ الدم والتربة بأن يؤمن بأن الروح والعرق هما شيءٌ واحدٌ..
- ويحك سيد أدولفو! رويداً رويداً إذا ما تفضلت عليّ، أتدعي أن الروح والعرق هما شيء واحد؟
- بالطبع، فالعرق هو التعبير الخارجي للروح، والروح هي التعبير الداخلي للعرق..

- يا لها من فلسفةٍ مُثيرةٍ للإعجاب والتأمل سيد أدولفو..
- صوفيا حببتي، أفكار سيد أدولفو تُشيرُ إلى أنه كما لو كان مؤسس النازية وقائدها..
- أتدرون حقاً أنه قد تحقق حلمي الآن وقبِلت السماء صلواتي وباركتني كي أنتقم للإله من قتلة يسوع..
- عذراً سيد أدولفو لمقاطعتك، لكنك على خطأ مُبين فيسوع لم يدعنا أن ننتقم من قتلته، بل دعانا إلى محبة أعدائنا والصلاة من أجلهم كي يهتدوا ويتركوا سبيل الشرّ والشرير..
- أتسمي هذا حلمًا؟! ما هذا بحلم على الإطلاق، بل هو كابوس مُروّع ستستيقظ منه قريباً على جحيم وسعيه في انتظارك..
- جاءت كلمات أدان الأخيرة لتتزامن مع انتهائهم من مسح الأطباق عن آخرها.. فما كان من الشاين إلا أن انتفضا معتدلين، ليهم أدان باصطحاب أدولفو إلى درج السلم مُغادرين في طريقهما إلى الخارج، ونظرات صوفيا الحائرة تُلقي أسئلة مُرتعدة على أدان وهي واقفة أمامهما مودعة لهما وقد أَلقت بظلال سؤاها على رأس أدان:
- إلى أين أدان؟!
 - إلى مصيرنا المحتوم الذي اخترناه بأيدينا صوفيا..
 - لن أطلب منك أن تُقسِم لي ألا تقوم بارتكاب فعل ما يحول بيننا ليصفدك في بحر ظلماتك الظالمة.. لكن فلتعدني أن كل شيء سيكون على ما يُرام كعهديك بي دائماً..

- صوفيا، حنانك.. فكل شيء سيصيرُ على أكمل وجه وسيكون على ما يُرام..
- صَحْبَتُكَ العِناية الإلهية في رحلتك سيد أدولفو، صدقاً أدعوا الله أن يُنير لك دَرْبَكَ المظلم، ويهديك وفؤادك سبيل الرشاد والهدى..
- تَشَرَّفْتُ بمُقابلتك آنسة صوفيا وجزيل الشكر لِحُسن ضيافتكم لي ولرحابة الذراع والباع، وأتمنى لكم التوفيق والسعادة.
- ودَّعت صوفيا الغريبان وقد شحب وجهها واختلجت أجفانها وانداح في حدقتيها نهر من الخوف وهي تراهما يبتعدان رُويداً رُويداً في اتجاه محطة القطار، حتى تواليا تماماً عن ناظريها وسط الشوارع الخاوية من المارة في إحدى الليالي البيضاء تحت حِصارٍ نازيٍّ بغيضٍ..
- إلى أين ستأخذني سيد أدان وسط كل تلك الشوارع الخالية وأصفادي لا تزال بيدك؟
- إلى محطة القطار هنالك فقط ستختار وحدك وجهتك التالية..
- أتقدّم إليك عاجزاً عن التعبير عن جزيل شُكري وعميق تقديري لما قدّمته لي سيد أدان..
- لا تشكريني قبل أن أقصّ على مسامعك قصة كانت ترويه لي أُمي كل ليلة أبتسُ فيها حزيناً..

- على الرحب والسَّعة، فكلي آذان مصغية إليك سيد أَدان..
- حينما كنتُ في غرفة منزلنا الكبير في ساليناس، كانت أُمي تأتي إلى غرفتي كل ليلة لتدثرني في مهادي وتقوم بدفعه برفق حتى يهتزَّ قائلة لي:

لا تحزن أبداً فلذة كبدي.. فالله يندم على تركك في حالة تعاسة، حتى إنه في السماء يلطم ويكي فتسقط من عينيه دمعتان في البحر، فيُسمع دويهما من بدء العالم إلى أقصاه وتضطرب المياه، وترتجف الأرض في أغلب الأحيان.. فتقع الزلازل حُزناً ليهتزَّ بها مهالك حتى تشعر بوجوده جارك.. فلتفخر قرة عيني لكونك يهودياً لأملك..

انتهى أَدان من روايته عنه والدته ليجد النازي قد زفر أنفاسه المحتدمة وقد استشاط وجهه غضباً، وصار كالجمرة المُتقددة، وبدا كما وكان دخان حريق يتصاعد من شَعْرِهِ الكثيف..

وقد أفرغ النازيُّ من حلقه وابلاً من رصاص الصُّراخ والسُّباب ولعنات اليهود وقد ظنَّ أنه أَردى أَدان قتيلاً، حاول الأخير أن يقمع خوفه ويلجم غضبه ويقاوم حنقه، حين زحمت شرور نفسه وهي تزجر بداخله وصرخاته تُدوي في أرجاء البسيطة، قارعة أبواب السماء قائلاً:

- أيُّها النازيُّ الحقير الآبق، سيذكُك إبليس.. هنا في تلك البلاد البعيدة عن وطني الجريح، الذي سلبتموه مني، أَسْموني أَدان راينوفيتش، لقبٌ مَنَحْتَنِي إياه سيدة فاضلة وأُمٌ كريمة..

لقد ولدتُ في بلادي البعيدة لأبٍ صالح لعتته أفئدة المؤمنين في الكنيسة، ورفضتني أحداقهم بسبب أُمِّي.. وُلِدْتُ لَأُمٍّ صالحةٍ لَعَنَتَهَا أفئدةُ المؤمنين في المَعْبَد، ورفضتني أحداقهم بسبب أبي، وقد باركهما الربُّ في السماء إلى الدوام برباطٍ أبديٍّ مُقدَّسٍ..

وبعدما نالت منهما فاشية أبناء ليليت، وأحرقَهم عبيدُ الشيطان من أقرانك، الآن في هذا الخراب بعد عشائك الأخير، أتذكَّرُ أنا مُتدبرًا ما قاله الربُّ فينا.. هأنذا أرسلُكم كالخِراف بين الذئاب.. فاللعنة عليهم وعلىكَ.. اللعنة عليك وعليهم..

الفصل التاسع

طُويت صفحاتُ عامٍ مضى وفصولٌ كبركة واسعة ضحلة، مستنقع يطفو فوق سطحه طحالب رمادية من المعارك وشوائب عالقة من العمليات الطاحنة التي لم تحرك قط من سكون ماء الحصار الراكد المتجمّد..

انطلق أذان مُلقياً وراء ظهره سيلاً من اللّعنات وفيضاً من الحزن الجُمِّ، الذي أغرقه حيناً من الوقت عندما ترك نفسه رهينة لأسقام الليالي المظلمة.. انطلق وقد ربح اليأس منه معركة، ولكن الحرب ما زالت على عهدِها، حامية الوطيس لم تنتهِ .. مضى على يقين تامّ أنه إذا ما أنهى القنوط حرباً، فقطعاً سيكون نتاجاً حتمياً لانتحار القلب النابض بالإيمان..

ابتعد وهو يتوارى من أطياف صوفيا، باحثاً عن معركته الخاصة وسط ميادين عَجّت بجحور الأفاعي وسكوك العقارب.. سعى راکضاً

وقد نَفَضَ عن كتفيه غُبار الصيف الموحد، وعن وجهه زخات أمطار
النكوص..

بعث برسالة بارقة إلى موسكو ليتأهبوا بالجهاد والعتاد لصدِّ
عملية سيتاديل النازية المفاجئة، وبرق هو من بعدها إلى الشرق البعيد
عن لينينجراد تارة أخرى ليخوض النزال في جيب كورسك، مُتَحَيِّناً
مُقارعة أفعنة وجه أدولفو الزائفة في عملية رجيف - سيتشوفكا المباشرة
ولقتال أشباحه المخادعة في معركة بروخورفكا..

بعيداً عنه وفي قلب لينينجراد النابض بأحلام السلام، نجح
مقاومو الحصار في كسر سياج الخوف، وشَقَّ الساتر النازيَّ المنيع في
الثاني من يوليو.. حينما أتمُّوا إيصال مخطوطة السيمفونية السابعة
لدميتري شوستاكوفيتش..

تجمَّعت أفئدة المحاصرين من الأهالي في التاسع من أغسطس
وأحداقهم شاخصة إلى سماء المجد الملبدة بغيوم الخزي وأمطار الحزن،
باحثين في عقد دموعهم المنفرط عن قوى الأسلاف في عروقهم، وروح
الشجاعة والصبر بداخلهم، وآذانهم متعلقة بالعازفين على أوتار
أنفسهم جريحة الكبرياء، مستجدية عزائمهم الصلدة التي ثبطتها ليالي
الحصار القاسية..

يوماً مشهوداً في تاريخ المقاومة الملحمية تحركت فيه مياه نهر الحرية
الراكد بدفعة قوية من رياح الحماسة، التي زحزحت الغمام لتشعر
القلوب بدفء أشعة شمس الخلاص..

جاء أَدان الطم والرم وقد أتاه القليل والكثير بعدها، حين تلقى الأوامر بالعودة إلى الغرب.. كي يُزحزح طود الموت الجاثم على صدر مدينته كونه ابن جدتها، الدليل الهادي في صحراء تيه القفر، العالم بدروب النصر المستحيل المنتظر في أكنافها.. عاد ولم تنقشع بعد سُحب الهواجس الضبابية عن حداثته الضالتين، بعدما كاد أن يصرع الموت بيديه في كورسك بصرامة وثبات..

كان القتال بشعاً قاسياً على جبهات لينينجراد، لكن نظرات صوفيا التي لم تتوقَّف إليه منذ الصيف البائت كانت أشدَّ قسوةً ووطأةً عليه من مقارعة النازيين في ساحات المعارك الدموية الطاحنة..

كانت ترمُّقه حينها بعينيها السماويتن، عين تتوسَّل إليه ألا يُخطئ دربه، وعين تُشفيقُ عليه مما ستؤول إليه الأمور بصدد.. أدركت هي أن الحرب قد خلَّقت من الجميع قتلة، ففسدت الأرض وانطفأ نور الله بداخل أرواح مُعذَّبة، حتى سكن الأجساد ظلامُ الشرِّ وظلمات القنوط من رُوح الله..

مرَّت عليهم أعياد الميلاد المجيدة كسابقتها، دامعة بائسة بلا مجدٍ على الأرض التي قد سقط عليها مئات الآلاف من المقاتلين والمحاصرين.. جذبت شجرة عيد الميلاد وقد تساقطت أوراقها الهشة واحدة تلو الأخرى.. لم يجد الأولاد فاكهة ليقشروها كما اعتادوا.. احترقت طاولة الطعام حطباً في مدفأة البرد القارس.. اختفت مآدبات الطعام وولائمهم وأطباق الأوليفيه من عليها.. لم يجد

المحاصرون حلوى البهجة ولا زلابية الفارنيكي المفرحة.. خلت الشوارع من عربات بائعي البوظة، فلا أعواد الأكسيمو، ولا أكواب الستاكالتشيك، ولا سندوتشات بريكيث المثلجة..

جاء العام الجديد أخيراً بالجديد على أبناء الحصار وإخوانهم من البلوكانديسك.. مقاومي الحصار.. أتى يناير بشرارة فكّ الحصار عن المدينة المنهكة الجريحة منذ أشهر طويلة..

استبسل أذان ورفاقه من القادة والجنود على مدار ما يُناهزُ الخمسة عشر يوماً بدءاً من آخر أيام الأسبوع الأول من شهر يناير، حين انبلج فجر عملية الشرارة.. أسكرا.. التي ضحّى الجميع فيها في سبيل أن يحرروا مدينة شليسنبورج، المتاخمة لينينجراد وبحيرة لادوجا.. ليدشنوا معبراً على نهر نيفا، وطريقين مُعبّدين للسيارات والقطارات التي عادت لتعمل لأول مرة منذ ما يناهز سبعة عشر شهراً على خط سكك حديد أنشأته سواعد وأكتاف المتشّين بنسيم الانتصار.. مُحطّمين أسوار الحصار، نازعين عن يد واحدة الأغلال، مقدمين على تحرير أنفسهم وأيادهم كلها من أصفاد الطوق الغاشم..

تدفّقت الإمدادات عبر السكك الحديدية، وقد توالى بعدها المعارك وتلاحقت كالأموج الهادرة، فمن معركة سيستروريتسك إلى عملية النجم القطبي.. بولياريانيا زفيزدا، الواقعة في شهر فبراير.. تكاتف الجميع وتدافعوا كالسيل العارم ليقاتلوا، ومن بينهم صوفيا التي خرجت من أعتكافها الإجباري لتقاتل في طليعة الحشود مرةً،

ووسط الصفوف الخلفية مراتٍ عدة، بعدما باتت معركة النصر المستحيل وشيكة، تُقرع طُبولها يومًا بعد يوم..

أيام صعبة استنزفت الأرواح والأجساد، مرّت على أذان وسط جبهات القتال بعسرٍ جمٍّ.. فهناك تتصاعد وتيرة الأحداث حتى الذروة على إيقاع النزال المضطرد، وتتوقف فجأة إلى الأبد.. هكذا ملأ صفحاته المخضبة بالدموع والعرق والدم..

جنود يتشنجون، وآخرون يشعرون بالبرد النافر في أصلاهم، الذي لا يتوانى عن تهشيم عظامهم، ينادون مستنجدين بالموروفين.. نزيف وتوسلات.. لا تتركوني.. ساعدوني.. النجدة.. الأطباء.. الغوث.. أين المسعفين؟ ذخيرة في يدي ونيران في جسدي وفوارغ الرصاصات تنهمر من فوهة بركان البنادق الآلية.. احتموا.. الطنين في الأذان وأزيز الطائرات.. جنود يلعنون الأقدار بكلمات فارغة لا يعنوها، سُحقًا وتبًّا.. يستصرخون الأمان بالبكاء والنحيب وثورات من حنق الغضب العارم..

كلمات الجنود المُقتضبة التي أوجزت ونظرات الضباط الواجمة تكفي لملء مجلدات من كتب التاريخ والتأريخ عن دقائق اتسعت لحىوات أبديةٍ وحياة امتدت لدقائق معدودات.. القاذفات تُلقى الهلاوس على أدمغة الجنود، وأصوات الرصاص بداخلهم، ولكن لم تُصِبْهم بعد.. تتصاعد الأدخنة والنيران في كل حَدْبٍ وصَوْبٍ.. يا إلهي هو النداء الأوحى الوحيد والملاذ والملاجأ الأخير..

علينا أن نصيب قاذفاتهم اللعينة.. حددوا الأهداف
وصوبوا.. سقوط وانقضاض من الأعالي.. تداع وانقهاال.. هل هو
سقوطنا؟ أم سقوط القذائف؟ أم سقوط القاذفة؟ أَرَفَتِ الآزفة.. الجميع
هناك وهنا يختنقون من أنفاس الحرب القاتلة.. يقاتلون في أحلامهم،
ليست أحلامًا بل هي أشدُّ كوابيسهم الحقيقية فزعًا ورُعبًا.. المدفعية
تُدَوِّي وأبراج المراقبة يعلوها وميضُ الرشاشات اللعينة. تحصينات
محصنة.. أين هم؟ وأين الرفاق؟ إنهم خلفنا وأماننا.. ها هم بجوارنا..
يُحيطون بنا.. من هم ومن نحن؟ إلى اليمين وإلى اليسار، إنهم في
أعقابنا.. إلى الأمام أو إلى الخلف، هؤلاء الأوغاد ما زالوا يقتفون أثرنا..
أيها الحمقى.. الرحمة.. إنهم يهربون بطائراتهم ويرتفعون مُولِّين الأدبار،
مبتعدين مُدْبِرِينَ.. صه، إنهم يتأهبون للانقضاض علينا من جديد..
فلنُنَبِّقْ رؤوسنا منخفضة، ولنُطَاطِئْ هاماتنا كي تعبر الغيوم ولا تصيبنا
رصاصاتها المشؤومة..

أين الدعم؟ ركضتُ لأقع على الأرض في بركة الأوحال السوداء..
وقعتُ على ظهري وأديم الأرض يحمني، وعينا صوب السماء، التي
انجلت لتتراءى لي صافية ومُلبَّدة وماطرة، وغيوم بين أمواجه الزرقاء
تبحر..

لا أقوى على النهوض بجسدي، ولا الاستقامة بنفسي.. أيها
المسعفون! فلتأتوا لنا بالخط، بالتوفيق أو بالقدر..

ونحن نسير فوق الحشائش اليافة العالية.. اختبئوا وازحفوا بينها
معتمرين قباعات وخوذات القتال فوق رؤوسكم.. لا تخلعوها.. أين

هم؟ وأين نحن بين التلال والأوحال؟ والحشائش تتراقص حين تداعبها نسائم الحياة الأخرى.. أسكنتها تَوًّا انفجارات القنابل ورصاصات أصابت الجنود.. أشلاء تتطاير ودماء تسيل مُحَضَّبَة الأرض وملابسهم ووجهي.. انبطحوا أرضاً أيها الحمقى..

دموع تنهمر، وقلوب تنفطر، وهدوء يسود حتى يأتي حاملو النِّقالات، فالمصابون كُثُر، والقَتلى أكثر.. وتعود الكُرَّة مرة أخرى.. أسرعوا، تحرَّكوا، قاتلوا، توقفوا لقد أوقعنا بهم.. لا سبيل للمُراوغة الآن.. تتعالى الضحكات الهستيرية.. لقد رحلوا.. لا لا لقد عادوا.. فلتكن جاهزاً.. أوقفوا نيرانكم أيها النازيون القتلة.. وأنتم أيها البواسل لا تتوقفوا أبداً عن رميهم بجمرات رصاصنا ومدافعنا وصواريخ كاترينا المدللة.. زخات الكاتوشا..

إنهم ينسحبون ناكصين وراء الغيوم.. يصرخ ضابط، تلقيتُ رصاصة! ابقَ معي.. ابقَ هناك، لا تأتِ.. صيحاتُ مُحَلَّق وتترقي بتباهٍ، أسقطنا طائرة، مَرَحى، هكذا حتى تخبرني يا مَنْ تهوى وتحترق، فلتقل لي ما شعورك حينما يُطلق عليك أحدهم النار مِنْ ورائك؟ الجحيم في انتظارك..

خراب بازغ في الأفق.. الدمار أمسى طوقاً فوق رؤوس الأطلال.. هذأت العاصفة، ولم تُحِبُّ تباعثها ونتائجها.. فلتستعدوا لموجةٍ تالية..

فجر بأصابع وردية.. إلياذتي البطولية وأوديسي الثأرية.. أسير الحورية كاليسو.. سبع سنوات عجاف.. لن نبليغ أبداً تلك السنين.. آن

الأوان في العودة إلى وطني..بحارتي لا تأكلوا من زهرة اللوتس، حتى لا تنسوا الملحمة.. العملاق ذو العين الواحدة..لا يبصر إلا الحقد والقتل والغضب.. لن أترككم خنازير للساحرة المفتونة..أين عُشْبتي الفريدة، زهرة بيضاء وجذور سوداء؟ لقد خسرت الكثير من رجالي، في مضيق الضيق لوحش لا يفنى بِسُمِّه الزُّعَاف من أعناقه السَّتَّة.. احذرا رصاص سيلا السَّامِّ وغارات كاريدي المميته.. سأحبسُ أنفاسي و سأصمُّ أذانكم بالشمع، حتى لا تأسرکم عرائس بحر الضياع بسحر أغاني الفناء .. سنبلي مدينة الشمس، وبعدها سنقضي على مَنْ يُحَاصِر قصري وحببتي..

حصار طروادة قتال حتى النهاية ..لا تراجع ولا نُكوص.. لن يخدعوننا بأحصنتهم.. أئبها النازيُّ الحقير لقد آثرنا الموت محاربين على الاستسلام فلا تتعجب أن مدينتنا التي وقَّعت لكم على وثيقة الإعدام تلك بيد زعيمكم الفاشي، تُقاوِمُ الآن الإعدام بكل بسالةٍ وقوة.. أين الدَّعم؟

هدفنا الآن أن نسيطر على أنفسنا ومواقع العدو لتحريرها .. على حين غرة جنديٌّ يصرخ بعلو صمته.. معدتي تُؤلمني، انقباضات في صدري وغثيان ..أشعر بالبرد، أتجمَّد منه.. نظرات حائرة دون أن تنبس شفتاه اليابستان بكلمة واحدة..احتبست الأنفاس ..قارورتي..أين أنا؟ ستكون بأمان لو نجوت..ستكون بأمان حتى إذا متُّ..ستكون بأمان.. أنا الأمر هنا، انتهى..الوضع خطير وكلنا على المحكّ.. الكتيبة والسَّريّة.. أين فرقتمك التالية؟ حددوا مواقعكم..فرقتي تتداعى ولن أستسلم، ولن أعود أدراجي..

قضوا نحبهم وقد علمتهم ودرّبتهم وشجّعتهم لأفقدتهم.. أين هم
وأين أنا؟ الوداع.. وداعاً أيّها النقيب.. وداعاً أيّها الرقيب.. موتى،
مفقودين، مصابين في كل مكان.. جنازات ومآتم وسُرادقات وحداد لم
يبدأ الآن، ولن ينتهي أبداً..

مرة أخرى شراذم.. تعزيزات.. حصون.. حصنى الحصين، إلهي!!
ألهمني ولا تذرني.. صمتاً.. مُناورات للالتفاف خلف خطوطهم في
التلة والأدغال الموحلة.. الأوامر مباشرة.. فلتباشروا أعمالكم التي
تُحسِنون صنْعها.. اقتلوا القتال وقاتلوا القتل..

الحربُ لعنةٌ، والمعاركُ قذرة.. ما تحصلون عليه هنا دون جهد،
تفقدونه هنا دون ألم.. قاتلوا وثابروا واصبروا.. أثبتوا على الأرض،
وتقدّموا إلى الأمام.. انظروا إلى رفاقنا، ينعمون في المجد الذي هو
بانتظارنا، وبقعة بديعة فسيحة في الفردوس ينعمون بها وتنتظركم الآن
أو متى يحين الوقت.. النفس مطمئنة خير وسادة للراحة
الأبدية.. اطمئنوا ولتخرجوا قوة أسلافكم من عزيمتكم..

أمّرهم أن يسيروا ناحية الموت، ولا يوجد مكان للاختباء
منه.. الاحتضار والشمس تواريهما أغصان كثيفة من الظلام وخمائل
ضبابية من اليأس.. أنا عالقٌ في قبري، لا أستطيع دفعه كي أخرج ولا
أستطيع ابتلاع روعي بعدما ضاع الجسد مني.. كلمات جندي يحتضر ما
تزال تُدوي بمسامعي مع دوي الرصاص وأجراس الكنائس المعطوبة،
احتفالاً بعيد الميلاد المجيد الجديد.. فالنصر ها قد صار على الأبواب..

عشيتها تسامرت مع صوفيا وأمي أوجا، وقد وعدتها بإتمام الزفاف في عيد الميلاد القادم..

اشتدَّ الحُطْبُ إثر كثافة القصف مع يوم الجمعة الرابع عشر من يناير عام ١٩٤٤، بينما تسَلَّق الترقُّب العقيم أحداً شاخصة صوب همول المطر الساكن في سماء اكفهرت وقد تلحَّفت بستره من قطيفة رمادية يتوارى خلفها ضياءُ النصر المُرتقب ..

تساقطت الأمطار ومن تحتها أدلج الناس في الدُّجى، ينسجون من الشتات راية تجمعهم لزحزة الدُّل والعار الجاثم على صدورهم، مُتَكئين على ظلال ماضٍ قريبٍ إلى قلوبهم، بعيداً عن أرواحهم التي أمست تتجرَّع الأجاج من جفاء زبد بحر الشَّقاء بعدما ابتلعت فيافي اللحد ماء الغيث المُقدَّس ..

سطرت الحروف الأخيرة من ملحمة الصمود التي ما انفكت حتى ذلك الحين عن طرق أبواب الحصار المتهاوي بعدما اشتدَّ العُسر والأذى، وقد قُطعت الميرة والمادة عن الورى ليالي طوالاً.. ما زالت أصوات الأطفال والنساء الذين اعتادوا إشباع جوع خوفهم وأمعائهم بالأوراق والجلود تتعالى، وهم يتضاغون جوعاً في ليالي الشتاء الجذباء المصطلية بنيران المدفعية الألمانية بُغيةً أن يشعل النازيون نيران الخوف في سماء الحصار..

انقشع الخوف رويداً رويداً عن سماء لينينجراد حتى زال تماماً في الخميس الأخير من أول شهور العام الجديد.. في كنف مشهدٍ فلكيٍّ

رائع، ظاهرة فريدة نادرة تفرّدت بها سماء لينينجراد وأرضها.. قمر الحقيقة العملاق أخيراً استطاع أن يجهز على مُذنب أذنان الحصار..

هَوّت الذنوب إلى الهاوية في الساعات الأخيرة والمتأخرة من ليلة السابع والعشرين من يناير.. قُبِلَ الفجر الجديد احترقت زخات الشهب في مصبّ نهر العدم، الذي حفرته بقايا شظايا مُذنب الحصار على الضفة الغربية من شاطئ النسيان.. شُهِبٌ مُتَوَهِّجَةٌ خلفها ذيل دخانيٌّ من آلام خطايا خُلِقَتْ من جليد الخوف وأتربة اليأس، تدور بنا ومن حولنا لآلاف السنين ولا أصوات لها، تدخل في عالمنا تراباً وتتلاشى قبل أن تطفأ سفع الأرض..

ساعة في فضاء العدم توالدت منها عشرات السنين من أطياف وردية ورمادية لأكليل سماوي، ذاب فيها جُلُمود الظُّلم الجليدي حينما اقترب بتبجُّح مُصعِّراً خَدَّه، مُتحدِّياً شمس الخلاص التي أحرقت حرارتها اللقاء الحميم الأخير.. بعدها سقطت حشود من الشهب على رؤوسٍ قد أينعت فوق زقوم شجرة الشرِّ، قطعٌ قد قَطَعَ أميالاً وسنين، جارفاً إلى قلب العالم أتربة المشاعر الضبابية السابحة في فضاء أعدمت فيه الديمومة الجاذبية..

عاصفةٌ شهابية أُلقت بحجر الآلام الأصم في بستان الإيمان، صخرة أخذت تتحيَّنُ الفرصة طوال عمر البشرية، ملايين السنين تُراقِبُ الجميع، تحتضن ظلال الإنسان في العالم الآخر.. حاصرته و تربّصت به، ولكن في نهاية الأمر ويبد الله حطّمها الرجل، ومن فوقها

أنين الماضي وآلامه المبرّحة.. قدر أصاب الأرض من قبل القدير.. أن يسقط الجمر ومن خلفه ذنوب الشُّهب كجبات الرمال.. كخرزات المسبحة.. يتهاوى معها المرء بأوراقه الجذباء المتساقطة من شجرة الأيام..

لم تكن معارك مايو الأخيرة باليسيرة أو الهينّة، معارك تحرير الأرض والعرض من الدّنس النازيّ الذي استباح تاريخ كل غالٍ ونفيس.. مدن بأسرها أضحت أطلالاً وركاما.. بوشكين، جاتشينا وتشودفو..

دمروا قصور كاثرين، بيترهوف، جاتشينا وسترلينا وهم يولون الأدبار مرجفين من الهزائم.. تحطمت أسوار الحصار تمامًا، حصار قد دام ثمانمائة واثنين وسبعين يومًا.. حصار للمليونين وخمسمائة وأربعة وأربعين ألف شخص، قضى منهم ستمائة وتسعة وأربعين ألفاً من المدنيين العزّل وثلاثمائة واثنين وثلاثين من الجنود والضباط السوفييت نحبهم.. ثمن باهظ وخسارة فادحة قدمت على مذبح الحرية..

كان المشهد أسطوريًا، دربًا من الخيال يصعب وصفه في مدينة لينين لسحب النصر تعانق جبال الجلّد والاستبسال.. شوارع لينينجراد اكتظت بالحشود الهادرة، مسيرات خلف العربات العسكرية.. عشرات اعتلوا أمواج سيل الدبابات المتدفّقة إلى جبهات القتال، ألعاب نارية في ميدان القصر، صلوات وترانيم وابتهالات وشموع في ساحات كاتدرائية القديس إسحاق وكنيسة المخلص بالدم.. أكتاف الأصدقاء

والأقارب والجيران تتعانقُ في شارع نيفسكي المكتظ بأرواح ناضرة،
معزوفات احتفالية وأغانٍ وطنية في رحاب القصر الشتوي وقصور
أنيتشكوف، ستروجونوف و شوفالوف..

احتفالات ضخمة في كل حَدَبٍ وصُوبٍ، اكتست المباني بالأعلام
السوفيتية الحمراء.. أغاني العازفين وموسيقاهم تجوب الشوارع
والأزقة.. صَخْبٌ وأفراح دامعة عمّت أرجاء المدينة التي قد وارى
تُرَابُهَا أبطالاً ارتقوا، وأيام أليمة مضت على أنغام سيمفونية لينينجراد
البطولية لشوستاكوفيتش..

صدحت أصوات الجموع الغفيرة، ولكن أمسى هناك صوت لا
يُسمع في آذان البائس أذان.. كلمات توارت تحت رمال بيداء الخطايا
الصَّمَاء، بيد أن جُرح الماضي الغائر قد استفحل تقيُّحًا تحت غمام عقيمة
لظِلٍّ لا جسد له، وقد طُمِسَتْ ملامحُ وجهه تحت عتمة رماد مُوحِلٍّ،
هذا ما قد دَفَعَ بأذان دفعا إلى المُضي قُدُمًا هاربًا إلى معارك طاحنة، ساعيًا
وراء مجدٍ يستتر فيه ويحتمي به عند لقاء صوفيا التي أدار ظهره لها،
وللوحة السُّحب الوديعَة التي رسمتها بصبغة الله في سمائها.. لقاء رياح
الشمال بمرتفعات الجليل..

هَجَرَ التعيس الشرق حيث قطرات أمطار المحبة قد أذابت جليد
الشجن.. وبين ثلوج الغُفران وبرد الطُمأنينة ولدَت على إحدى أوراق
شجرة الحياة أسطورة الندى الصوفي لماء مُقدَّسٍ من السماء رفض أن
يحتضنه هواء قد مَسَّهُ غبارُ الخطيئة..

سَلَكَ أَدَان دَرْبِهِ وَمِنْ فَوْقِهِ تَتَدَافِعُ كَائِنَاتٌ عِمْلَاقَةٌ رَهِيْبَةٌ لُمَزْن هَائِلَةٌ
يَهْتَدِي بِهَا، وَهِيَ تَزْحَفُ نَاحِيَةَ الْغَرْبِ، وَصَوْتُ الرِّعْدِ لَا يَنْفُكُ عَنِ
التَّوَقُّفِ فِي كِنْفِ الْمَعْمَعَةِ.. فِي الْأَفْقِ تَلْوَحُ خَلْفَ أَعَاصِيرِ الْحَنْقِ فِي
صَحَارَى الْوَحْدَةِ غَابَاتُ شَاهِقَةٍ لِلانْتِقَامِ وَسَهُولُ تَفِيضِ نَوْبَاتِ غَضْبِهَا
بِالْبَطُولَةِ..

مَضَتْ شَهُورٌ عِدَّةٌ احْتَفَى فِيهَا الْجَمِيعُ بِنَشْوَةِ الْانْتِصَارِ، وَإِزَاحَةِ ذُلِّ
الْحِصَارِ وَعَارِ الْاِحْتِلَالِ عَنْ جَبِينِ الْوَطَنِ، عَادَ بَعْدَهَا أَدَانُ قُبَيْلِ الصَّيْفِ
مُكَلَّلًا بَانْتِصَارَاتٍ تَطْهِيْرُ لِيْنِيْنِجْرَادَ أَوْبِلَاسْتِ وَمِنْطَقَةَ كَالْنِيْنِ فِي أَوَاخِرِ
مَآيُو، وَمَضَى مَرَّةً أُخْرَى إِلَى نَارْفَا، وَعَادَ فِي الشِّتَاءِ قُبَيْلَ أَعْيَادِ الْمِيْلَادِ
بَعْدَمَا أَبْلَى بِلَاءً حَسَنًا فِي اسْتِعَادَةِ تَارْتُو وَتَالِيْنِ وَتَحْرِيرِ إِسْتُونِيَا، لِيَجِدَ
نَجْمَةَ الشِّمَالِ وَقَدْ اسْتَعَادَتْ رَوْنَقَهَا وَتَزَيَّنَتْ بِنَايَةِ دَارِهِمْ بِالْبَهْجَةِ
اِحْتِفَالًا بِأَوَّلِ عِيْدِ مِيْلَادِ بَعْدِ جَلَاءِ الظَّلَامِ وَالظُّلْمِ....

عَادَ إِلَى صُوفِيَا لِيَجِدَهَا حُورِيْتَهُ السَّاحِرَةَ الَّتِي عَهْدَهَا دَوْمًا زَهْرَةً
تَتَّقِدُ بِلَهِيْبِ جَمَاهِلِ الْفَتَّانِ وَتَصْلِيهِ بِجَذْوَةِ سَحْرَهَا.. قَابِلَتْ قُوَّتَهُ وَعَنْفَوَانِ
قَسُوْتَهُ بِبِرَائَتِهَا وَطِيْبِ اللَّقَاءِ، فَسَكَنْتِ الْعَاصِفَةُ بِدَاخِلِهِ وَهَذَا بَرَكَانِ
الشُّوْقِ بَيْنَ ضُلُوعِهِ..

ارْتَدَتْ صُوفِيَا لِبَاسَ الزَّرْفَانِ الْأَبْيَضِ الَّذِي حَاكَتْهُ لَهَا السَّيْدَةُ أَوْجَا
مِنَ الْحَرِيرِ الْمُرْصَعِ بِقَطْعِ مَاسِيَةٍ وَالْمُطَرَّزِ بِنَفْحَاتِ مَاءِ الذَّهَبِ.. عَلَى
مَذْبَحِ كَاتِدْرَائِيَةِ السَّيْدَةِ كَازَانَ.. أَضَحَتْ صُوفِيَا مَرَاةً أَيْقُونَةَ ضَامِنَةِ
الْخَطَاةِ، أَيْقُونَةَ سَيِّدَةِ كَازَانَ الَّتِي نُقِشَ عَلَى قَلْبِهَا:

"أنا ضامنة الخطاة لابني الذي وثَّق بي لأسمعهم والذين يسعدونني بسماعهم سينالون الفرح الأبدي من خلالي." أيقونة جديدة تمجّدت بمعجزة لا مثيل لها..

انتظر أدان حتى أشرقت صوفيا بإطلالتها المبهرة، ومن ورائها السيدة أوجا تحرس خطواتها وتحمل ذيل فستانها الطويل المسدل، وهامتها المكلفة بتاج فضّي يتدلّ من تحته وشاح شفاف.. فُغرت أفواه الحاضرين، وعيونهم قد أسرها جمال صوفيا الخلاب الآخاذ للعقول وهي تهمهم بصوتها الملائكي مُردّدة:

- استيقظي يا ريح الشمال، وتعالِي يا ريح الجنوب، هُبِّي على جنتي فتقطر أطياها.. لِيَأْتِي حبيبي إلى جنته ويأكل ثمره النفيس..

التفت مسبحتها حول معصمها الأيسر ويدها اليمنى تحمل الكتاب المقدس.. أخذت تشدو بصوتها العذب على وَقْع خطواتها الثابتة حتى اعتلت المذبح، وعينا أدان لم يطرف لهما جفنٌ وهما تلاحقانها بشغفٍ مضطرد..

بدأت المراسم وأدان غير مُصدِّق بما يجري من حوله، وكأنه في وادٍ آخر من الأحلام.. ورحيق العشق يَسِيلُ من بين ضلوعه حتى هملت به عيناه.. إلى أن استمع إلى قول الأب الكاهن..

"امضوا بسلامٍ ولام الرب يكون مع جميعكم"

رُفِعَ الوشاح عن وجهها الوضاء ليطبق بقبليةٍ حميمةٍ حارة على شفتيها المتوردتين، لتتعالى صيحات الحضور وترانيم الشمامسة في أرجاء

الكاتدرائية.. حملها أدان كما يحمل طفلة صغيرة وقد خرج بها مُسرَّعاً إلى سيارة فاخرة، استقلها العروسان إلى أحد الأكواخ، القابع على ضفة نهر نيفا الشرقية.. حيث كانت بانتظارهما وليمة من أشهى الأطعمة، وموسيقى البهجة قد غمرت الحفل الصغير الذي أقامته الأم أولجا في بستان الكوخ الشاطئي.. بعدما أحرقوا عذابات الماضي بالبخور وقدَّموا قرابين من الصلوات في مراسم الإكليل..

أبواق وطبول.. غناء ورقص.. حميمية احتفالية الزفاف على الشاطئ والزينة المُرصَّعة بأشعة الشمس الخافتة خلف سُحب عيد الميلاد أغدقت على صوفيا، التي بدت كعادتها خفيفة الظلِّ والطلَّة، والجميع قد جاء من أجلها هي وابتسامتها التي لم تفارق شفيتها طوال الوقت.. زوج الأقرات الماسي وخاتم اللؤلؤ في أصبعها أضافا إلى فستان سندريلا البديع أناقة آخاذة بهرت وجمال صوفيا عيون المدعوين وكادت أفئدتهم تتوقَّف عن النبض كلما أشاحت لهم بوجهها الباسم..

فينة من الوقت تطلَّعت صوفيا إلى مياه قناة نيفا التي جلست أمامها ساعات طويلة وهي تبثُّ شكواها إليها من كثرة الخطب والهموم.. شاركتها الحزن حينها، واليوم تشاركها فرحتها واحتفالها..

فرغ الحفل الصغير سريعا، وغادر المهنتون تاركين العروسين على باب الكوخ الخشبي الضخم وهم يلقون عليهم الأمنيات والدعوات بالسعادة والحبور، وقد همَّ أدان بحمل صوفيا وعبور عتبة المنزل..

بالداخل افترشت بتلات الورد الحمراء أرض البيت الصغير، وقد غطَّت حشية المخدع وثنايا مضجعتها عشرات الشموع الموقدة، التي

زينت أركان المكان وجدرانه بأضواء خافتة داعبت باقات الورد في
المزهريات المتراسة في كل جانب.. فخامة وخيال وثوب مُذهّل لحلم
خلق في روح حواء وعاش منذ الأزل في أفئدة فتياتها يراودهنّ حينما
يسدلن شعرهن مطلقاً سراحه من محبس الضفائر..

عُشّ الزوجية احتضن ليلتهم الأولى في دنيا العشق.. فرحة غامرة
بلقائهم الذي قطعوا من أجله آلافاً من الأميال والوعود والعهود.. عُشّ
صغير عائق طيوراً مهاجرة رحالة، أو هن أجسادها التعسة طول
الترحال والسفر بعدما حاصرها إعصارٌ مدمر فبعثر ريشاتها وهشمّ
جنحاتها.. لكنها عادت لتغرد الآن وقد شيدت من أنقاض الماضي داراً
وقصرًا، ومن صحراء الآلام واحدة وجنة..

حديث الحب عن السعادة لم ينقطع.. تساقطت معه أحلامهم
العاشقة في عالم خيالي امتزجت فيها ألوان النقاء بصبغة الشغف..
تهامسوا بمشاعرهم، وتضاحكوا بأحاسيسهم، وأندى فيض الهوى
أجسادهم المحمومة بسُهد الشوق الحميم.. بينما أخذت السماء بإلقاء
الصفاء في الثلوج المتساقطة..

بحنوٍّ وهدوء خلعت صوفيا فستان الزفاف لترتدي رداء العشق
وأدان يُراقبها عن كثب بعينين حانيتين تواقيتين، وخفقات قلبه وقلبها
بزغت من وراء ملابسهم.. لم تتوقف عن استراق نظرات الحب وهي
تتحسس يديه وذراعيه بلمساتها المتواترة.. همسات منها في أذنيه بحبها
له، قبلات تعبر عن سعادتها العارمة كونه زوجها.. وعود بأنها ستكون
سيدة القلب والروح..

تحرّرا من معطف الماضي، وتجردا من قميص الخجل، وخلعا عن أجسادها سراويل التوتّر.. وكأنها البدر، وقميصها يشنف طراوة بشرتها الناعمة الوضاعة.. اعتلت الأريكة لتفكّ قيود الستائر الداكنة كي تتدلى، لتحجب نظرات الليل عن جسديهما العاريين.. تلعثمت خطوات أدان، قدم تتقدّم وأخرى تنسحب وهو يحاول الاقتراب والابتعاد.. رفعت العروس بخطوة تذبذبت الخطوات ما بين الاقتراب والابتعاد.. رفعت العروس ناظرها لترتقي براءة أحلام الخيال الوردية عذوبة الخجل وشذا عطر الشوق الجارف، وقد احتبست بين ضلوع الفتى، الذي أخذت أصابعه في تحسّس جيدها الناعم، بينما همّ بخلع مسبحتها، ويكاد يُغشى عليه، وهي ترمقه بنظراتٍ ساحرة مُتدثرة بفراش السرير الحريز القرمزي..

تناديه باسمه، وتُناجيه بعينيها الزرقاوين، بينما أخذت أصابعه تحتضن أناملها المرتجفة من رعشاته حتى ألقيا أجسادهما في نهر اللقاء الساخن، وحرارة العشق قد أخفت الألم عنهما وعن ألباهما، وعن كل ما يعكر صفوه.. ارتشف أدان من كأس بتول صوفيا، وعيناها الساحرتان قد أفاضتا بالنشوة وهي تمطره بسيل من قبلاّت، أندت شفثيه التي لم تكفا عن احتضان ثغرها، وأظفارها قد غرست في منكبي الفتى المُنتشي بلذة قد بلغت أوجها.. مرآة المحبة قد عكست وجه اللذة والبهجة، ووارت من خلفها أطيافا خفية من آلام شُبّة..

أفرغ أدان بحب حياته في قلب صوفيا التي راح جسدها يهتز ليفوح منه أريج نفّاذ سحري.. عبر زهرة لم يشتمّها هو من قبل..

رائحة كطعم أمشاج الغسق والشفق في سماء ليلة بيضاء.. رائحة كمذاق
قبلة صوفيا التي لا مثيل له في البرية كلها.. احتضنها بعنفوان شباب
حبه بعدما تطارحا الغرام، وبعدهما ألحَّ في السؤال عن ذلك العطر
البهي، أخبرته أنه أريج زهرة بروتياس المقدس..

استيقظت أمعاؤهما تتلوى من الجوع هي والمعدة الخاوية، المتخمة
بفيض السعادة والفرح، ليجدا مأدبة إفطار عامرة بحب الأم أولجا التي
أعدت الأطعمة بأصابع محترقة بالحنو الدافئ على قلب اتَّقد بحرارة
العطف والأمومة.. إفطار العروسين فطائر بليني المحشوة، عصيدة
سميد ماينا كاشا.. القشدة الرائبة وكعك البونشيكي.. المرملاذ
وكولومنا باستيلا التفاح وتولا بريانيكي الجزريل..

شهر من العسل نهلوا من شَهْدِه حَبًّا سال على شفاههما وأغدق على
أرواحهم التي اعتادت مرارة العَلقم وبسيلة الحنظل.. بعده مرت الأيام
خاطفة وعزفت العروس عن طهو سمك الهف المقلي في الربيع إثر
غثيان وإعياء أدركته الأم أولجا، بذرة قد انغrust في رحم صوفيا حينها
وجد ظل أَدان ضالته، حين أصبح قلبًا ينبض في جنة صغيرة أشجارها
أهداب، وماؤها عسلٌ مُصَفَّى..

في ذلك الحين انقضى الثلث الأول من رحلة شهور تسعة، رحلة
يغمرها الإثارة والألم والفرحة.. وخزات خفيفة من الخوف والقلق
والترقُّب.. سعادة غامرة بقدوم وافدة جديدة اقترنت روحها وحياتها
التي شملتها الأم الحنون بعطفها بعدما ودَّعهم أَدان مُتَّجِهًا صوب
المعركة الأخيرة في برلين..

جاءت الرسائل من برلين مخوفة بأنباء المخاطر وأخبار معارك
تايسة - الأودر وسيلو الشرسة والانتصارات المؤزرة.. عشرون رسالة
قد بعث أدان بهم من وارسو عبر نهر ناريف ودول البلطيق وشرق
بروسيا وغدانسك وبودابست وفيينا حتى جاءت الرسالة الأولى بعد
العشرين من مقر الجوستابو في شارع برينز البريخت بقلب العاصمة
الألمانية في منتصف شهر مايو.

"رأينا على جدران البنايات نداء النازيين الذي خُطَّ بصبغة
بيضاء.. فليُدافع كل ألماني عن عاصمته وشرفه. سندحر الجحافل
الحمراء على أسوار مدينتنا.. فقط لا تُدعِنوا ولا تستسلموا واسعوا إلى
إيقافهم.. رأيت الحواجز والألغام والشراك قد رُصَّت وأفراد الفرق
الانتحارية يمسكون قنابلهم اليدوية بأيديهم في انتظار الهجوم.. بعدها
بدأت السماء تُمطر قليلاً بعدما جاءت الأوامر من القيادة.. فلتقصفوا
عاصمة ألمانيا الفاشية.. لقد أسقطنا ألمانيا النازية إلى الأبد بعد معارك
طاحنة والأكثر دموية في التاريخ.. دارت رحى المعركة منذ أواخر أبريل
وحتى ليلة الثالث من مايو."

على الجانب الآخر وفي الشرق استقبلت ليالي لينينجراد البيضاء
رسالة أدان بعدما حلت خافطة وقد شابهها الكثير من الشجن والحنين إلى
رياح الشمال المشبعة بنسائم نهر جذور ساليانس..

لم تكن صوفيا كسابق عهدها وكأنها زهرة غصت بالتيس الذي
أذبلها كلما اقترب أو ان الميلاد الجديد.. راحت تتجول بصحبة الأم

أولجا وصوت الماضي المبحوح يُعَانِقُ سيدة الهمس، وأمواج دنيا
الذكريات تتقاذفها، والكون من حولها يغرق في عبرات حذقتها وهي
تجول هائمة في ربوع المدينة الحاملة.. كأنها تستودعها لوحات من
الشموخ والانكسارات في مخيلات خيالاتها الخلاء بداخلها..

تواترت عليها أحداث الأيام وحوادث الليالي المتلاحقة حتى
انقضت وولّت ليالي النور في حين هبّت رياح الخريف المشبعة بأبخرة
شتاء قاتم..

كان لتبدّل حال صوفيا وحالتها بالغ الأثر في السيدة الروسية
العجوز بعدما خفّت شذازة زهرة السعادة والحبور رويدًا رويدًا
واهتمجت أوراقها يوما تلو الآخر.. حتى الأيام لم تعد كسابقتها بلا
شهية ولا طعم..

لم تعد صوفيا تقوى على الصدح والعزف فاكتفت بهمة هادئة
وهي تدندن لصغيرتها التي أكملت ثمانية أشهر في أحشائها.. بعدها
مرت الأيام سريان حتى سارعت الأم أولجا بارقة في طلب أدان من
برلين بعدما باتت صوفيا في حالة يرثى لها وقد تعدّر عليها مُغادرة
مشفى التجلي..

كان من الصعب التكهّن بمجريات الأمور وعواقبها، ولكن حتمًا
شيءٌ ما قد صار حدثًا وشيكًا.. كل يوم من أيام أسبوع خاض صوفيا
بات رحلة نضال شاقة من أجل حياة جديدة.. هكذا أخبرت الجميع،
أخبرتهم بصوفيا الوليدة، وما انفكت تستوصيهم بها والابتسامة لم

تخفّ قط عن وجهها الشاحب الوهن، ولكن جماها لم ينتقص قيد أنملة
رغم حالة الإعياء الشديدة التي عصفت بكيانها..

على عجلٍ كانت عودة الابن الضال بعدما اعتلى قطار الريح.. عاد
ليرى عمره وردًا في أحضان الشوك.. أبصر صوفيا في مرقدها وقد
خفّت أضواء شموع الإشراق، لمّا نثر الخريف أوراقه الذابلة تحت
شجرة، نبتت من فوق دنيا الحاضر.. فقدت قليلاً من بريق عينيها،
وغربت النضارة عن وجهها، وقد ضمّر الجسد، وهزل ودبّ فيه
اليأس.. وكأن صوفيا آثرت أن تتوارى خلف أسراب ظلال السراب
لحروف سكن نبضها، وذاب مداد كلماتها المتجمّد على صفحاتها
المقدسة..

غرق قارب أحلام أدان بين صفحاتها البيضاء.. لم يكد يبحر في
نسيجٍ يمّ من خيال الأحلام.. ألوان باهتة لحلم قد أمسى بحرًا بلا أفق،
ومشاعر الفتى تبعثرت من فوق صفحته كأوراق الخريف الجذباء.. أين
المرسى وقد تهافت ثوب شبابه الذي دثره مُخلصًا ليضيع وبوصلة الهدى
بين أمواج مودعة؟!

دخل أدان على صوفيا في غرفتها الصغيرة وهو يُلاحق أنفاسه
المُتلاطمة، مُرتديًا بزته العسكرية التي تعلّقت بها أتربة رحلة عودته
الطويلة..

بأحضان أجشّته بالبكاء استقبلته الأم أولجا، وعيناها قد روت
ظماً نفسه المتعطشة لإدراك حقيقة الخطب بمرارة الحزن وعلقم

الكرْب .. اعتدلت صوفيا بجسدها المُثقل بآلام الشدائد وارتسمت على وجهها الشاحب ابتسامة رقيقة وهي تُرْحَبُ بحبيبها هامسة .. همسات دافئة .. حوار يشدو بين سُحْبِ الشَّجْنِ في سماء ذكريات تخلق وراء حاضر يمضي ..

- ها قد عدتَ أدان على ميعادك، ولكن تأخُّرك يبدو كحياة برمتها وهأنا أُلَبِّي لك ما شئتَ، ساعات الغروب تفصل أحضانك المختلجة عن ضممي، ثمرة لمخاض سنخوضه جميعاً ..

- نعم حبيبتني .. عدتُ من أجلك وما أخرني سوى ترامي المسافات البعيدة، بعدما امتطيتُ فرس الرياح لأعود إليك كعهدي بي دوماً فارساً نبيلًا وحارسك الأمين ومالك القلب ..

- ومالي أرى مالك القلب الآن وقد أمسى كمالك الحزين .. ذلك الطائر البائس الذي يشدو بأعذب ألحانه فقط حين ينزف مودعاً أعز ما يملك ..

- أستحلفك بالله صوفيا أن تترفقي بنفسك، وببي فكلما تُحَلِّقُ بنا إلى عَنان السماء وتُلْقيني وحدي في فضاء العدم، هاوياً إلى مصيري المشؤم كبقايا إنسان ..

- أحقاً عدتَ يا رفيق العمر أم تزال تعاقر لذة دنيا الزيف الغرورة في غفلة أصابت إيمان فؤادك؟

- عدتُ إليك صوفيا وقد أرهقتني الدنيا وأبعدتني عنك آثام كبرها المريرة ..

- لن يقوى هذا الجسدُ المُتَهاوي على أن يُحوّل دون مرارتك
وأنت تسبر غور آلامك داخل جُبّ الجروح..

- معًا نستطيع.. فقط عليك الخروج سالمة بصوفيا الصغيرة،
حينها ستزول جميع آلامنا وعبرتنا..

- معًا كنا نتسلق أعتاب كنيسة القديس توماس حينها قابلتنا
تلك العجوز، التي غزلت لي من خيوط شمس الحقيقة سطورًا مُضيئة
ومن دُرر بحر الإيمان عُقدًا مُتلائيًا لقصيدة فريدة.. أتذكرها أَدَان؟

رَدَّ أَدَان مُتوجِّسًا وقد رسم بشفتيه ابتسامة مضطربة على وجهه
ونظرات حدقته ترمقها بشغفٍ، وأفكاره تتطاير أمام مقلتيه وكأن
عقله قد قفزَ من رأسه وهو يقول:

- أتذكرُها كما لو قابلناها البارحة، ولكن إلى تلك اللحظة ما
تزال نبوءتها لك لغزًا لي وسِرًّا تستأسرين به وحدك..

أَلقت صوفيا ناظرها إلى الأمطار من خلف نافذة غرفتها والغسق
الجريح ينثر أشعته المكلومة على الأفق المُختنق بالغمام وهي تهمهم باكية:

- مالي أراكِ تدمعين يا واحة النفس وقد غربت شمسك وشابَ
حُيَّاك وراء سُنبلات الماضي الصارخة بصوتها الكئيب المكلوم.. صداها
يُحطِّمُ جدران الفضاء الخالي ليصيب قلب الوحدة المستوحش
بجواني؟!!

- أستحلفك بالله أن ترفُقي بنفسك.. فكلما تك الصامته تنحُرني
وبكائك المكلوم يُمزّقُني إربًا.. فلا تجعلني مني كلمات تجرح شفتيك وهي

تحتضنها.. برفق همسي لي أو بعثريني فما أنا سوى شمعة تذوب بجمر صوتك لتضيء لك دُجى الجراح القائمة..

- صدقتَ حينما أخبرتني أن الألسنة ستلعثم وسيستعصي علي البوحُ بمكنوناتي.. كتبت النبوءة وسطرتها كتابًا بداخل صندوق ذكرياتنا في قبو دار وطننا.. أدان فلتقطع على صغيرتك عهدًا ألا يُبرح كتابي المقدس ومسبحتي يديها ففيها خلاصها، وأن تعود باحثة عن نبوءتنا لتكمل طريقي المقدس..

- صوفيا.. ما حدثتُك به ما هو إلا خديعة تحفر لنا قبرًا في صحارى قلوب الكرب والضيق الذي لن ينفك على جعل الدنيا من حولنا تضيق.. فهل لفقدان الذاكرة فائدة الآن صوفيا بعدما خذلني اليأس فخذلتُك؟

- ما حدثتني به هو نور روح الحياة في جسد وليد ووداع روح نورانية هادئ لجسد الدنيا البالي.. ما قالته لي سيفرحُك حين تدركه صارخًا باكيًا.. وستصرخ من البكاء حين يرحل مبتهجًا بلقاء محتومٍ في ملكوت السموات..

- كفالكِ حديثًا عن الموت حبيبتي صوفيا.. فعمري لا يزال بدرًا في سماءكِ وعليكِ أن تظلي بجواري حتى تُكمليني قمرًا يُنير لكِ الدَّرَبَ ويذود عنك من غَدْرِ العتمة.. فلا تفكري في الرحيل، وإياكِ أن تفعلي فتجذب مروج حياتي الخضراء، كما كانت من قبل أن ترويا بنهر عِشقك..

- لا تغترّ بالحياة أدان، فما هي سوى ماء أجاج في بحر من السّراب، تلمسها ولا تمسكها.. وأنت تخوض غمارها، تغزل لك من أطياف خيالاتك خيوطاً فولاذية..

أخشى عليك أدان من أن تنسج بها شريطاً طويلاً من قُضبان قطارٍ وحشيٍّ، يُطارِدُكَ في الصحو والمنام، إمّا يُدركك لاحقاً أو تفرّ منه هارباً..

- ربما غرتني دنيا الأمانى ولكن قُدّر لي ألا أترجّل عن قطاري بدونك لقد وُلِدْتُ لأكون بجوارك إلى الأبد ولن أستطيع أن أمضي قُدماً بدونك أنتِ صوفيا..

- حبيبي أدان.. لقد وُلِدْتَ حاجزاً مقعدك الخالي بداخله كدرب أسلافك وذوينا.. قُدّر لك أن تُبحرَ راکضاً بين ضفتيه، خطان لن يلتقيا.. مطأطأ الرأس ناكضاً مُنغمساً في أريج الماضي مُستمعاً لرويات البشر بعبير عبرها العابر، محاصراً بصياح أطفال تولد وصراخ أخرس لعجائز ترحل.. حين تدرك الصباح الفتى، تدرك تجاعيد المساء الأشيب..

- ستذكريني بذلك كله مرة أخرى حينما نشيخ معاً بعد عمر مديد حبيبتى..

- حينما يأتي دورك أدان لن تستطيع تبادل الأدوار التي دارت بي الآن، حين يلفظك القطار أمامه داهسا أحلامك، مُقطّعا ما تبقى من أوراقك، أو حين يقذفك في ديمومة السراب اللامتناهي..

- صوفيا.. لن أدع ستائر التوهُّجات المُتدلِّية لشفق الفجر الجديد
أن تحجُب عن حدقتي الآثمتين بصيرتك.. سأناضل بك أن أكون
مُتبصِّرًا عابِرًا جسره..

لن يعوقني رماد الآثام ولا حرائق غابات الظلام في عالم الكَرَى
..فألسنة نيران نفسي النادمة ستعلق بسماء الرحمة في أرض الموتى هذه..

- كم أخشى عليك من نفسك أدان.. فخرج الخطيئة منك
سيكون كخروج السفود كثير الشعب من الصوف المبلَّل مُقطَّعًا أحيال
أوصالنا..

- لا تقلقي صوفيا.. وهوَّني على نفسك، فلنستعد الآن إلى
استقبال ثمرة حبنا.. سأكون بانتظارك حين ينتهي الأمر كما كنت دومًا..

- لن ينتهي الأمر الآن أدان.. لكن لا تخلف الوعد، فكم من
حق ساعة أورث ذلَّ ألف ساعة! وكم من خطيئة قطعت أصرة عِشق
الحبيب.. فالآثام تورث سوادًا في الوجه وظلمة في القلب..

- لن تزيغ عيناى عن نور البصيرة بعد ذنوب نثرتها دون عقاب
المطهر.. فقط لا تتركيني ولتُقاتلي من أجل الصغيرة ومن أجلي..

- أفلحت إن صدقت القول أدان.. جانبك الصَّوابُ حين ظننت
أنك لم تتلقَّ عقابَ القدر حين عصيت مُتكبرًا، فعقابك كان حرمانًا من
لذة المُناجاة.. سأخرج لك وليدة صغيرة وستتهلني الام أولجا من نهر
عطفها حين تعميك أضغاث أحلامك وتنسيك هلاوس ثمالتك عِظَم
من عصيت أمام صِغَرِ خطاياك..

- عودي لي ولا تتركيني وحيداً فريسة لقصّاب وحدة الليالي
ليسلخني كالشاة الحية.. عودي بثياب السماء الملونة بالمحبة والفرح
والسلام.

تعلّقت عينا صوفيا بالسماء متكئمة مُحمّاً من البكاء والصُّراخ،
والهياج وأدخنة الآلام والأحاسيس المضطردة بداخل بركان مخاضها..
وحين دخل الطبيب بصحبة ممرضتين وقد أمروا أدان بالخروج لاتمام
الولادة المتعثرة، نادت صوفيا بصوتها الوهن وعيناها شاخصتان
لغروب الشمس قائلة:

- تركتُك أدان بعهد كجنة مغلقة بسور من الوسايا حتى لا
تسلل إليها وحوش الكروب.. بصيرة يوارىها نقابه ويحببها عن عينين
موصدتين..

غلقوا الأبواب على صوفيا وأوصدت الأعين عن رؤيتها، وقد
ارتقى أدان في أحضان الأم أولجا كالطفل الصغير وهو ينصت
لصراخات صوفيا تنهافت وراء الغروب الباكي مُردّدة:

- تعظمُ نفسي الرَّبَّ.. وتبتهج روعي بالله مُخلّصي لأنه نظر إلى
تواضع أمتة.. فيها منذ الآن تطوبني جميع الأجيال لأن القدير قد صنّع
بي العظام واسمه قدوس.. ورحمته إلى أجيال وأجيال للذين يتقونه..

أسكنت ترانيمها العاصفة الهوجاء بداخل صدور الزوج والأُم
الذين لم تتوقف أعينهما عن ذرف الدموع.. هداّت صرخاتها عدة
دقائق بعدها رمقت شمس صيفها الأخير نظرة يكسوها الرضا الباسم
لتقول:

- إليك رفعتُ عيني يا ساكن السماء.. الرحمة يا ربي.. السلام يا إلهي..

هدأت عيون السماء عن ذرف أمطار دموعها المنهمرة، بينما انزوت صوفيا مُودَّعةً جسدها البالي.. انقطع صياحُها، وتوقَّف حين أتمت شمس آخر أيام الصيف غروبها.. سكن القلب بجسدها بعدما انهارت قواهُ، وتوقَّف عن المقاومة مُستسلماً لليقين لتخرج روح صوفيا راحلة عن جسدها الوضاء الذي أشرق دائماً بابتسامة لا تفارقه كخروج الماء من قطر السقاء دون هذيان ولا هلع، دون حشجة ولا غرغرة.. بصرخات معدودة سطرت أحرف ميلادها الجديد، وقد دبَّت الروح في الجسد الوليد..

خرجت المريضة باكية لتزف إليهم الخبر المشؤوم أمام صرخات الملهوف وحسرة المفارق ورغبة الراغب وخوف المرتعد.. التقت حينها الشدة بالكرب، والألم بالبلاء، فكانت ثورة أذان العارمة المدمرة.. حطَّم كل شيء بداخله، وهشَّم كل ما قابله.. اقتحم غرفة الولادة حيث يرقد جسد الأم الراحلة ليباغت الطبيب بلكمات قوية أوقعته أرضاً وقد جُنَّ جنون الزوج المكلوم وهو يصرخ:

- أيُّها السِّفاحون.. لقد قتلتم صوفيا.. لقد قتلتموني.. سأجهز عليكم جميعاً ولن أترك منكم أحداً على قيد الحياة..

أخذت قبضته تلطم الحائط حتى سالت الدماء داخل قوالب الطوب المحطمة.. ارتمى بعدها وجسده يرتجف في أحضان زوجته

الراحلة وهو يبكي ويتحبُّ صارخاً، وتتساقط من فمه كلمات غير مفهومة، مُطَرّاً وجهها بقبلات، طالباً النجدة والغوث من بني البشر ومن السماء سائلاً إياها، مُتوسِّلاً ألا ترحل عنه، دون ردٍّ ولا مُجيب..

تلقفت الأم أوجا الوليدة صوفيا الساكنة وهي تذرف الدموع باكية ابنها المترمل المنهار وابنتها المتنيحة المفارقة، بينما ارتمى أذان منطوياً على نفسه في أحد أركان الغرفة الصغيرة، التي أخذت تضيق عليه، وتكاد تطبق مهشمة أوتاد جسده المتشنج، الذي آوى مُتكئاً على جدران النحيب وغلواء شؤم الخريف بعدما أخذت أشواك غُصن الفراق تجزُّ به من أخصي قدميه حتى هامته.. التي تهاوت بين منكبيه، متدثرة بهواجس يديه المرتعدين..

تبعثرت من حوله على بلاط ضريح أرض الميعاد أوراق الذكريات المتيبسة وحطام أغضان نفسه، التي أثملها تجرُّع أجاج بحر صاخبٍ من الغضب المسكر.. نحره الحزن بخنجر الفراق على مذبح الهجر..

انتحبَ الثاكل مستتراً من الحسرة على الأمنيات الضائعة بين برائن ليالي الوحدة المتربصة به للانقضاض عليه.. راح يتوارى من أطياف صوفيا الهادجة قدام ناظريه دون توقُّف وأصداء همساتها العذبة كسياط العذاب تحفر على جسده رسالة وداع بين علامتي استفهام وتعجُّب.. بحروف الشموع المحترقة يكتوي على صفحات مضجع السُّهد والأرق..

"رحلت صوفيا لتتركني بلا جلدٍ ولا قوى على التحمُّل.. نقشت على شفتي الجذباوين لعنة أن يُصفَّدَ عَذْبُ الكلام خلف أسوار فمي..

نسجت في الفؤاد بخيوط شعرها المنساب شعراً خطته بأنامل شوقي
وقد أضحى في الصدور نيراناً مُتقددة تحت رماد حريق هجرها الذي
أطفأته دموع حدقتي.. غُبار الزمن سيطمس خطوات خرطت بها دروباً
في القلب المكلم، جسد هرب ظله الظليل في عالم الخيال والأوهام،
وهو يخوض مذعوراً، ونار الفرقة قسوةً ودمار تسوقه ليرقد فوق
ناووس من الحجر بجرح لن يضمحل.. أخذ يطمر آماله في أكفان
سوداء ليُلقيها بين رماد الغمرات ورمال الحسرة اللافحة، وطين من
الحق المتجمد بداخل تابوت صنَّعه من أغصان شجرة الوصب، وكأنه
يقبر هابيل ويدفن معه بجوحة البهجة في سرايب الأسى ودهاليز
الشقاء بداخل أقبية كهف القنوط، وهو ينصت لقرع نعال الباكين وهم
راحلون".

انتفض أدان من جلسته التي ابتلعتة وقد قضمت منه فينة من وقت
قد ضرسه، جلسة مضغت الأنات بداخله طاحنة هموم نفسه بعذابات
روحه..

هَبَّ ولم يدرك كم من الوقت مضى، قام ليضمصر صوفياً، طاوياً
جسدها بين ثنايا ملاءة سريرها البيضاء، ليحملها بين جفون راحته
وحدق سواعده المفتولة، مُهرولاً بخطوات متسارعة، وأعين جميع من
كانوا في أروقة المشفى وردهته شاخصة إليه، مشدوهة إلى ذلك المشهد
المهيّب وكأنها عاصفة لم تهدأ زوايئها بعد..

لم يحاول أحد منهم إيقافه أو منعه عن الخروج بجثة زوجته
المفارقة، فأوجاع الغضب على تعابير وجهه الغائرة تبدو وكأن سراج
الشَّرَّ بداخله قد استعر مُشعلاً بركاناً لن يخمد..

نديم الضيق يدخل بيت الدنيا من باب ضيق، ويخرج منها مُودِّعًا
عبر جد متربًا بغبار الآثام ولكن أدان، أمير مملكة البؤس عالق في مسيرة
خشوعية لقراء وأحبار وكهنة يرتلون ترانيم حزينة في مناسك جنازية
لقربان جسد قد غرق في أعماق ظلمات حالكة ليَمَّ العُمر المديد
السحيق.. جسد لم ينعم قط بقسط من الراحة بينما اصطلى دوماً بنار
الشقاء وعناء التَّرحال.. تركت الأم للابنة كتابًا فيه الخلاص، ومسبحة
ظلال خرزها أطيافٌ تجول بين أنفاس المودعين..

مشهد خيالي جليل رقد فيه أدان أمام تابوت قرينته، عشق عمره
الذي استوى على الأرض أمام المذبح وشمعة الفصح تحترق، وكتابها
مفتوح فوق صدرها.. تساقطت على وجنتيه عبرات الوداع، عقابًا أَلَّا
يأكل من شجرة الحياة الأزلية بعد تلك اللحظة.. بعدها واراها الثرى
نزع من فوق رأسها شاهدًا من حجر مرمرٍ كُتب عليه اسمها وطمره
بجوار لحدّها وهو يصيح بعويل مكتوم خلف لؤة السراب في مقلتيه.

غاب أدان عن أعين الورى أسبوعًا كاملاً عاد بعده إلى الأم أولجا
وكأنه قد عاد من أحضان الموت الذي فاحت رائحته من ملابسه الرثة
الموحلة.. لم تستطع حتى أن تُلقي عليه سؤال أين كان وكيف أمضى
سبعة أيام بلياليها دون أن تدركه أنظار الناس.. لم تقوَ على انتزاع إجابة
سؤال لم تُلقه عمّا فعله بزوجته الراحلة.. فقط أدركت أنه قد رحل معها
وعاد جسدًا بلا روح..

كما كانت صوفيا حديث ليننجراد ليالي الحصار الطويلة ظلَّت
سيرتها بعد رحيلها، علكة في أفواه الجميع.. سطروا من حياتها ملحمةً،

ومن وفاتها أسطورة، ففي غموضٍ وحيرةٍ انتشرت الأقاويل وتضاربت الأنباء عن مرقد صوفيا صاحبة طريق الحياة.. البعض أوحى أنها قد رقدت في قلب بحيرة لادوجا لترشد التائهين وعابري السبيل إلى درب النجاة وسبيل الرشاد.. آخرون ادَّعوا أن النقيب أدان قد طمرها في مقبرة ألكسندر نفسكي بين مقبرة الكاتب دوستوفسكي والموسيقار تشايكوفسكي.. كثيرون أذاعوا أنها قبرت تحت مذبح السيدة كازان.. ربما في كنيسة المُخلَّص بالدم..

قالوا إنهم شاهدوا أدان يسير وراء ملائكة تحملها وترتقي بها مائتين وسبعة وثمانين درجة، عدد سلام كاتدرائية القديس إسحاق.. ظلت هكذا حديث الجميع سنواتٍ عديدةً.. صوفيا ومرقدها الأخير حتى إنه أُشيعَ بعد شهور عدة أنها قد كُفنت تحت تمثال إيفان كريلوف في الحديقة الصيفية، أمام بيت القهوة حيث اعتادت ارتياد تلك البقعة للغناء والعزف فيها..

سبع سنوات قد مضت وغاب فيها أدان عن لينينجراد، خاض معاركه وقَّتاله في واقع الخيال وبين خيالات الواقع.. تقلَّد أرفع الأوسمة بعد تلقيه دعوة رسمية من ستالين، الذي قد منحه وسام الحرب الوطنية العظمى.. تلك النجمة الحمراء المحتضنة شعار الشيوعية.. منحه ليلتها مُغدِّقاً عليه ميداليات الانتصارات على ألمانيا في الحرب الوطنية العظمى، ميدالية الشجاعة الفضية، وسام الراية الحمراء، وسام لينين، ووسام بطل الاتحاد السوفيتي.. أمسية حافلة تناول فيه أدان العشاء بجوار ستالين على شرف أبطال الاتحاد

السوفييتي جو كوف وفاسيليفسكي وكونيف وفورشيلوف.. مكان رفيع ومكانة جليلة للبطل أدان..

تشبَّث أدان بكرسيه الذي اعتلاه مُلقياً بكلمته، تحدَّث فيها عن بطولاتٍ وبسالة من خدموا تحت أمرته وقيادته، روايات حماسية ملحمية ألهبت وجدان الحضور ممن كانوا في القاعة الحمراء الكبرى.. تحدَّث عن النقيب روبين رويث ابن الزعيمة الشيوعية الإسبانية دولوريس ايباروري، الضابط الإسباني الذي التقاه في شتاء ١٩٤٢ في معركة موسكو - روستوف..

القائد البطل الذي ارتقت روحه بعدها في معارك الدفاع عن ستالينجراد في الرابع عشر من سبتمبر ١٩٤٢.. تحدَّث عن بطولاته وشرب في نخبه متمنياً من الزعيم الروسي أن يمنحه وساماً رفيعاً لما أبداه من شجاعةٍ مُنقطعة النظير في الذود عن الاتحاد السوفييتي، وساماً ناله لاحقاً كونه أول إسباني يتقلَّد وسام بطل الاتحاد السوفييتي..

نال أدان النياشين والأوسمة باسمه الروسي أدان راينوفيتش وبصفته مواطناً سوفييتياً، بعدها انخرط بين أحضان موسكو في رئاسة الأركان على مدار سبع سنوات دون أن يستريح ليلة واحدة.. ارتقى أرفع المناصب واجتاز العديد من الاختبارات بنجاح، فأُلْحِقَ ببعثاتٍ إلى الصين وكوريا.. أمضى عدة أشهر بين فيتنام وأفغانستان ومصر وكوبا وأمريكا الجنوبية ويوماً واحداً فقط زار فيه شمال إسبانيا..

عاد في العام الرابع من الخمسينيات إلى موسكو تارة أخرى بعد اعتلاء نيكيتا خورتشوف سُدة الحكم وكرسي القصر الأحمر.. توطدت علاقات الصداقة معه خارج إطار العمل وكان مُقَرَّبًا إليه، فكان رسوله الأمين خلال زيارت سرّية مهمة، غير رسمية إلى أمريكا الجنوبية..

إلى أن أرسلت السيدة أولجا في طلبه صيف عام ١٩٥٧ بعد مرور اثني عشر عامًا على رحيل زوجته ولم تطأ قدماه أرض مدينة المهجر.. خطاب فقير بكلماته القاسية الجافة، بليغ في صدقه..

"آن الآوان أن تُواريني الثرى بجوار الأحبة، عليك بالقدوم سريعًا.."

عاد أذان سريعًا ليلتقي يونيو لينينجراد، عاد يتحسس طريقه طارقًا أبواب شارع نيفسكي قاهر الغُزاة، صديق صوفيا، داخل سيارته الفولجا السوداء الفارهة.. عاد إلى نجمة الشمال وقد بوركت بنسائم عطرة مفعمة بعبير رياح الشمال.. تزينت كعروس ليلة زفافها بحلة قشبية، مُحَضَّبة بصبغات زاهية مُبهجة نسجتها أنامل كمال الحكمة بأوتار خيط مغزول من أشجار وبساتين الفردوس.. عروس مُتَوَّجة بأكاليل الخمائل وهي تُراقصُ شذا النسيم ومن تحت قدميها بساط بديع افترش البسيطة، وتاج الأشجار الغضة المخملية قد اعتلى عرش السُّهول بعد رحيل القحل عنها.. أزهار صُبِغَتْ بألوان طيف السموات السبع وتعطرت بشذاها أجواء دافئة للقاء حميم بين حرارة الشمس وظمأ الغبراء، وقد أذاب ثلوج البُعد، وأحيا في القلب الذكرى المحتضرة.. لا

يشغل فؤاد أعين الخاسرين عن الانتشاء بمشاهدة هذا الجمال الخلاب
الأخاذ للعقول سوى حجاب الغفلة.. كأنها لوحة محملية يهيم بين
جنابتها عاشقو السحر والصبا.. لوحة فريدة تسلب الألباب من الحيرة
والافتتان، رُسمت بريشة إلهية ليمتزج فيها أطياف موسيقى
تشايكوفسكي الصافية بصبغة قصائد بوشكين المبهرة.. رياض وبساتين
غناء لبقعة من جنة الخلد اقتطعت من قلب صوفيا الساكن فيها..

أوقف أذان سيارته وترجل منها مُنصتاً لحوار النسيم وهو يُداعِبُ
الخمائل.. موسيقى لتراتيم صوفيا الشجيّة، التي خفقت على وقعها
الأفئدة.. أخذ يتأمل العروس في ليلتها البهية وهي تكشف عن مفاتها
بإباء وشموخٍ وقد استلقت بين أحضان البلطيق، وهي تُعائِقُ نهر
النيفا الخالد.. هدوء سكونها أخذ يستصرخه ليمضي ليلها في رحاب
تبر أرضها..

احتبست أنفاس أذان بداخله حينما أسرع الخطى صوب بناية بيته
القديم، مُرتقياً درج السلم الذي انعكست عليه سنوات من تاريخ
العزلة الطويلة وملامح الملحمة الأسطورية لفنّ متألق.. أخذ يصعد
طابقاً تلو الآخر، وأسماه الرهبة تنضو من عبير الذكريات العبة، التي
راح يتنسّمها من موسيقى أغنية الانتصار.. سيمفونية شوستاكوفيتش
السابعة.. أنات محزونة من الشطط والهوس تحملك عبر أجنحتها
العارية من ريش الشتاء إلى جمال الربيع.. تتشوق فيه لمبدعه وتشاق
الأرواح حينئذ إلى حُسن أصلها..

لم يكن الباب مُوصداً بل على العكس كان مفتوحاً على مصراعيه،
مُتهياً لاستقبال الابن الغائب الذي ألقى جسده المُثقل بجبال من
المشاعر المتباينة داخل البيت في حالةٍ بين الجنون والحكمة.. بين يقظة
الألم وعبق الوسن، وأمام مُقلتيه تتساقط أوراق الذكريات كأحلام
اليقظة..

حطَّ أسوار وحدة الأم العجوز حينما ارتمى في أحضانها دون أن
ينبس ببنت شفة.. برفقٍ أخذت تتحسس بتجاعيد أناملها وجهه
المتجهّم، وكأنها تُلقي عليه الرُقى وأسحار الحياة المسلوّبة منه.. بكياً،
تعانقاً، تصالحاً وتسامراً إلى أن احتسوا قدحاً من الشاي الساخن أعدّه
أدان لهم إلى أن فرغاً منه، والابتسامة قد أشرقت أخيراً على وجهه..

حينها توقفت الموسيقى الدافئة عن العزف، وتوقّف قلب الأم
أولجا الحنون عن النبض.. ثمانون دقيقة عمر سيمفونية اللقاء.. مكث
بجوارها الابن الضال حيناً من الوقت وهو يتأملها هي وسنوات البعاد
للطيور المهاجرة.. بعدها غطّى نبع العطاء بفراش الحياة
الزائلة.. طقوس الطبيعة غصص مكلومات وصمت يُنافح الحسرة..

خرج إلى الشرفة باحثاً عن الوعد الغائب والعهد الذي حنث
به.. بين وجوه جمع الصغار وأقربائهم المحتفلين المحتفين ببهجة منتصف
الليل الشاب وضحكاتهم الصافية الرنانة تصدح بين أغانيهم،
مُتسربلين بما تناثر من أنامل شمس رفضت الرحيل..

تراجعت أحزانه وسط الألحان المنسابة من قيثاره فتاة في نهاية
صيفها الثاني عشر، حيث بدا على رفاقها من حولها صفاء القلوب
حبورًا بلحظات ارتقاء الجسور المتحركة، إيدانًا بمرور رحلة سفن النهر
صوب أعماق البحر العميق.. استدارت لتشيع بيديها الصغيرتين له
وهي تقفز راکضة من الفرع نحو البيت، ليرى صوفيا قُبيل رحلتها من
ساليانس إلى لينينجراد وهي تسابقه وقد سبقته رياح الشمال ..

الفصل العاشر

طريق القاهرة- الإسكندرية الصحراوي، الثلاثاء ١٦ سبتمبر

٢٠١٤

على طريق سريع مُعبَّد بغير الأسفلت اللَّظ، تلوّحت أبراج واحة
السراب الخيالية أمام ناظري الزوج المكلوم.. حاصر جانبي سيارته
الفارحة سياج بعض المزارع المترامية بين حصار تلال من رمال القفر،
التي كونتها رياح القيظ المستعرة..

مضى صفي وقد طوى وجهه المنهك خلف حجاب نظارته
السوداء، إبان مغادرته للمصحّة بعد أن عصفت به موجة اللقاء الحارة،
فأوى موصداً نوافذ سيارته وأبواب خوفه إلى الهواء المنعش المتدفق من
ثلثات مكيف المقصورة، وهو يسرع في القيادة.. التفتت أصابعه سيجارة
من علبتها الذهبية.. أشعل بها نيرانه المتقدة، زافراً من رثتيه أدخنة أناته
وصراخه المُكبَّلة خلف قضبان قفص صدره.. بعدها أطبقت يده على

هاتفه المحمول الثمين مغلق الجرس، الذي قد أنساه الارتباك الشديد قبيل زيارة تجاوزت الساعتين أن يحمله، ليجد عشرات من المكالمات الفائتة والعديد من الرسائل الهاتفية والإلكترونية ..

تعالت أمواج قلقه حينما تبين مكالماته وقد تلقى العديد منها من أخيه الوحيد، ومنزله وبعض أقاربه المقربين في ريف البحيرة.. على الفور أجرى مكالمه مع أخيه الأصغر، الذي أرداه صريعاً برصاصة النبال المشؤوم ب وفاة والده إثر أزمة قلبية.. فكانت الطامة، حمة أولى لفظها بركان أسبوع الآله..

للم الابن الأكبر شتات قواه المبعثرة على أطلال مصاب جلل آخر، ليطلب من أخيه بصوت متماسك صلد أن يجري مراسم الغسل وإنهاء استخراج شهادة الوفاة ونقل الجثمان إلى مرقده الأخير في القرية الصغيرة التي انحدر منها حتى يوافيه هناك.. أجرى بعدها ثلاث مكالمات استهلها بعمه الأصغر الوحيد، القريب إلى قلبه.. طالباً منه إذاعة الخبر المشؤوم وإعداد الجنازة بعد صلاة المغرب، وتجهيز سراقق كبير في حديقة بيته لتلقي العزاء..

أنهى المكالمه ليتبعها بمهاتفة مربية ابنته الوحيدة طالباً منها تجهيز حقائبهم ومرافقتها إلى فيلته الريفية لتقابله هناك.. مكالمه أخيرة قد أجراها بمدير مكتبه، أمره أن يباشر الأعمال نيابة عنه ونشر نبأ الوفاة في صفحة كاملة في جريدة الأهرام مُرفقاً بالخبر ميعاد الجنازة ومحل تلقي العزاء..

بعدها قَمَعَ صفى جلبة هاتفه، مُغلّقاً صوته تارة أخرى بعدما أمطر بموجات سيل جارف متوالية من عشرات الرسائل والاتصالات من أفراد العائلة الكبيرة ودائرة المعارف الواسعة وكبار مسئولى الدولة، وقد ألقاه مرة أخرى فوق المقعد المجاور له.. سعر بنيران سيجارته المحتضرة التي لم يتسنّى له أن ينتشي بنكهتها، واحدة أخرى قبل أن يقبرها في مرمدة مقصورة سيارته ..

شاء القدر أن يلتف الزوج البائس حول طريق عودته الصحراوي الموحد سالكاً درباً آخر مُفعماً بجناح الحيات المخضرة، عامراً بمظلة نسائم الحقول..

ناهزت الساعة الثالثة عصرًا بعد أن ارتاد الباحث عن الديار الطريق الزراعي وشروود ذهنه قد عكّر صفو مشهد عناق منجل القرويين مع سنابل القمح الذهبية، التي لم تنفك خيوط الشمس التي صبغت جلود الفلاحين بخشونة خمرة اللون، وشققت أياديهم بعرق الكدّ والعمل عن مداعبتها.. لم يبصر الزوج في طريقه واهب الخير الجدِيل الذي ما إن لمس حبات رمال اليباس الجذباء حتى تخضبت بالحرث الأخضر..

أوقفت السيارة أجراس إنذار مزلقان مركز أبي حمص بعد أن أسدل ستار الحاجز الآلي ليشاهد قطاراً يعبر من أمامه بارقاً.. كأن مسيرة حياته قد توقفت لتشهد تلك اللحظة الأبدية لمئات الحيات داخل قفص حديدي مارق، تمرُّ أمام عينيه..

استفاق صفي على أبواق السيارات المرتصّة من خلفه وصفارات رجل المرور، الذي أخذت صياحته تتعالى مُشيرًا إلى صاحب السيارة أن يُفسح الطريق ويعبر محطة القطار الصغيرة.. فعلها مسرعًا بسيارته ماضيا قدما الى داخل المدينة، عابرا جسرها القديم و تحته تتدفق مياه قلب النيل في شريان ترعة المحمودية، الذي شطر قرى المدينة على ضفتيه..

رمقته حينئذ نظرات البسطاء من السكان المحليين القرويين التي اختلطت فيها غبطة التمني بحقد الحاجة، وهو يمضي في دربٍ فرعيٍّ مُتواضعٍ وأصداء مُكَبَّرات الصوت تحترق عزلة سيارته، تذيع خبر صلاة جنازة والد الثري صفي الدين غازي، المتواضع البسيط مختار غازي..

درب الطريق المجهول.. أبسنت واي، هكذا لقبه المحتلون الإنجليز، طريق ضيق يكاد يتسع لسيارتين.. على يساره في اتجاه مركز بستواي تترقق مياه جدول صغير ملاصق للطريق، متلحفة بظلال خُضرة أشجار الدردار جميلة المنظر وبأشعة الشمس المخضبة بقرمزية غَسق الغروب.. تشعر وأنت تقود سيارتك وكأن رياح بدايته مَدُّ يدفعك دفعا إلى أفق اللانهاية بأوتار جزره التي لا تنفك على اجتذابك إلى قلبه المتلحف بخضرة الرياض النضرة، لتنحسر مياه السحر ونسيم الأسحار في الروح والجسد ..

على مشارف قرية صغيرة تتوارى خلف الضفة الأخرى من الجدول الصغير، بعد مدرسة تحمل اسم الشهيد صفي الدين غازي

وأمام الجسر الذي يربط قرية الدسانسة بالعالم الخارجي، شَيْدَ الثَّرِيُّ
صفي الدين فيلاً ضخمة على طراز حديث راقٍ.. يجرسها سياجٌ
حديدِيٌّ مُزخرف يكشف الداخل لمن بالخارج، تعلو أعمدته المتشابكة
سرج زجاجية.. بيتٌ شَيْدَهُ رجل في قرية لم يولد فيها، بناه فقط تخليدًا
وتكريماً لأبيه العصامي..

افترش الحديقة الداخلية الواسعة سرادق مهيب، أُعِدَّ لمئات
المشيّعين الذين احتشدوا في أعداد غفيرة أخرى مُلبَّين نداء تشييع جثمان
ابن القرية الراحل عنها منذ صباه بحثًا عن العلم ولُقمة العيش..

عَبَرَ صفي بوابة منزله مُودِعًا سيارته المرأب وقد صفَّها الى جوار
سيارة نقل الموتى، ترجَّل عن سيارته ليحتضنه عمُّه، وقد بزغ من بين
من التفوا من حوله من أبناء عمومته وأقاربه وأبناء القرى الأخرى
المجاورة.. بقوة ورباطة جأش قابَل المشييعين مُقدِّمًا لهم التحية والشُّكر،
تركهم بعد دقائق لِيُلقِيَ نظرة الوداع على أبيه الراحل أخي الشهيد حفيد
أبناء الشرق، سليل جار الأخشين..

ثوانٍ لاحقته، وإذ بصوفيا الصغيرة تخرج بجسدها الصغير، بازغة
من بين أمواج الحشود المتلاطمة التي بدت كدوامة كادت تُغرق عيني
والدها في بحر من تلال الأجساد وأطواد المُعزِّين..

حَلَّقَتْ وقد بسطت جناحي حضنها لأبيها المكلوم، الذي أسرع
الخُطى صوبها مُلقياً بحمول الهموم والحزن والألم عن كاهليه حين
غمرته أحضانها بالسَّكينة والثَّبات.. كفكت نظراتها الصامتة دموع

حدقتيه الحبيسة، راسمة على وجهه بابتسامة عزائها له الصبر والجلد
بريشة أمانى العاشق.. رافقته إلى داخل البيت وقد أفل الجزع عنه وأدبرَ
الروع وباد الكرب..

قبل أن تتركه لللقاء أخيه همست في أذنه بحنوً بالغ:

- كنتَ لى دومًا خير صديق وأعظم والد.. ستعود لي من عابورة،
وقد وُلدت من جديد.. وستقصُّ على أُذنيّ مرة أخرى قصة صوفيا
وصفي..

- لكِ ذلك صوفيا..

تسلَّل صفي إلى غرفة الأب وبعد مُواساة الأخ الصغير المُلازم
لجثمان أبيه في مضجع الوداع، الذي غمره طيب المسك، وقد عطرَّ ثوب
كفنه الأبيض، كشف الغطاء عن وجه والده.. وجه وضاء بهي لآية
باركتها آلاف الآيات التي اعتمر بها صدره منذ نعومة أظفاره.. ودعه
بما تيسَّر له من آيات الذكر الحكيم.. سأله أن يقرأ السلام على أخيه في
الرضاعة، الشهيد الذي قد أورثه اسمه.. سأله أن يُثني عليه شاكراً إياه
لجميل صنعه الذي قد سخرع له ليرث صوفيا.. ودَّعه بحرقة وداع
والدته منذ بضع سنوات، الأم الفاضلة التي ذاقت الأمرين وقد بسطت
له جناح الذل من الرحمة.. رثاء غمره دموع اصطلت بحرارة الفراق،
داعياً له بالرحمة التي طلب منه سؤال ربه أن ينزلها عليه..

قاطع لقاء الوداع ناقدوا الأبواب من الطوارق وهم يسألونه
الذهاب إلى المسجد لإقامة شعائر صلاة الجنازة بعد صلاة مغرب
شمس أحد أيام أسبوع الآلام للصيف الراحل..

على محفة النعش وفوق أكتاف أبنائه، حملوا الجثمان عابرين به جسر القرية صوب مسجد القرية الكبير، مُهرولين بين أزقة ضيقة مُتعرجة تحدها بيوت صغيرة شُيِّدت بالعرق والطوب النيئ، على أبوابها أُضيئت المصابيح الكهربائية والشرج مشاعل النار لتهدي درب آلاف المُشيعين..

ما إن فرغوا من الصلاة حتى توجهوا بموكب جنازتيّ مهيب خلف أضواء المشاعل نحو عابورة، عابرة الجسر.. مدافن أبناء القرية الواقعة على أطرافها الغربية المتدثرة بأشجار بساتين الفاكهة المخملية الكثيفة..

تلقى الابن الأكبر العزاء من المُشيعين بعد أن وارى أباه الثرى، بعدها رحل الجميع وبقيَ بجوار صفي رجلان في العقد السادس من عمرهما.. وقف ثلاثهم بجوار لحد الراحل، مؤانسين له في دقائق وحدته الأولى بين الظلام، حتى لا يفزع من لقائه الصعب الذي يوشك على أن يخوضه وحده، داعين الله أن يلهمه الثبات، ويرزقه خير الدار الأخرى..

على يمين كتفه أرتكن إلى رجلٍ بهي الطلعة، طويل القامة الصلبة المنتصب، عالي الهامة، أشقر نحيل الشعر، عريض المنكبين، واسع الصدر، أزرق العينين يطمر ثروته من الوسامة خلف شاربه الكث الأشقر..

رفيقه الآخر متوسط الطول، بني العينين يزدان وجهه السمح بشارب مُهذَّب يُضيف على قسَمات وجهه المرهق الذي غطى شحوب

مرضه بلحية خفيفة مزيداً من الوقار، يبدو من هندامه المميز بجلباب من الصوف الفاخر وعباءة سوداء على كتفه وعمامة الرأس التي التفت عليها لاسة حريرة بيضاء علامات النفوذ والهيبة..

حوار صامت من نظرات عميقة أذابت حرارتها جليد الحزن وأدخلتهم في دوامة من المشاعر الصادقة الفياضة قد دار بين الأخير والابن المؤدّع أباه دون أن يهمس أحدهم بحرف وحيد.. قاطعه كلمات ثالثهم:

- إنما يوفّي الصابرون أجرهم بغير حساب.. ها قد مضى ما يُناهز نحر جزور وتقسيم لحمة.. آن الأوان أن نهمّ بالرحيل داعين الله أن يتقبل المغفور لله في زُمرة الصديقين والشهداء، ولعلنا قد آنسنا غربة وحدته حتى يذرّه عمله الصالح بلحاف الفردوس..

أوماً إليه صاحب جلباب الهيبة برأسه مباركاً اقتراح المغادرة لتظل كلماته الثمينة حبيسة نظرات لم تكف عن التواصل مع الشاب المكلوم..

- في مثل هذه الأوقات العصيبة لن يتسنّى لي التعبير عن تقديري الشديد لوقوفكما بجواري في هذه الليلة الحالكة.. وكم كنت أتمنى أن ألقاكم بعيداً عن مشاغل جوفاء حاصرت أيامي البائتة، باعدتني عنكما.. فقط كي أزيح عن كاهلي هُموماً تأبى الجبال أن تحملها..

- البقاء لله عزيزي صفي.. تبدو على وجهك أثقال الهموم والأحزان، فلتتماسك من أجل ابنتك الصغيرة وزوجتك المريضة.. ولتنبئنا كيف حالهما؟

- حال الصغيرة كما رأيتموها بينكم قبيل مناسك الدفن، صعبة..
أما حالة والدتها فباتت بالغة الصعوبة، فمنذ لقائي الأخير الذي جمعني
بكما وقد مرَّ عليه شهور طوال، لم يجد في الأفق جديدًا سوى مزيدٍ من
الآلام والشعور بالذنب..

- سيوافقني خالك المبجل عبد الحكيم قناوي الشريف الرأي في
أنك ما تزال كعهدنا بك، تُصعَّبُ الأمور على نفسك يا صاحب الرأس
المتحجّر..

- عمي عبد العليم، المعلم صاحب الرسالة.. خالي عبد الحكيم،
التاجر ذو اليد الطولى في بحر التجربة.. أنتما ساعدي وقوتي.. وجداني
وفكري، ألوذ بكما الآن، وأحتمي بكما من تلاطم أمواج الآلام العاتية.

- انظرُ إلى دارك العالية التي شيدتها بلبسات الحب المحترقة..
هناك في القلب .. قلب القرية.. تأمل صنيعك الذي صار نبراسًا،
يسترشد به من ضلَّ السبيل تائهًا بين الأفنان المتشابكة هنا في ليالي
عابورة الحالكة.. فلا تبخس من حقك فلقد فعلتَ الكثير وبذلت
النفيس من أجل الجميع من حولك، فلا تكن من المُمترين، فجزاء
الإحسان لا بد أن يكون الإحسان.

- ولكنني لم أحسن إليها يا عمي.. خلت بحماقتي أنني أحسن
صُنْعًا، لكن سبع سنين عجاف قد مضت وها قد انفرط عقد الأسبوع
الأخير المُتَبقي لإدراك الحقيقة.. أسبوع تتساقط خرزاته السبع بين يدي
المصفدين، ضاع منه ثالث أيام الحداد ويوم آخر ستعصف به رياح

رحلة العودة، بينما أبواب الخريف قد فتحت على مصارعها لاستقبال
إعصارٍ بات يلوح في الأفق..

- ما الذي حلَّ بك يا رجل؟!.. فلتدثر بالإيمان، فبه تستطيع أن
تُوصد أبواب الخوف ونوافذ الشكّ.. استحضر سيرة والدك، طيب الله
ثراه الذي قد ألقى بعوزه وجهله وراء ظهره ومضى مسيرة سنين من
الكَد والشقاء من أجل أسرته هنا، مُسترشداً بالقاضي الجليل، عمّه والد
الشهيد صفي الدين غازي الكبير.. هناك في الإسكندرية تعلّم وعمل
حتى ارتقى وبقي.. فأين أنت منه الآن؟!

- فلتستدع قوّته من أصلابك وإيمانه من جذورك الضاربة في
أرض نفسك.. فبرغم اختلاف الصفحات فإن الكتاب واحد، فوالدك
كان يسير في الأوحال من برك الجهل هنا حتى المركز، حيث نور العلم
والإيمان.. في الطريق الذي قد عبّده بعد سنوات طوال بفضلك
أنت..

لم يبخل على أسرته هنا ولم يضمنّ عليكم هناك.. بذرة رواها من
عرقه وقد صارت نبتة رجل، أنجب رجلاً عاد إلى هنا، ليعبّد الطريق
وليُشيد على جانبه دار العلم والنور.. مدرسة الشهيد صفي الدين
غازي، بجوارها أقام ذكراه في أرضٍ لم يولد بها ولكنها وُلدت فيه حين
نبت من صلب والده..

- ماذا لو كان بيتي هذا قد شيّده من الوهم؟

ماذا لو كان إيماننا بأن طريق الموت هذا هو محطة وحيدة يقطعها سالكه مُنطلقاً في عوالم السمو ليصل إلى السعادة الأبدية بعد تحرُّره من أسر الجسد وشهواته على خطأ؟

ماذا لو كان الموت هو جسراً لمحطات من النسخ أو المسخ، محطات فاسخة أو راسخة؟!

- وهل ستصيبك الدهشة إذا ما اكتشفت أن فكرتك تلك، التي لهث وراءها الدروز والعلويون مؤمنين بها إيماناً راسخاً، تُطابقُ معتقداً غريباً يؤمن به الهندوس؟!

- صدقني إنه بعد ما خاضته نفسي المحطمة من لحظات عصيبة لاختبار تشابكت فيه الأسئلة الخاطئة بالإجابات المغلوطة لنفوسٍ قد هوت في حفرة عميقة أو عبرت نفقاً مُظلماً، لتعود للحياة في جسد جديد لأطفال يسردون حولها تفاصيل دقيقة لحيوات أخرى، علامات ظهرت بأجسادهم أو عاهات تبينوا أنها مطابقة لأخرى وجدت في أجسامهم السابقة، لم أعد أدري أين الحقيقة من الخيال بعدما أنصت مستمعاً لروايات أولئك البائسين!

- يا صفني.. كل نفس ذائقة الموت.. لا تنس أن التوهُم بعيش حياة سابقة قد يرجع إلى تآلف الأرواح في العادة، فهي جنود مُجندة ما تعارفَ منها ائتلف وما تناكرَ منها اختلف.. ما يطلقه البعض من تلك الدعاوى ربما لا يرقى إلى أن يكون مجرد قصة قد رواها عليهم شخص ما أو ربما قد اختلقوها هم.

- ولكن الله قد مسح بني إسرائيل قردة وخنازير.. فماذا لو كانت مشيئته في أن يُنير ظلام أنفسنا بآية أخرى نسخها روحًا في أجساد عدة.. تغادرها حين يبلى بسرعة البصر لتكون تلك الرحلة النورانية الطويلة الشاقة، التي تقطعها الروح سعيًا للترقي في دائرة زمنية لا نهاية لها إلا بأمر بارئها.. عبرة لنا في دنيا الخزي والضلال، عملاً بقوله تعالى: "فادخلي في عبادي وادخلي جنتي" ..

- بسم الله الرحمن الرحيم..

"يسألونك على الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً" .. صدق الله العظيم..

لا تجمع بخيالاتك في بحور الغموض حتى لا تضيع في كنف دومات الظلام والتهيه.. فالله قد أمر الروح أن تدخل بصحبة عباده لا في أجسادهم.. ولعلمك فإن تلك الرحلة اللامتناهية المزعومة تتناقض مع رحمة الله، فلكي تثبت حدوث العالم عليك وجوب الإيمان ببدايته ونهايته ولكل أجل كتاب..

هنا قاطعتهم كلمات خاله عبد الحكيم، التي خرجت نسماً بردًا، تُطفئ من جذوة الحديث المتقد بحمم عبارات صفي وعمه العالم الجليل..

- يا صفي.. ما هذا إلا سحر بـستار عشقٍ يصرف بصيرتك عن الحقيقة.. يلبس الحق بالباطل عبر حيل التخاييل، فيسقيك من ماء

السراب ويُسيّر لك الجبال السائرة سُفنًا.. كطلاسَم تأثير الشمس في
زئبق عصى فرعون.. وأوفاق طلاسَم الأفلاك والكواكب بالطبائع
الديونية..

هنا خارت قوى صفى وانتابته عاصفة من البكاء ليتلعثم اللسان
المختلج وهو يقول:

- والله يا خالي، أخاف أن يطرحني الغد في النار ولا يُبالي..
بصوت هادئ اعتمر رداء من الرصانة الممزوجة بالعطف، ردّ عليه
خاله قناوي قائلاً:

- البكاء داع إلى الرحمة.. وتحت جففات عذاب النفس، تتدلّى
عناقيد سمو الروح وتتهاوى من عنق السماء الثريا.. حتما ستضيء
شمس الأسرار لك الجوارح المدركة لفلك الجمال.. وحين تمسي بين
إسراءات صامته تجلس ومعاريج صائتة ترقص، سيهمس الهاتف من
خلف الستار في قلبك لطيفة روحانية، لتدرك حقيقة الإنسان بين عالم
الشهادة السفلي وعالم الغيب العلوي.. حينها لن تعجزك عزائم سكنى
القفار والخراب حين تصير الأشباح والأرواح حروفاً نارية، ولن
تصيبك أوهام السيمياء الفلكية ولا أطياف الزايرة وأسرار الجفيرة..
خلف ستار صمت النشيج والنحيب الذي تدلى على وجه صفى،
تصارعت صرخات الكلمات بداخله:

- وماذا أنا بفاعل، وقد خلقتُ من دنيائي موسيقى صاحبة تخنق
رغباتي الجامحة، تخيف عنفوان إيماني.. ساعد السُّهد فيها يسرق راحتى

وذراع الشوق تؤرق مضجع أحلامي، وما تزال معزوفة الضجيج تُكبّل
أعناق حُرِّيَّتِي المتمردة بسلاسل حُبِّها، والعبرات أمست مشاعر قاتلة
تهاجمني وتثير العواصف بداخلي، تسابق أنفاسي المتسارعة ونبضات
الهوى المتهاوي..

تدثّر الخال عبد الحكيم برداء الصمت مرة أخرى تاركًا فسحة من
الوقت في ظل المقام الجلل لمقال مواساة عم الزوج المتألم قائلاً:

- فلتخرج القذى من عينيك يا رجل، ولتطمّر أحزانك تحت
ثرى عابورة لتخرج من هنا معافى النفس والقلب، مُتَطَهِّرًا من ذنوب لم
ترتكبها..

لم ينبس الزوج المكلوم ببنت شفة وسط سيل من الدموع على
وجهه وفيض من الأحاديث بداخله:

- حُمّ بركان أسفي تسكب على وجهي رحيق صرخات همساتها
وكأن عصبه الخيزران الجوفاء، مزمار الحب الحزين، ناي الشجن يئنُّ في
غابة القصور..

أخشى أن تلفظني أحضان انفاسها، مبتعدة عني، ليموت بداخلي
صوتي، صرخاتي وضحكاتي.. بكاء حلمي وجنوني، ليتجرع القلب من
خمر الألم كؤوسًا بلا ثمالة.

آثر الحكيمان أن يحتضن سكن صمتهما شتات الرجل الثاقل
الجريح، حتى يتسنّى له أن يشغّر حول أعبائه المثقلة بالحزن المؤرق من
على كاهليه..

تثاقلت خطوات ثلاثتهم وهم يتحسسون طريقهم، الذي بدا كأنه
أزليُّ بلا نهاية حتى آبت القوة في عروق صفى بعد أن جففت كلمات
خليليه دموعه وهم يودعون عابورة، حين التقت ثلاث سكك مسطرة
ومصطفة بأشجار الجوافة بشجرة زيزفون عملاقة، تعتلي ساقية
المضخة..

في تلك اللحظة طرح العم على الابن الهائم الجانح سؤالاً قد القى
ظلاله الضبابية على الأعين الزائغة..

- يتعين علينا هنا أن نعقد العزم إما أن نلقي أجسادنا للتيار
حتى ندرك القرية، أو نعود أدراجنا إلى عابورة، أو نلتحف بتعريشة
الحديقة القبلية لتسامر إلى أن ييزغ الفجر ويدركنا صباح اليوم الجديد
كأيامنا الخوالي..

- كم اشتقت إلى تلك الليالي الحاملة! وكم أودُّ لو أن نقضي ليلتنا
هذه بين أحضان أشجار السمر، كاعتياد الماضي القريب على مداعبة
خيالنا بعبير ذكراه إلى ليالي السمر في ضوء القمر.. لكن يتراءى لي أنه
من الواجب أن نتجه بصدورنا صوب البيت حيث ينتظرنا مقدمو
التعازي..

- أرى الطيور قد أزاحت الغمام من الأفق، وقد عدت أدراجك
حين أصبت الاختيار بالعودة إلى سُرّادق العزاء، فقريتنا الصغيرة على
موعد مع التاريخ لاستقبال حشود غفيرة التي لم يسبق أن احتضنتهم
منذ عزاء الشهيد..

- أكان عزاء الشهيد صفي الدين حافلاً؟

- كنا فتية صغاراً وقتها.. كان الأسبوع الأخير من شهر رمضان في أثناء الحرب المستعرة على جبهات القتال.. أتذكر والده القاضي الجليل في أول الصفوف وبجواره إخوته في الدم وفي الوطن، احتشدوا حاملين جثمانه الطاهر الملتحف بعلم مصر والمُخَصَّب بدماء الشهادة فوق الأعناق..

استشهد على جبل الجلالة آيياً أن يستسلم لمحاصريه من الصهاينة، فاستأسد واستبسل حتى استشهد.. انهمرت الأمطار ذلك اليوم المهيّب، وكان بحق يوماً مشهوداً حين جاء الناس من كل حدب وصوب لتشيع الجثمان الطاهر إلى مثواه الأخير.. حتى إنه قد أذيع نبأ حضور قائده اللواء سعد الدين الشاذلي رئيس الأركان مراسم توديع ابن مصر البطل..

- لطالما اختلط الأمر على الكثير ممن تردّد اسمي أمامهم وهم يظنون أنني ابن الشهيد صفي الدين غازي على الرغم من مولدي الذي اتبع وفاته بتسع سنوات.. والحق يُقال لقد منحني الكثير من الاحترام والفخر والتكريم باسمه الذي أفخر بأني حملته تيمناً به..

- كلاهما فخرٌ لتلك البقعة الصغيرة من أرض المحروسة.. قرية الدسانسة..

- كم كنتُ أتوق إلى أن أعرف معنى اسم تلك القرية الصغيرة، وها قد واثقتني مناسبة سؤالكم لأدراك جهل سنوات طوال..

تبادل أبناء القرية العم والخال نظرات حائرة يغمرها ضحكات
احتبست خلف شفاههم الباسمة لتنعقد حواجبهم وتقطبت جباههم
ممعنين النظر مدققين التفكير بروية حتى تكفل العم بالرد قائلاً:

- ربما سيوافقني السيد قناوي، نسيبي الرأي أن أصل الكلمة
يعود لكلمة أطلقها باحثون فرنسيون أتوا إبان الحملة الفرنسية على
قاطني تلك القرية.. دا سانس أي الأصحاء..

- ربما، ولكن هناك من ينسبه إلى قوم قد أتوا منذ زمن بعيدٍ من
مركز دسونس ليبتاعوا أراضي تلك البقعة وقيموا بها، حتى اعتاد
المارون عليهم وجيرانهم تسمية أراضيهم أراضي الدسانسة، أي
القادمين من دسونس هذا، والله ورسوله أعلم..

هنا سطعت بسمات الرجال الثلاثة على سماء وجوههم الحزينة،
وهم يحاولون طمرها كلما اقتربوا شيئاً فشيئاً من مدخل القرية الغربي
والسكون يضرب بجنبات أخبية القرية البسيطة الصغيرة وأصدقاء
مكبرات الصوت تنساب إليهم برفق لتبلغهم آيات من القرآن الكريم.

* * *

بدا صوت المترجم مألوفاً للجالسين في غرفة المراقبة، الذين
ظهرت على وجوههم معالم الإرهاق والإعياء، وهم يدوّنون
الملاحظات، ويبدون الآراء على الحوار الدائر بين صوفيا والبروفيسير
الروسي، الذي لم تبدُ على وجهه أية من معالم التعب أو التأثر بالحوار

المطول.. وكأنه طوى انفعالاته خلف قناع مُتجمّد، فعلها وما زال باحترافية فذة أمام حالته المعقدة، يُدير الحوار في جلسة أخرى امتدت لتناهن ساعات الظهيرة كاملة..

لم يكن هناك سبيل آخر للطاغم الطبي سوى الإنصات والمثابرة على ممارسة المهام المُخوّلة لهم، متابعين حوارٍ اكتسى بثوب من العصف الذهني والتناحر الفكري ..

- بماذا تفسر أن نيوبي بطلة الأساطير اليونانية قد غدت رخامًا وزوجة لوط أمست تمثالًا من الغبار؟

- سيدتي، الجسد حين يصطلي بلفح النار يصير غبارًا بمقتضى البلاء الذي حل به، أو يتصلب مثل الجمادات تحت الحُمم البركانية..

- مساكين أنتم تأخذون علمكم من ميت عن ميت.. أما أنا فقد حباني به الأصل الذي لا يزول..

- إذن لديك رسالةٌ ما تودين أن تُطلعينا عليها.

- أنا الرسالة ذاتها، ولكن هل قرأت أنتَ كتاب توبيخ الملحنين لسان كليمان السكندري؟

- وما الحاجة المُلحّة لقراءة مثل هذا الكتاب؟

- سأقصّ عليك ما قاله القديس كليمان.. لقد كنا موجودين قبل تأسيس هذا العالم بزمان طويل... لقد كنا موجودين في عين الله لأن من

قدرنا أن نعيش في الله، نحن الخلائق العاقلة للكلمة الإلهية، لذا فقد وجدنا منذ البدء كانت الكلمة ما لله لا يظهر عطفه علينا لأول مرة عندما نكون في سياحتنا على الأرض، بل لقد عطف علينا منذ البداية الأولى..

- وما الذي يعنيه ذلك من وجهة نظرك؟
- إن غفران الآثام قد لا يجري مرة واحدة، بل أحياناً يحصل عليه الإنسان بصورة تدريجية عبر عدة حيوات..
- وما الذي يدفعني إلى الاعتقاد بتلك الأمور الشائكة؟
- ألسنت مسيحياً؟
- بلى، ولكن ما الضير في ذلك؟
- ألا تعتقد أن ميلاد المسيح كانت إشارة للشعوب أنه نسخة من الأنبياء الأولين؟
- من الممكن أن يكون كذلك..
- بل هو كذلك.. فلتدبر سؤاله لحواريه وردهم عليه حين قال.. من يظنُّ الناس أنني أكون؟ فردوا عليهم بأسماء مألوفة مثل النبي إلياس ويوحنا المعمدان وآخرين..
- لا أرى في ذلك دليلاً على ما تشيرين إليه..
- فلتقرأ إذن الكتاب المقدس.. سفر يوحنا: ٩

- هل لك أن تقصّيه على مسامعي، فكم أودُّ أن تقومي أنتِ به..
- حسنًا.. كان يسوع مجتازًا وقد رأى رجلًا أعمى منذ مولده، فسأله تلاميذه قائلين: يا معلم مَنْ أخطأ، هذا أم أبواه حتى ولد أعمى؟ أجاب يسوع لا هذا أخطأ ولا أبواه، ولكن لتظهر أعمال الله فيه. الكتاب المقدس: الخطيئة يجب أن تكون قد حصلت قبل العمى، ربما أن الرجل ولد أعمى فيجب أن يكون في حياته السابقة.
- هل هذا دليل على ما تُحاولي أن تزجى به داخل رأسي..
- يوحنا ٣.٣. فأجاب يسوع، وقال له: الحق لك إن لم يولد أحد ثانية فلا يقدر أن يُعاین ملكوت الله..
- ربما يراك البعض وكأنك تتلاعبين بكلمات الله كالمُهرطقين..
- إذن ماذا عن أوريجين السكندري والقديس أوغسطين الراهب الروماني والقديس توما الأكويني الفيلسوف الإيطالي؟
- ماذا عنهم؟
- حسنًا.. فهم قد أدركوا كلمة المسيح وأيضًا قول النبي سليمان في سفر الجامعة في التوراة..
- وماذا قال النبي سليمان في سفر الجامعة؟
- قال: دور يمضي ودور يجيء، والأرض قائمة إلى الأبد، والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق

الريح تذهب إلى الجنوب وتدور إلى الشمال تذهب دائرة دورانها، فإلى مداراتها ترجع الرياح... ما كان فهو ما يكون والذي صُنِعَ فهو الذي يُصنَعُ فليس تحت الشمس جديد.. إن وجد شيء يقال عنه انظر هذا جديد فهو منذ زمن كان في الدهور التي كانت قبلها.

- ما الذي تحاولين إثباته بعد عرضك الشائق، الذي يرقى أن يكون موعظة الأحد القادم في كنيسة في سان بطرسبرج؟

- تلك الجوهرة السرمدية الخالدة التي أسمينها الروح هي شرارة أزلية أو شعاع من النار الإلهية من جسمها اللطيف الفائق البهاء، لا تموت ولا تتلاشى.. قد تنتقل عبر الأجيال المتتالية من كائن لآخر، فخلودها يستمر في حيوات شتى هي في امتدادها حياة واحدة أبدية مستمرة..

- وما محطتها الأخيرة؟ فلكل بدايته ولكل نهايته.. أليس كذلك؟

- بلى، ولكن مرحلتها الأخيرة التي تنتهي إليها هذه الروح بعد رحلتها الطويلة عبر الزمن، فيختلف تحديدها أو تعريفها عند الشعوب والديانات التي تعتقد بها.. فكل أمة قد نسجت ديابقتها بحسب آمانيها ورغباتها، فاليهود قد أسموها القيامة..

- و ماذا تسميها أنت؟

- أسميها التجلي.

- تسمية جميلة ومُعبرة ولكن أرى تناقضًا وتضاربًا لا بأس به يشوب طرحك السابق..

- سَتُبَدِّلُ رَأْيَكَ عَمَّا قَرِيبَ كَجِيرَالِدِ نَثْرَتُونِ وَأَلَكْسَنْدَرِ كَانُونِ
وَأَدِيثِ فَايُورِ وَغَيْرِهِمْ..

- وَهَلْ أَوْلَئِكَ قَدْ بَدَلُوا آرَاءَهُمْ؟

- نَعَمْ فَالِدَكْتُورِ أَلَكْسَنْدَرِ كَانُونِ الَّذِي كَانَ وَاحِدًا مِنَ الْمُتَشَكِّكِينَ
وَالْمُتَشَدِّقِينَ بِتَعْصِبِهِمُ الْعِلْمَانِي فِي الْبَدَايَةِ، بَدَّلَ رَأْيَهُ بَعْدَ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ
بَعْدَمَا كَانَ يَرَى مَا يَحْدُثُ كَابُوسًا.. فَعَمِلَ جَاهِدًا لِدَحْضِهِ، وَلَكِنْ بَعْدَ
تَحْقِيقِهِ فِي آلَافِ الْحَالَاتِ الشَّتَّى مِنْ دِيَانَاتٍ وَشُعُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ، اعْتَرَفَ
بِخَطْئِهِ.. مِثْلَهُ دَكْتُورٌ غَيْرُ دِهَامِ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ سَيَعْتَبِرُ نَفْسَهُ مُخْتَلًا عَقْلِيًّا إِذَا
مَا نَحَى كُلَّ الْإِثْبَاتَاتِ الَّتِي تَعَامَلُ مَعَهَا فِتْرَاتٍ طَوِيلَةٍ..

- وَهَلْ سَأَكُونُ مُخْتَلًا إِذَا مَا لَمْ أُنْسَقْ وَرَاءَ رِسَالَتِكَ عَنِ الْمَوْتِ؟

- أَئِذَا الطَّيِّبِ.. الْمَوْتُ فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ هُوَ تَغْيِيرُ ثِيَابٍ، فَمَا هُوَ
مَوْجُودٌ حَقِيقَةً يَسْتَحِيلُ أَنْ يَنْقَطَعَ عَنِ الْوُجُودِ، وَمَا هُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَلَنْ
يَبْدَأَ بِالْوُجُودِ..

- لِكُلِّ بَدَايَةٍ وَلِكُلِّ نِهَايَةٍ عَزِيزَتِي صُوفِيَا..

- وَكَمْ مِنْ شَمْعَةٍ يُمْكِنُ إِضَاءَتُهَا مِنْ عَوْدِ ثِقَابٍ وَاحِدٍ، وَاحِدَةٍ
تُضِيءُ عَشْرَاتٍ، وَعَشْرَاتُ تُضِيءُ آلَافًا وَمَلَائِينَ وَهَكَذَا حَتَّى لَا نِهَايَةٍ..

- فَلْتَهْدِيْ مَرَّةً أُخْرَى عَزِيزَتِي صُوفِيَا وَلْتَعُودِي إِلَى ذَلِكَ الشَّاطِئِ
الْهَادِي حَيْثُ كُنْتُ..

- هَا قَدْ عَدْتُ إِلَى أَرِيكَتِي..

- حسناً صوفيا ستستعيدين وعيك تماماً ريثما أنتهي من العدّ العكسي من خمسة إلى واحد..
 - حسناً أيها البروفيسير..
 - خمسة: بدأت تتأهين لمغادرة أريكتك والشاطئ..
 - أربعة: زاد شعورك باليقظة.
 - ثلاثة: زاد أكثر شعور اليقظة عندك.
 - اثنان: بدأت تستيقظين.
 - واحد: الآن عدت.
- ما إن انتهى البروفيسير من العد حتى اقتحم المترجم الشاب الغرفة بغية الترجمة الفورية للحوار بين الطبيب ومريضته بعد أن استعادت كامل وعيها ليكون الشاب لسان الطبيب الروسي..
- كيف حالك صوفيا؟
 - مرهقة وجائعة، أعتقد أن جلستنا تلك امتدت سنوات طويلة..
 - نعم صوفيا، استمرت ساعات الظهيرة كاملة.. الآن سنذهب لتناول الغذاء وللراحة وسنعود في تمام الثامنة لإجراء الجلسة العاشرة..
 - حسناً أيها الطبيب، فلتسترح أذنك من روايتي الطويلة الممتدة حتى نلتقي هذا المساء.

غادر الجميع الغرفتين بعد ظهيرة حافلة بمناقشات ومناظرات حوارية كسابقاتها من الجلسات التسع، التي تواترت لليوم الثالث على التوالي..

وكما كانت صوفيا حديث الجميع في السنوات السبع الماضية داخل المصححة، ذاع صيت قصتها أكثر فأكثر، حتى تهافتت الأفئدة من الطواقم الطبية والمرضى بفضول وشغفٍ على معرفة الجديد من قصتها المحيرة المتشابكة..

انقضى نهار اليوم الثالث ودقّت الساعة الثامنة، وقد اجتمع الطاقم تارة أخرى، حتى عادت صوفيا إلى روحها على شاطئ الذكريات، حتى بادر البروفيسير لاستكمال حديثهما المتدفّق بلسانه الروسي قائلاً:

- هلا توحين لي أين أنت الآن صوفيا؟
- بالطبع في شرفة بيتنا المطلّة على شارع نيفسكي في لينينجراد..
- وما الذي أنتِ بصدد فعله الآن؟
- أحزم حقائبي لمغادرة البلاد؟
- ستذهبين مع والدك؟
- لقد تُوفّي والدي منذ سبع سنوات في الحادي والثلاثين من ديسمبر عام ١٩٦٠
- عليك إذن أن تروي لي ماذا حدث في التسع سنوات الماضية بعد وفاة الأم أوجا..

- حسناً قبل أن أبدأ، هل لك أن تأتي إليّ بكوب من الماء؟ فأشعر بالظماً الشديد وقد يبس حلقي تماماً..

على الفور أتت إحدى الممرضات بكوب من الماء، بعد سماع طلبها على لسان المترجم الشاب..

ارتشفت قطرات من الماء لتخضّل شفتيها وتبدأ بالحديث من حيث انتهت:

- البداية والنهاية كانت على اعتاب الكوخ الصيفي القابع في احضان ضفة نهر نيفا، المتواري بين أيكات غسق الغروب القرمزي بأرجوحة حياتي الماضية.. الثوب الذي صفد وثاقه بين شجري نام الحزن على أغصانها المخضبة بعسجد الشمس الراحلة..

تأبّدت بأرجوحتي لأتمايل بين أنفاس ليلة النور الطويلة الأخيرة وقد عقدت العزم على هجر نجمة الشمال، وفاءً لعهد أزلي ووعداً قد قطعه سيف الحق على صدر أرض البرايا..

أرض تقاذفتني فيها غلاظ الظلمة ورقاقها، بينما يداي الملتبستان المرتعدتان من برد ضغينة في الصدر قد احتضنت رسالة وداع.. رسالة أدان الأخيرة تكالبت عليها هوام السنين السبع المنصرمة.. لم تتوان لحظة يتيمة عن مقارعتي وهي تستصرخني أن أفرّج كرب غموض أحرفها وأفصح عن مكنونها.. آلام الماضي بين أسطرها تصيح بصرخات تميد لها الجبال، والنفس غير آبهة لها توجّساً ومخافة أن

تتلاعب الذكرى بكلماتها فتسبّتل العبارات بعبرات وصفحتها بصفعة وتنسخ وتفسخ، حتى غمر الفؤاد فيض السكينة، فأسكنت الرسالة نور عيني..

ما إن فرغت الأعين من تسلُّق سماء رسالة أذان لتزيح الغمام عن شمس الحقيقة، حتى تساقطت دموع الفراق وأنا أركض في طريق تخضُّل فراغه بخط مداد الغُفران، إلى حصن الأب الذي تكم به محرابه الأخير، حيث اعتكف زاهدًا الدنيا مُعتزلاً الورى..

ظلال حنقي الأعمى لجفاء هجرانه الأبدي، دفعني إلى هاوية الهروب في عتمة الإعراض.. فبعد أن أسكنني عهده وووعه هذه أوج الأعالي أبان عودته، حتى ألقى بي بعد ذلك إلى أحْضَة جوف الأرض.. "مسكين من ذاق نعيم جنة الحُلْد وطُرد منها، فعذابه أليم في سراديب البرزخ ومتاهة المطهر حتى يهتدي الصراط.. بحثت عن الصراط إلى الفردوس حيث كنت بجواري فلم أجده.. فأثرت صوفيا أن أسطر لك حياتي في دنيا المهجر.. محتتي ومنحتي.. أنت صوفيا.. فلتعودي حيث أريتني رياض الجنة على أرض الفناء.. هناك ستجدين كل شيء في حقيقة هي لك منذ البداية.. فيها كتابك إرثك من آباك لا تركيه أبدًا، ففيه خلاصك وخريطة طريقك بجواره ستجدين كتابي، اقرئيه وتدبّري ولتغفري لي ولتصفحي.. فارسك المخلص، أذان.."

ظلام الغضب أنساني أن الجروح الغائرة للنفس لا تندمل دون غفران.. أنساني أنه متى تقدّمت مصلية بين عرش نعمة الله فلتغفر حتى تنال الرحمة وتُرزق نعمة عون القدير فحاشا للصفح أن يجعلنا ضعفاء..

هكذا كادت تبتلعني أوحال الحقد، قاومت ذاك الشعور القاتل
حتى ظعن عني مُرجفًا..وها قد مضى أسبوع منذ أن غفرت له ما تقدّم
وما تأخّر وعيناي تقرأ حياة قد عشتها هكذا أحسست، هكذا أخبرني
هو في كتابه حين ترك الكبرياء على مذبحه وسطر بمداد القلب أسطرًا
وصفحات..

فتحتُ الكتاب وكأنني قد فتحتُ مرة أخرى جرحًا لم يُرتق، حياة
بأسرها داخله قد احتضنه لليلي وسنوات بائسة، حضن لم يقوَ على ملمة
شتات الماضي المبعثر فوق تراب الحزن المخضب بدماء اليأس بعيدًا عن
نسيم الأمل الراحل تحت غيامات رمادية مُسودة..عاقر بلا غيث في
رحمها وعيون الذكرى تنتحب بالصراخ وتتوجّع من الألم ولم تعد تُبصر
من فرط ذرف الدمع..

في طيه ومن بين ثنابات صفحاته، يفوح أريج الماضي وعبق
الذكريات في صور ماضيها معًا، ما إن غابت عن العين حتى أشرق
الذكرى المطمورة في ربوع بلا أفق لخيال سرمدى، ونسمات من الحنين
تسيل العبرات على الوجوه والعبر في القول..

أطلقت العنان لنفسي الجاحمة التي ارتدت ثوبًا من الخيال في عالمٍ
بلا خطيئة، عالمٍ من الصفح والغفران..

"مسكين مَنْ تَخَلَّى عن الوعد والعهد..المرفأ والشاطئ..بينهما
سيغرق القارب بين أمواج التيه دون أن تبلغ الرحلة مبلغها..قبيل أن
أواريك الثرى، وقفتُ عند قدميك من دبر وقارورة فوغة المسك في

يدي، خضلت أناملك بالدموع وجففتها بشعر رأسي وأنا أُطِيب
قدميك بالمسك والقبلاط، ربما سيشفع لي عُفرانك أن ينزلني منازل
رياض الجنة حيث جمعنا القدير معًا، فما أخشاه أن أشعر بكره نفسي
مدعيًا تلحفي بنورك، لأكون حتى أمد الدهر في الظلام.."

- قرأته مرات عديدة ساعاتٍ طوَالًا، حيث يذهب العقل فيه
مُسَهَّبًا إلى أنه بالكيل يُكَال، والنفس تنشد أنه مغفور لك خطاياك
والروح تسمو أن إيمانك قد خلصك فاذهب بسلام..

خرجتُ لأستنشق طراوة نسيم ليل لينيجراد الأخير، غفوت فوق
أرجوحتي واستيقظت غير مدركة ما مررتُ به وكأنني سلكتُ دربًا
ضيق الأفق واسع الخيال، وقد أمسى الليل ضيفًا لنيف من
السويعات.. زائرًا لطيفًا لكنه غامض..

هُرعت بقدمي المُثقلتين وكأنهما تمخران عُباب البحر الهائج كي
تدركان برَّ الأمان.. تسارعت ضربات قلبي الملاحقة لأمواج زخات
المطر، وعينا تنظران للسماء المظلمة الملبدة بمئات النجوم المتوارية
خلف قطيع الغيوم.. كأنها تنظر إلى الماضي ومشاعر حزينة لا أدرك
ماهيتها قد عصفت بأغوار صدري..

فالغفران مؤلم والندم أشد إيلامًا، وإذا ما كانت عاقبة قرار المرء
بشقّ الجرح لتصفيته من قيح الضغينة هي وخزات غائرة في القلب،
فالإحساس بالندم هو أشواك زهرة كاميليا، خرجت من رحم الحنق،
أينعت في دنيا الحزن، ورُويت بدموع الحسرة حتى ظل أريجها سلالًا في
الصدور إلى أن تخبو وتنقشع الآلام.

تلقت أنفاسي المتعبة على أعتاب باب البيت الموارب، الذي ما زال على عهده قلباً مفتوحاً ولو قليلاً في انتظار عودتي.. تعثرت قدمي بحقائبي المنصودة وراء الباب بعد أن حزمته وأحكمت إغلاقها منذ أيام ولت بأقفال الرحيل إلى بلاد بعيدة..

تعثرت لأسقط على الأرض وأنا أمضي قُدماً في أن أهول بالجري مشواراً طويلاً لحلقة مفرغة، درب يموج برغبات غامضة وحميمية بعالم من الخيال والأساطير والخرافات.. حقيبة اليد البيضاء ذات الإطالة التقليدية، حقيبة زاهية اللون لافتة مميزة وحقيبة رمادية ضخمة.. حقائب تراصت بأثقالها المحشوة بأمثلة وأغراض طبعت عليها ذكريات وتنفوح منها عقب أسفار طويلة، وسهر لا ينتهي لم أستطع زحزحتها بوصة واحدة منذ أن أتيتُ إلى هنا ربما لضعف حيلتي أو لوهن قد أصابني..

حقيبة الإرث السوداء العتيقة.. تعثرت بها بعد أن ضمّدت الجروح فور إزاحة ستار الغضب، الذي قد حجب نور اليقين عن بصيرتي.. حشايا قبر الرحيل أمتعة، تجعد في طياتها رداء الماضي الذبيح، أمتعة دهقتها بترهات وحواشٍ زائلة لا قيمة لها، مصيرها البلاء في رحلة طويلة من الشقاء.. متاع بلا زاد ولا ماء..

قفزت من فوق أسوار حقائبي وقد أفرغتها من أغراض اللحظات المريعة البالية، التي ابتليت بها الأرض لأحتمي بحقيبة الإرث السوداء الأنيقة.. حقيبة الماضي الذي لن يموت.. فقط توارى ساكناً بين ثنايا

قصاصات أوراق النسيان الجافة، ولكنه لا يزال على عهده، نبوءة لن تتخلى عن وعود قد جاشت بها خطابات وصفحات من الجيوب الشفافة الزاخرة بصور جمعت الراحل أدان بصوفيا والدّة وابنة، حافظة الصور تلك نثرت خواطر حاملة لأحاسيس مرهفة بأقلام جدباء بلا دفاتر ولا أوراق..

أدركتني حقيقة الذاكرة التي كمهت في قلبها جواهر الشوق، مسبحة الإيمان وماسات الحنين.. بعد أن تجمّدت أطياف الذكرى في ديار قد هجرها حبٌ متدقق، عابرو سبيل يدقون الأبواب دون أن يبقوا، أحجار أثلجت في نهر الزمان وظلام المسافات.. دبّت الحياة مرة أخرى في صورها المطبوعة على صفحة الأحداق، المحفورة في أعماق الصدور بعد أن طَمَسَها ليل النسيان.. فحين تشرق الذكرى كل مرة يلمس القلب ضياء شمس الحنين لتصبح لهيباً يُصلي الفؤاد ونور يهدي النفس..

كيف السبيل وها هو الرحيل يطرق الأبواب وأجراسه تنقر الروح الظمأى، ها هو سيحرم حبات رمل نجمة الشمال من حضن خطوات أريج الرياح التي عزفت عن النوم في العراء.. بعد أن عصفت بها الخوف وشتتها البعاد الذي قد صار شوكة يُؤرق جسدها في مضاجع الأحلام.. أدامت حقائبي النظر إلى نفسي وقد أشغرتها من الخطايا والآلام، التي أثقلتها حتى لم أستطع حملها ولا حتى قلقلتها وبين الضلوع قد أدغمت ركائماً يكاد يبلغ عنان السماء..

كم وددتُ أن ألقى بكل شيء في طريقي لأستيقظ في وجهتي القادمة، في مكان مجهول بلا شيء في حقيتي ولكن كُتِبَ في اللوح المحفوظ أن أمضي بحمل الماضي على عاتقي وفي صدري، حقيبة ثقيلة وأخريات إلى جوارى تسعى بيدي المسكينة..

أخذت ألملم مقتنياتي النفيسة الغالية التي ازدانت بها جدران حياتي.. بدأت بالأشياء القريبة إلى عيني، القريبة إلى قلبي.. من على الجدران التقطت أناملي صورًا جمعتني بأدان، جمعتني بأولجا.. لماذا أجمعها؟!، فالصور قد صُنعت للبؤساء من الناس الذين لا يستطيعون التذكر! وصورته لا تزال محفورة في العيون والقلب، وشما ملأته بصبغة الجروح المحرمة، ولكنني أخشى عليها أن تتوارى شيئًا فشيئًا وراء سحابة النسيان في سماء الزمن..

مضيت غير مكترثة سوى لنهمي الشديد لذكراياتي التي تبددت في سراديب كهفي الصامت.. صورة تجمعني بالباكي على قبر أمه التي لم تلده وينبوع من العطف والحنان يتدفق من عينيه ليروي عطش بعاده عني.. صورة تجمعني بالبطل في تابوته وصديقه الزعيم خورثشيوف الذي أغدق عليه وعلى بعد أن واريناه الثرى، ذاك اليوم الممطر وقف القائد ليرثى صديقه قائلاً:

"ترك العالم فارسًا، نهر ولائه لم ينقطع لوطنه وعائلته.. لزوجته الراحلة ولا بنته الغالية صوفيا.. عزاؤنا أنه في الفردوس الأعلى تاركًا لنا بطولات على مذبح الحرية سيخلد في تاريخ هذه المدينة.. مواساتنا وتعازينا لبطل الاتحاد السوفييتي ولينينجراد.. أدان راينوفيتش.."

لم يتركني قط، بل كان لي كأب ثانٍ، احتضني في كنف رعايته وألحقني بأكاديمية بوديني العسكرية للاتصالات في لينينجراد، بعد أن أمر الكولونيل فرولوف مدير الأكاديمية بالاعتناء بي بصفة شخصية، نلت الهيبة من الجميع لقُربي من رئيس الاتحاد السوفيتي ومنحني الجميع الاحترام بفضل تفوّقي وتواضعي..

صورة أخرى في أول أيامي في وكالة نوفوستي الإخبارية بعد أن طلب من خليفته برجينييف تعييني هناك.. لم أخذه قط منذ اليوم الأول حتى ذلك اليوم الذي سألته أن يُوصي بتعييني مراسلةً حربية في الشرق الأوسط..

عشرات من الصور هملت الأفاق الرحبة بضحكات وبسمات ووجوه حزينة.. وجدت بين الأرفف الصبر والجلد منذ أن عاقر الخمر حتى اغتاله.. من الأدراج اجتبيت أشواقي له في نزهاتنا النهرية وفي الحديقة الصيفية.. من الدولاب اكتنزت قيثارتي وشكري حين أعاد للساني لغة أسلافي، التي رحنا نتحدثها ليالي طوَالاً وكأني أستعيدها مرة أخرى بعد أن هجرت فمي.. حفلت من فوق المنضدة كوكبة من الأطباق الإسبانية والروسية التي لم يضمن بتعليمي إياها..

نهلت الكثير في الحقائق وفي الصدر، ولكن تركت الأريكة الدافئة بأحاديثنا.. لم أستطع أن أحمل المصابيح التي أضاءها ليالي السهر على رعايتي..

ودّعت لحظات الانكسار على وسادتي، صديقتي التي لم أعرف حِصناً سواها، ودعت رفيقة درب وحدتي، بحر دموعي.. بارحت

رسائل عزلته حين غلّق الأبواب على نفسه لتتدلى بعدها أشعة الشمس الحبيسة وراء سجون الغيام وقد غزلها بأيدي اليأس، حبلاً شتق بها أحلام نفسه.. رسالته الأخيرة ..

"استيقظتُ من سُبات غير مدركٍ ما مررتُ به وكأني قد سلكْتُ طريقاً ضيق الأفق واسع الخيال، كم تمنيتُ أن أحيَا دوماً بجوارك، ولكن فات الميعاد صوفيا حين صر عني الزمن.. أسألك الغفران.. أدان.."

لم يكن هناك بديلٌ بعد أن عبّأت كل هذا وظيفه لم ييارحني قط.. فأراه في كل الوجوه وكل الأمكنة.. حالة فريدة من الاشتياق، ولكن كل مناله كتاب قديم.. فإذا ما استطاع طمس روايته بأخرى، فقطعاً لن يستطيع نسيان تاريخه، حصن حسرته واشتياقه للوحات الذكريات التي يعيش فيها، ويجول بين آثار صرحها، ونقوش أعمدة معبدها المصقولة على جدران الماضي..

خرجتُ وقد رحل المساء وأشرق الشمس مرة أخرى وبكت السماء بعدها بغزارة.. اوقفت سيارة الرحيل ومضيت بجواز سفر و تذكرة طائرة إلى مدينة السلام حيث احتدمت هناك العواصف بالأعاصير والقيظ بالنيران..

الفصل الحادي عشر

وابل من أطيايف خوف جاف قد أندى ثوب أفكاري المنغمس في
صهباء الماضي .. انهمرت الدموع من المآقي ولم أعد أشعر بما حولي ولا
بما أصابني، مذهولة بأثر صاعقة لم تكفَّ عن البرق أمام مُقلتي منذ تلك
الساعة التي فكَّت فيها ناظرتي طلاس كتاب النبوءة ..

تبعثرت الأفكار في أنبوب طائرتي .. طائرة صباحها بلا شمس
ومساؤها لا قمر له .. رحْتُ أجول شاردة بخواطري شطر سياج نافذة
راحلتي الزجاجية .. التي لم تتوقف أمطار الشتات عن طرقها .. نافذة
يتكئ على صفحة زجاجها ظلال قبس نور السماء المُتهدِّل من شمسها
المتوارية خلف غابات كثيفة من الأميال والمسافات، التي راحت
تُباعدني عن سهوج ريح اشتدَّ هبوبها وتواصل تدفُّقها في مجرى سيل من
الذكريات الداجنة في جعبة كتاب نبوءة صوفيا ..

سيل جارف شاب خواته لمحة من أصداء رفرفة أجنحة العقاب
المهاجر عن أفقاص صدري المعتمة .. غابات طوت بقلبها فوخان رياح

ذكرى شرسة، اعتلج فيها صخب أمواج بحر الماضي المظلم، وتلاطم معها في صدري نوح السماء..

ألقيت كلا الكتابين إلى جوار الكتاب المقدس في حقبة الماضي.. أبقاني بعدها النوم لحظاتٍ أبديةً حارًّا لأحلام تبددت بها حياة ها قد مضت.. أحلام أهداني بها الأب الراحل هبة نفيسة لكتاب خطه بمِداد قلبه في شصب من العيش.. كتاب مقدس وكتاب وَقَرَّ في قلبه نبوءة، رقصتها أناملي في حياتي الفاتنة.. أحلام حاقت بعنقي فيها مسبحة الرحمة المشرقة، خرازتها البراقة قبلات من السماء للأرض طبعت عليها آيات نورانية وهاجة..

التفت النفس وهي تسري في عوالم الحقيقة بمعية النور الإلهي، بغية أن يعقل الإيمان الكمال بين حشود من الأمانى حول سؤال مؤرق، فطروه تمثالاً أصم لا نبض في حجره ولا حياة في صخره، عابدين له مقدسين، سافكين آثام الخطايا في محراب بثره اليايسة باسمه ولأجله.. صنم من التمني يرى الأنفس علامات من الاستفهام لحرف امتناع لامتناع، رجاء اقتناع لإقناع.. اقترن بخيال ماذا فصارت نديمته لو دمية دمية حبلى بأطياف اعتراض وندم وتحسر واحتجاج على القدر..

ماذا لو؟ سحابة استفهامية عقيمة تشقذ أعين سماء الفكر، برحمها ضباب رمادي استنكاري كاد يضيعني وراحلتي.. ماذا لو أعطت الدنيا يد السلام للماضي تارة أخرى؟ ماذا سنكتب لها حينئذٍ؟ سؤال لن يجيب عنه سوى القدر في نهاية المطاف..

حطت راحلتي المجنحة بمطار بن جوريون بعد رحلة كؤود دامت
سنين من الساعات.. غادرت الطائرة لأجد ليلاً حالاً بعد أن فارقت
الليالي البيضاء في نجمة الشمال، حاملة بيدي حقيبة صوفيا العتيقة التي
تثقلت بحياة أخرى.. كأن العالم قد طُوي بأسره بين ثناياها المثقلة
بنبوءة غمرت الأعين الدامعة حتى جفت مآقيها.. كدت أنزلق إلى قاع
الهوة، وقدماي تزعقان هابطتان درج سلم الطائرة الحديدي، وعيناي
تبحثان عن عود ثقاب لأشعل النيران في جسد هذا الظلام الدامس، إلى
أن بلغت أرض الميعاد، التي راحت تترُّ وتئنُّ من تحت قدمي في عتمة
تشابه كل شيء فيها..

فلا معالم ولا وجوه، حتى تأتي لي أن أبصر بصعوبة رجلاً بدا كأنه
هضبة تتحرك.. طويلاً، ضخماً الجثة، قوي البنية، عريض الكتفين..
باغتني بعباراته الروسية قائلاً:

- آنسة صوفيا.. فلترافقيني من فضلك..

أخذت ألاحق خطواته السريعة ولم أستطع تمييز ملامحه، حتى بلغنا
صالة صغيرة بعد أن رافقني قائد عبر ممر جانبي.. توقفت معالم الحياة
في غرفة الوصول، وقد أقبر الصمت فيها الفراغ، عدا حوار مُتدفِّق لم
ينقطع بين صرير ناقلة الحقائب الدوارة الصغيرة وحقائب الثلاث..

ألقيت جسدي المنهك في أحضان إحدى الأرائك الثلاث، التي
ازدحمت بها الصالة الضيقة بعد أن التقط ذلك الرجل الضخم جواز
سفري وأوراق من يدي، وقد غادر الغرفة، تاركاً لي خياراً وحيداً أن

أرتشف من قدح الوجوم لأروي حيرتي العطشى لمشهد ضبابي اختلط فيه التخوف من الاعتقال نظرًا للموقف السوفييتي إزاء الحرب المستعرة وظنون أنه قد يكون تضيقًا على صحفية تعمل مراسلة حربية لوكالة الأنباء السوفييتية الداعمة للعرب ..

لم يكن هناك أنيس أثناء تلك الدقائق الطويلة إلى جانب أفكار المشتتة من أثر الرحلة الطويلة سوى صورة لتيودور هرتزل معلقة إلى جوار نجمة داود على أحد الحوائط ومن تحتها عبارات باللغة العبرية ..

اقتحم خلوتي الواجفة الرجل ذاته، الذي رمقني بنظرة باسمية وتحية بلسان روسي بعد أن خلع نظارته السوداء لتظهر معالم وجهه السلافية.. بدا من هيئته ونبرة صوته القوية أنه رجل آمن من الفرق الخاصة.. ضابط في العقد الخامس من عمره، ولكنه ما يزال متمتعًا بقدر وافر من نضارة الشباب، على الرغم من ارتدائه هندامًا مُكوّنًا من بزة رمادية منمقة، ورابطة عنق أنيقة، أخفت من تحتها درعًا واقياً من الرصاص، إلا أن يده التي لم تُبارح خصره قد كشفت النقاب عن هويته حين لمحت بندقيته الآلية التي بدت طلقاتها ملقمة في حجرة الإطلاق على أهبة الاستعداد دون أمان ..

- مرحبا بك في إسرائيل آنسة راينوفيتش ..

- حمداً لله أنك لم تأتِ لاعتقالي ..

- آنستي هذه هي صالة كبار الزوار وقد كلفني الجنرال موشيه

دايان بأمرٍ مباشرٍ من قبل السيد ليفي أشكول رئيس وزراء إسرائيل بأن أتولّى إجراءات تأمينك من الآن فصاعداً ..

- وهل تتبعون نفس إجراءات الحماية هذه مع جميع المراسلين الأجانب؟

- بالطبع لا آنسة صوفيا.. كما قلتُ لك إنه إجراء استثنائي لك أنت وحدك..

- ولم أنا؟ أذلك بصفتي مُراسلة سوفيتية؟

- لا آنسة صوفيا، ولكن إن سمحتِ لنا بالمغادرة الآن، حين نصل إلى تل أبيب ونحن في طريقنا إلى محل إقامتك في قلب العاصمة، سنمر عبر شارع البطل أدان راينوفيتش.

- أهنأك شارع في بلدكم يحمل اسم أبي؟!

- وكيف لا نحتفي بالبطل اليهودي الذي أذاق النازيين الويل في معارك الحرب العالمية الثانية دفاعاً، عن شعبنا المختار؟

- لم أكن أعرف أن والدي ذائع الصيت هنا هكذا..

- أتشرّف آنستي أن أتولى أنا زائيف بن زيون عاميرسكى أمور حماية ابنة قائد، خدمت تحت إمرته في معارك جبهة كورسك.. هنا على أرض إسرائيل..

- أحقّ كان أبي قائدك في معركة بروخورفكا؟

- نلتُ هذا الشرف العظيم أن أرى قوة القائد أدان وبأسه وبراعته في إدارة المعارك الطاحنة.. مرحباً بك آنستي في وطنك الأصيل وبيتك الآمن.

ما إن غادرنا الصالة الصغيرة عبر الباب الآخر حتى وافتنا على عجل سيارة فارهة حملتنا بداخلها.. استلقيت خلف ستائرهما السوداء إلى العاصمة التي كان يفصلنا عنها خمسة عشر كيلومتر.. تلك المدينة المتاخمة لبلدة يافا القديمة، التي تبعد حوالي أربعين ميلاً عن مطار بن جورين.. لم تكن الرحلة إلى قلب العاصمة بالعسيرة، فقط ما يقرب من عشرين دقيقة حتى وصلنا إلى أحد الأحياء الهادئة المطلّة على شاطئ البحر المتوسط في تل أبيب.. تل الربيع..

حمل السائق الحقائب إلى الطابق العلوي، وبدأ على المنزل كأنه نزل خاص بإحدى البعثات الدبلوماسية من حيث التأمين الشديد والتحصينات الخارجية والأثاث المختار بعناية..

كانت الأجواء صيفية لطيفة في الليل، وكنت بحاجة ماسة إلى الراحة بعد إعياء شديد من تكبّد مشقة السفر.. فقط ألقىت جسدي المنهك بعد أن أثر أن يحتضن فراش مخدعي، لأعط غارقة في سبات عميق لم يزعجني أحدٌ إلى أن أيقظتني اليوم التالي أمشاج خيوط شمس الظهيرة وهسيس ناعم قد تجلّى من تهاؤس ستائر الشرفة مع نسيم النهار الخافت..

دغدغة خفقات أجنحة الصباح حلّقت بي في أفاق يوم جديد ارتدت أحرف نوره حلة قشبية مزدانة بآلئ السكينة والهدوء، مخضبة بصبغة القيظ الحارة التي أقبلت وتهيأت في غفوتي الطويلة، وقد عمدت إلى رشقي بأشواك سناها التي قدحت وأضرمت نيران زندها فيها، بعد أن جمعتها إلى رصف صيفها فأصاب ظهري وخزاتها المصطلية..

أجواء لم أعتد فيها تلك الحرارة الرطبة.. ثثاءتْ عقب التاريخ وأريج نفحات نورانية فاحت في أرجاء المكان.. تسربتْ قدمي العاريتان بخف من الحيوية وأنا أقتفي أثر غرفة الاستحمام لأزيل عن جسدي أتربة رحلتي التي دبقت به ولم تبارحه.. استرخيت في حوض الاستحمام ليتخصل جسدي بماء تجرع من ذات نبعه مصطفىين، تقدست هذه الأرض بأسمائهم على مر الزمان فعطرته سيرة الأولين.. ماء عفيف عن الرجز والدنس، تندت به مشاعر زاخرة بأحلام أزلية في عوالم خيالية مفعمة بأمنيات حاملة تفيض من شغاف القلب..

فرغت من الاغتسال وقد تبعثرت أتربة وغبار رحلة الماضي في أروقة مدينة الأمس الخاوية على عروشها.. خرجت بأدمة جلد طارف جديد بعد أن ألقيت بسترته الغابرة، التي بدت ثقبوها أكثر ما فيها من قماشها المهترئ الممزق.. خرجتُ أتَنفَسُ نور الحياة بقلب فاض بعبير الإيمان، فحاجتي ماسة إلى النور هنا كي أرى، ولا حاجة لي بهوائهم الملوث بالخطايا، فإذا ما انقطع هواء الإيمان عن الرائي والمرئي لن تصحَّ رؤية الحقيقة..

اختلست بعض الدقائق وأنا أتأمل رمال تل الربيع وهي تُعائِق أمواج المتوسط.. اشتهيْتُ دومًا هذا المشهد البديع لحنو اليابسة على الأمواج المتمردة، واشتهيْتُ في ذات الوقت رائحة طيبة لطعام قد أعدّه لي طاهٍ خاصٌّ ضمن فريق الحراسة..

ارتديْتُ بعد تناول الطعام رداء الصحفية، وقُبيل أن تدرك أصابعي مقبض الباب الرئيس حتى انفتح ليبرز موصدًا طريقي بابًا آدميًا آخر.. ذلك الرجل الذي قد خدم تحت إمرة أبي إبَّان الحرب الوطنية العظمى..

بعد إلقاء التحية، أطلعته على خريطة سير رحلتي التي ستستقصي ما حدث في أثناء حرب الأيام الستة في الأراضي المقدسة وفي سيناء.. كانت الأوامر له أن يكون رهن طوعي، وأن يُنفذ كل طلباتي.. وبدا سعيداً بتنفيذه تلك المهمة، على الرغم من حذره البالغ في التواصل معي فإن نظراته التي كانت تصبو إليّ، اصطبغت طوال الوقت بالإعجاب والتوق الشديد للتقرب مني خلال الأيام الأولى، التي قد أمضيتها بعدسة آلة التصوير وقلمي، اللذين لم يتوقفا عن رصد أدق التفاصيل لثنائية الأرض الموعودة والأرض المغتصبة..

مئات من الصور.. لوحات تفردت قصاصات حقيقتها بمخالفة المنطق.. ألواح الرسم، أوراق أيام متناحرة بريشة عين الصدق وبريق أمشاج ناعمة لأضواء باهتة وخافتة على أوراق أحاسيس مُلوّنة خمرية نحاسية وأهداب جذباء مصفرة، كانت بعيدة المنال حين حجبت يد السماء عن محو ما أفسدته صبغة البشر.. باقات من خضاب صادق صادم، كتيب بائس.. طيف واسع من ألوان احتفالية حذرة، باسمة متوجسة.. أعين لم تعد تدرك حقيقة الأمر أنهم يرون الألوان بصورة مختلفة عمّا تراه أخريات بفعل ضباب من الضلال وظلال مُعتمة من السراب.. بصائر عمياء أذهبت بصر الأفئدة، وأبصار مضللة استحبت العمى والباطل..

الأحد الرابع والعشرون من يونيو..

بين أنهار الجليل وغاباته، أشجار من الآمال الغائبة خلف ستار من المرتفعات الصخرية الصامتة إثر أسبوع من الآلام.. مرارة النكبة

كست تلك المسارات البديعة البائسة بين رياض عناقيد الكروم المتقطرة
حزناً وبساتين الزيتون المنكسرة..

غابت الأمطار والثلوج عن سفح تلال القبيظ، وغابت البسمات
عن وجوه أبناء الرملة الواجحة.. قتمت أرضهم في يوم نورٍ، واحتجبت
شمسهم وراء أسبوع آلام أبدي.. أحسست قلوبهم الفزعة المضطربة،
وتعلّمت من شموخهم وعزّتهم في أوج الانكسار لسانهم العربي..

الإثنين الخامس والعشرون من يونيو..

في بيت لحم.. كنيسة المهد.. مغارة الميلاد، نجمة فضية على مزود
مُزَيّن بالمرمر رقشت عليه باللاتينية:

"هنا وُلِدَ المسيح يسوع من العذراء مريم" ..

خمسَ عشرَ قنديلاً من اللّجين ما زالت على عهدِها تبليج درباً مُعتمّاً
من بغي واهتمام.. بين أحضانها تدمع الأعين ناهلة من سحر أيقونات
العذراء والقديسين.. تتشرف الأذان وتطرب بسماع ترانيم وألحان
عذبة، واهبة الشفاء لها من طنين شطط المعتدي.. تتسللت فوغة طيب
البخور المقدس إلى الصدور لتقارع حشود الهموم بيقين
الانتصار.. انتشيت بين أرواحهم هنالك بالأمان المُتجلي في أحجار
السماء الوردية وفي الأفئدة..

تشابهت نظرات الجميع صوبي في القرى والشوارع والأزقة..
رصاصات نارية وسهام قاسية تنفذ للقلب لتشعل فيه نار الجنف
والانتقام وكأنني ألدُّ أعدائهم..

استصرخت نظراتهم المحملة بمعانٍ غير منظوقة، كنتُ حائرةً في تفسيرها حين امتزج فيها البأس بالأسى والعزيمة بالهزيمة أن ينصتوا لي لكنهم أداروا لي ظهورهم وصدوا عني بعد أن غلقوا أبواب إباء عزتهم على فاجعتهم، غاضين أعينهم على قذى النكسة.. فكلما تم عزيزة أبيّة، حبيسة سجينة زنازة الكرامة وصفحات البوح فارغة إلا من سطور تنوح بلا عويل وتأوّه دون صراخ، فمن العبث أن تصرخ في أذان أعدائك الصماء..

لم تستطع احتفالات أبناء صهيون الصاخبة محو عار جنفهم وطغيانهم.. قرى بأكملها صار أعلاها أسفلها.. لم أطق أن أتجاذب أطراف الحديث مع أيّ من المختالين بمناقبهم المدلسة، الفخورين بنصرهم الزائف حتى صباح الخميس حين وطئت قدماي القدس.. أورشليم.. مدينة السلام..

كان يوماً مشهوداً بحق.. انشق الستار عن قدس الأقداس الذي قد باعوه بخساً بثمان عبيد، ثلاثين قطعة من الفضة.. امتطيتُ قدمي لأجول بين حاراتها الأربع لأشهد الحاخام الأكبر ينفخ في البوق شوفار أمام حائط المبكى.. لم أجد وصايا موسى والمسيح حين تعثرت بأطلال حارة المغاربة، التي دكّوها في الأحد الأول بعد الاجتياح.. بين الحطام والركام راحت أغصانها المحتضرة تخاطب مقلتي وأرحامها قد غدت تذرف بنات من الدموع يتامى..

"لا تبكي عليّ، بل ابكي على أنفسكم وعلى أولادكم.. فإن كانوا قد فعلوا هذا بالغصن الأخضر فماذا يجري باليابس؟"

عاصمة مملكة داود.. شجرة الحياة.. أولى القبلتين وثاني المسجدين،
وثالث الحرمين الشريفين عند العرب..

جبت جنة عدن المتدثرة بين أحضان ضريح العذراء في وادي الجوز
عند سفح طور الزيتون بجوار كنيسة كل الأمم وبستان الجسمانية، بقعة
مباركة قضت نحبها فيها رابعة العدوية.. تسلفت مشارف المشهد،
وتنسّم العشاء الأخير على جبل صهيون، الرابية التي قام عليها هيكل
سليمان وضريح الملك داود.. ولكن أين هيكل سليمان الأول المزعوم؟
تابوت الرب، تابوت الشهادة وأساطير انفلاق مياه نهر الأردن مع
دخول اليهود به أرض كنعان وسقوط تمثال داجون أمامه في أشدود..
معجزات وروايات لمن افترسهم الطاعون من رجال بيت شيمش، وفي
جات وعقرون لمن احتقره أو أقدم على لمسه.. أين ألواح العهد التي
احتمت به في قُدس أقداس معبد حيرود المتواري خلف ستار رماديّ
من الزيف؟!

هناك فاح نسيم يَمِّ مَيِّت بين البحر الأحمر والأبيض.. هناك
شهدت ميلاد النهار في الوادي ورحيلها في جهنم.. داخل أسوار البلدة
القديمة، سحت في شوارع سهلة، ودروب وعرة إلى أن أوصلتني
قدماي إلى باب الأسباط، امتطت قدماي منه درب الآلام حتى حجر
الطيب في تلة الجلجثة العارية، هناك احتميت داخل كنيسة القيامة من
وقدة الآلام وصهيد الخطايا.. أجراسها تعانقت مع أذان مسجد قبة
الصخرة حيث أسري إليه الرحمة المهداة وخرج منها إلى السماء..

أسبوع قد مضى منذ شددت الرحال إلى هنا، وقد أزفت الساعة أن
أمضي قُدُماً إلى أرض الفيروز.. سيناء..

الصباح الباكر لآخر أيام يونيو

خرجنا من القدس صوب إيلات، إلى النقب ومنها إلى دروب
وادي الحسي وينابيعه.. رحلة شاقة منذ الصباح مفعمة بالترقب والتأمل
خاطبت فيها الرمال الصفراء المستعرة، ورجوتُ أشجار صبارها النابتة
زهوراً من المرارة أن تبوح لي بأسرارها.. وادي وتير.. طريق من
الفردوس مُحلّى بعروق الحجر الرملي، الجيري وصخور الجرانيت
والبازلت المصطبغة بألوان صفراء وأرجوانية، حمراء وذهبية، فضية
وقرمزية.. يهيمن على الطريق الثعباني المُعبَّد جيداً وعورة التكوين
الصخري وجمال فريد لمظهر مخمليّ ناعم يشعُّ بالألوان البلورية..

غمست أشجار النخيل في مسحوق طباشيري، وتناثر الورْدُ البريُّ
وشجر الأثل فقير الأوراق والطلح نحيل الأغصان في الأفق.. وإد لم
يسقط من جهنم لعنةً وعقاباً لقاطنيها.. بل هو بستان من أشجار الغاف
والسدر غدرت به الأمطار وبأعشابه، وقد خلقت ذاتها بأيديها بين رمال
الصهد بعد أن هجرتها الأوراق، تاركة لها أشواكاً سميكة حادة تناضل
بها في رحلتها من أجل البقاء.. وها قد أضحت أشجاراً بريّة رفيقة
التوَحُّش وصديقة الجفاف والعواصف الرملية تنمو على قطرات الندى
والضباب..

سألتهم أن نتوقّف هنيهة حين رأيت هذا المشهد الخيالي بدون
حدود.. قسوة الصحراء تقارع أشجاراً صلبة قوية تستمدُّ قوتها من

جذورها الضاربة في أعماق أرض الخير، تناضل إلى أبد الدهر كي تبقى
شاهدة على الحياة..

توقفتُ عند أُحدودٍ، أكاد أسمع لحظة غروب الشمس من وراء
جباله.. ثقب ضيق لجلمود أملس على نحو سلس.. شديد التحدر رتقته
صخرة ضخمة ربما سقطت من السماء منذ آلاف السنين..

قفزتُ من فوقها والحراس يُهرعون من خلفي، تأرجحت حول
نفسي كي أخرج من بين متاهة الجدران المزركشة بألوان بديعة للوحة
فنية استثنائية، صُنع الخالق التي أخذت تضيق شيئاً فشيئاً..

خرجتُ لأرى شجرة نخيل توأم في وادٍ فسيح.. أُلقيتُ جسدي
على الرمال كطفلة تلهو لترمل ملابسي ويدي وأنا أتابعُ لمعاناً منشورياً
لإرث مشرقٍ يرحل برفقة الغسق صوب الغرب..

ترجّل الجمع المرافق لي، الضابط زائيف الذي ابتعد بجهازه
اللاسلكي مُجيباً بصوتٍ خافتٍ وبكلماتٍ مُقتضبة لم أستطع تمييزها..
بعيداً عني وعن قائد السيارة العسكرية ذات الدفع الرباعي واثنين من
المجندين، اللذين انشغلا بتحضير وجبة العشاء لنا..

هجعنا إلى الرمال الدافئة في أجواءٍ بدت كأنها نزهة خلوية،
وليس تغطية لمناطق قتال ملبدة بغيوم الحرب.. تبرجت السماء
بالنجوم التي بزغت رمالاً لا حصر لها، وتساقطت من بين ثناياها شُهْباً
كادت أن تدرك عَنان السماء، سقطت لتستتر من أبصارنا خلف
كصيص جمر الحطب اللظ، حسيس نارها راح يهدئ من روع تفوذهما

شيئاً فشيئاً بعد أن أدفأ هجيج ألسنتها لنا وجبة تدثر أمعاءنا الجوعى
بلحاف من الشَّبع..

لم أبتغِ من تلك الليلة الهادئة شيئاً سوى أن تنجب لي رياح محادثة
حُبلي بحقيقة صادقة كاشفة لأحداث حرب الأنفس على أرض المعارك
المتوارية خلف صمت المُنكسر وتكثُّم المكتسح.. شرعت في بدء الحوار
وأنا أتحسّس بأناملي خوزقي المُرْقطة بالصليب الأحمر وناظري يتأملان
الصديرية الواقعة، التي خُطَّ عليها بالإنجليزية كلمة صحافة وقميصي
العسكري الذي تأبط به خصري بعد أن خلعتة عن جسدي المُندى من
حرارة الجو ..

نزعتة ليتكشف لهم بديع صنعة الخالق الآخاذ من قوام ممشوق
منضور بالحسن، متوهج بسحر صوفيا .. بهاء لفح أعينهم الهائمة في
أفلاكٍ من الشَّغف والتَّيسيم بي.. أسلحة فتاكة وذخيرة حية نابضة
قصفت أفئدتهم وأفغرت أفواههم ليسيل على شفاههم العطشى لعاب
خمري المسكر، حتى تصدعوا من الظمأ..

أذهبتُ ألبابهم وراء خيالات حاملة بالوله والهيّام.. تصاعدت
أنفاسهم من صدري، الذي ما انفكوا ينقشون عليه بغزوات أعينهم
قرايين توسّدت أحضانها الحسان النواعم بُغية التعبُّد في محرابه..

- لم يكن يتعين عليّ أن أرتدى تلك الملابس العسكرية، فبعد
مسيرة يوم بأسره لم تكن هناك نيران عدائية سوى أوار شمس الصيف
الحارقة، التي أمطرت أجسادنا بسيلٍ من العرق.. أجاج حراق أندى

الجباه وأحرق الأعين بلدغاته، وبينما خَضَل الأفواه بالجفاف، أثمل الرؤوس بالظماً ..

- فالأمور تبدو هادئة على أرضٍ ترفض أن تكون ساحة قتال ..
سيد بن زيون ..

- لقد أحكمنا قبضتنا على أراضي سيناء قاطبة في ستة أيام، وغداً سنعلن على الملأ أن تراها بأسره صار جزءاً من نسيج الدولة العبرية ..
ولماذا غداً بالتحديد؟

- بعد عدة ساعات سُنْصَاحِبُ رتلاً عسكرياً مُتْجِهاً صوب بورفؤاد.. لن أخفيك سِرّاً أنني قد أُبْلِغْتُ أن هجوماً وشيكاً على مدينة بورفؤاد سيقع مساء الغد ..
وماذا بعد ذلك؟

- بعد ذلك سأرفع عينيّ وسأنظر من الموضع الذي أنا فيه شيئاً لا وجنوباً وشرقاً وغرباً، لأن جميع الأرض التي ترى لي أعطاني إياها الرب لنسلنا إلى الأبد.

- وهل أنت إبراهيم؟ وهل تلك حدود أرض الميعاد سيد عاميرسكي؟!

- ذات يوم قطع الرب مع إبرام عهداً حين قال له: لنسلك أُعْطِي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات .. أرض القينيين،

القنزين، القدامونين والحثيين والفرزيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين، وتم تأكيد الوعد بعدها ليعقوب..

- وما أدراك أن تلك البقعة هي من بَشَّرَ الربُّ بها إبراهيم؟

- هي حتمًا جنة عدن.. شجرة الحياة.. الأرض التي وَعَدَ الربُّ بها إبراهيم ويعقوب.. هي أرض الرب، الأرض التي يرعاها الإله ثم هي الأرض المختارة، الأرض المقدسة البهية أرض صهيون التي يسكنها الربُّ.. هكذا أنبأنا التلمود، وأخبرنا أن الواحد القُدس تبارك اسمه قد قاس جميع البلدان بمقياسٍ خاصٍّ، ولم يستطع العثور على أية بقاع جديدة بأن تمنح لجماعة إسرائيل سوى أرض إسرائيل تلك بحدودها هذه.

- لكن تلك الحدود لا تزال غامضة!

- لا على الإطلاق.. فلتذكري أن موسى الطاعن في السَّنِّ بأعوامه المئة والعشرين حين لمح مدينة أريحا وتَسَمَّ عبر عبقتها العريق، وعيناه شاخصتان إلى أرض الميعاد، قد فارقَ الدنيا بعد أن قاد قومنا مدة أربعين عامًا في رحلة إعجازية مقدسة من العبودية في مصر عبر صحراء سيناء الجذباء القفر إلى أرضنا.. أرض الميعاد.. واصلنا بعدها المسير المقدس لفتح المدينة واسترداد أرضنا كتفنا بكتف خليفته المختار يوشع..

- لكن ليس هنالك ما يدعم قصة المعجزة العظيمة التي تلت انهيار جدران أريحا كما ترويهما التوراة، كما أن أريحا أولى المدن المسورة في

العالم لا تزال قائمة.. مما يدحض زعم يوشع في التوراة أن جُدرانها الضعيفة قد انهارت..

- لقد بدأ علماء آثارنا بأعمال من الحفر والتنقيب للبحث عن داود وإسحاق ويعقوب وقریباً سنُقَدِّم للعالم بأسره أدلة دامغة تفند مخاوف المتشككين والمناهضين لنا من الكارهين..

- ستقومون بالبحث إذن عن دليل هو غير موجود أصلاً، وتذكر سيد زائيف أن الاكتشافات الأثرية ستتناقض تمامًا مع رأي التوراة في أرض الميعاد.. فقط لكي تدركوا هذا، يتعين عليكم أن تقوموا بالبحث عن الدليل بطريقة نقدية، وليس القبول بالأساطير المسجلة في التوراة واعتبارها حقائق تاريخية.. حينها سيكون البرهان الدامغ أن الصهيونية وإسرائيل على خطأ في نظرية أرض الميعاد.. و لتبدؤوا والحاخامات في أن تقلقوا على الطعن في صحة التوراة..

- عُدْراً لك، ولكن تحدثين كأنك لستِ ابنة البطل أدان راينوفيتش!

- لم يكن والدي قط بل كان زوجي ورفيق دربي، وكنتُ معشوقته التي ضحّى من أجلها بالنفيس.

- أخشى أن تكوني كتلك الزمرة من أولئك الأشكيناز المنعمين في أسرّتهم الأوروبية الحريية، الذين يشاققونا ويُنابدونا مناوئين لقيام دولة إسرائيل، كوطنٍ لنا نحن معشر اليهود.

- لا لستُ منهم، فصدقاً تستحقون وطناً ليس لكونكم يهوداً، ولكن لكونكم بشرًا.. ولعلك قد سمعت عن قصة أَدان وصوفيا، اللذين خرجا من جنة الدار مشردين في الأرض بلا وطنٍ ولا مأوى.

انفجرت أسارير زائيف ومرافقيه الاثنين وراحوا يتناولون الطعام وأعينهم لم يغلق لها جفن، متعلقين بوجهه صوفيا التي راحت توزع عليهم نظراتها الباسمة باضطراب.. إلى أن انتهوا من وجبتهم ليستكملوا ماضين في درب حوارهم غربًا..

- أما آن الآوان أن تضع الحرب أوزارها؟ فلقد مضيتُم بأقدامٍ عارية فوق أشواك المِراة والاضطهاد بدءًا بمزاعم الرِّقِّ والعبودية عند الفراعنة، مُرورًا بالسَّبي البابليِّ ثم التدمير الرومانيِّ حتى اكتويتم مؤخرًا بمحارق أفران النازية.. فلمَ كل هذا المقت والحنق على العرب؟!!

- آنسة راينوفيتش.. لقد غرس العرب الخبائث في بساتين إفكهم، وها هم الآن يحصدونها علقماً في جوفهم وهم يتدمرون..

بهممةٍ لم يسمعها سوى الصخر بجوارهم ردت صوفيا:

- لن تتمكنوا من اختلاق فرية أكبر من تلك الفرية..

وأردفت بثباتٍ وبنبرةٍ ساخرة:

- عزيزي زائيف لا تنسَ أنني أحمل لقب مناضلاً يهودياً..

- حسنًا.. لعله لم يقص عليك كل ليلة كما فعل آباؤنا قصة اليهودي الذي قد صرع رجلاً عربياً ودفنه في حديقة بيته، وبعد أربعين

سنة من تلك الواقعة جمع أحفاده ليروي على مسامعهم القصة، متفاخرًا بفعلته.. ثم اصطحب أحدهم ليريه مرقد العربي وأين دَفَنَه.. وبينما كان يمشي بجوار قبره، تعثرت قدماه بعظمة من القبر أخرجتها الرياح والسَّيل من تحت الثرى.. فمرض على إثرها ولازم فراش الموت، وقُبِّلَ أن يلفظ أنفاسه الأخيرة نادى على أحفاده أن يأتوا تارة أخرى، ليأخذ عليهم موثقًا ألا يأمنوا العربي حتى إذا مرت أربعون سنة على وفاته، لأنه سينتقم منهم لا محالة.. حتى إذا كان جثة هامدة أو عظامًا نخرها السوس والزمن..

- فأُمسِت تلك القصة مثلًا مُتوارثًا للكُرهِ ودينًا عندكم لكراهية العرب واستباحة دمائهم، أليس كذلك؟

- لقد نزعنا شوك شجرة الوطن جذبًا بأُكُفِّنا حتى نستظلَّ بأغصان أمنها، فتربصوا بنا وتحينوا الفرصة، وقد حاكوا لنا المكائد، أعدوا العُدَّة وخططوا ودبروا، متآمرين علينا أن يلقونا في البحر، ونسوا أننا شعب الله المختار، أنجانا الربُّ مع موسى ..

لقد قطعوا أحد شرايين حياتنا حين أغلقوا مضيق تيران أمام ملاحتنا وتجارتنا فكان أمرًا دونه خرط القتاد.. فردعانهم وأنزلنا بهم أشد الهزائم في ستة أيام، وقد رددنا لهم الصاع صاعين فوصمناهم العار، واسترددنا أرضنا التي قدستها التوراة والمشنا والغامارة..

- أليس ذلك الكتاب الذي قد جاء بعد السَّبي البابليِّ هو المشنا وتأويله هو كتاب الغامارة؟

- بلى.. فالتوراة كالماء والمشنا كالنبذ والغامارة كالعطر، لا يستغني اليهودي عن الكتب الثلاثة.. كما أنه لا يقوى على الحياة دون ثلوث الماء والنبذ والنبذ العطريّ..
- ولا يستطيع أن يحيا دون تعاليم الحاخامات في التلمود، التي هي غير قابلة للجدال أو النقاش؟
- هناك من اليهود من يرفضون التلمود، فالقراؤون يؤمنون فقط بالتوراة..
- هؤلاء ذوو الأهداب في أذيال ثيابهم، تلك الخيوط سماوية اللون؟ لقد قابلت كثيرا منهم في الرملة..
- ليسوا ربانيين، فهم يعارضون التوراة الشفوية التي هي وصايا الحاخامات..
- أتذكر مقولة أحدهم حين سألته عن سر تميزهم عن باقي بني إسرائيل وعدم الاقتران بهم.. نحن البحيرة وهم المحيط، فهاذا سيحدث إذا ما انهار السد.. هكذا قال..
- هم يتملقون نساء المهاجرين الأشكناز، مدغدغن مشاعرهن بأنهم لا يتلون مبارك إنه لم يجعلني امرأة بل يقولون مبارك الذي خلقتني في صورة إنسانية.. يتلاعبون بعقول فقيرات السفارديم والفلاشا بأنهم لا يستثنون النساء من الوصايا وفي الطلاق تتساوى الحقوق، وفي الحقيقة ما هم إلا شياطين أبناء آذا وآذيل..

- هل لك أن توضح لي مَنْ أذيل وأذا هؤلاء؟
- إنهما أشهر الشيطانات اللاتي جئن من نسل أَدان وقد علمتا السحر لبلعام وأيوب ويوترو..

- أتصدِّق تلك الخرافات أن هناك شياطين من نسل آدم؟!

- ليست خُرافات آنسة صوفيا، فقد جاء في التلمود أن الله قد خلق الشياطين يوم الجمعة حين خيم الغسق.. لم يكن لديه كفاية من الوقت أن يخلق لهم أجسادًا أو ملابس لأن يوم السبت قد كان وشيكا للغاية.. وبعض الشياطين قد جاؤوا من نسل أَدان بعد عقاب الرب ولعنته عليه وزوجته.. في تلك الفترة أبى آدم أن يجامع حواء حتى لا تلد له نسلا تعيسا.. فجاءته وراودته ليليث وشيطانة أخرى فاختلط في تراب معاشرتهن، فأنجب منهما شياطين كثيرة مدة مئة وثلاثين عامًا.. في ذلك الحين لم تلد حواء سوى شياطين بسبب نكاحها من ذكور الشياطين..

وارت صوفيا صدمة دهشتها من حديث زائيف واحتجاج عقلها على ما قد بدا لها ترهات وراء ستار من ابتسامة صماء وسؤال استنكاري آخر:

- إذن فالقراؤون هم أبناء الشياطين السحرة، الذين ينحدرون من نسل آدم وحواء؟ فلماذا إذن يوجد أولئك الشياطين ويعيشون بجوار اليهود الذين يزعمون أنه لو لم يخلقهم الرب لانعدمت البركة في

الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس، وما أمكن لباقي المخلوقات أن تحيا؟

- يحبُّ الشيطان دائماً أن يكون وأبناؤه بالقرب من الحاخامات والمؤمنين من اليهود، لأن الأرض الجذباء تتعطش دوماً للمطر.

- كم هي شيقة تلك الرواية! أما لك أن تقصَّ عليَّ ما ورد في التلمود عن الرب والملائكة، الذين قد تركوا آدم وحواء لقمة سائغة للشياطين؟ اعذرني، ولكن لم يتسنَّ لي خلال تلك السنين أن أطلع على دين أبي.. وفي تلك الليلة الساحرة يبدفني فضولٌ جامح أن أتعرّف إلى تلك القصص، فكم يروق لي حديثك الشائق!

انطلت مُداهنة صوفيا وتملقها للضابط الذي اعتدل مُختالاً بنفسه ليسهب في الحديث:

- لن أتوانى أبداً عن تلبية رغباتك آنسة صوفيا، فأنا في خدمتك منذ أن أنيطَ بي السهر على راحتك..

حسناً.. الرب القدوس في الربع الأول من النهار يجلس ليطالع الشريعة والتوراة والتلمود، أما الثلاث الساعات الثانية فيحكم، وفي الربع الثالث يُطعم الناس، وفي الثلاث الأخيرة يلعب مع الحوت ملك الأسماك..

أمّا في الليل فلا شغل له غير تعلُّم التلمود مع الملائكة ومع راسموديه ملاك الشياطين في مدرسة في السماء، الذي ينصرف بعد صعوده إليه كل مساء..

صمت برهةً من الوقت حين تأمَّل أثر الوجوم والدهشة الصادمة
على وجهها ليردف قائلاً:

- تشتغل الملائكة نهارًا بالصلاة من أجل الإنسان، أما ليلاً
فتتشغل ببث النوم فيه.. لذلك تعيَّن علينا أن نطلب منها ما نريد بأية
لغة عدا السريانية والكلدانية، فلا يُطلب شيءٌ منهم بهاتين اللغتين لأنهم
لا يفهمونها..

سارعت صوفيا بالرد عليه متهكمة بنبرة ساخرة مُداعبةً قائلةً:

- حمدًا لله أنهم يتقنون الروسية والإسبانية والإنجليزية، هكذا
أستطيع التواصل معهم..

تعالت ضحكاتهم وشاركهم مرافقاهما الاثنان دون دراية عن
مجريات الحديث الجاري بينهما بعدها التقف زائيف طرف الحديث تارة
أخرى قائلاً:

- أعلمُ أنك جئتِ تبحثين عن الحقيقة، ولكن لو كان القائد أدان
معك الآن، لأوضح لك الأمور البسيطة التي يصعب عليك إدراكها
بسبب إحكام مسبقة عن قضية من آلاف السنين.. قضية بدأت حين
عاهد الرب اليهود إبراهيم أن تكون الأرض لذريته من بعده، التي
سيعود اليهود من أجل مركز الدنيا تحت قيادة المشايخ، المسيح المخلص
لتشهد نهاية التاريخ.. ولكي تستقر تلك الحقيقة في وجدانك، على
قلبك فقط أن يؤمن بثالوث الإله والأرض والشعب.. ثالوث يحل فيه

الإله في الأرض لتصبح مقدسة ومركز الكون.. ويحل الإله في الشعب ليصبح مُحْتَارًا ومُقَدَّسًا وأزليًا..

- وماذا عن السلام سيد بن زيون؟

- عظيم هو السلام.. فالتوراة قد أعطيت كلها من أجل إرساء تعاليم السلام في العالم، الذي طرقه ممتعة، والسلام هو جميع دروبه.. والعالم يُبنى على ثلاث دعائم: العدل والصدق والسلام.. فنسعى إلى السلام بصدقين ولكن أَمَرْنَا الربُّ أن ندع العدالة ثقب الطود..

- وماذا بعدما أريق نهرٌ من الدماء على الأرض المقدسة؟

- لقد كنا ندافع عن أنفسنا أمام غوغاء وسفاحين لا يفقهون شيئًا سوى لغة القتل والدماء..

- أشاركَت في معارك الأيام الست؟

- نعم شاركتُ أنا هذان الفتیان، ولكن كل منا كان في فرقة مختلفة، وفي نهاية الأسبوع الأول قضينا أسبوعًا في العريش قبل أن نُبلغ بمهمة تأمينك..

- هل لكم أن تقصوا عليَّ بعضًا من تلك المعارك، وأعدكم أن ما ستُلقونه على مسامعي يسظُلُّ حبيسها، ولن أقدمَ على نشر كلمة واحدة دون إذنٍ منكم..

أخذ الرجل يسبح بين أمواج التفكير المتلاطمة حتى استقرَّ به المطاف على يابسة من ابتسامة، على إثرها نادى على الرجلين المرافقين

وتبادلا العبارات بالعبرية حتى أسلموا وجوههم إلى صوفيا لبيادها بن
زيون قائلاً:

- يمكنك إلقاء أي سؤال على أي من ثلاثتنا.. سننعم بقليل من
الحرية حتى يوافينا بعد سويغات قليلة الرتل العسكري المتجه إلى
الشمال، حيث يجب علينا الذهاب برفقته..

أخذت صوفيا تطلع في أوجه الثلاثة حتى استقرت عينها على
شاب فتى في منتصف العشرين من عمره.. لتبدأ في حوار بعد أن استقر
ثلاثتهم على أن يدور باللسان الإنجليزى الذي يجيدونه جميعاً..

- ما اسمك؟

- أرييه زيف.

- هل لك أن تخبرني عن مجريات الأمور في أثناء المعارك ضد
العرب؟

- حسنًا، لقد كنتُ في فوج استطلاع ضمن المحور الجنوبي
المُسَمَّى مجموعة الكمين تحت قيادة العميد إبراهيم يوفيه.. بعد أن قطعنا
مسافة ٣٥ ميلاً في تسع ساعات عبر الغرود الرملية الناعمة بين محور
تال الشمالى وشارون المركزى، وبعد معارك طاحنة في بئر لحفن مساء
السادس من يونيو تحت إمرة العقيد إسحاق شدمي، ألحقت بعدها في
السابع من يونيو لأكون تحت إمرة المقدم عموس نئمان في إحدى كتائب
قوة العميد أرييل شارون، المتجهة صوب جنوب سيناء تحت غطاء
جويّ..

لم يعكر صفونا سوى القليل من المناوشات مع بعض الجنود المصريين الذين لم يلوذوا بالفرار .. سرنا وكأننا في نزهة حتى استقرت الكتيبة على جانبي الطريق برهةً من الوقت، لتجميع أرتال القوات .. فجأة ظهرت شاحنة مصرية مُعبأة بالأفراد .. وأُصيبوا جميعاً بالهلع والذهول عندما اصطدموا بنا .. كانت الشاحنة مفتوحة من الخلف فقدفتها بقذيفة من مدفعي المضاد للدبابات فتطاير المصريون الذين كانوا بداخلها .. عدتُ للخلف فأمرني القائد أرييه بالانقضاء عليهم .

- بالقطع أجهزتم عليهم دون إيقاعهم في الأسر ..

- نعم، وكان المشهد بشعاً .. فقد أمسك كل جنديٍّ من قواتنا أقرب سلاح إليه، وأخذنا نمطرهم بوابل من الرصاص حتى لم يبقَ أيُّ مصريٍّ واحد على التحرك .. فقد ماتوا جميعاً وطار رأس السائق .. منذ تلك اللحظة وحتى وصلنا إلى شرم الشيخ لم أفكر في أن أتوقَّف للقبض على أسرى، فكنْتُ أَسْتبدلُ خزانات الرشاش، كالذي مسَّته ليليث، وبدون أن أشعر، طاردتُ ومن معي المصريين وقتلناهم بلا أية قواعد .. لقد شعرتُ بالسعادة ورفاقي بمذبحة شرم الشيخ التي أجهزنا فيها على ما يُناهز مئة وسبعين جندياً مصرياً وهم يلذون بالفرار ..

من استطاع منهم الهرب قد أفلت بمعجزة .. يوماً ما سأعود إلى شرم الشيخ تارة أخرى حتى أتمكَّن من التعرف إلى هياكل أولئك الغوغاء العظمية، الذين قتلتهم بين بعض الصخور على امتداد الطريق الرئيسي ..

- لماذا تودُّ أن تفعل ذلك بعد أن قتلت أسرى عِزًّا من السلاح؟
- إنني أكرهم جميعاً، لذا ستغمرنى السعادة حين أرى رُفاتهم،
التي ستظلُّ كالستار الأحمر يُذكرُ المصريين دائماً بعدم مضايقتنا في
المستقبل..

- وماذا عن بطولات رفاقك في تلك المعارك؟
- أتذكرُ ميخائيل بيرو وجلعاد أهارون، طباخا الفرقة وهما
ينحran ثلاثة جنود مصريين في وضح النهار.. ولن تمحو السنون أبداً
مشهد أفراد من شرطتنا العسكرية و م يأمرُون جندياً مصرياً بحفر قبره
ليردوه قتيلاً فيه، ثم سقط آخر معه بنفس الطريقة.. شاهدت هذه
العملية تتكرر كثيراً ربما لخمس مرات..

لاذت صوفيا من حصار كلمات الشاب الصهيوني، وصخب
الكلام المؤلم بضجيجه الدامي إلى كهف صفحات كتابها التي خضبتة
بقيود أحرف دامعة..

- هل لديك ما تضيفه عن بطولات الجيش الإسرائيلي سيد
أرييه؟

- حسناً، لقد أفادت تلك الحرب العلم الإنساني، والفائدة
للمرضى في إسرائيل وأوروبا وجنى منها البعض المال الوفير..

- لا أستطيع أن أفهم مغزى كلماتك سيد زيف، فهل لك أن
تُوضِّح إذا ما تفضلت؟

- لقد رأيتُ بعيني رأسي عشرات من الأسرى وقد شُقت بطونهم أمامي بأيدي طلبة الطَّبِّ الصغار.. اقشعرَّ بدني لهذه الطريقة البشعة، لكن من ناحية أخرى شكَّل كثيرٌ من الأسرى المصريون مستودعًا هائلًا لقطع الغيار البشرية..

وقطعًا قد جنى السماسرة أرباحًا خيالية من بيع الأعضاء في أوروبا وإسرائيل.. هذا كل ما أستطيع أن أقصُّه على مسامعك آنسة راينوفيتش..

- تعجز جوارحي عن التعبير لك عن مدى دهشتي بصراحتك وإعجابي بأسلوبك في القصص على الرغم من أن وَقَعَ كلماتك قد آلمني مُخَلِّفًا في مسامعي طنينًا من السكون.

أدارت صوفيا بوجهها لتشخص بعينها صوب رفيق أربييه، الذي بزغت على وجهه ملامح غريبة، وعلى لسانه لكمة أميركية جليلة.. أخذت ترمقه بنظرات صامته بعد أن أضحت سجينه جسد من ورق.. إضبارة لحزمة روايات في كتاب موت، مداده قطرات دم نضبت وجفَّت من الخوف والألم.. وروح حبيسة غلاف ذات الكتاب، غلاف لجلد بشر..

- هل لك أن تُطلعني على اسمك؟

- ديفيد وولف قبل أن أشرَّفَ بمُرافقتك والسهر على حمايتك، كنتُ في فوج الاستطلاع الميكانيكي التابع لمجموعة المحور الشمالي رفح - العريش تحت إمرة العقيد روفائيل إيتان وقيادة العميد إسرائيل تال..

- فلتقصَّ عليَّ ما جرى منذ تلقيتم الأوامر بالهجوم..

- لقد اخترقت قواتنا القطاع الشماليَّ بعدما اجتزنا حقول الألغام المحيطة بمواقع المصريين الحصينة، وعن طريق الالتفاف والتطويق، أنجزنا احتلال رفح إثر معركة بالدبابات لنجهز بعدها ممرًا واسعًا.. بعد تقدُّمنا فوق منطقة رملية اعتقد المصريون استحالة مرورنا عليها فباغتناهم، استولينا على مواقع مدفعيتهم واحدًا تلو الآخر مخترقين خطوطهم متجهين صوب المنطقة الدفاعية الثانية في الشيخ زويد..

بعد معارك طاحنة بالدبابات طوقنا كتيبة دبابات مصرية من الشمال والجنوب حتى سقطت.. في ذلك الوقت سبقتنا قوات القائد جونين لتُهاجم منطقة جرادي حيثُ الدُّشم المسلحة والدفاعات قوية التحصين التي كانت من أقوى الدفاعات المصرية بجوار العريش حتى تغلَّب عليها الذئبُ جونين.. في أثناء تقدمنا نحو العريش قامت القوات المصرية التي أعادت تجميعها بالهجوم المضاد على مؤخرة قواتنا، لتشتبك معنا في صراع دام لمواقع جرداء.. أمَّا قوات المقدمة فقد واصلت التقدُّم ووصلت العريش ليلة السادس من يونيو، لتواصل صوب القنطرة وقناة السويس.. أما نحن فبعد بعد قتال مرير ومع الصباح فتحنا الطريق كطريق إمدادات لقواتنا قبل العريش، وتمرکزنا في مطار العريش..

- إذًا لقد قاوم المصريون قبل الهزيمة؟!

- نعم لقد قاوموا رغم تأكُّدهم من خسارتهم للمعركة مسبقًا.. قاتلوا حتى نفدت ذخائرهم واستسلموا كالجبناء لنا نحن الوحوش

الكاسرة، وحوش لم تتدرب سوى على الفتك بطرائدها حتى إن رفعت
الراية البيضاء..

توقّف سيل كلمات الجندي الذي أجذب جوفه فأردفَ بعد أن
ابتلع شيئاً من كأس ريقه قائلاً:

- أستطيعُ التباهي والفخر بتلك الانتصارات التي قمنا بها،
ولكن نبتة الكراهية لن تُثمر سوى أشواك لتدمي المعتدين وها قد فعلنا.
- ما الذي قمتم بفعله.. لقد وعدتُ السيد زائيف ألا أنشر أية
كلمة من حديثنا هذا..

رَدَّ عليها بعد هُنيهةٍ بنبرةٍ يعتريها التبجُّح والوقاحة، وابتسامة
تمايلت بطراً وخيلاء قائلاً:

- لا أبالي إذا ما نَشَرَتِه آنسة راينوفيتش، فذبح هؤلاء المصريين
واجب مُقدَّس؛ لأنهم أبناء عاهرات .. لك أن تعلمي أن الجنرال موشي
ديان قد أغدق علينا جوائز سخية بعد أن أجرى مسابقات لقتل
الأسرى المصريين، وقد سمح لنا ببعض التذكارات التي حصلنا عليها
من القتل..

لقد أعدمنا عمالاً مدنيين مصريين بأحد المحاجر قرب العريش،
فقد وقفنا على التلال وبدأت المذبحة، وبدأنا نحصدهم، وكان مشهداً
سيئاً، فبعضهم تجمّد في مكانه، وبعضهم سقط على الأرض.. وتحصّرني
الآن مقولة قائدي: إن القائد الغبي فقط هو الذي ينتظر الأوامر فيما هو
مفروض عليه..

- وما الذي يحضر ذاكرتك الآن أيضًا؟

صمت الشاب الصهيوني لثوانٍ معدودة حتى أطلقت ابتسامة نكراء
ارتسمت على وجهه العنان للسانه ليردف:

- أتذكر أحد العمال المصريين، الذي تمكّن من الهرب بعد أن
طالته رصاصتي فأصيب في صدره وقدمه، وبعد ساعات عادَ وهو
يزحف طالبًا شربة ماء ..

- وماذا فعلتَ به؟

- آنستي، أنا لستُ مسئولًا عن غباء العدو، فبسرعة خاطفة
ألحقته بزملائه ..

- ألا تشعر بالندم أو تأنيب الضمير سيد وولف؟ فلقد كان من
الممكن إبقاؤهم أسرى مع قليل من الماء والطعام ..

- مُطلقًا .. لستُ نادمًا على ما فعلتُ، ولا أشعر بوخز الضمير،
بل أنا فخور بما فعلتُ .. أنا لا أحوّلُ البحث عن مبررات، ولكنها
الحقيقة، فلم تكن المياه والطعام لتكفيهم .. وفي مرحلة معينة أدركنا أنه
لن تكون هناك نهاية لأسر المصريين، وسوف نتعطل بسببهم، فتوقفنا
عن جمعهم، وشرعنا في إطلاق رصاصنا على مَنْ يتحرك حاصدين
أرواحهم ..

كان نائب الكتيبة أفيخاي بيدرمان يرصّهم وكأنهم في عرضٍ
مسرحيٍّ بعد نزع أسلحتهم ليأتي الأمر بإغراقهم في دمائهم الدنسة، ثم

تجريدكم من ساعات اليد والخواتم وحافظات النقود.. كان هذا المشهد يتكرر كل كيلومتر..

- لم يتبق لي سواك سيد زائيف.. فلتصرف رجالك، ولتقص عليّ ما واقعته في أيام القتال.. أكاد أشتّم رائحة وجبة دسمة في روايتك الشائقة.. أولاً لتحديثي عن شخصك ثم عن بطولاتك..

- بدأت في تنظيم هاغاناة قبيل إنشاء دولة إسرائيل لأُم مصرية وأب سوفيتي، اللذين غرسا في ذهني وعقلي مقولة متجنية وغرساها بمياه الإصرار.. شاركت في قتال المصريين وأصبتُ بإصابة خطيرة في حرب التحرير في عام ١٩٤٨.. أطلقوا عليّ الذئب الجائع ومصاص الدماء لشراستي ودهائي.. قارعتُ المصريين في سيناء إبان عملية قادش في عام ١٩٥٦ أمّا عملية الملاة الحمراء كانت مختلفة تمامًا عن سابقتها..

- كيف كان وجه الاختلاف؟

- جاءت الأوامر من قيادات الجيش الإسرائيلي بقتل كل عربيّ من الممكن أن يقع في مرمى البصر أو نيران البنادق.. اجتحنا رمال سيناء، موجات عملاقة متتالية ومتواترة تجرف وتدمر كل ما في طريقها.. واصلنا السير بمعداتنا دباباتٍ ومدركاتٍ دون توقُّف إلى الأمام، يساندنا سلاح الجو الذي أجهز تمامًا على مظلة القوات المصرية فتركها فريسة لنيران قواتنا والشمس الحارقة..

كَبَدْنَاهُمْ خَسَائِرَ فَادِحَةٍ، فَكَانَ إِمْعَانٌ فِي الْخِذْلَانِ، وَجَعٌ عَلَى وَجَعٍ، ضِيَاعٌ فَوْقَ الضِّيَاعِ.. نَفَذْتُ أَوَامِرَ قَائِدِي شَارُونَ بِحَرْفِيَّةٍ وَبِالْحَرْفِ الْوَاحِدِ أَسْقَطْنَا الْعَرِيشَ وَسَيَّطَرْنَا عَلَى أُمِّ كَاتِفٍ وَأَبِي عُجَيْلَةٍ وَجَبَلِ لَبْنَى.. الْكَثِيرُ مِنَ الْقُرَى الْمَحْصَنَةِ وَالْعَدِيدِ مِنَ الْمَدَنِ الَّتِي انْهَارَتْ تَحْتَ وَطْأَةِ النَّابِلِمْ وَقَذَائِفِ الْبَازُوكَا.. طَائَرْتْنَا الْمَقَاتِلَةَ وَالْقَاذِفَاتِ الثَّقِيلَةَ، أَسْرَابَ تَدَكِّ مَوَاقِعِهِمُ الْحَصِينَةَ، وَتَضَرَّبَ أَهْدَافُهَا بِعِنَايَةِ بَفَارِقِ خَمْسِ عَشْرَةِ دَقِيقَةٍ بَيْنَ كُلِّ ضَرْبَةٍ وَأُخْرَى..

دُمِّرَتِ الْمَطَارَاتُ وَمَدَارِجُ الطَّائِرَاتِ الْجَائِمَةِ عَلَيْهَا.. انْتَظَرْنَا الْمَعْرَكَةَ عَلَى أَحَرِّ مِنَ الْجَمْرِ.. مَا زَالَتْ عِبَارَاتُ الْقَائِدِ شَارُونَ تَمْلَأُ أُذُنِي.. الْمَصْرِيُّونَ لَا يَحِبُّونَ الْقِتَالَ لَيْلًا لَا يَتِمَتَعُونَ بِمَعْرَكَةٍ وَجْهًا لَوَجْهٍ، وَنَحْنُ مُتَخَصِّصُونَ فِي كُلِيهِمَا.. هَاجَمْنَا الْمُتَحَصِّنِينَ عَلَى جِبْهَاتِ الْقِتَالِ، وَالتَفَتِ قَوَاتُنَا الْمُدْرَعَةُ عِبْرَ الْكُثْبَانِ وَالْغُرُودِ فِي الشَّمَالِ وَالْجِبَالِ الصَّخْرِيَّةِ فِي جَنُوبِ أُمِّ كَاتِفٍ لِتُطَوِّقَ الْقَوَاتِ الْمَصْرِيَّةَ.. أَمَطَرْنَا الْخَنَادِقَ وَالْمَلَاجِيءَ الْإِسْمَتِيَّةَ بِالْقَذَائِفِ وَالْمَدَافِعِ..

أَتَذَكَّرُ ذَلِكَ الضَّابِطَ الْمَصْرِيَّ الَّذِي قَادَ كَتِيبَةَ مَشَاةٍ وَسَرِيَّةً مُضَادَّةً لِلدَّبَابَاتِ وَعَشْرَ دَبَابَاتٍ قَدْ أَغْلَقُوا طَرِيقَ بَاطُورٍ.. كَانَ مُقَاتِلًا قُذًا وَقَائِدًا عَنِيدًا.. رَغِمَ الْمَفَاجَأَةُ حِينَ عَبَرْنَا الْكُثْبَانَ وَتَوَغَّلْنَا عِنْدَ سَدِّ الرُّوَاغَةِ فِي الثَّانِيَةِ وَالنِّصْفِ ظَهْرًا، فَقَدْ تَوَقَّفْنَا بَعْدَ أَنْ ارْتَطَمْنَا بِحَائِطٍ صَدَّ مَنِيْعٍ مِنَ الْمَقَاوِمَةِ الشَّرْسَةِ وَحَقْلِ الْغَامِ دَمَّرَ عَلَى أَثَرِهِ سَبْعَ دَبَابَاتٍ..

كَانَتْ مَعْرَكَةُ حَامِيَةِ الْوُطَيْسِ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَوَامِرِ الْإِنْسِحَابِ الْمُبَكِّرِ الْعَشَوَائِيِّ لِلْمَصْرِيِّينَ فَإِنَّ ذَلِكَ الْمَصْرِيَّ ظَلَّ صَامِدًا مُجْمَعًا قَوَاتِهِ،

بأثا الروح القتالية في صدورهم العارية، وما انفكَّ يُمطر قواتنا بالرصاص والسُّباب.. فالدهية كان يُتقن الحديث للعبرية والروسية بطلاقة..

حتى حلَّ الظلام وهاجمنهم في المساء، وسقطت هضبة أم كاتف، وسقطت مفارق طرق أبي عجيلة، لينهار خط دفاعهم الأول وحائط صدهم.. فاتحًا أبواب سيناء على مصارعها أمام جحافل قواتنا صوب الممرات والمضائق ومنها إلى قناة السويس بعد معركة أبي عجيلة الملحمية التي استمرت خمس عشرة ساعة كاملة.. قتلنا المئات وأسرننا عدة آلاف..

- وما الذي حدث بعد ذلك؟

- قمتُ بعدة عمليات نوعية حتى عدتُ إلى العريش.. تحديدًا في مطار العريش في الثامن من يونيو حيث أُعدَّ معسكر للأسرى الذين نجوا من التصفية على الطرق أو في المعارك الضارية كانت الساعة الرابعة عصرًا.. كان مشهدًا استثنائيًا حين ابتكرنا حيلة لاصطياد الضباط المصريين بعد أن نزعنا رتبهم العسكرية، فحرمانهم من الماء ثلاثة أيام متتالية في المعسكر، ثم هممنا بإحضار فنتاس مياه ضخيم به صنابير كثيرة..

انقضت حشود العطشى صوبها كالسيل الجارف على الرغم من تهديد الرشاشات فقط للحصول على شربة ماء.. لكننا أمرناهم أن يشرب الضباط أولاً، وبالفعل انطلت الحيلة على الضباط المصريين،

وانطلقوا باتجاه الفنتاس، وما إن عانقت أفواههم صنايير المياه حتى انهمر سيل الرصاص من المدافع ذاتية الحركة، وقضوا جميعاً أمام أعين العساكر الذين قد تملكهم الرعب تماماً وأعينهم الزائغة ترقب الماء المنهمر يغسل دماء الضباط الصرعى، يشاهدون بعضهم يحتضر ودمائهم تسيل بغزارة، وبعضهم الآخر يتلوّى من الألم..

لقد فارق الحياة ما يناهز ثلاثمئة أسير مصري في ثانية واحدة، بعدها دفنتهم الجرافات.. كان من المدهش في ذلك اليوم أن قابلت ذلك الضابط المصري وقد نجا من تلك المذبحة!

في صباح اليوم التالي التاسع من يونيو فرزنا ضباط الصف وقيدنا أيديهم إلى ظهورهم، ومددناهم على الأرض، وجاءت دبابة، مرت فوق رؤوسهم وهرست أجسادهم مع الرمال.. في الثاني عشر من يونيو وقبيل مغادرتي فوجئت ببعض من جنودنا يطلبون من الجنود المصريين كتابة أسمائهم لتسليمها للصليب الأحمر الدولي، لكن ما إن أمسك الجنود بالورق والأقلام حتى قتلهم القناصة من أبراج حراسة المعسكر، وحين سألت قائد المعسكر أخبرني أنهم فعلوا ذلك للتخلص من كل من يعرف القراءة والكتابة.. رسالة قوية أردنا إيصالها إلى المصريين مع القليل ممن تبقوا أحياء وعادوا إلى مصر..

- وهل قتلوا ذلك الضابط المصري بعدها؟

- لا، لم تطله رصاصتنا، فقد فرّ هو وعشرة آخرون في العاشر من

يونيو..

- ربما قد مات من العطش أو صَفُوهُ في طريق عودته إلى أهله..
- هذا الصنف من الرجال كالقطط له من الأرواح سبع كما يقول المثل العربي..

- بمناسبة ذكر الأرواح هل تعتقد في تناسخها؟
- نعم، تناسخ الأرواح يُسمى بالعبرية جلجول هنيفيش، يعني الإيمان بأن أرواح البشر تعود بعد الموت إن آجلاً أو عاجلاً وتستقرُّ في جسد إنسان آخر.. طبقاً لما ذكر في القبالة فإن معظم الأنفس التي تخرج للحياة كل يوم هي عبارة عن انتقال لأرواح قديمة إلى أجسادٍ جديدة، والقليل منها هي أرواح جديدة..

فالله قد خلق ستمئة وثلاث عشرة روحاً فقط في العالم والكون.. من هذه الأرواح تتجزأ وتنشق الأرواح مثل الشرارة، فكل روح يمكن أن تخلق العشرات بل الآلاف والملايين من الأرواح، وعليه فإن العالم في تزايد مستمر ولا نهاية له من حيث عدد قاطنيه..

صمت برهةً وهو يتطلع إليها إلى عينيها الزرقاوين البراقتين بنور النجوم في السماء ليردف:

- وعبور بالعبرية تعني إلقاء روح إنسان ما ظلّالها على روح إنسان آخر حتى دون أن تسكن جسده بالضرورة.. فإذا ما كانت الروح الهائمة روحاً مذنبه، فهي تلقي بظلّالها على الشخص لتكفر عن سيئاتها.. ومن ثم، فهي ستلبس الشخص الحيّ، وفي هذه الحالة،

تُسمى ديبوق ولا بد من طردها.. وقد تُلقِي الروح الهائمة ظلالها على روح شخص آخر لهدايته، وإضفاء هبّة عليه..

من ناحية أخرى تذكر القبالاة اللورانية حالات عديدة لتناسخ الأرواح، منها أن روح يعقوب قد حلت في موردخاي، كما حلت روح هارون في عزرا، في حين أن روحي موسى وسيمون بن يوحاي كانتا تلقيان ظلالهما على روح إسحق لوريا. ويقال إن روح حاييم فيتال تلميذ لوريا لم تتأثر قط بخطيئة آدم.

- وماذا عن روحك أنت، ألم تتأثر قط بخطيئة نفسك ومن حولك؟

- أنتظرُ يوماً كبيراً بفارغ الصبر، فربما يكون هذا اليوم هو الفرصة الأخيرة لتغيير مصيري أو مصير العالم في السنة الآتية..

- أهو يوم عيد الغفران؟

- نعم هو يوم مقدس كما تعلمين مخصص للصلاة والصيام فقط.. يحظر فيه كل ما يحظر على اليهود في أيام السبت فلا عمل ولا إشعال نار ولا كتابة بقلم ولا قيادة سيارات وغيرها، ولكنه توجد كذلك أعمال تحظر في يوم كبير بشكل خاص مثل تناول الطعام والشرب، الاغتسال والاستحمام، المشي بالأحذية الجلدية، وأي أعمال بهدف التمتع، ويعتبر هذا اليوم فرصة للعبادة والاستغفار فقط.

- ولم تنتظر هذا اليوم على أحرّ من الجمر هكذا؟

- لأَكْفَرُ عن جميع الخطايا التي ارتكبتها فهو اليوم الذي نَجَّى
الرَّبُّ موسى وآباءنا من فرعون بمعجزة انفلاق البحر..

- وما شعائر ذلك العيد؟

- يبدأ العيد قبل غروب الشمس بنصف ساعة تقريباً، وينتهي في
اليوم التالي عند ظهور النجوم.. أما شعائر هذا العيد فتبدأ في المعبد
مساءً بتلاوة دعاء كل النذور ويُحتَمَم الاحتفال في اليوم التالي بصلاة
نعيلاه، التي تعلن أن السماوات قد أغلقت أبوابها.. يهلل الجميع
قائلين.. العام القادم في أورشليم المبنية.. ثم يُنفخ في البوق بعد ذلك..

كانت أمي تروي لي أنا وأختي راشيل مراسم الاحتفال بعيد
الغفران في مصر، إنه في عشية عيد الغفران كان اليهود في مصر يضعون
دجاجاً في حمامات أو شُرَفات منازلهم.. ديك لكل ذكر في العائلة.. لو
وافق هذا العيد يوم الأحد تتحوَّل أسواق السبت مساءً إلى مذابح
حقيقية، حيث يقف المضحون إلى الموائد المُعدَّة للذبح، وكل عائلة
تتقدَّم بدجاجها والسيدة الحامل تُقدَّم ديكاً ودجاجة عن الجنين،
وتحتفظ كل أسرة بواحدة أو اثنتين من هذه الدواجن، وتُقدَّم ما تبقى إلى
الفقراء وأبناء السبيل، وتعد فطائر أو عجائن بلحم الدجاج مع الحساء
لتكون الوجبة التي يعيشون عليها من خلال خمس وعشرين ساعة..

- يتطهرون من الخطايا عبر نقلها للدجاج!؟

- نعم، أنسة صوفيا..

- أعتقد أنني فور أن أنتهي من إعداد مقالتي عن عمليّكم العسكرية المرتقبة في بورفؤاد، سيتعيّن عليّ التعرّف أكثر إلى المصريين بعد أن لمست ما في صدوركم من نار تشتعل من أجل عقيدة راسخة لن تتبدّل أبداً..

- أأحذرك أنسة صوفيا من التعامل مع أولئك الدونيين، فهم غوغاء لا يفقهون سوى الكُره والبغض للسامية..

- بالقطع سأأخذ بنصيحتك في عين الاعتبار..

أسدل السُّبات الستار على الحديث المطول الذي دام عدة ساعات.. اختطفني الغفوة لأمتطي مهرة النوم، التي ركضت تُسابقُ سواد الليل حتى أدركتنا شمس نهار الأول من يوليو.. وخز مسامعي دويٌّ ضجيج مُحركات رتل من عربات ومدركات عسكرية مُحَمَّلة بعتاد وعُدّة، عجلاتها المجنزرة لم تتوانَ عن لإيلاام وجه الأرض، التي أخذت تنتفض من تحتها مُزلزلةً أرجاء المكان..

انتفض الجميع ليستعدوا لرحلتهم صوب شمال الضفة الشرقية من قناة السويس، حيث معركة لم تكن في حسابان المحتلين الصهاينة.. حالة من الاسترخاء والارتياح عمّت أنفس الجنود الذين لم تغب البسمات عن وجوههم.. فالجميع على يقين أنهم سيمضون الليلة بين جُدران إحدى بيوت بورفؤاد.. الجزء المتبقي في سيناء الذي لا يزال تُراباً مصرياً خالصاً..

أَمَّا أَنَا فَرَحْتُ أَمَلِيَّ عَمْرَ رَحَلَتِي وَعَيْنِيَّ بِجَمَالِ الْبِيدَاءِ بَيْنَ الْوُدَيَانِ
وَالْجِبَالِ وَالْكُثْبَانِ الْبَدِيعَةِ.. تَوَقَّفْنَا لِلْإِسْتِرَاحَةِ عَلَى فتراتٍ طَوِيلَةٍ
لِلتَّقَاطِ أَنْفَاسِنَا الْمُسْتَعْرَةِ مِنْ حَرَارَةِ الصَّيْفِ.. أَخَذَتِ الشَّمْسُ تَتَسَلَّلَ
شَيْئًا فَشَيْئًا وَرَاءَ الْأَفُقِّ، وَنَسِيمُ الْقَنَاةِ الْخَافَتِ رَاحَ يُدْغِدْغِنِي بِلُطْفٍ كُلَّمَا
اقْتَرَبْنَا مِنْهَا وَمِنَ الْبَحْرِ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ.. تَوَارَى النَّهَارُ بَعِيدًا عَنْ قَافِلَةِ
رَاحَلَتِي.. نَهَارٌ قَدْ رَحَلَ وَهُوَ يَدْمِي غَسَقًا قَرْمَزِيًّا فِي صَحْرَاءِ شَاسِعَةٍ
أَضْحَتْ رَمَالَهَا لِحُودًا، وَقَدْ وَهَبَتْ قَلْبَهَا قَصْرًا وَرَحِمَهَا مَمْلَكَةٌ لِنَهَارٍ قَدْ
انْصَرَمَ جَسَدُهُ، بَيْنَمَا رُوحُهُ تَوَلَّجَ فِي كَهْفٍ لَيْلَهَا السَّرْمَدِي، مُحَاطَةً بِتَرَانِيمٍ
مِنَ الصَّمْتِ وَنَوَاحٍ مِنَ السَّكُونِ..

غَابَتِ الشَّمْسُ لِيَدُويِّ صَوْتِ الْبِنَادِقِ الْآلِيَةِ، وَتَنْهَالُ قَذَائِفُ
الْمَدْفَعِيَّاتِ مِنْ مُخْتَلَفِ الْأَحْجَامِ وَالْأَعْيُورِ وَالْإِتْجَاهَاتِ عَلَى مَنْ هُمْ فِي
مَرْمَى بَصْرِي فِي الْإِتْجَاهِينَ.. إِنَّهَا الْحَرْبُ.. مَدَافِعُ.. هَاوَنَاتُ..
هََاوَتِرَاتُ.. أَسْلِحَةٌ عَدِيمَةُ الْإِرْتِدَادِ.. صَوَارِيخُ..

أَمْرُنِي زَائِيْفٌ بِالْإِحْتِمَاءِ خَلْفَ سِيَّارَتِنَا.. سَادَ الْمَرْجُ وَالْمَرْجُ.. كُنَّا
عَلَى بُعْدٍ حَوَالِي أَرْبَعِينَ كِيلُومِتْرَ مِنْ مَدِينَةِ بُورْفُؤَادِ.. نَقْطَةُ حَصِينَةٍ أَعَدَّهَا
الْمَصْرِيُّونَ لَصَدِّ أَيِّ هُجُومٍ مُحْتَمَلٍ.. دَوَّتِ الْإِنْفِجَارَاتُ وَبَدَأْنَا فِي
اسْتِنْشَاقِ رَائِحَةِ غَرِيبَةٍ.. أَدْخَنَتْ لِمَعْدَاتِ وَآلِيَّاتِ تَحْتَرِقُ.. رَائِحَةُ الْمَوْتِ..
اعْتَمَرَتْ خَوْذَتِي وَلَمْ أَطْلُبْ فِي الْمُضِيِّ قُدُمًا لِأَكُونَ شَاهِدَةً عَلَى مَا يَجْرِي..
حََاوَلَ بَنُ زَيْوْنَ أَنْ يَرْدِعْنِي لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ تَحْتَ وَطْأَةِ إِصْرَارِي
وَعِنَادِي.. امْتَثَلَ لِلْأَمْرِ وَرَافَقَنِي إِلَى الْخَطِّ الْأَمَامِيِّ لِتَتَابَعَ حَدَقَتَايَ أَيْدِي

الجنود وهي تتناقل الدانات ثم تراقبها وهي تسقط في الماسورة وأشاهدها حين تخرج منها بسرعة هائلة تحجب عني رؤيتها.. تتبعها عيناى عبر أزيزها في الهواء وانفجارها على الجانب الآخر..

المصريون قد أعدوا كمينًا.. أصوات تتعالى بالعربية والعبرية.. صراخ وصرخات.. حريق في دبابة وعدة مدرعات.. انفجارات بين أعواد الحشائش في مستنقع ملحي.. وميض الرشاشات.. فلنرواغهم ولنلتف من حولهم لنطوِّق أولئك الأغبياء.. حسنا.. صمت طويل قد ساد.. لا صوت بشري واحد من الطرفين.. لا أصوات رصاص.. لا أصوات قبائل.. أو محركات.. ليس سوى صوت النيران المشتعلة هنا وهناك. لا أعرف ماذا حدث.. بعدها استعرت نيران القتال تارة أخرى، واختنقت الصدور بالأدخنة والقلوب برائحة الموت.. عشرات من الجرحى يتوالى إخلاؤهم من أرض المعركة والدماء تُغطي أجسادهم وملابسهم الممزقة..

في وسط هذا الصخب تلقفني زائيف عنوة، ليعود بي إلى الخلف حيث سيارتي بعدما ازدادت حالة الارتباك والتخبط بين الضباط والجنود مع حمية وطيس المعركة الطاحنة.. عدتُ وقد احتميت بساعات طويلة، لم ينقطع فيه صوت الموت إلا قليلا.. انتصف الليل علينا ولا جديد سوى اشتعال مزيدٍ من النيران في آليات الجنود وأجسادهم وقلوبهم.. قبيل الفجر جاءت الأوامر بالانسحاب فتقدمت بحماية من زائيف لأنترع بعض الكلمات من الجنود المصابين إما بإصابة في الجسد أو جرح في الروح.. بوجوه شاحبة واجمة وعيون منتحبة باكية

- ما اسمك؟
- إيتان جافن.
- فلتهدأ عزيزي إيتان، ولتقصّ علينا ماذا دار في تلك الساعات الماضية؟

- لقد عشتُ طوال الليل فيما يشبه الكابوس المروّع لهول ما رأيت .. إن القتلى والجرحى من رفاقي كانوا بالعشرات في كل مكان.. لم يسلم واحد منا من القصف الوحشي بالمدفعية الثقيلة ومدافع الهاون والصواريخ ورصاصت قناصيهم.. صورة كئيبة ومؤلمة وحزينة إلى درجة تعجز الكلمات عن وصفها، ككارثة قريبة أو كابوس مروّع.. قاسيت منه أنا نفسي وسوف يلازمني مدى الحياة.. لقد أمضيتُ الليل بطوله أتَنقّل من مكان إلى مكان وسط الجحيم مذهولاً .. وبكيّت عدة مرات في الظلام الدامس، وبجوار المدرعات التي اشتعلت فيها النار، وظلّت مشتعلة ساعاتٍ طويلةً..

أدار الجنديّ وجهه وابتعد عن صوفيا ببطءٍ، وقد تسارعت أنفاسه، لينخرط في نوبة من بكاء هستيري.. دقائق وتعثّرتُ في أحد الجنود الذي قد افترش الأرض وبجواره اثنان من المصابين فبادرته صوفيا سائلة:

- ما اسمك؟ وكيف دارت الأمور على الأرض؟
- ياكوف تابور، إنه لا شيء أقسى على نفسي من رواية ما حدث في هذه الليلة، فلم يكن ذلك حدثاً عسكرياً رهيباً فقط وإنما مأساة

عاشت وستعيش معي حتى الموت.. فلقد وجدت نفسي فجأة أمام
أعظم تهديد تعرضت له منذ التحقت بجيش الدفاع الإسرائيلي ..

في الساعات الأولى لهجومنا كان شعورنا مخيفاً لأننا كنا نشعر أننا
نزداد ضلالة أمام جنود يتعاضمون كالمردة والعمالقة.. فقدت الوعي لا
أدري كيف تركني رفاقي وفرُّوا.. بعدها أفقتُ لأكتشف أنني الحيُّ
الوحيد في هذا المكان..

كيف حدث هذا لجيشنا الذي لا يُقهَر؟ كيف أصبحنا في هذا
الموقف المخجل؟ وأين ذهبَت سرعة الجيش الإسرائيلي وتأهبُّه؟
دعيني وشأني.. دعيني وابتعدي عني..

انتفضت صوفياً بعد أن أُرهبها صوت الجندي الصارخ لتعود إلى
الخلف قليلاً، حيث عشرات آخرون من الجرحى استلقوا بداخل
ناقلات الجنود أحدهم كان يرقد وجسده يرتجف من الصدمة والألم..

- ما اسمك أيُّها البطل؟

- لقد احترق أوري دان وحزاي هوبن بورات في دبابتهما
وتطايرت أشلاء يشعياً كرمْل وناحوم لاندو أمامي وأنا أتوارى من
المصريين القتلة.. لماذا يريدون قتلنا.. لماذا يكرهوننا؟!

- أنت بخير الآن.. فلتخبرني ما اسمك؟

- لا أدري ما اسمي.. لا أعرف.. هل تخبريني أنت؟ أحد يخبرني
من أنا؟

جذبها زائيف برفق، وأشار بيدها أن تدعه وشأنه حتى لاحقتها
عينا أحد الجنود المتكئين على رمال سيناء المتألّمة.. وما إن اقتربت منه
صوفيا حتى باغتها قائلاً:

- اسمي يهونا ثان هابر.. وسأقص عليك تفصيلاً ما حدث..

أطبقت صوفيا بأناملها على كتفه، هي تربت عليه برفق وعيناها
تثيان على شجاعته شاكراً له.. حتى أردف:

- بدأنا في التقدّم نحو الشرق مع آخر ضوء.. كانت ملاحظات
جنوب بورفواد بيضاء زاهية عن يمين الطريق، وعن يساره كانت
الملاحظات طينية ضحلة، يقترب لونها من السواد.. فتحنا النيران عليهم
في الوقت الذي لم نتلق ردّاً منهم فأخذتنا الحمية، ورحنا نتقدّم أكثر
فأكثر، ولم نكن ندري مكرهم في نصب الكمائن، فالمصريون لم يمتلكوا
أية أسلحة يمكنها أن تصل إلينا لذلك ادخروا الذخيرة حتى نتقدّم
أكثر..

وبالفعل اقتربنا من شرك فخّهم أكثر وأكثر حتى أدركنا حقل ألغام
وتدية، زرعوها أمام مرأى أعين نظاراتنا الميدانية بين أعواد الهيش..
بالرغم من ذلك فقد انفجر حولنا، فلقد كان من الصعب تفاديه..
تخطينا منطقة الألغام لتفصلنا عنهم مئات من الأمتار وقد استطاعوا أن
يخفوا أحد المدافع عن طائرة استطلاعنا، حتى أمسينا في مرمى نيرانهم
التي فاجؤونا بها، فشرعنا في تركيز نيراننا عليه كي نصيب طاقمه
ونُدّمّه أو نُحطّم تلسكوب التصوير الخاص به، فأسكتناه بُرهةً من

الوقت، وعاد مرة أخرى للعمل ليصيب الكثير منا بالجروح والهلع.. في ذلك الحين تحركت بسرعة بارقة ووجهت رشاش عوزي صوب الملاحات لضرب أي شيء يتحرك مهما يكن، وضغطت على الزناد موجها إياه إلى الجميع، لم أتوقّف إلا بعد انتهاء شريط الرصاص المكون من ٥٠ طلقة..

بلغت المصيبة أوجها بإصابة دبابتنا ومدركاتنا بعد أن تقدّمت والقذائف تنهمر على رؤوسنا والنيران من حولنا مشتعلة في جميع الأماكن.. أعطبوا دبابة وعربتين مجنزرتين، كانت عديمة الفائدة في الحقيقة مع هذا المدى القريب، لكننا استخدمناها في ذلك الوقت لبثّ الرعب في الجنود المصريين..

اشتعلت النيران ودوّت الانفجارات، وأنا أتقل وثبًا من موقع إلى موقع، بينما أعاقت هذه المركبات المحترقة تقدّم من خلفها.. اعترى الجنود حالة من الجنون حين أصيبوا خلال لحظات بإصابات قاتلة من الانفجارات، وتناثر الشظايا واشتعال النار، وبدؤوا يلقون أنفسهم من المدرعات، والنيران مشتعلة فيهم.. بينما كانت قذائف الهاونات تستقبلهم طوال الوقت ليُصاب من استطاع الخروج من الدبابات والآليات المعطوبة حيث كان القصف العشوائي الرهيب لا يزال مستمرًا..

يا لها من ليلةٍ حالكة الظلام، شديدة العتمة، إلا من النيران التي شملت كل شيء.. استمر التراشق قرابة نصف الساعة قبل أن نتقهقر

فَارَّينَ بجلدنا من شبح الموت.. زحفنا إلى الوراء ونحن نتذوَّق رمال
المستنقع الذي قد لَطَّخَ وجوهنا بالوحل.. جاءت الأوامر بالالتفاف
من حولهم وتطويقهم لفتح الطريق..

توقَّف القتال حتى سمعنا تبادل إطلاق النار الذي استمرَّ فترةً
ليست بقصيرة إلى أن بقيَ إطلاق النار من جانب واحد.. خلَّنا من
جانبنا فعاودنا الهجوم بآمالٍ عريضة أننا قد نجحنا في إبادة قوات
الكمين، وأن المهمة قد نُفِّذَتْ بنجاح وأن المصريين قد فروا مُجَدِّدًا كما
عاهدناهم في الأيام الستة..

قمنا بالمهجوم وكان بجانبني رفاق الأوغداة ليفي ياريف وإيلي
جولدمان وبنيامين أهارون وإيلي شيف حتى سمعت أصوات الدبابات
والمجنزرات تتقدَّم من جديد، لقد فشل التطويق، ولم يعد أمامنا سوى
الهجوم من الأمام، وبدون لحظة تفكير صرخت في زملائي أن يتقدموا
ويقاتلوا، في حين قد وجهت رشاشي إلى القوات المرابضة.. تقدموا
جميعاً إلا إيلي شيف الذي لم ينفك عن إمدادي بالذخائر لأحمي فصيلتي
وهم يطلقون الصواريخ..

صَمَّ أذنيَّ دَوِيَّ هائلٌ وأغمضت عيني وجسدي يستقرُّ على الأرض
بين شظايا وجثث تتطاير في الهواء وتنتشر بجواري أشلاء رفاقي.. قذى
في عيني وطنين صمتهم صراخ في أذني.. لتسود جولة من الصمت مرة
أخرى بعد أن أصابت قذيفة أحد مدافع المصريين صاروخاً لحظة أن
أطلقه إيلي جولدمان..

نفضتُ الغبار عن جسدي وأنا أشعر بانتفاخ وصهد شديد في وجهي، التفت وأنا أشرح لإيلي شيف ما حدث، إلا أنني لم أجده بجواري فقد أصابته قذيفة مباشرة في جسده وسقط على الأرض جثة هامدة، حينها فقط شاهدتُ بنطالي الممزق والدماء تنزف من ساقي اليسرى، رحتُ أزحف مُتَحامِلًا على جُرحي وأنا في مرمى نيران ذئاب لا تراني سوى طريدة تنزف الدماء من ساقها.. طريدة يعتمر جسدها سحجات وكدمات، متدثرة في زِيٍّ عسكريٍّ مُهترئٍ يكسوه دُمٌّ قانٍ، حاولت الوقوف فوقعتُ على الأرض، وانثنت من تحتي قدمي المصابة، أمعنتُ فيها النظر لأجدها شبه منفصلة عن ساقي، ولا تتصل به إلا بجزء صغير منها، شعرت بدوار ثم فقدتُ الوعي، وسمعتُ مَنْ يهمس بالعبرية، ففتحتُ عيني لأتيقن أنني ما زلتُ على قيد الحياة.. حتى أتوا بي إلى هنا.. هل ترغبين في الاستماع إلى المزيد، لا أعتقد أن أحداً من أولئك سيقصُّ عليك أكثر مما قلته لك..

- جزيل شكري لك سيد هابر وأطيب التمنيات بالشفاء العاجل..

غادرت صوفيا موقع المصابين لتمتطي السيارة إلى جوار زائيف ومرافقيهما، مغادرين المكان مع شمس الأحد الثاني من يوليو إلى الجنوب.. لم يعد بن زيون كما كان من قبل.. انطوى على نفسه منذ أن غادرنا، ربما لأنه قد كان دائماً على قناعة بأن العرب لن يُهاجموا، وليس في وسعهم أن يدافعوا.. ولكن كل شيء قد تغير للتو..

- ما بك سيد عامير سكي؟ لماذا يلتحف وجهك بهذا الرداء المتجهم؟

- لا عليكِ آنسة راينوفيتش.. فقط سنغير وجهتنا إلى إحد النقاط الحصينة في جنوب الضفة الشرقية لقناة السويس، حينها فقط سيكون مُتاحاً لك أن تعبري القناة بصحبة مُثُلٍ للصليب الأحمر الدولي..

- أأذلك الأمر قد عبس وجههك عزيزي زائيف؟ أم لعدم تمكُّنا من دخول بورفؤاد؟

- للاثنين آنسة صوفيا.. صدقاً للاثنين..

- ولكنك قَطْعاً مُستاء وحزين لما آلت إليه الأمور الليلة المنصرمة.. أليس كذلك؟

- بلى، لا بد أن يأخذ القادة من تلك المعركة عِبرةً ودرساً.. فهي كزلازل تعرضت له القوات الإسرائيلية، وإذا ما لم يعتبروا، سيكون زلزالاً مُروَّعاً.. فلقد أزالَت تلك المقارعة الغبار عن عيني، وأظهرت لي ما لم أكن أراه قبلها.. أننا لسنا أقوى من المصريين، وأن هالة التفوُّق والمبدأ السياسي والعسكري القائل بأن إسرائيل أقوى من العرب وأن الهزيمة ستلحق بهم إذا اجترؤوا على بدء الحرب، هذا المبدأ لم يثبت، ولا بد أن يراجعوه له..

- وبصفتك مُقاتِلاً، كيف ترى السبب الذي أدَّى إلى تلك الخسارة؟

- سوء التقدير والرعونة.. لقد تحدثنا أكثر من اللازم بعد الستة أيام حينما ملأ المصريون آذان الأرض بالكلام، وكان ذلك يمثل إحدى مشكلاتهم، والآن تعلّم المصريون كيف يقاتلون، بينما تعلّمنا نحن كيف نتكلّم لقد كانوا صبورين، أشاوس وذوي بأسٍ..

ينبغي ألا نُبالغ في مسألة التفوّق العسكريّ الإسرائيليّ، بل على العكس فبداخلي الآن شعورٌ طاعٍ بضرورة إعادة النظر في علم البلاغة الوطنية.. إن علينا أن نكون أكثر واقعية وأن نبتعد عن المبالغة، وإلا ستكون العواقب وخيمة فيما بعد.. علينا العودة إلى الطريق الصحيح..

- وكيف يمكنكم تدارك الأمر حتى لا تتفاقم الأمور؟

- ما حقّقناه حتى الآن سيُسّطره التاريخ بأحرفٍ من ذهبٍ وتلك المعركة لن تؤثر بالسلب في مكاسبنا، فهي شيءٌ لا يُذكر، لكن لا أنكر أن هذه هي أول معركة للجيش الإسرائيلي التي يتعين على جنودنا بعدها تلقي علاجٍ نفسيٍّ على أيدي الأطباء، فكثيرون مصابون بصدمة القتال، وهناك مَنْ نسوا أسماءهم..

لقد فاجأتهم صلابة المصريين وقوّتهم، وأذهلتهم شراستهم وبأسهم في القتال.. من المستحيل تجاوز ما حدث، ومن المستحيل إخفاء الحقيقة عن القادة.. لذلك يتعيّن علينا تجاوز ذلك ومواراة ما حدث في جُبّ سحيق من الكتمان عن باقي الجنود، والعمل على بناء جدارٍ عازلٍ، يؤمّننا من شرور المصريين المُحدّقة بنا..

- إذن ما سيتكفل بحمايتكم هو بناء حائط ضخّم مرتفع، كذلك السياج الذي بنيتموه على مدار عشرين عامًا. جدار من التخويف المستمر في التهابه وتصاعده بقوة بالذراع الطويلة، القدرة على الوصول إلى أي مكان في أيّ وقتٍ.. تلك القوة القادرة على اكتساح بلاد العرب، من أقصاها إلى أقصاها؟

- أعتقد كذلك، وها قد فعلنا بأولئك الرّاع، وقد جعلنا منهم جثة هامدة بلا حراك، ولن تقوم للعرب قائمة من جديد حتى بعد مُضي خمسين عامًا مُقبلة.. وسيكون مصيرهم الإبادة والفناء إذا ما حاولوا الهجوم على أراضينا..

- أودُّ أن أصرّح بأن هذا الحائط سينهار ويتحطّم يومًا ما، ولن يتبقى لكم حينئذ سوى جدار مُعقّد من نوع آخر.. جدار من شكوك الخوف، وخشية الخداع وأوهام التواء المقاصد، وإخفاء حقائق النيات بينكم وبين العرب.. فلم لا تشيدون جسور السلام التي تصل ولا تقطع.. تحمي ولا تُهدّد بدلاً من إقامة الجدران والسيّاج؟!

لماذا تورثون أجيالاً قادمة ثأر سفك الدماء وإزهاق الأرواح؟ لماذا تنسون كلمة الربّ: الغش في قلب الذين يفكرون في الشرّ. أمّا المبشرون بالسلام، فلهم فرح؟!

- آنسة صوفيا.. هم من أحاطونا بصواريخ الحقد والتدمير..

- أما تقبلون بالعيش معهم في سلام دائم وعادل. لا تحيطونهم أو لا يحيطونكم بالصواريخ المستعدة للتدمير، أو بقذائف الأحقاد والكرهية..

- بالقطع نبتغي ذلك آنسة صوفيا..

- فلتنتهز فرصة الصلاة معي ولا تبددوها، فتحلّ عليك لعنة الربّ والإنسانية والتاريخ.. فلتردد معي..إليك، يا رب، أصرخُ. اسمعُ صوت تضرُّعي، إذا استغثْتُ بك. وأرفعُ يدي إلى محراب قدسك، لا تجذبني مع الأشرار ومع فعلة الإثم، المخاطبين أصحابهم بالسلام، والشر في قلوبهم. أعطهم حسب فعلهم، وحسب شرِّ أعمالهم. أطلبُ السلامة وأسعى وراءها..

- أستمحك عُذراً آنسة صوفيا، فأنا لا أشعر برغبةٍ في الصلاة الآن..

هَبَّتْ رياح الصمت مرةً أخيرة، وقد أخذتُ أتدبّر ما حدث من حولي وعيناى تُتَابِعَان الضفة الغربية، التي بدت بعيدة بُعْدًا سَحِيْقًا عن حقيقة رأيي زائيف.. ففي نهاية المطاف في أثناء حروب الأنفس لن ينتصر إلا الموت.. فهل انتصر على هؤلاء، أم هم الذين قد استدرجوه إلى شَرِّكَ مَجْدِ زَائِف.. هل يمكن لماء أجاجٍ غمر جرح أرض قد شَقَّه معول الصراع صفتين أن يضمده؟

مَنْ يتأمل هذه المقابلة الكونية بين الخيط الأبيض والخيط الأسود ربما سيؤمن أنه من رحم الألم إلى رحب الأمل فضاء من نضال الإيمان بالعشق الإلهي..

الفصل الثاني عشر

حاولتُ أن أشغر قاربي العابر بجسدي قناة السويس من رمال بحر
الدماء التي لا تُكال ولا تعد.. قاربي الذي راح يتلاطم مُستسلماً بين
أمواج صاخبة، وسط هفيف نسيم الضفة الغربية ووساوس ريح نكباء
خفية أخذت تصفق ماء حياتي.. تهدد في رمال أفكاري بلين، وتنوح
ساهجة في وجهي الذي تعلّق بتأمل بسيل من مشاعر قاشة جارفة
جارية.. تحمل أوراق أمانٍ مفعمة بآمال متدفقة أن تلتقي أرضاً تضمّها
بين أحضانها الدافئة..

ترجلتُ عن القارب بعد أن عبرت الروح والجسد صراطاً ممرّداً
من قوارير لجة، جسراً من حياة نابضة سُخّرت لي، كي يدرك الفؤاد
صراح بلورياً جدرانَه حدود الأرض وسقفه السماء..

استدرتُ لوهلة كي أودّع عراء السماء، وأشباح الخوف القابعة في
أعمق كهوف دجى عالم الضفة الأخرى، أبصرت حينها طائراً من نار

اشتعل في جناحيه سيلٌ لهبٍ من تهديدات وحشية وسخام أنفاس
جليدية لزوبعة عاصفة.. هنيهةً تبعثرت بين أروقة مظلمة وطفقتُ
أتحسّس زهرة من بكاء مستتر، تجمّدت فوق شجرة عيني..

بعدها الملمتُ شتات أفكارٍ ووليتُ وجهي شَطْرَ رحلة البحث
عن المصري.. التي بدتُ من الوهلة الأولى أشبه برحلة البحث عن
المتاعب والشقاء.. مقولة ترددت على مسامعي قبيل مجيئي إلى تلك
البقعة، وهذا بالفعل ما لمستهُ عندما وطئت قدمي مقر المخابرات الحربية
برفقة مسؤول العلاقات العامة بالجيش الثاني الميداني في الإسمايلية،
الذي تلقّف يدي من مندوبي الصليب الأحمر..

طلبوا مُقابلتي أولاً لأعرف إذا ما كنتُ سأقبل بالعمل أم لا وفقاً
للقوانين العسكرية المصرية الصارمة في ظل الحرب المستعرة.. بالفعل
ذهبتُ، فبعد حُسن استقبال من قبل السكرتارية، أُجريتُ معهم حواراً
قصيراً في بادئ الأمر قبيل مقابلة قائد المنطقة والحاكم العسكري..
بالفعل تمت المقابلة في أجواء مشحونة متوترة، سادتها حفاوة من
الاستقبال وطيب من الحديث.

بدأتُ تتسارع عقارب الساعة المعلقة على الحائط.. نصف ساعة
مرت، ثم ساعة، ثم اثنتان.. ثم فرغنا على تعهد كتابي مني أن ألتزم
بالاحترام التام لقواعد العمل والمهنية لنقل الصورة الحقيقية لما يجري
على أرض الواقع.. رحْتُ أسهبُ في طمأنتهم بمُناصرتي للحقوق
المصرية المُغتصبة رغم عبء ثقل حملته على كاهلي، ألا وهو لقب
والدي الروسي، الذي كانوا على دراية تامة وعِلِمٍ به..

ربما تحمّست كثيرًا للعمل بعد هذا اللقاء المطول، كونها المرة الأولى
لي في الذهاب لتغطية ممتدة على تراب أرض، باركته الكتب المقدسة
وغمر ثراه كتب التاريخ والإنسانية وما زال يفيض بالكثير..

فما إن خرجت برفقة المسؤول المصري بعدما وافق، إثر إلحاح
شديدٍ مني على أن يترك لي مساحة من الخصوصية مع البسطاء حين أهمّ
بإلقاء بعض الأسئلة عليهم.. تركني مُشدّدًا على مصير محتوم سأقابله..
لأعود بعدها من حيث أتيتُ إليه.. بخُفي حُنين، منكسة الرأس وفي
قرارة نفسي أشعر بالاستغراب لما حدث معي.. بعدما امتعض الجميع
ورفضوا التواصل معي، بل نهروني بلغة لا أعرفها، ولكنني فهمتُ كل
حرف منها بنظرات التوجُّس والشكوك الملقاة على وجهي الأجنبي..

بالفعل تناسيتُ ما حدث وذهبتُ، وتحاملتُ على نفسي لحماستي
الشديدة للعمل، أو لشغف جامح تملّكني بُغية تلمّس رذاذ توهّجات
تياهير حياة هؤلاء الغرباء أو التسلل عبر أطيايف تلك الهالة الإكليلية
التي تظللهم وتحجبهم عن شواظ الرياح العاصفة..

لم أقبُع في خندق الخذلان كثيرًا، بل سعيثُ وراءهم على قاعدة
أسستها سريعًا بأن تكون حياتي حكرًا لديهم، فلا يجوز لي أن أتصرّف
كما يحلّولي.. رافقني المسؤول المصري إلى دنياهم البسيطة، على مدار
أيام شاهدهم يعيشون حياة رغبة طيبة في دنيا اكتظت بالمشقة والتعب
وحفّت ألوان من الحزن والألم.. يتذوقون من نعيم تلك الحياة الطيبة
مُرادفات بهجة، اختلطت بعلامات الخوف وتضادات سعادة اقترنت
بأماراتها..

زادت دهشتي وأنا أراهم يلبسون حياتهم البائسة ثوب الجنة وهم يتلذذون بفيض بهيج للفردوس المنهمر على ثنانيا قلوبهم في الدنيا، تسكبه النفس ترنيمة ساجدة قد اختلطت بدمعة نادمة على الروح لتحلق في ملكوت السماء.. سعادة لا يمكن على الإطلاق قياسها بمعايير مادية قاصرة، وشعور قد ينجرف البعض من أجله ليطؤوا غيرهم في سبيله، باذلين أموالاً طائلة أو دماءً كانت لهم أو لغيرهم..

انفجرت عقدة ألسنتهم وانفجرت ينابيع كلماتهم على لساني.. أحاطتني نظراتهم بالموودة وغمرتني طيبتهم بالألفة ودُفء الأسرة التي لم أحظَ به قط.. على الرغم من دجاتي وشخصيتي البراجماتية، فإنني قد انصعْتُ إلى المسحة الشوفونية المتأصلة في جذور أفئدتهم، ورحتُ أتماهى بين مشاعرهم النقية، التي تابَّطْتُ بها وأنا أسير بين جنبات قُرى السويس ومدينتها، وأنا أدلج في شوارع الإسماعيلية وأزقة بورسعيد..

أبصرت النعيم، واطَّلعتُ على جنته بعد أن نِلْتُ من النار نظراً، وأنا أتقلَّب في دُجى قبر مفتوح على مصراعيه، بلا شاهد في الجانب الآخر..

مرت ثلاثة أسابيع، ولم يغب عن مُخيلتي ذلك الضابط المصري ذو اللسان الروسي، الذي جرّفتني الشوق المضطرد للقاءه بعد أن شاهدتُ نخوته على وجه أعدائه وطيبته في ملامح أهله.. فبحث بكل شيء عنه للمسؤول المصري وأبلغته بمرادي في مُقابلته إذا ما قد أنجته العناية الإلهية بعد فراره من قبضة المحتلين..

لم ألمح رَدَّ فعلٍ جليٍّ من المسؤول المصري.. فلم تبدو أية ملامح من الدهشة أو الاكتراث بهذا الشأن، حتى جاء برسالة لي أن أغادر منطقة القناة بسبب شدة القصف الإسرائيلي الذي طال عن قصد المدنيين على طول مُدن القناة وقراها.. التي يجب على قاطنيها هجرها والنزوح عنها تاركين الديار لبرائن قنابل وصواريخ الصهاينة..

غادرت إلى القاهرة وأقمت بشقة صغيرة مُتاخمة للسفارة الروسية التي وفرتها لي، بناء على تعليمات من الكرملين.. في اليوم التالي بعد أن توجَّهت إلى مكتبٍ أعدَّ لي خِصيصًا في مقر جريدة الأهرام المصرية، وفي تمام الثانية عشرة ظهرًا تلقيت مكالمة هاتفية من رئاسة الجمهورية تُبلغني بالاستعداد للقيام بمقابلة سعيْتُ في طلبها من قبل..

أخذتُ أضربُ أخماسًا في أسداس.. هل سأقابلُ ناصر المصريين صديق رفيق والدي؟ ربما تلقى ناصر مكالمة من خروتشوف بشأني.. ربما فعلها برجينيف.. دقائق وقرع أحدهم الباب ودخل سائلًا أن أرافقه لتتوجَّه إلى وجهة أبلغت بها ولم يُخبرني هو إلى أين ستتَّجه..

قادتني السيارة وألقطني على أبواب مشفى، ليتلقَّاني بعد أن ترجَّلت عن السيارة طيبًا تنبأت أن يكون ضابطًا من مشيته منضبطة الإيقاع وقسمات وجهه الصارمة.. بالفعل ما اقتحمنا أبواب المشفى بدا كل شيء جليًّا واضحًا عدا الشخص الذي سأقوم بلقائه..

بعد أن صعدنا درج السلم إلى الدور الثالث وملكنا دهليزًا طويلًا انتهى بردهة ملحقة بالغرف الواسعة، توقَّف الضابط الطبيب ليشير إلى

غرفة صغيرة مُلحقة بأخرى واسعة، قائلاً بصوتٍ أجش ارتدى ثوباً إنجليزياً:

- عليك عبور ذلك العنبر حتى تصلي إلى الغرفة الصغيرة..
المُلازم أول يعقوب صبري هو نزيل تلك الغرفة.. الآن هو في حالة نقاهة بعد أن شُفيت جروح جسده وكسورها تماماً.. لكنه لم يتعافَ بعد من صدمة نفسية لحقت به..

أمسكت به كلماتي بعد أن أدار وجهه، وحين همَّ مُغادراً تاركني أغرق في بحرٍ من الحيرة:

- سيدى الضابط الطبيب.. لم أفهمُ بعدُ من الذي أنا بصدد لقائه الآن؟ اعذرني أنا لا أعرف أسماء ضباط هنا سوى الضابط محمد، المسؤول المصري في الإسمايلية..

- آنستي.. لقد أبلغوني أنك قد طلبت في مقابلة الملازم أول يعقوب صبري أيوب لا أكثر.. أستمحك عُذراً، فلدي مهام أقوم بها..
تلك المرة غادر الطبيب مُسرّعاً تاركاً عقلي يعدو أمامي وفضولي يدفعني لاكتشف هويّة هذا الضابط.. أهو الضابط المصري المُقدام؟!

دخلتُ الحجرة الفسيحة، وأخذتُ أتفحصُ وجوه الجنود المرضى المُستغرقين في النوم واحداً تلو الآخر.. غطيط فوق أسرة النسيان..
أشفقتُ عليهم ممّا هم فيه، وأحسستُ بالنكسة التي حلت على أولئك البؤساء، الذين عصفت بهم نكبة طاحنة لمعركة خرجوا منها مُرغمين،

بينما كانوا مطالبين أن يصبحوا أبطالاً كي يصححوا أخطاء لم يرتكبوها..

أخذت قدماي تتحسّسان الأرض برفق إلى أن دخلت الغرفة الصغيرة لأتعرّف إلى وجه حلم اشتهيته.. ما إن أدركت مقلّته وجهي اعتدل وبدأت عليه معالم الاضطراب.. نعم هو نفسه الفارس الذي رسمته كلمات زائيف بن زيون في أحلامي، الآن يتمثّل أمامي ونظراته تخترق كياني بعد أن باعدني القدر عنها وقد حجبت عيناه عني رؤية كل منّ حولي..

تسلّل الوجدُ إلى أعماقي وساد الصمت بداخلي بعد تمايل إحساس جرّد همسات أنفاسي من الخجل، فأضحت مشاعري عارية وهي تنساب على مرآة عينيه في عشقٍ.. أبحر من ثغري راحلاً صوب مرفأ جزيرة أحلامه.. هسيس هماسته ظلّ ينبض بالحياة في فؤاد مسامعي، كأنه نسيم عليل تسلّل داخل جسدي ليجفف دمعي.. أخبرني عن سبب مكوثي بمفردي حين تدنو الشمس من المغيب، وحين تُعيدُ الدنيا خفق نبض فراق العاشقين بسُهد الليل الطويل ليُمسي زخرفاً منقوشاً على جدار الحكايات..

بعد يأس كاد يُصبني في دنيا الظلام، وجدتُ نفسي في جسده تنوح بدموع القلب.. فأقبلتُ نحوه بوجهٍ بأشّ بابتسامة عذبة وقلب مفتوح على مصراعيه إذا ما شاء فليقبل.. أقبلتُ نظراته بحنان وعطف وهي تشقُّ دربها نحوي، فسرت إليه ووقفت بجانبه، بين يديه وأحاسيسي

تناجيه والقلب يناديه، وعينه شاخصتان لي ومشاعري تسبح فيهما،
حتى جلستُ بالقرب منه حيث أردته أن يُمسكَ أناملِي الباردتين بيديه
الدافئتين..

تمنيتُ أن يَضْمَنِي إلى صدره الحنون .. فأطالعه بعيني الدامعتين كي
أنخرط بالبكاء داخل حِضنه الدافئ .. إلى الأبد .. بعد سيل من
الأشواق في تلك اللحظة، التي ازداد فيها نبضُ القلب وتجمّدت
المشاعر من فرط تتناثر صمت الكلمات وأطياف التراحيب الرقيقة
الساکنة على شفاه سماء وجوهنا والمُبْحرة في فضاء الدفء..

تبيّست في مكاني وأنا أطلّع إليه، ومئات الأسئلة تُلقِيها عيناه
الحزيتان عليّ حتى شرعت في الحديث معه بالروسية:

- كم داعبتني الأمانى وأخذني إليك عبق الخيال.. الآن ألقاك بعد
أن لبيت نداء القدر في صحراء قفر على لسان ألد أعدائك..

أخذ يُطرني بنظرات الدهشة برهةً وعلى حين غرة برقت جدائل
شمس حديثه الحريرية، لتنفذ غبار الغروب عن ليل صمته:

- لقد راودني هذا الحُلُم منذ الصغر كأنني غبتُ مسافراً
سنوات.. كما لم أرك منذ سافرت وتركتك.. لقد غبتُ كثيراً، انتظرتُك
كثيراً، اشتقتُ إليك كثيراً.. تمنيتُ لو أن أراك لحظاتٍ وأنا على علم
ويقين بمجيئك، وحبات السنين والأيام ورمال الساعات والثواني
تنفرط منسابة بين يدي.. على أمل لحظة اللقاء هذه، وها قد حانت

اللحظة.. عدتُ كما كنت وكأني أرى روعي في جسدك على الرغم من أنني لم أعرفك قط قبل الآن.. لم أقابلك..

من أنت؟ هل أنتِ حقيقة أم طيف من تلك الأوهام التي تُراودني منذ عدتُ.. فأشباح المראה كبلتني بأصفاة الأسي، وعقايرهم حبستني بينهم في زنزانة الصمت التي أخرجتني تَوًّا منها؟

- اسمي صوفيا أتيتُ من بلادٍ بعيدة كي ألتقي بغريمك على أرضك المقدسة، لتداعبني طيفاً في أحاديثه وتُهديني سيرتك إلى هنا.. كي ألقاك نفس الوجه والهيئة التي رسمها القدر في وجداني.. وأنا أعمل صحفية في وكالة الأنباء الروسية ..

- تراك أعين الوجدان صوفيا بنت ماثان بن هارون، متوجة بأطياف نور السماء على وجه رحم الخلاص، هالة تداوي آلام القلب المنفطر والعقل المنغمس في استحلاب الماضي والنفس الغارقة في نهر سديم من البكاء على الأطلال.. واقعت عيني فرأت وجه الله آية في واصلك..

- لقد أذبتني في عذوبة نكهة خمر كلماتك، وأنا أرتشف منه أريج الجمال والصبأ.. ما اسمك؟

- أدعى يعقوب صبري أيوب ضابط في الجيش المصري.. ولتعلمي أنك من أخرجت لساني من زنزانة الصمت منذ أن استطعت الفرار من أسر الصهاينة المجرمين..

- لقد أخبرني ضابط إسرائيلي يُدعى زائيف عنك منذ معارك الخامس من يونيو إلى أن لذت بالفرار من معسكر مطار العريش.. فهل لك أن ترجع بذاكرتك هنيئاً للوراء كي تروي لي ما جرى منذ البداية.

- الذاكرة في كنف ذاك الماضي الضريع كأيام أمشير متقلبة غير مأمونة العواقب، ولكي أعود بك إلى أيام الظلام ستتوارى نصيحة ديكرات في أن نعقل الأمور بين أشباح من الضباب خلف نظرية داروين التي سخر منها فرويد، فالأمر برمته ما هو إلا سخرية العقل لأنفس تتسربل رداء الإنسانية، قد خرجت من أرحام حيوانات لا تعقل شيئاً سوى القتل والفساد في الأرض..

- أعلم أنهم قد تمادوا في القتل مسرفين في سفك الدماء..

- لقد قتلوا كل شيء حولنا وفينا.. لم يتبق لنا سوى الكُره والانتقام، حتى الحزن قد قتلوه في أفئدتنا الذبيحة.

- ما زلتُ أتساءل: كيف يقتل الأبناء ويسرفون في القتل وآباؤهم قضوا في أفران الغاز ومستعمرات التهجير القسري في آسيا وأفريقيا ومعسكرات السُّخرة في ألمانيا وتحت لحود حفورها بأيديهم المصفدة بأغلال البغض النازي!؟

هل تستطيع السماء أن تبارك أجاج يمّ مُدفع بقطرات ندى الرحمة، لتخلص رمال أرض لطختها دماء قد لعنت سكُون الخلاء.. فأمسى عدماً من البغضاء، وداراً لأشباح من الحنق، وشياطين من نار موقدة.. أما آن الآوان للغفران أن يتنفسه برد الليل وقيظ البرية!؟

- أَيْتَهَا الشمس الجميلة، لقد خلقت أرواحنا لتمضي على جدائل
رفيعة من الاستقامة.. لكن الخطايا قد تدور بالأنفس في دوائر مفرغة
من الإيمان مغلقة بأسوار الشر، فيكون الشرير هو ابن سفاحٍ لزنّا
الأنفس بالآثام في أجساد ترابية..

- ألا تشعر أرواحهم بآلام جرح الحق العظيم من أن أجسادهم
تحتضن نفسًا زانية آثمة فقط كي يعوا كم يغضب رب الروح من تلك
الأنفس؟

- على الإطلاق فلقد نحرت أنفسهم الروح بسكين الشرير
فتقيح القلب بالضغائن والكراهية.

- ما الذي تتذكره في الخامس من يونيو المنصرم؟

طمر الضابط المصري يعقوب صوته خلف ستار من الصمت
لدقائق وعيناه تدلجان بين جنبات طريق مظلم.. تتقفي أثر بصيص
الكلمات الغائبة على جدران غرفته.. ثم مال بجسده ناحية خوان
السرير ليفتح أبواب الدرج العلوي بأيدي مُرتعشة من برد ما يخفيه باطنه،
ليخرج قصاصات من جرائد رثة مكرمشة ملطخة بخضاب الدّم، أخذ
يُطالعُها بأعين زائغة مكفهرة رقدت الدموع تحت عصفها على آرائك
الأسى.. ثم لفظ ركام الحزن زافرًا أثربته من صدره قائلاً:

- لقد ضمدت نزيف جروحي بتلك الأوراق البالية حين
أدركتُ الإسماعيلية.. حين اصطدمت عيناى بأحجار حروفها وأصنام

كلماتها، غبتُ عن الدنيا خلف أسوار عالية لمدينة الخذلان الضبابية
وأشباح قسوة النكبة والهزيمة ..

- ليتني أتحَدَّث العربية لأزيع السُّتار عن طلاسَم تلك العبارات
الغريبة ..

- حتى إن تحدثت العربية ستبدو لك عبارات غريبة مُبهمَة، فهي
تبدولي كذلك ولجموع المصريين والعرب ..

- عُدْرًا لك أيوب، ولكن أهِي مطبوعة بلغةٍ غير العربية؟

- على الإطلاق .. هي بالعربية وتلك القُصاصة هي صفحة
جريدة الأخبار الأولى يوم السادس من يونيو، تحمل في حشايا صدرها
عناوين ملطخة بدمائنا ..

أسقطنا ٨٦ طائرة للعدو ..

قواتنا تتوغل داخل سيناء تقضي على هجوم الكونتلة استُخدم فيه
لواء مشاة ومجموعة كبيرة من الدبابات ..

قواتنا قضت على هجوم في أم قطف وأبادت قوات العدو تمامًا ..

بيانات جيش إسرائيل تعترف بالخسائر الفادحة والتقدُّم العربيّ
الجبار ..

القوات السعودية تدخل المعركة - الجزائر والكويت والسودان
تعلن الحرب على إسرائيل ..

- ولكن شيئاً من هذا لم يكن ليحدث على أرض الواقع..
- لقد كنا ننتظر المعركة على أحرّ من الجمر؛ ليعرف العالم أن الجندي العربي هو المقاتل الأشجع.. هكذا كانت العناوين قبل الحرب.. هكذا كنتُ قبل الحرب..
- أعرف تمام العلم أن ما حدث كان كابوساً مُفرعاً، مغموساً بآلام موجعة، ولكنني أبتغي الحقيقة كي تُنير الورى.. فربما روايتك تُبدّل الكثير عن مجد زائف شُيّد من لبنات أساطير وهمية.
- عند مفرق أبي عجيلة وبالقرب من القرية رابطنا حيث تحصّنت قواتنا بالكثبان الرملية من الشمال، وبالجبال الصخرية من الجنوب.. تمركز اللواء الثاني عشر عند أم كاتف، واللواء العاشر مشاة ناحية القصيمة.. أمّا الفرقة الثانية مشاة، فقد نظمت دفاعات وتحصينات بين أبي عجيلة والقصيمة..
- كنتُ مُكلّفاً ببعض المهام التي تستلزم التنقل الدائم بين القوات، فكنتُ أغدو إلى هضبة أم كاتف حيث استقرت ثلاث كتائب لتدافع عن ثلاثة خنادق متوازية.. كل واحد يمتد إلى خمسة كيلومترات يحتضنه ملاجئ إسمنتية محصنة.. في الخندق الأمامي تورأى سربٌ من الدبابات يحرسه من الخلف كتيبتان مدفعيتان ثلاثمئة وثلاثون وثلاثمئة وأربع وثلاثون للإسناد والدعم ومن خلفهما الكتيبة مائتان وثمانون وثلاثون دبابات..

وكنْتُ أَعْدُو إلى الناحية الشمالية، حيث أغلقت الكتيبة ثمانية وثلاثون مشاة ومدفعية مائتان وتسع وتسعون وسرية مضادة للدبابات مكونة من عشر دبابات طريق باطور.. أصولٌ وأجولُ بين غرب هضبة أم كاتف حيث يقبع سد الروافعة على بعد خمسة كيلومترات وتقع معه الكتيبة ثلاثمئة واثنان وخمسون والمدفعية ثلاثمئة واثنان وثلاثون، وثلاثمئة وست وثلاثون، وفوج الدبابات السادس على بعد خمسة كيلومترات أخرى شمال غرب أبي عجيلة..

وجل يعقوب هنيهة مبتلعاً قطرات من الصمت، وبعد أن شخصت عيناه ناحية النافذة برهةً من الوقت، أدار وجهه صوب صوفيا ليردف:

- في الثامنة والربع صباح الخامس من يونيو بدأ الهجوم بالطائرات.. هاجموا المُرابطين في أم كاتف بالدبابات والتفت قوات مدرعة عبر الدروب الصحراوية على قواتنا.. دارت الاشتباكات العنيفة، حينها كنْتُ عند مفرق أبي عجيلة بجوار رفاق السلاح، في يدي بندقيتي الآلية وفي اليد الأخرى جهاز راديو نقال يلتقط البث من راديو صوت العرب من القاهرة وعمان ودمشق..

مع احتدام المعركة وفي تمام التاسعة وأربع وعشرين دقيقة خرجت الكلمات لتوقد النار في صدورنا..

أيُّها الإخوة والجنود في غزة وسيناء وشرم الشيخ.. أيُّها الإخوة الأبطال في الأردن وسوريا! إلى الأمام نحو تل أبيب.. يجب على كل

عربيّ أن يثأر لعام ثمانية وأربعين وأن يتقدّم عبر خطوط الهدنة لتدمير
وكر العصابات الصهيونية في تل أبيب..

أدرنا بعدها بدقائق المؤشر لنستمع إلى بيان بُثَّ على راديو دمشق
بعد أن قَطَعَ براجه قائلاً:

نحن معكم يا رفاق السلاح في القاهرة.. نحن معكم يا رفاق
السلاح في غزة وسيناء وشرم الشيخ.. نحن معكم يا جماهير أمتنا
العربية في الأردن.. في زحفكم المشرف!

ليستطرد راديو دمشق مُوجِّهاً نداءً للشعب السوري نصّه:

أيها الإخوة المواطنون! إن نيران المعركة قد اندلعت ولن تحمد بعد
الآن.. إن ساعة الثأر قد حانت، لقد بدأت معركة التحرير، أشعلوا
النار.. أحرقوا ودمروا الغُزاة الصهاينة.. إن برميل البارود قد انفجر
ولهيب حرب التحرير ترتفع عالية.. إلى السلاح يا عرب! تقدّموا إلى
قلب فلسطين! سنلتقي في تل أبيب! سوف نسحق الغزاة والمعتدين..
هيا إلى المعركة يا عرب! إن أجراس النصر تُدوي لأن أمل التحرير قد
تحقّق..

أدرنا المؤشر في التاسعة وأربعين دقيقة إلى راديو عمّان لنستمع إلى
الصوت الحماسي: أيها العرب في كل مكان! إن ساعة التحرير واستعادة
حقوقنا المغتصبة قد حانت.. إننا سندمّر الحدود المصطنعة، ونستعيد
حقوقنا المسلوبة في هذه المعركة المصيرية التي تشنّها قوى الشر
والعدوان الصهيوني.. إلى الجهاد! إلى النصر!

- يا لها من كلماتٍ! قطعاً كان لها عظيم الأثر على معنوياتكم.

- حقاً مع ارتفاع أصوات إطلاق الرصاص ودوي الانفجارات، احتدمت بداخلنا الحماسة لتشعل أفران الحُمم في صدورنا وصوت العرب والمذيع أحمد سعيد قد خرج علينا في العاشرة وعشر دقائق ليطلعنا أننا قد تمكّنا من إسقاط ثلاثٍ وعشرين طائرة، لتقفز إلى اثنتين وأربعين.. حتى وصلت إلى سبعين طائرة بجانب قصف تل أبيب وحيفا ومدن أخرى شمال إسرائيل في تمام الثانية عشرة وأربعين دقيقة ظُهرًا..

- وهذا لم يحدث في واقع الأمر.

توقّف ثانيةً، وقد لمعت عيناه إثر دموع تغمرهما وهو يتابع الحديث عن المعركة:

- لقد صدقنا كل حرف خاصةً بعدما توقّفت المعارك وتقهقهرت القوات المعادية عند أم كاتف لبسالة المقاومة وحقول الألغام التي أعطت سبع دبابات صهيونية..

وحتى الثانية عشرة ظُهرًا حين شرع الصهاينة في هجوم بكتيتين من الدبابات بغطاء من أسراب الطائرات المقاتلة والقاذفات الثقيلة التي لم تتوقف عن إلقاء حُمم النابالم وقذائف البازوكا علينا.. تصدّت قواتنا بقوة وقاتلت ببسالة وتشبّثت بمواقعها بصلافة وأنزلت العدو خسائر فادحة لتجبرها على التراجع بعد مقاومة عنيفة..

في ذلك الحين كنتُ على جبهة القتال بالقرب من أم كاتف، هناك
ذُنا جميعًا واستمتنا في الدفاع والثبات حتى كان التفاف العدو فدمرت
العربات نصف المجنزرة وازداد سقوط جنودنا بأسلحتنا السوفيتية
البالية، أسلحة ضعيفة التأثير والمدى، التي استخدمها أسلافكم الروس
في الحرب العالمية الأولى والثانية.. نفذت ذخائرنا ليعبروا فوق أجسادنا
التي صارت أكوامًا من اللحم قددتها أرض المعركة المصطنعية بنار
يونيو..

- وما الذي جرى في هذا الوقت العصيب؟

- جاءت لي الأوامر بالانسحاب لتأمين الطريق.. قابلتُ في
طريق عودتي الملازم أول صفي غازي.. قائد إحدى الكتائب التي
أوصدت طريق باطور.. التحقْتُ بكتيبته وأمرني بالتشبُّث بموقعي أنا
ومن كانوا تحت إمرتي من قوات قاتلت بجرأة وصلادة وشجاعة فريدة
من نوعها.. ذهب ضابط الصاعقة صفي وثلاثة أسود حين توغَّلت
القوات الإسرائيلية عبر الكشبان الرملية لمهاجمة المرابطين عند سد
الروافعة، قاتلوا هناك حتى إنهم قد حفروا حفراً برميلية بأيديهم
مُتحصنين بها أحياء، مُتلحفين برمالها قبورًا لهم.. عاد واثنان من مرافقيه
ليجدني ومن معي على عهدنا.. طودًا يصد هجمات الصهاينة فأسرعنا
الخطى جميعًا ناحية أبي عجيلة..

- لا بد من التدقيق في البحث عن كلمات تعبر عن هذا الموقف
المُهيب.

- حتمًا.. في تلك الأثناء أخذت الطائرات الإسرائيلية تُحلّق من فوق رؤوسنا ونحن نسرع الخطى صوب أبي عجيلة على ارتفاعات مُنخفضة للغاية.. حتى إنني قد شاهدتُ وأنا أعدو ضحكات قائد الطائرة الشيطانية المنحوتة على وجهه وكأنه يُبشّرنا بمصرعنا المحتوم، لبيثَّ الرعب في نفوسنا، وهو يُحصى أعدادنا وعتادنا وما نحمله من أسلحة ليلبغ بها من على الجانب الآخر..

- ربما أبلغهم ألا يعبؤوا لأمركم وألا يلقوا لكم بالاً، ففراركم قد بات حتمياً عند أول مواجهة..

- لا أدري حقاً ما حدث بعد أن انقضت ساعات النهار الأخيرة، وأطياف الغسق الجريح القرمزية تعانق دماء شهداءنا الذين قضوا مستأسدين بالدفاع عن وطنهم، تُودّعهم وتزفّهم إلى الفردوس الأعلى.. أمضينا الوقت في تحسين أوضاعنا واستكمال ذخائرنا وإعادة انتشار قواتنا دون راحة ولا طعام أو شراب على الرغم من توافره فقد كان علينا التركيز في ما هو قادم من معركة قد تمتدُّ أياماً..

- لماذا لم تمتثلوا إلى الأوامر بالانسحاب كالباقين؟!

- لم نتعلم في مصنع رجال الصاعقة أن نترك السلاح قط حتى ندوق الموت.. كثيرون حاولوا البقاء للقتال كما فعل الأشاوس في العريش وأم كاتف وبعدها في أبي عجيلة ولكن حين تأتّى الأوامر يجب علينا التنفيذ ونحن لم نتلقِ أوامر بالانسحاب من قادتنا الميدانيين الذين زادوا في الدفاع عن الأرض مع الجنود كتفا بكتفٍ.. فلن أنسى ما

حيث بطولات كثير من القادة وعلى رأسهم شفيق ميري سدرالك قائد إحدى كتائب المشاة في معركة أبي عجيله، الذي لقن الإسرائيليين درساً لا يُنسى في الشكيمة والجسارة والجرأة.

- لا بد أنها كانت معركة ليلية حامية الوطيس..

- كانت هكذا بحق.. فلقد قاتلنا يومئذٍ تحت ستار الظلام حين ألقينا بأنفسنا في مشتعلة القتال.. حتى اشتكت الأجساد من كثرة الجراحات التي أصيبت بها، ولم نزل في المعركة حتى أبلينا واستنقذنا ما كان بأيدي عدونا، ونحن نرى المنايا متحفزة لخطف الأرواح.. كنا فرساناً بلا جياذ.. يقظتنا دفعتنا للانقضاض على العدو ناظرين من طرف خفيٍّ وراءنا حتى لا تأتينا الطعنات غرة.. ولكن ميزان القوة لم يكن في صالحنا حتى النهاية..

- تفوّقت أسلحتهم المتطورة بلا شك حين كان سلاحهم الأوحـد المتبقي هو الشجاعة..

- تحت نيران المدفعية والدبابات وصخب سقوط الدانات والقذائف الفسفورية، التي أنارت أرض المعركة التي كانت طلقات حارقة إذا ما أصابت الجلد كانت الحروق بالغة، وإذا ما أصابت الثياب سيكون المرء فريسة وصيداً سهلاً وسط الظلام.. حينئذٍ بزغ صفي الدين القائد الشاب، وقد أمرنا أن نخلع ملابسنا إذا ما أصابتنا ونلقيناها في الناحية العكسية..

- ذلك هو القائد الشاب الذي قاتلت بجواره عند المفرق حيث تابعتك من أخبرني عنك ..

- نعم.. وقد أورث البطل ابن المعارك، صديق الأهوال الذي انتخى للحرب من غير أن يحميه إنسان التمرس بفنون القتال خبرة استخدمها في المعارك مع أعدائه، جعلت منه فارسًا مغوارًا، مرموقًا تتحدث عنه حنكته وتضرب بشجاعته الأمثال..

كان يتتقي الضعيف الجبان ليطعن عنقه برصاص بندقيته.. طعنة سريعة واسعة الأطراف تنزف بالدم ليطير لها قلب الشجاع.. راقبته يقدم إذا ما رأى الأقدام عزمًا ويحجم إذا ما رأى الإحجام حزمًا، ولا يدخل موضعًا لا يرى له فيه مخرجًا..

حين أقبلت قوات الصهاينة زاحفة كجناح الليل وقد جاؤوا بأعداد ضخمة، وكان لهم دويٌّ كدوي الرعد، وأثارت آلياتهم غبارًا شديدًا، ارتفعت فرائص بعض من الجنود، فالمعركة قد احتدمت والأبطال قد كلحت وجوههم واكتفوا بالغمجمة عن الشكوى، وراحوا يبحثون عن ملجأ يقيهم أوار الحرب، ويدروون عن أنفسهم وقع القذائف وطعنات الرصاص، التي أمست ليلاً يهاوي كواكب الأنفس فغضب صفي غضبًا جمًّا، واحمرَّ وجهه، ليصوب صيحاته نحو الجنود، عبارات رنانة ما زالت تغمر أذنيَّ..

"من كانت حياته عرضًا للمخاطر لا بد أن تناله في يوم من الأيام، ولكنهم لن ينالوا منا هذه الليلة.. أيها المصريون البواسل اطلبوا الموت

توهب لكم الحياة.. ثابروا واثبتوا ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدؤوهم بقتال، واشرعوا البنادق واستتروا بالخنادق والزموا الصمت، إلا من ذكر الله في سرهم.. استحيوا من ربكم أن يراكم فارين من عدوكم وأنتم في قبضته ورحمته، لا تهولنكم حشودهم ولا جحافلهم، فإنكم لو صدقتموهم الشدة لتطايروا تطاير أولاد الحجر".

- يا لها من كلمات تُفجّر براكين الأنفس الخامدة وتضخ دماء الغيرة في العروق اليابسة!

- أفاضت كلماته التي لم تعرف ضعفاً ولا هواناً ببسالة قوية.. كلمات صدرت عن نفس لا تعرف الهلع ولا النكوص.. فكأنه الرئيس ونحن الرعية منه نتعلّم، ومنه ننهل، ونهدف لما يقصد إليه.. جلنا في الليل معاً جولات وجولات، متأبطين بسواعدنا السلاح رفيقاً، وكنا لا نبالي في تلك الليلة أوقعنا على الموت أم وقع هو علينا... هاك مثلاً للبطولة والتضحية، والبذل الصادق والفداء، من شعب آمن بحقه فكان أبطاله مثلاً أعلى في البذل والتضحية..

توقفت راحلة حديث الضابط المصري كي يتزود بمياه كوب زجاجي التقطته يده من فوق صوانة السرير، أخذ يرتشفها لتروي ظمأ قحل ذكره ليستطرد تارة أخرى:

- وتوالت الأحداث واستمرّ التراشق بضع ساعات، حتى دوى انفجار هائل بالقرب مني.. رمال ودخان يتطاير نحو وجوهنا.. نيران

غزيرة استبدَّ بي الخوف وجسدي يرتعد من البرد فاثنييت إلى الداخل وانطويت وتوقعْتُ على نفسي حتى قاطع الطنين في أذني الصمت.. غبتُ عن الوعي حتى أفقْتُ على سكون تامٍّ في الثلث الأخير من الليل وأوحال الهزيمة على بدني، تدمي وجهي ومرارة النكسة في حلقي، فلا صوت بشر ولا رصاص ولا قنابل أو محركات.. فقط صوت هجيج النيران في شاحنات الوقود المشتعلة والدبابات..

ازداد استشراء الخطر وازدادت حُلُكة الليل ولا تزال بعد أن لقي قادة كتائب وضباط وقادة دبابات وأعداد من أطقم الدبابات مصرعهم، وقد أعطبت دبابات كثيرة وكانت النتيجة هزيمة مؤلمة مؤسفة بخسائر فادحة وإصابات جسيمة بعد أن انهار خط الدفاع الأول بأمر بالانسحاب في أثناء القتال لتصبح المضائق والممرات، المفاتيح الاستراتيجية الحاكمة لسيناء كلها في قبضة الصهاينة..

ومأً يزيد المأساة إيلاًماً وما يزيد جراحنا نزفاً أن النكسة والهزيمة لم تلحق بنا على أرض المعركة، بل أصابت ظهورنا سِهاماً مسمومة من أروقة بعيدة لتترك أجسادنا مُلقاة مخضبة الرأس والصدر بدماء النكسة..

- معذرة يعقوب، لكن كان على العمل في صمت أن يتنصر على الهتافات والأناشيد والشعارات..

- لقد حاول سبعة جيوش للعرب إنقاذ فلسطين يومئذ، وفشلوا لأنهم قد كانوا سبعة..

- وما الذي جرى لك بعد ذلك.. هل جرى أسرك؟

- استطعتُ الفرار تحت جُنجح الظلام تلك الليلة.. زحفت لما يناهز ثلاثة كيلومترات، بعدها ركضتُ حتى الثامنة صباح السادس من يونيو.. تلقفني قرب الحسنة أحد مشايخ البدو، فأنزلني ضيفاً عليه يومين، وألقيَ القبض علينا ونحن نحاول التسلُّل عبر أحد الدروب.. أرسلوني بعدها إلى معسكر مطار العريش، حيث كنت شاهداً على مجازر الصهاينة في حقِّ العرب هناك..

- حتماً كان الإحساس بالغ السوء على نفسك ويداك مغلولتان بأصفاد الأسر..

- إنني أروى لك لحظات أحسست بداخلي فيها إحساساً فريد القدسية، إحساساً خلق من حياتي حينها سؤالاً أفقه صمت خافت لامتناهٍ تضيئه نيران حروف الألم.. ما زالت سطور صفحة تلك الليلة البشعة والنهار القاسى مخضبة بمداد من الحزن الباكي الذي لا ينفك عن تمزيق أوصال قلبي..

ألقيت جسدي المتدثر بثياب رثة مفعمة بجروح لم تندمل في يم السلوان بغية إجابة شافية، فما كان من الأمواج العاتية أن تلقني على رمال الذكرى التي التصقت بملابسي حتى النهاية.. مشاعر مبهمة لا يقوى على طيها بين كتاب الأطلال سوى فيض ليل الأمس، حين تشرق عليه شمس الغد..

أؤكد لك أن هؤلاء الصهاينة لن يستطيعوا الفرار من عقاب الشعب المصري ولا بعد عقد من الأجيال القادمة، على ما اقترفته أيديهم الملوثة بدماء العزل من الأطفال والنساء والشيوخ الذين ذبحوهم دون شفقة ولا رحمة، وأقبروهم بيوتهم التي دكوها فوق رؤوسهم بلا سبب جنوه..

- سُحقاً لهم، أقاموا بقتل النساء والأطفال إبان الاجتياح؟

- هكذا أخبرني أحد مشايخ سيناء من المجاهدين الأسرى في معسكر مطار العريش أن ما حدث يومها كان شيئاً مُروّعاً.. شيئاً يفوق كل تصوّر بالفعل.. لقد أقدم جيش إسرائيل بوضاعة وخسّة بضرب الإنسان البسيط العادي في إنسانيته، استهدف منازلهم، نحر السكان واقتلع حياة الأشجار والحيوانات من أرض السلام، واستطاع أن يؤكد أن إسرائيل هي ذلك الكيان الذي قام على الدم والإرهاب، لا يستطيع أن يحيا سوى بمزيد من الدم وإرهاب لا حدود له.. كيان يعامل الآخرين بدساتير العصابات وليس بقوانين الأمم وأعراف الشعوب المتحضرة.. إنه كيان مسلح فاشيٌّ نازيٌّ متخلف..

- ألهذا الحد كان المشهد مُفجعاً؟

- لقد صوبوا نيران مدافعهم الثقيلة مباشرة نحو منازل العريش وشوارعها، كل الشوارع، في طول المدينة وعرضها.. قصفوا محطة المياه ومحطة الكهرباء ومبنى السنترال في وقت واحد، فتحولت المدينة إلى جثة هامدة من ركام تتصاعد من بينه النيران والدخان..

خرج الأهالى المروّعون إلى الشوارع فارّين من شبح الموت الذي طاردهم داخل ديارهم وكاد يفتك بهم.. أطفال تصرخ ونساء بملابس النوم وأمّهات تملأ الشوارع يبحثن عن أطفالهن.. آباء يفتشون عن أبنائهم، وعجائز يهيمون بحثًا عن أسرهم المفقودة..

- وماذا عن الأسرى؟

- مذابح جماعية طالت الآلاف.. قاموا بدهس أجساد الأسرى العزل بالدبابات بعد أن أمروهم بالنوم على بطونهم.. أمروا المئات بحفر قبورهم بأيديهم ليطمروا عليهم الرمال وهم أحياء.. أطلقوا النار على الكثير بطريقة همجية ليردوهم قتلى في التوّ واللحظة...

- كفاك حديثًا عن هذا الأمر فالأمر الوحيد الذي قد أصدقوا القول فيه كان عن جرائمهم في حق الأسرى العزل.. ربما حان الوقت لتطلعي كيف هربت فارًّا من جحيم الأسر؟

- أوصلوني إلى مرقيدي الأخير حيث رتبوا لي مقابلة مع الموت.. هكذا عصفت بعقلي تلك الأفكار حتى ألقوا بي داخل معسكر مطار العريش.. تشابهت الوجوه هناك، وجوه بلا ملامح طمست تحت رماد موحل..

كلمات الصمت كانت صوتًا لا يُسمع، كلمات طمت في باطن صخرة صماء من بيداء آثام لم نرتكبها.. بيد أن الظلم قد استفحل تحت ظلال غيوم عقيمة مظلمة، إلا أن خطوات تسارعت مع دقات قلبي،

الذي كاد يتوقّف حتى احتضنتني عينا الملازم أول صفي.. لينقذني من بين براثن اليأس الذي كاد يصرعني، فعادت ترانيم المسيح تسكن قلبي ألا أستوحش يومًا وضاء آتٍ لا محالة..

تعارفنا وترابطت أفئدتنا بجديلة المحبة، ومع شحّ الماء وكسرة من الخبز المتيسر.. ومع توحّش آلة القتل والتنكيل الصهيونية لرفاقنا الأسرى، زاد إصرارنا أنا وصفي وعشر من رفاقنا لنضع خطة جريئة للهرب في غفلة منهم بعتمة الليل..

تسلّلنا واحدًا تلو الآخر تاركين العالم المتلاشي وعيناى تستجديان الصلاة في قلبي أن تكون الخلاص الوحيد ومخلصنا وحده على الصليب.. تجشمت في تلك اللحظات ألم دموع العيون الحارقة بلذّة ترانيمك صوفيا، حتى رأيتك في السماء نورًا للنهار الوليد والأهداب تنفض من العين رمال الليل..

زحفنا فوق الرمال الحارقة حتى انتصف النهار مناورين صوب الشرق وجنوبًا في اتجاه أبي عجيلة، مناورة جريئة أجريناها كي نفرّ من تعقّب الإسرائيليين لنا.. أخذت ظلال الخوف من تعقبهم لنا تتلاشى حتى اختفت مع غروب شمس اليوم الأول..

- ربما لم يكتشفوا فراركم، وربما لم يكتثروا لهروبكم، فإذا ما استطعتم الفرار من مقصلة مذابحهم، فقد تركوكم لسكين الظمأ لينحركم في صحراء شاسعة.. هكذا اعتقدوا ربما..

- في كلتا الحالات حالفنا الحظ ورافقتنا العناية الإلهية وكتب
لهروبنا النجاح.. كنا أكثر حظاً حين تعثرنا في الطريق بمدرعة معطوبة
عثرنا بداخلها على قربتين بهما قطرات من الماء تبقينا ليوم آخر على قيد
الحياة بعد أن أندى القيطز الجباه، وأسكرنا الظمأ، وأحرق ملح العرق
أحداقنا..

عدّلنا مسارنا مع شروق شمس اليوم الثاني ونحن نسير عُرة في
الصحراء القاحلة صوب الغرب الجنوبي، وسط قيظ القفر الوعرة في
طريق الحسنة وسياط الجوع والعطش تجلّد أجسادنا المنهكة.. قبيل
العصر توقفنا لتلقف أنفاسنا قبل أن تزورنا اثنتان من الأفاعي
الصحرواية، وقد ظننا بنا خطأً أننا سنكون لهما فريسة، فما كان من أربعة
من رجالنا إلا الانقضاض عليهما والفتك بهما بأيديهم القوية، لتتناوب
المجموعة تناول لحمها لتسد جوع وخواء أمعائنا وتُبقي على آمالنا في
المُضي قُدماً حتى نبلغ دروب الجفجافة..

في تلك الليلة أُصبتُ وثلاثة من رفاقي بإعياء بالغ وحمى شديدة
أجبرت الجميع على الإبطاء والراحة في ليل العراء، حملني غازي على
كتفيه ذلك اليوم مُنقذاً إياي من الموت بعد أن أصرّ على عدم ترك أيّ
واحد منا حتى خارت قوى الجميع اليوم الثالث بعد أن عانوا مشقة
حمل ثلاثة رجال على عواتقهم المُثقلة بالظمأ والجوع والإرهاق .

- لقد خاطر بحياته من أجلك..

- نعم فلقد أنقذ حياتي، وقد كدنا عصر هذا اليوم نستسلم لبرائن الموت الكاسر المتحين لنا جميعاً، ونحن نتأمل الوعي فينا يفيق.. بعد أن نزع الربُّ من الأرض كل غناها وجهاها وزينتها في أعيننا والسموات تظلم ربما من غبار أشباح الأعداء، وربما من اليأس من الخلاص حتى أرسلت السماء لنا المدد وسط حدائق الرمال تلك، كوخ من العريش اتخذ من أغصان وسعف النخل وسط فضاء قفراً من العدم..

- أيعقل أن يقيم أحد وسط تلك الصحراء الجذباء؟

- توجسنا وارتبنا في الأمر فلربما كان شرّاً من الإسرائيليين، إلى أن استطاع غازي العُشة فلم يجد بها أحداً سوى سجادة من حصير وجرة كبيرة ملأى بالماء العذب وتلة مغطاة برداء أبيض، ما إن كشفنا الغطاء عنها حتى وجدنا عشرات الأرغفة الطازجة من خبز العجين!

- لا أكاد أصدق هذا! خبز وماء في بيت مهجور وسط خلاء العدم! يا له من حلم رائع أنقذكم من كابوس الموت!

- لم يكن حلماً ففي تلك الليلة كتبت لنا النجاة عدا اثنين من إخواننا المحمومين.. وارينهما الثرى في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي.. يسري عبد الهادي وشريف الصعيدي، وما صار بعد هذا اليوم كان حقاً كابوساً..

- ما الذي حدث؟

- خرجنا صباح اليوم الرابع بلا أدنى فكرة عن إحداثيات تلك البقعة القفر.. كنا في فضاء شاسع تتلامس فيه صحارى الحسنة

والجفجافة.. فقدنا دليلنا عبد الهادي الذي كان يرشدنا الدروب،
ويرسم لنا بصيص نور الطريق.. تُهنا في الصحراء ضالّين دربنا.. سرّنا
وركضنا وتراكننا وتدحجنا حتى أعيانا التعب وأنهكنا العطش، ولم
تلح لنا في الأفق قط بارقة أمل للنجاة.. أخذنا نمشي يمنة ويسرة
شاردين مسيرة يوم، وإذ بنا نعود عند الغروب حيث كنا في ذلك الكوخ
المعرش..

درا في دائرة مفرغة ثلاثة أيام لنعد إلى العشة لنجد الماء لم ينقص
ولا الخبز لم ييبس.. وفي الليلة السابعة أخذتُ أدعو طالباً الرحمة من
الرب لضعفي وسألته الشفاء، وقد رجفت عظامي، تضرعتُ إليه
وداود جاري.. بكيت خطايا من حولي دموعاً مُبتغياً الخلاص من
السماء..

سجدتُ مسبّحاً وأنا أصرخُ من كربى إلى الغالي الأب الحنون يسوع
أن يمدّ يده وينتشلني ويعول نفسي المحتاجة، وقد أوشكت أن أغرق في
محيط العالم المريض بالألم واليأس والحزن والبكاء، سألته لمسة على قلبي
كي تتبدّد الغربة الوحشية المنتشرة في أرجائه.. إلى أن سَكَنَ المسيح
أعظم مَنْ في العالم بداخلي، وحتى أمطرت الرحمة والحق وقد تلاقيا،
والعدل والسلام وقد تلاءما.. الحق من العدل أشرق، والعدل من
السماء تطلّع..

- أقبلتُ إليه فلم يخرجك خارجاً بل ضمّك إليه فشكرته..

- رغبت فيه فأتاني وناديتني فسمعني وذرفت الدمع من أجله
فبشّرني.. ولم أشكره.. ولم ألبّ النداء، ولم ألحق بالركب، ولم أسلك
الدّرب بعد أن هداني الطريق..

انفجر يعقوب باكياً مُردّداً تلك العبارات القصيرة بصوتٍ
مبحوح، لتقترب منه صوفيا وتُعانقَه بين أحضانها حتى هدأ روعه
لتشرع هي في إكمال الحديث:

- فلتشكره الآن يعقوب، وأنتَ تقصُّ عليّ ما تبقى من روايتك.

- حسناً.. قمنا جميعاً لتحرك مع بزوغ فجر اليوم السابع.. سرّنا
على بركة الله ولم نتوقف حتى أدركتنا أخيراً الجفجافة، فاتجهنا شمالاً
صوب طريق الطاسة القنطرة، ومضينا مستمرين هكذا حتى عبرنا
القناة، لتغسل مياهها ما لحق بنا من عارٍ وألمٍ ومشقّة.. فقدتُ الوعي
بعدها من أثر الحمى وجروحي المُتقيحة، التي ها قد شفيت على يدك
صوفيا..

- وهل أخبرتك عن بسالتكم وقوة بأسكم في معركة الأول من
يوليو التي كنتُ شاهدة عليها حتى آخرها، ومهما أبالغ في توضيح
الإنجاز العظيم فلن أفي جيشكم حقّه؟

- تلك المعركة هي بوابة نصر حقيقي لتاريخنا الحديث على
الصهاينة، بعد هزائم متتالية تجرعت الأمة مرارتها.. ولن تحقق كلماتنا
نفس الصدى الذي سيحققه شهادات القادة الإسرائيليين عن راس

العش.. فكلمة المدح من العدو تُعادلُ ألف كلمة من الصديق.. بذل الروح في سبيل الأرض والعرض هي جذور عقيدتنا على مَرَّ الزمان الضاربة في قلب الوطن النابض بالإيمان.. صفحات التاريخ منذ الأزل تحذر كل طامع في جنتها أو مغتصب لتراها أن أرضنا المقدسة بما عليها محرمة عليهم..

- وكيف لضابط مصري أن يُتقن الروسية والعبرية في مثل هذه السنّ الصغيرة؟

- أُلحقت في عام خمسة وستين إلى إحدى فرق الاستطلاع في موسكو، فأُمضيتُ هناك ثمانية عشر شهرًا.. أتقنتُ الروسية على يد الرفيق ميخائيل بتروفيتش.. أما العبرية فأتقنتها في شهرين إبان عودتي لمصر وقبيل انضمامي لفرقة النخبة الصاعقة..

استمرَّ الحديث بين الشابين أسبوعين واطبت الفتاة فيهما على الحضور إلى المشفى مُبكرًا وقضاء اليوم بأسره بجوار الضابط المصري، متبادلين الحديث عن الماضي والحاضر:

- على مدار أسبوعين لم أعد أشعر بذلك الفقدان لأعز ما يملكه الجندي.. لقد داويتني بسحرك صوفيا العزيزة..

- فلا تيأس من شيء فقدته، ولا تبَقْ صريع الحزن عليه، فقط واصل المشوار واجعل النسيان سلاحك في هذا فلا تدري ما ستحمله لك الحياة في أيامها القادمة..

- لقد جرعتني كأس اليقين حتى ذهبت وساوسي، وها قد
أشرقت شمس الجنة على قلبي.. فانقشعت عنه سحب الهوى، والآن
يحيا إيمانك بي بعد أن صرعت شيطاني، الذي لم ينفك أن يزحف على
كنزك الكامن بداخلي.. ليسرقه وينزع معه الجنة من عقلي، ليطمر الإيمان
تحت أحجار الشكوك ويوارى شجاعة العمل خلف أسوار الجبن
والخذلان، وخنعت لما في أيدي البشر من سراب ناسياً ما في يد ربِّ
البشر من حقيقة..

- ما هذا؟! يا لروعة كلماتك وجمال حديثك الذي يسترق
الدموع من عيني!

- كان هذا خيال قلبي العاشق وكلماتي كانت تعبر عن مشاعر قد
هاجت في خاطري..

لا أعرف لم سألت الدموع في عيني هكذا؟ ولم لم أستطع الإجابة
بعد أن سألتني عن سبب هذا البكاء.. فكيف سأجيبه بصوت خائف
بالك.. كيف سأردُّ عليه؟.. وماذا سأقول له؟ هل أخبره عن بحثي عنه
طوال تلك السنوات.. أم أخبره عن حياتي المرة التي واجهتها أثناء
غيابه عني؟ أحداث مريرة كثيرة حدثت لي وله.. وكثير من المرارة في
انتظاره.. كيف سأطلعه عن لعنتي التي قُدِّرَ له أن تصيبه؟ ولكنني في
النهاية قُدِّرَ لي أن أبقى بجانبه ما حييت.. فقلبه ينبض بين ضلوعي
بالحياة مرة أخرى ولن يتوقف.. ومشاعره فيض يسرى في عروقي..

بعد عدة أيام غادر المشفى وكثيراً ما تلاقينا بعدها على ضفاف
النيل وفوق جسوره القشبية.. لم تكن القاهرة صعبة المنال، عصية على

الفؤاد.. فسريراً ثمل قلبي بخمر هدوئها وجمال شوارعها المرصوفة
بالبلاط الداكن، المزدانة بالأرصفة وأفاريز المشاة المنمقة .. أسكرتني
روعة مبانيها القابعة في أحضان الحدائق والميادين المتراسة في قلبها على
الطراز الفرنسي.. حيث أصبحنا وأمسينا وأدجنا بين جنباتها وثناياها..
عانقتني أطرافها المترامية شمالاً عند مدينة الشمس هيلوبوليس،
بجمال أحيائها.. بفيلاتها وبيوتها ونعومة سكونها وسكنها.. صرت
جزءاً منها أسيرو وأسري في عروق شوارعها وحواريها القديمة أستأنس
بألفة وعبق التاريخ المسطر على وجوه دورها الطاعنة في القدم في مصر
القديمة..

مضت بنا سنين ثلاث، شاركني حرب الاستنزاف رفيق دربي
بمرّها ومرارتها.. إلى أن بكى المصريون مودّعين ناصرهم، واحتشدوا في
الشوارع مودعين أياماً، سطر التاريخ فيها فصلاً غمره نضالٌ وكفاح
لشعب كاد يضيع بين أمواج الماضي الغابر..

في الحادي عشر من سبتمبر عام واحد وسبعين توفي خورتشوف..
غادرت لأشيع جنازة خليل أذان المتنيح.. أمضيتُ شهراً بين موسكو
ولينينجراد، اختلجت أمواج ذكرى الماضي ومشاعر الآن المتدفقة رويداً
رويداً، وحين قضيت ليلة في كوخ والدي الصيفي، غفوت لأحلم
بساليناس وأنا بين أحضان أذان وكأني عشتُ هناك ولم أبرح الدار
قط..

استيقظتُ وينايع الحنين تفجّرت في القلب إلى الماضي وشمس
الشوق قد أشعلت نيراناً احتدمت بين ضلوعي، ورحتُ أشتُم أريج

الحب وعبير الحنين، فما كان مني إلا أن أعود أدراجي باحثاً عن يعقوب
لعله يطويني بين جناحيه عابراً بي درب الأشواك لنصل معاً إلى بستان
جنة الخلد حيث اليقين..

عدتُ طريدة الماضي وأنا أُحلقُ في سماء دار خيالية لأرض هُرعْتَ
سنايك مهرة الزمن تقدح صخر أراضيها وتثير غبار ماضيها، والروح
قد استويت على صهوتها وهي تُلاقي صليل وغى زوبعة المخاوف التي
قد هبت بين كهوف أعماقي، وصهيل وغرة أوهام الترقُّب وخيالات
أوهام الغد المثلث التي راحت وباتت تُعربد في أذهان عقلي..

على إحدى ضفاف النيل وبداخل كازينو النهر القابع في أحضان
الجزيرة الساحرة الهادئة تعلَّقتُ الأعين هنيهة بغيوم غريبة ارتحلت عن
سموات بعيدة، برفقة رياح الماضي التي راحت وغدت تملأ أنفاسي..
بعدها راحت عيناى المتيتمتان تهيَّمان وهما تتابعان شفتيه ترتشفان القهوة
من قدحها على أنغام مطرب المصريين الحالم حليم..

"أنا لك على طول.. خليك ليا، فلتكن لي.."

انتهى من قهوته لأبدأ في الحديث عن نبوءة الماضي، فهزت ريح
عظيمة شجرة سعادته وطرحت سقاطها نجومًا من سماءه إلى أرض
الشك.. ومن على فرس قاتم جائم على ظهره ليل يمتطيه وتتبعه الهاوية
ووحوش الوهم، ترَجَّل وقد أخذ يسبغني بنظرات الغضب حين لم يجد
اسمي وداري القديمة النازلة من السماء مكان في صدره، انسكب جامٌ
غضبه على شمس نفسه، وكان مكتوبًا أن يحرقني بنار كلماته ونظراته
التي لم تكف عن سؤالي: أين مفتاح داود الذي يفتح ولا أحد يغلق،

ويغلق ولا أحد يفتح؟ وقد تسخّم وجهه بالشحناء وهو يُعَنِّفني..
فأجبتُه أنني أعرف أعماله وضائقته وفقره، على الرغم من غناه ووعدته
بأنني لن أحو اسمه من سفر الحياة وسأعترف به أمام ربي وملائكته..
لقد التمسْتُ له العذر وهو يخوض معركته وسط آتون الحرب
المحتدمة حيث تخرج أرواح الشياطين الكاذبة بآيات الكذب من فم
الوحوش في كل المسكونة، سكارى من دماء الأبرياء في كأس من ذهب
في يد الشر مملوءة آثامًا وخطايا..

كم كنت أريده أن يرى معي سمائي الجديدة وأرضي الجديدة حين
مضت السابقتان ولا بحر يوجد بعد ذلك.. أردته أن يدخل ملكًا
مُمسِكًا بيدي، مُهتديًا بنور يقين مدينتي التي لا تحتاج إلى الشمس، ولا
القمر ليضيئًا فيها لأن الله قد أثارها بسراج الصدق الوهاج..
في تلك اللحظات لم يكن بيده إمادة لثام ماضي الضبابي عن وجه
حقيقة أحلامي المُتيقظة بدرّب قُدِّرَ له سلفًا أن يسلكه، فكانت معركته
الآنية تُسرِّبُه وشاح البعاد عني، ومع عنادي الطفولي ومع إصراره
البُطولي ألا يبرح مكانه حتى يسترد الشرف المملّخ بمرارة الهزيمة، نهري
وتركني مُفارقًا ودموعي تناديه ألا يظن بي السوء فمضى وعرشي في قلبه
وإكليله في يدي حتى أمضي في الطريق وحدي حتى يقضي الله أمرًا كان
مفعولًا..

غادرت بعدها ولم يترك لي سوى رائحة الفراق تغمر القلب..
امتطيتُ صهوتي حاملة الهموم إلى ديار الغرب، وأنا أطلُّعُ إلى مرآة
السماء وهي تدنو مني.. تجتذني بعنفوان صوت الماضي الشاب الذي لم
ينفك عن طرق أبواب الحاضر..

حضرت رحلي الموم وأنا أُحَلِّقُ من القاهرة إلى لينينجراد ثم إلى إسبانيا.. لم أترك شيئاً ورائي فجمعت كل أغراضي، قيثارتي وحقائب ذكريات إرث الماضي.. لم أجد في مصيبتني بفقد المعشوق القديم ما يخفف من روع فجيعتي بفقد العشيق وشعوري بجفوة يعقوب، فالحياة هكذا.. وللمصائب وجهان، ذكرى ونسيان.. مصيبة كبيرة تنسينا الصغيرة، أو صغيرة تذكركنا بالكبيرة..

ألبس الرحيل جسدي رداء الحُزن، وفي طريقي إلى ساليناس رحْتُ أترقَّب شمس الغروب الوليد بخيوطه الحريرية، التي رحْتُ أتسلَّقها بحدقتي الدامعتين حتى أدركتني حدود بساتين ضيعة الشمال.. هناك بدت السماء قريبة إلى جذور روعي الضاربة في أعماق جنة الخلد القابعة بين أطلال نسائم رياض الكروم التي جذبت ..

وكأنني جلت بين جنبات رفات الماضي المختلط بتراب الطُّرق المُعبَّدة من أبيليس إلى ساليناس.. هناك لم أكن بحاجة لخريطة كي أتعرف إلى دار السكن الذي طمرته ستائر جدداء من سنوات متسلقة، أينعت على وجهه المنتقب بنبته جبل المساكين، الهيدرا وزهور الجنة، عشب النار، الياسمين البري، وقد أمسى حبيسها حتى ذلك الحين..

تذكرت أولئك الذين كانوا يعيشون مُطمئنين في ظل قصر السكينة العالي الشاهق، الذي من شدة سموه وهنت الأعين من فرط تدبُّره والتطلع إليه.. لكن ها قد تبدَّل الحال، فبات هذا القصر خاليًا من أهله، فتربَّل البنيان رداء البؤس والتداعي، ينطق بفجيعة من كانوا فيه،

فالليالي بظلام مصائبها وتكائب المحن قد صيرته هو والقبر سواء بعد
أن كان دار أنسٍ حافل بأعراس الزمان ولكن هذا البيت العظيم
بشرفاته المرتفعة، الكائن في قلب المسكونة يثير الإعجاب والدهشة في
صمته كأنه جبل التَّجلي لا يزال على عهده ينطق بعظمة القوم وأصالتهم
تاريخياً..

رأيته برداء الحزن وكأنه أمضى الدهور يتهالك على فراق أحبته
كمن أكره على هجر توأم روحه.. وما إن أُلقيتُ جسدي بداخله، حتى
احتضنتي أطيايف ماضيه المُجلَّل الرافل بحُلل النعيم والحرير، مُغرَقاً
بألوان الفرح والحبور، عامراً بخيالات الحب والعشق، غاصّاً بالوفود
الواقفة صفوفاً حاسرة قليلة فقط كي تنهل من فيض أرواح ساكنيه..

كأنني عشتُ حياة برمتها بين جدران هذا البيت الذي لم تنقطع
أصوات الماضي الدفين عن مناجاتي، والشكوك قد همّت بالهرب تاركة
الخيرة لثلاثهم رأسي المعتصر بطلاسم أدان ونبوءة صوفيا وعهد والدها..
راحت السماء تبرق في حين أخذتُ على عاتقي البرق برسالة إلى
يعقوب.. رسالة براقعة مُقتضبة ذات كلمات محدودة بأحرف صارمة
ناعمة.. أحرف ستفتح أبواب حياة له ليسير بين دروبها ويصل طرقها
المبعثرة بين أشلاء أشباح البارحة وأطيايف مرده الجنون، إلى أن تدركه
ناصية الحقيقة حيث يتقاطع هنالك طريق النهاية الزاخر بنور الحياة
ونهاية طريق ظلام الفيافي..

"عليك أن تتعلَّم أحرف لغتي حتى يتسنى لك إدراك مفترق الطرق هذا لتلحق بركب نبوة قدرك"

جالَ بجنبات دار عقلي طيف الأمس الخانع.. ما الذي دهاك أيها الأمس؟ فهفوات المرء تنحدر كرة من الثلج المشتعل بحُمم البعاد إلى الدرك الأسفل لقفار الحيرة، حيث تختفي اللحظة في نهر من الخمر ملاً كؤوساً من مصاييح ومرايا شربت من سرا به البرايا.. حتى غرقت من الثمالة بين ظبي وأنصال أمواجه الحمراء، وصيحات النفس والروح المتناحرتين على ضفتيه تدوي في قنينة عالمٍ بائسٍ غاضبٍ..

تدبَّرت من النافذة أجنحة الملائكة البريئة التي كسرتها قذائف الشَّرِّ في الماضي، ومن وراء النافورة اليابسة اختفت معالم الطريق وتوارت حتى بدت لشطط القانطين كأنها اندثرت أو كادت أن تفتنى.. بعد ان استباحث ثلوج طلائع الشتاء برئل الأرض وعشب مروج مشاعري الدافئة، التي أخذت تذيب ركام الثلج في كأس ليالي الخمر.. لكن استطاع سحر ثلج ساليناس أن يَحمد قليلاً من نيران الشُّهد في القلب..

احتضنتُ قيثارتي وقد هجعت في قلب أريكتي وقد غمر أذنيَّ صوت انخل كابرا ل بأغنيته الثلاثينية "لن يعرف أحد مُعاناتي" .. أغنية حفظتها روح ساعة صوفيا الماضية، ولم أستمع إليها قط حتى تلك اللحظة، التي راحت موسيقاها تعزف في أذني مع جوقة تشدو بلساني على شرف لقاء عازف جمع سحب شغوفة غبطها البرق الحميم في السماء بالغيث العاشق أمام عيني..

"لا تستغرب إذا ما قلتُ لك حقيقة ما كنت عليه، كونك ناكراً للجميل مع قلبي المسكين.. لأن نار عينيك السوداوين الجميلتين أضاءت طريق حبٍّ آخر، والتفكير في عشقي الغالي لك وشعوري بجانبك الذي لم أحظَ به قط من قبل، والأشياء النادرة لحياتي دون أن أرى قبلة فمك.. عشق حياتي، عشقي الذي خلقتَه ولا أستطيع أن أكتفي به دون أن تستطيع تأمل سوء جزاءك لمودتي بالغة الإخلاص هو ما ستناله إذا لم أذكرك بعد الآن.. عشق حياتي لو توقفت عن حبك لي، لن أكثرث ألا يعرف الناس ما جنيته من هذا بقول أن رجلاً قد غيّر قدري، إذا ما سخرُوا مني أن أحداً لن يعرف قدر معاناتي.."

أركت صهوة جواد خيالي ولم أبرحه متكئة على حشية الأريكة.. كأني جنين التصق برحمه أو نبتة انغrust في ثغره الصامت، وأنا أرمق الأصائل والأسحار تهجر نافذتي مُتدثرة برداء فضفاض من الهواجس..

بشغف تابعت قطرات ماء الحياة وهي تمتطي الهواء طافية وعناقيد بلورات ثلجية تتدلَّى من عنقه متعلقة به برفق وقسوة.. أبصرت غمام الخريف الصغير خائفاً هشاً، تناثر ضائعاً مُتفخخاً من الرهبة باحثاً عن خيوط السمحاق، رهج رمادية، ضباب أجوف بلا مطر بُعثَ فقط ليستر أشعة الشمس عن مشهد الخريف المودع، الذي لم ينتهِ حتى جاء كسفاً من الرياح كي يُؤلَّفَ بين أفئدة الغمام ليتدثروا ببعضهم البعض شيئاً فشيئاً ليصيروا قباباً وجبالاً من السُّحب البيضاء كجُزرٍ عملاقة داكنة مخيفة من القطن ناصع البياض، يجرُّهم الريح لينازلوا ركام مزن الشتاء الرعدي الذي بدا كسندان الحداد بدوي مطارق الرعد..

بعثت الهواجس خلف غزو الشتاء نظرات ترقبي بين أكوام من الذكريات وتلال من العواقب الضبابية.. إلى أن عاد البرق ليرعد تارة أخرى إيذاناً برحيل الشتاء، ومن بعده رحل الخريف مرة ثانية وقُبيل مغادرته الثالثة في الأسبوع الأول من شهر أكتوبر جاءني نبأ اندلاع الحرب على أراضي سيناء..

جزعت الروح بنيران آتون الحرب الذي سَعَّرَ النفس بغبار المخاوف التي أُمست سلاسل تُكَبِّلُ أفئدة الناس.. ربضت في أسفار العهد القديم، وعرجت بكلمة الربِّ حتى بعثت ليعقوب بكتاب تلو الآخر حتى هبطت على رسالة الطمأنينة بردًا وسلامًا بنهاية ديسمبر في حضن شتاء ساليناس الخيالي، استهلها يعقوب..

"لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان، وذلك ليس منكم، هو عطية الله".

سرد في متنها:

"فلتعلمي أن أحبَّ البلاد إلَيَّ هي مصر، محراب عِشْقك، وأبغض البلاد عندي هي قِفار بيعك وبعادك.. لقد قرأت كتاب أدان بلسانك فرجف القلب زافرًا آثامي عن بكرة أبيها.."

وجاءت خاتمتها:

"ريثما أنتهي من اجتثاث شجر الغرقد من رياضنا المقدسة سآتي إليك كي أحيَا بك للأبد.. خلاصنا في كتابك.. حتى نلتقي.."

ثم جاء اللقاء في ربيع عام خمسة وسبعين.. كان اللقاء مُفَعِّمًا بسيل جارف من الأحاسيس الجياشة، وقد أوشك أن يحسر القلب عن مكنون أسرارهِ .. أتاني يعقوب كما لم أره من قبل وقد تزَيَّنَ بثياب بيض بلا إثم ولا دنس.. بعد أن امتطى جواد المحبين، يتحرك مزهُوًّا بكسوته المطرزة بعقيق الفاتحين والمصبوغة بخضاب الخلاص ويديه أكاليل الغار..

عاد بي إلى نجمة الشمال للنهل من العسل شهرًا في كنف لياليها البيضاء الساحرة بعد أن أقمنا مراسم الزواج في كاتدرائية إيساكيفسكي ارتديتُ فستان صوفيا وزينتها وعدنا بعد ثلاثين يومًا إلى أستورياس، إلى نهر الجذور ليعيد يعقوب البيت كما كان عليه منذ أن تركاه صوفيا وأدان منذ أربعين سنة، ويُعيد ثمار الضيعة لبساتينها مرة أخرى ..

وفي الواحد والعشرين من نوفمبر عام سبعة وسبعين وبينما دأب يعقوب على سماع صوت العرب، إذ بصوت قائد أمتهِ يُذاع من قلب تل الربيع.. تل أبيب.. تغيَّرت معالم يعقوب وجميع جوارحه تنصت إلى صوت هذا الرجل المميز ويده أخذت تربت على كتابي المقدس بينما همَّ بترجمة الخطاب لي مُليًّا طلبني الذي ألححتُ به كي تهدأ عاصفة التوتر التي ضربت جنباته.

- السلام عليكم ورحمة الله، والسلام لنا جميعًا، بإذن الله.. السلام لنا جميعًا، على الأرض العربية وفي إسرائيل، وفي كل مكان من أرض هذا العالم الكبير، المعقد بصراعاته الدامية، المضطرب

بتناقضاته الحادة، المهدد بين الحين والحين بالحروب المدمرة، تلك التي يصنعها الإنسان، ليقضي بها على أخيه الإنسان. وفي النهاية، وبين أنقاض ما بنى الإنسان، وبين أشلاء الضحايا من بني الإنسان، فلا غالب ولا مغلوب، بل إن المغلوب الحقيقي دائماً هو الإنسان، أرقى ما خلقه الله . الإنسان الذي خلقه الله، كما يقول غاندي، قديس السلام، "لكي يسعى على قدميه، يبني الحياة، ويعبد الله.."

- وقد جئت إليكم اليوم على قدمين ثابتتين، لكي نبني حياة جديدة، لكي نقيم السلام. وكلنا على هذه الأرض، أرض الله، كلنا، مسلمين ومسيحيين ويهود، نعبد الله، ولا نشرك به أحداً. وتعاليم الله ووصاياه، هي حب وصدق وطهارة وسلام..

كان الصراع بداخل يعقوب ضارياً بالغاً أشده صراعاً بين البغض والتسامح.. بين الثأر والغفران ممّا دفعني أن أرتمي بين أحضان المشتجة بكلمات لم يدرك ماهيتها ولا عمق حقيقتها لم تقاطع كلماتي تواصله مع الخطاب الذي أردف مترجماً:

- إن في حياة الأمم والشعوب لحظات، يتعين فيها على هؤلاء الذين يتصفون بالحكمة والرؤية الثاقبة، أن ينظروا إلى ما وراء الماضي، بتعقيداته ورواسبه، من أجل انطلاقة جسور نحو آفاق جديدة. وهؤلاء الذين يتحملون، مثلنا، تلك المسؤولية الملقاة على عاتقنا، هم أول من يجب أن تتوافر لديهم الشجاعة لاتخاذ القرارات المصيرية، التي تتناسب مع جلال الموقف. ويجب أن نرتفع جميعاً فوق جميع صور التعصب،

وفوق خِداء النفس، وفوق نظريات التفوق البالية. ومن المهم ألا ننسى أبداً أن العصمة لله وحده. وإذا قلتُ إنني أريد أن أجنب كل الشعب العربي ويلات حروب جديدة مفعجة.. فإنني أعلن أمامكم، بكل الصدق، أنني أحمل نفس المشاعر، وأحمل نفس المسؤولية، لكل إنسان في العالم، وبالتأكيد نحو الشعب الإسرائيلي..

- إن الروح، التي تزهر في الحرب، هي روح إنسان، سواء أكان عربياً أم إسرائيلياً. إن الزوجة التي تترمل، هي إنسانة، من حقها أن تعيش في أسرة سعيدة، سواء أكانت عربية أم إسرائيلية.

- إن السلام ليس توقيعاً على سطور مكتوبة، بل إنه كتابة جديدة للتاريخ، إن السلام ليس مباراة في المناداة به، للدفاع عن أية شهوات أو لستر أية أطماع، فالسلام، في جوهره، نضال جبار ضد كل الأطماع والشهوات. ولعل تجارب التاريخ، القديم والحديث، تعلمنا جميعاً أن الصواريخ والبوارج والأسلحة النووية، لا يمكن أن تُقيم الأمن، ولكنها على العكس تحطم كل ما يبينه الأمن.

كم أحببت وقع كلمات ذلك القائد المتطلع إلى السلام ونبرة صوته القوية احتضنت يعقوب لأنه منه.. رحت أذرف الدمع باكية لتختلط دموعي بنحيب يعقوب الذي أكمل بصوتٍ مبحوح:

- إنني أحمل إليكم من شعب مصر، الذي يبارك هذه الرسالة المقدسة من أجل السلام، أحمل إليكم رسالة السلام، رسالة شعب مصر، الذي لا يعرف التعصّب، والذي يعيش أبناؤه، من مسلمين

ومسيحيين ويهود، بروح المودة والحب والتسامح. هذه هي مصر، التي حمّلتني شعبها أمانة الرسالة المقدسة، رسالة الأمن والأمان والسلام.

- فيا كل رجل وامرأة وطفل في إسرائيل: شجعوا قيادتكم على نضال السلام، ولتتجه الجهود إلى بناء صرح شامخ للسلام، بدلاً من بناء القلاع والمخابئ المحصنة بصواريخ الدمار. قدّموا للعالم صورة الإنسان الجديد في هذه المنطقة من العالم، لكي يكون قدوة الإنسان العصر، إنسان السلام في كل موقع ومكان.

خارت قوى يعقوب ليسقط الكتاب المقدس من يده على الأرض، بعد أن ارتطم بحافة المنضدة وقد سقطت من ثنايا غلافه ورقة مميزة التقفتها بسرعة خاطفة يده وهمت الأخرى تمسك الكتاب وهو يردد كلمات قائده:

- بشروا أبناءكم، أن ما مضى هو آخر الحروب ونهاية الآلام، وأن ما هو قادم هو البداية الجديدة، للحياة الجديدة، حياة الحب والخير والحرية والسلام.

- ويا أيتها الأم الثكلى، ويا أيتها الزوجة المترملة، ويا أيها الابن الذي فقد الأخ والأب، يا كل ضحايا الحروب، املؤوا الأرض والفضاء بتراتيل السلام.. املؤوا الصدور والقلوب بآمال السلام.. اجعلوا الأنشودة حقيقة تعيش وتثمر.. اجعلوا الأمل دستور عمل ونضال.. وإرادة الشعوب هو من إرادة الله..

الفصل الأخير

صباح يوم الثلاثاء ٢٣ سبتمبر ٢٠١٤ - غرفة الجلسات

بترقُبٍ شديد، وتركيز بالغ قبع الدكتور توفيق تحت ظلال الجلسة الأخيرة بجوار طاقمه المساعد، متابعًا أوراق شجرة الحوار التي طففت في التساقط بغزارة وباضطراد.. بفعل صبا صوفيا على مسامع البروفيسور فلاديمير:

- هكذا تجشَّم يعقوب آلام الأذان وقد تكالبت عليها أشواك معاركه بلذة العيون، التي أدركت خريطة احتضنها كتاب أدان المقدس.. ظانًا أنه الخلاص.. طرحته الظنون أرضًا من فوق صهوة جواده المكلم بحمى التشكك في دواء السلام، الذي أرسله الربُّ على أيدي قائد كلل جباه أعمار اغتسلت بدماء الوطن بأغصان الزيتون.. حتى ارتوت أرضه بدمائه في ذكرى نصره.. فجفَّ مداد الحرب الأحمر على ثوب الأرض وانسكب حبر الحداد الأسود على ورق التاريخ..

- إذن لقد دس خوان خريطة في حشايا غلاف كتاب صوفيا المقدس..

- نعم كانت خريطة لدهليز سريّ في قبو المنزل، خبأ فيه العديد من الصناديق التي تُواري بضع مئات من سبائك الذهب..

- إذن تلك الثروة كانت الخلاص الذي قصده أَدان عن حماء خوان..

- هكذا ظن يعقوب، فارتمى في أحضان الدنيا غافلاً ومُتناسياً عهده ونبوءتي، وقد تعالت أصداء وساوس ماضي أَدان في مسامعه.. فراح يبتعد عني شيئاً فشيئاً، مُقترَباً من ثمر الهوان مُشتهياً سراب الخلد في قفار العناء والشقاء.. فلم يجد رغداً ولا هناء..

- مطية رحلة العذاب..

- الوزر الموروث، ميراث من خطايا وفداء.. ميراث من هباء لخطيئة سرمدية سقطت من الشجرة المحرمة، ليهيم بها في البراري، ويتدثر بتراب إثم يسري في نهر حياته.. خطيئة ترثها أفئدة الضالين.

- ولما كان لزاماً عليه أن يرث خطيئة لم يرتكبها؟

- لقد كان خياره أن يمضي قُدماً رقيقاً لعالم الكذب في دروبه وتناسى أنه لن يتمكن أبداً من العودة إلى سبيل الرشاد.. هكذا كانت النبوءة، حيثُ أصرَّ على أن آتي إليه بوريث، يمنحه إرثه الموعود.. بعد أن أخبرته أنني قد أنجبتُ مرة واحدة وأني لا أقوى على الآلام.. فأَلام

مخاضي أهون عليّ من آلام شوقه لي.. فالذكريات بداخلي لا تتلاشى
مطلقاً بل تورث..

- ولم يَنْصَعْ لرغبتك؟

- تكالب على الدنيا وهي في واقع الأمر تكالبت عليه، ساخرة
منه وهي تقوده إلى محطة خالية مقفرة.. تلوح في أفقها أدخنة السنين
الراحلة، وفوق مقاعد أرصفتها الخاوية أخذت أوهام الضباب تعربد
بحطام أفكاره وركام ماضيه ورماد مشاعره..

- ورحلت الأم صوفيا؟

- بل كان ميلادها الثالث مع فجر الثالث والعشرين من سبتمبر
عام ثمانية وسبعين.. بعد ستة أيام من قرع أجراس شمس السلام لتهدأ
من روع أنات أرض الميعاد..

* * *

بداخل بيت كبير فخم بيت تسربل بلباس البلاء بعدما بات خالياً
من الأحبة، وقد أقعد جدران الصمت، وساد أركانه سكون الهجود..
بيت يتماهي تصميمه وأثاثه مع منزل صوفيا الريفى القديم في
ساليانس.. بين ردهاته الواسعة ويجوار السلم الداخلى الكبير تتوارى
غرفة المكتب الخاص ببيعقوب خلف باب خشبي ضخمة..

ما إن فتحت أنامل صغيرة مقبض الباب، حتى بزغت جدران
عانقتها بساتين من أرفف وأدراج ورفوف خزائن، تفوح منها رائحة

خشب الماهوجني، تعج بمئات من ثمار المجلدات والكتب.. تعلق
بتلك الحوائط الثلاثة بعض من الصور الزيتية النادرة برسوم ألوانها
داكنة مميزة..

تتدلى وراء مكتب خشبي ضخّم وأنيق، احتضن كتاب صوفيا
المقدس، كتابي أدان ويعقوب وعشرات المئات من الصور الفوتوغرافية
المبعثرة في أرجاء المكان ستائر بالونية رمادية قائمة تغطي نصف نافذة
الشرقة الكبيرة وتحجب ضياء النهار لتضفي على الغرفة شيئاً من الدفء
والأناقة والخصوصية..

ينثر سراجين من فوق سطح المكتب بعض من الضوء الخافت في
غياب أنوار ثرايا الغرفة الضخمة.. يجاور المكتب من ناحية اليمين
طاولة خشبية بأربعة من المقاعد تراجحت عليها بعض من الكتب
المطمورة بغبار الماضي وتراب الزمن، تكدست بعضها وقد تركت
صفاحتها مفتوحة على مصارعها..

قصتي العظمى لهانن سوافر، رسائل الفيدا، الاتصال بين عالمين
لماثيو ماننج، التقمص وأسرار الحياة والموت لمحمد خليل باشا، التناسخ
وعلم الأحياء أيان ستيفسون، على حافة العالم الأثيري آثر فندلاي.. أما
السواد الأعظم من الكتب فلا يزال حبيس أغلفتهم الموصدة.. منهم
سلسلة كتب رؤف عبيد، ما انداموي، شري أوروبندو.. كتاب القبالة،
في العودة للتجسيد، رسالة الكأس أبد رو تشين.. ظواهر الخروج من
الجسد..

تلال من الكتب تسامرت معها عشرات من أعقاب السجائر
الراقدة في مرمدة بلورية، التي خلفت سحابة ضبابية احتلت أجواء
الغرفة.. يبدو من مقتنيات الغرفة أنهم شديد من قبل عاشق لكتب ذات
طابع خاص أو مهووس بها..

بدت على صفي معالم الهدوء وهو واقف عاري الجذع، متأملاً موج
البحر من وراء زجاج نافذة شرفته، وأصابعه قد احتضنت سيجارته
بحنو بالغ.. أخذ يذيبها مُستنزفاً جسدها بقبلات شفّيته المتنمرة، وهو
يرتشف نكهتها لتشعل لهيب شغفه دخاناً يعبأ أرجاء المكان..

استدار ليلقي فنجان قهوته السوداء من بين أصابع يده اليمنى التي
التفت على معصمها مسبحة صوفيا، لتشرّب ذات اليد حاملة كتاب
يعقوب صوب وجهه المرهق وقد انتصفت صفحاته ليقرأ سطره
بصوت هادئ يعتريه نبرة من الشجن المزوج بالترقب:

- دار بيننا حديث طويل دام شهوراً صامته ابتغيها قرية مني في
الوقت الذي بدت فيه في سيريا.. استفتتُ قبيل نهايته على نبأ
وفاتها.. أين القدر والنصيب والحظ بعد أن تلطّخ ثوب الغسق بدماء
الشفق وأسدل المساء حجابيه وأرخت العتمة نقابها.. وقد أقبلت
أسراب نجوم الذكريات سابحة في بحر الدجى وأزاهيرها تتفتح بينما
يرعاها ركاب كواكب الحنين، التي توارت بينها رايات ذيول غمام
الظلام الخفاقة ليوقد الفلك مشاكبه لأصحاب الأثبات والشكوى..

وبعد أن انتصف عمر الليل وألبسه الظلام رداءً من القار وسقاه
كأساً من خمر الكرى، أفلت منه النجوم هاربة ليسود الظلام حلكة

وقسوة، ولتمضي ليلته الشابة في لباس الثكالى بين فكي رحى الوحدة
والسُهد..

ودعنتني بابتسامة وقد حملت عاتقي بعهد ثقيل ووعد بالخلود..
ودعنتني وهي تسألني ألا أنسى أن وحي من جهة بلاد العرب قادم.. في
الوعر في بلاد العرب تبيتين.. هجرتني وصدى صوتها ما زالت
مسامعي ملأى بندائها، يا قوافل الددانيين، هاتوا ماء لملاقة العطشان،
يا سكان أرض تيماء، وافوا الهارب بخبزه، فإنهم من أمام السيوف قد
هربوا..

غابت بعد أن صرخت.. كلنا كغنم ضللنا. ملنا كل واحد إلى
طريقه.. إليك رفعت عيني يا ساكن السماء.. الرحمة يا ربي.. السلام يا
إلهي..

لماذا تركتك؟ لماذا تركتني وحدي وحيداً بعيداً عن الخلاص؟! ..

أين أنت وقد ثُقت يداي ورجلاي وقلبي بأوتاد آلام سرمدية بعد
أن جلدني سوط الوحدة والشوق واليأس وجدلتنني الليالي تاجاً من
شوك أعلى ربوة عارية؟! أظلمت الأرض واحتجبت الشمس والنفس
ما تزال تسأل الروح: لماذا تركتنا؟

ربما لأنني سألتها السؤال الخاطئ، وجل ما كنت أريده هو يوم
آخر لا ينتهي..

رحلت صوفياً لتعود لي ابنة وقد وهبت نفسي لها، وكتابها المقدس
ومسبحتها لم يبتعدا قيد أنملة عني، حتى عرفني صديقي الوغد وحيّاد،

لأبقى برفقته بجوار صوفيا في ساليناس.. رغم شوقي الجارف لبلادي
الدافئة فإنني لم أغادرها قط حتى مضت السنون وأينعت صوفيا أمام
عيني..

أسرفت في وقتي مع هذا المرء الذي لم يبارحني قط منذ رحيل
زوجتي، وبات هو صوت نفسي.. رغم مقّتي له ورغم قسوة طبائعه
وكفره بنبوءة صوفيا فإنه ظلّ رهن إشارتي حين سألته الرفقة والسمر في
أحلك الأوقات وأشدها مرارة خاصة حين غابت عني ابنتي لأول مرة
في رحلتها الجامعية إلى مصر، بلادي التي أصرت هي على زيارتها
بدوني..

لن أنسى أبداً حين دعاني هذا الوغد في تلك الآونة أن أنسى
صوفيا.. أنسى صوفيا وهي بين أضلعي في الليل والنهار وفي عقلي
حتى وأنا نائماً؟ كيف أنساها وهي جنة الخلد لي؟ كيف أنسى من
أنجبت لي النعيم؟! كيف أنساها وهي أنفاسي وبين سكرات موتي؟!
نهرته وعنفته لفظته إلا أنني سرعان ما ضعفت وخرت راکعاً مُستجدياً
إيَّاه أن يبقى رفيقي.. فصرت أسير وساوسه بعد أن كان لي عبداً مُسخراً
وقد صفّد عنقي بربقة الذل.. هجرت مدينة الخراب مرتعداً ووداع
حراس الديار نباح أذبل سعف العيون المبللة بعبرات متحجرة..

أمسى بداخل أعماقي نداء غامض اسمه الجنون، شبح نفس يتدثر
برداء جسد من رماد.. سألني: أين المفر ونحن بأثقال الأنفس المنهكة
منكبون على وجوهنا في قلب الليل البهيم بوحشته الذي لا تكثر به

الرياح لأحترق هشيم الماضي، ولا ترى الألم حين تهيم الحقيقة الكظيمة
على وجه الصباح الغائب؟

غرباء أمسينا حاملين على العواتق حطب المرارة، الذي أوقدت
الغربة فيه النيران داخل صدورنا ليختنق القلب باكياً على أطلال
الأمس القريب.. تلاعبت رياح الماضي برمال صحراء الآثام فاثارت
غبار الألم بين السماء والأرض ليمسي نقاباً يحجب شمس الحقيقة بعد أن
سرقها وطمرها خلف ستار الأفق تاركاً رماد النجوم، الذي خلق
حيوات جديدة.. شهوداً على ضحايا الظلام عند حافة الهاوية قبيل
سقوطهم المدوي في قاع الجحيم..

مضيتُ فريسة سائغة لبرائن الهلاك وأطياف العشق تلاحق القمر
الحزين إلى أن أدركتني نهاية الطريق وقد تقاطع هنالك درب الوهم مع
سبيل اليقين عند نهر السراب.. تأرجحت مشاعري بين خيبة الأمل
والرثاء على غفلتي بعد أن سبحت في بحرٍ أجاجٍ من قار الغضب،
وغرقتُ في نهرٍ لجيٍّ فرات من خمر اللعنات..

تسلقتُ روحي وقتها جبل شاهق من سنين الكرى ومن خلفها
حشود من الآلام والآثام تلاحقني حتى أدركت نفسي أعلاه قمة اليأس
وقد تعثرت بصليب كبير من الخشب الخشن، في حين شرعت الروح في
أن تكفكف دموع النفس، هممت في تلاوة الصلوات وأنا راكع لأرواح
ليالي الموتى ممن مررت بهم في الطريق..

بعدها أردتني طيور الظلام قتيلاً بسهام القنوط.. تواري الخلاص
قد علقت بين جنبات جنتي بين السماء والأرض، مُلتحفاً بظلال كرمة
ينبوع الشباب الضال وييدي سنبله عصيان العهد ومن حولي أصحاب
كهف الذكريات.. قطوف تتساقط من اللوح العتيق وفي الأفق البعيد
جناحا طائر سيمرغ تداعب أغصان شجرة الخلد في رياض عشق
صوفيا التي سقياها من رضاب هاجع تحت سعف نجوم السهد ..
قطرات ندى من ينبوع خامل لعناقيد القبلات ..

أطلبُ الغفران بعد أن انسكب في كؤوس صدري الغضب
الجارف الذي لم يتوقف عن العزف على أوتار القلب المكلموم.. أنشدُ
الخلاص بعد أن قطعت جبل الوصال وثُتت في صحراء الانفصال
وكواكب الذكريات تخنس بنهاري بعد أن سقط من السماء طاووس
الزيف الزاهي، ملك العمر الخالد، والموت بين أعيننا التي تذرف دموعاً
لا تحفُّ من أهل القلوب على رقاب من طيف حان قطافها وقد سقطت
من شجرة اللعنة ..

سأرحلُ وقد أضاءت سيرتها شمعة قلمي، أوقدته ليسطر حروفاً
من نور تضيء عتمة الوحدة اللعينة، وصوتها يُناجيني من بعد السماء..
من اللانهاية وأنا كالأعمى لا أستطيع رؤية دربي في عتمة الليل بعد أن
هجرني النهار لأغرق في ليل حالك ولأذوق الويل من جلاد العذاب
والأمل قد غطَّ في سُبَاتٍ عميق، تاركاً نفسي فريسة للآلم يلتهمني في
هدوء تحت جناح الظلام.. فالآن وقد ميزت النور فعرفت الظلام،

وأصبحت فعرفت نوره وأمسيتُ فأدركتُ ليلة انبرى لي ذنبي وعقابي
أن أُلَاقِي ظلال دخان هب النار المملوءة بالسموم والحرور وظليل
شجرة الزقوم الملعونة ذات الفتنة..

بعيون فتاة صغيرة في الثانية عشرة من عمرها، نسخ وجهها طبعة
لصوفيا، تعمرها نظرات الفضول والحنان الدافئ، التي لم تنفك عن
التحديق في أرجاء الغرفة الكبيرة.. لتبدوا وكأنها الوهلة الأولى التي تطأ
قدمها تلك الغرفة..

قاطعت وجوم صفى بعد أن انتهى من القراءة وقد ابتلعه الصمت
دقائق معدودة:

- لم تخرج يا أبي من غرفة الفقيد يعقوب منذ عدنا من العزبة أول
أمس!

استدار صفى المستغرق في التفكير ليجد الابنة أمامه مباشرة
لتستطرد قائلة:

- لقد ساورني القلق الشديد منذ الأمس بعد أن جافاني النوم
طيلة ليلة البارحة.. أنسيتَ أن اليوم هو ميلاد صوفيا..

- حقاً إنه يوم صوفيا الموعود.. عزيزتي ما إن أنتهي من عملي هنا،
سنغادر معاً بعد أن تتناول الغداء.. لنأتي بوالدتك كي نحتفل
معاً.. عليك الآن أن تدعيني أكمل ما بدأته فالوقت ضيقٌ للغاية
حببتي..

- يا والدي أريدك أن تقصَّ عليَّ زيارة أُمِّي الأولى لمصر حيث كان لقاءكم الأول..

- فلتذهبي أولاً كي تتناولي فطورك ولتستريحي قليلاً بعدها..
فلدينا الكثير لنفعله..

- لقد تناولت الفطور أونا أشاهدُ التلفاز.. سئمتُ الأخبار الكثيرة، فلا حديث منذ الصباح على جميع القنوات سوى عن العاصفة التي ستضرب البلاد اليوم.. من فضلك يا أبي فلتكن تلك القصة هي هدية عيد ميلادي..

- حسناً.. في صيف عام ١٩٩٨ وحينما كنتُ في انتظار أحد الأفواج السياحية في مطار القاهرة الجوي القادم على الخطوط الجوية الإسبانية من مدريد، خرج مندوب الشركة ومن ورائه نيف وأربعون من السائحين الإسبان.. انشغلنا فينةً من الوقت بتعبئة الحقائب في باطن الحافلة، بعدها سعدتُ إلى متنها لأحصر عددهم بعيني، التي راحت تجول بين وجوههم، حتى بلغت مشرق الشمس.. فبدا حاجبها وطنب شعاعها في الآفاق، وقد أَلقت بجمراتها في قلبي، الذي توشح بسنا الصباح المترقق وتسرج بغرة البدر المتأنق..

حتمًا قد ولدت جملة الجمال من رحم الكمال، جميلة الخد والقذ والنهد والخصر.. بعثها الله لي مرآة الحياة لأرى فيها الجسد رداء الروح ولأتحسَّس من خلالها مشاعر الجمال بالعقل وأفكار البرية بالقلب.. ومضات ضربات برقها أثناء ثوران البركان داخلي غرست في سمائي

غيمة سديمية شمسية لقارة عملاقة في كوني الفسيح.. لا هي برودينا
وليست ببانوتيا ولا بانجايا.. هي كرة ثلجية تجسدت من روح بركان
ثائر.. في عينيها رحتُ أهيمُ وقد غلّفتني ستائر رموشها القرمزية
والبنفسجية لأسمع أهازيج الريح العجيبة وأنا أبجرُ بين أمواج عينيها..
هكذا بدت لي صوفيا.. حلمًا أزلّيًا راودني لأعيشه حقيقة بها ومعها ولها..



- صوفيا: تعلقت به حدقتاي بعد أن سألتُهُ عجوزٌ في مجموعتنا
عن حال النساء والحب في بلاده.. فما كان منه إلا أن يقول: إن النساء
يصنعن الحياة والحب بداخلها، لينسخ في صورة أخرى وتبقى الحياة
ويبقى الحب.. استطرد وهو يقول: إنه في حين كانت النساء في أوروبا
جوارى وسبايا، كانت نساء مصر ملكات يحكمن.. حتشبسوت..
كليوباترا.. شجرة الدر..

تجمّد واقفًا أمام مقعدي وهلةً وقد ومضت نظراته الغارقة في
بحور الأمان، لتخترق جدار صمت دروبي العتيقة وقلبه المسكين
المنتظر لم يتوقف عن طرق أبواب مدينتي بعد أن تاه في صحراء نفسه
الحائرة..

عصفت بمسامعي تنهّدات حيرته.. لفحتني حرارة أنفاسه
المستعرة لتوقد في القلب قبسًا من نور سرمديّ لينير ظلمة صحراء
النفس بنفحات عبير الخلود بعد أن اعتصر الفؤاد شوقًا وانسكب من
العين ذلك الحزن القديم..

اجتمعت فيه نضارة الشباب إلى أهبه المشيب فكان برزخاً بين نهر شباب مقتبل وبحر عقل مكتمل، وكأن بردة شبابه تسربت بعقل كهل.. بهرتني فصاحة لسانه وعذوبة ألفاظه، وأسرنى كونه مليح النغمة والإشارة.. مضى في طريقنا من المطار صوب فندق النيل هيلتون وعيناه تختلسان النظرات البريئة، وهو يرسم بصباغ نوادره الكثيرة لوحة من البسمات والضحكات على وجهي..

كان في الحقيقة أظرف من قابلتهم منطقاً وفطنة وأقدرهم على الحديث طلاقة ولباقة وسرعة بديهة.. بدا غزير الأدب وجمّ الحياء، حلو الخلق والخلق، حسن العينين والمضحك، وسيماً ذا وجه مسنون جميل ساحر، وبشرة بيضاء مدبوغة بخضاب شمس بلاده..

- الابنة: كنتَ دليلها السياحي، أليس كذلك؟
- صوفيا: بلى، هكذا كان صفى الغازي.. سيظل دليلي والدليل عليّ..

- البروفيسير فلاديمير: كان هذا يومه الأول في حياتك؟
- صفى: لا، فقد كانت تلك هي لحظة الأبدية الأولى..
- الابنة: إذن متى انتهت تلك اللحظة لتشرعا في الحديث..
- صوفيا: أيها الطيب البداية الأزلية والنهاية الأبدية في ثنايا صفحات كتابي، حديث سر مدي يدركه الخالدون فقط..
- البروفيسير: إذن فلتكلمي لي ما بدأتِ..

- صفي: خضتُ غمارَ قاهرتي من بين شوارع مدينة الشمس هليوبوليس، مروراً بجسر السادس من أكتوبر حتى أدركني نهر النيل ولساني لم يتوقف عن الحديث.. وعيناي لم تكفَّ عن استراق النظرات لها..

توقفت الحافلة وانتهينا من إجراءات تسكين المجموعة، وصعدوا جميعاً إلا تلك الفتاة التي أدركتُ من قائمة الأسماء أنها تحملُ لقباً عربياً.. وأخيراً خرجتُ إلى النور أولى كلماتها بصوتها الملائكي العذب، الذي اهتزَّ له فؤادي وزلزل به وجداني بعد أن سألتُها: أتتحدث العربية؟

- صوفيا: لقد خرقت فسحة مدينتي الشخصية بكلمات تجاوزت أسوار لسان لا يتحدث العربية، ولكن الروح تعرفها.. تلك كانت أولى كلماتي.

- الابنة: وما الذي جرى بعدها؟

- صفي: وجدت في صوفيا الظِّل والخضرة والعبير والثمر، أكلتُ من شجرة سحرها وشربت من نهر عشقها، وقد أضحى بحر من الظمأ بين شفيتها.. كلما رشفت منه زادني ظمأً، فلا شبع ولا ارتواء.. لم نتفارق قط بعد أن أمضينا الليلة الأولى نتسامر بين شوارع وسط القاهرة حتى الساعات الأولى من نهار اليوم التالي..

رافقتها والمجموعة إلى أهرامات الجيزة وممفيس وسقارة وأبي صير، أمّا الليل فقد أمضيته في عرض الصوت والضوء، بعده تناولنا العشاء في فندق الميناهاوس..

اليوم التالي المتحف المصري والقلعة وخان الخليلي، والمساء أمضيته في رحلة نيلية في إحدى البواخر السياحية الفاخرة.. اليوم الثالث كنا على ميعاد مع القاهرة القديمة، الكنيسة المعلقة وماري جرجس والمعبد اليهودي ومساجد: الرفاعي والسلطان حسن وعمرو بن العاص.. بعدها طرنا إلى الأقصر حيث الكرنك والدير البحري والأقصر.. هناك أقمنا في باخرة نيلية ثلاثة أيام، زُرنا معابد إسناء وإدفو وكوم امبو حتى وصلنا إلى أسوان وبعدها أبي سمبل..

ثم عدنا إلى القاهرة وقد حانت لحظات الوداع على أملٍ بلقاء، بعد أن قصصْتُ عليها قصتي وسيرة آبائي كلها لتركنتني صوفيا وقد اغتمض جفن الليل بعد أن شاب النهار ونفضت الشمس تبرا على الأصيل راحلة، لأمضي ليالي كالحة بلا أسحار ودجى لا ينجلي غمامه كغدائر شعر بلا أنوار..

ولولا اختراعهم الجديد للهاتف المحمول وشبكة المعلومات العنكبوتية الدولية حينها لما، استطعتُ المضي قُدماً يوماً واحداً بدونها.. مضت بدونها الأيام سيان في غيابها.. مكالمات ساعات ودرشة طوال الليل..

- صوفيا: انسل سيف الصبح الشاب من غمد الظلام وهو يركض في أفق التَّصابي الموشى بحلي الفيروز، طوى صحارى البعاد راكضاً، والسَّاء قد لبست ثوبها الرمادي، وسحبت السحائب أذيالها بعدما توارت الشمس في سرادق، تألفت فيه أشتات الغيام وقد ضربت خيامهم والجو تلحَّف بردائه الأدكن..

فما إن بشر النسيم بالندى، وباحت الريح بأسراره حتى ابتلت
أجنحة الهواء واغرورقت مقلّة السماء باكية بأدمع الفراق الهائمة،
وعذاب سياط برق الشوق، وقد نطق لسان سحابة ارتجز رعد أنينها
بغدير عين شمس ترقق فيه دموع سحائب الهجر ماءً في قوارير صافية
من بلور ثلجيّ..

- البروفيسور: ساعيني إن شققتُ عليك بسؤالي، ولكن، هل:
لك أن تفسري لي مفردات عباراتك؟

- صفني: كانت تريد الرقصة كاملة في حين كنتُ أتحسّس بعض
الخطوات التي كثيرًا ما تعثرت بها..

- صوفيا: أمضيتُ وصفي شتاءً دافئاً رغم بعاذه عني وجفاء
يعقوب لي، حيث تعذّر عليّ العودة لمصر لصعوبة الحوار مع الأب
المُنغلق على ذاته في عزلة موحشة بعيداً عني وعن الناس.. حيث كذبهم
ومداهنتهم ونفاقهم وأكلهم لحوم بعضهم البعض، برفقة صديق لم
أقابله قط..

حتى تسنّى لي أن أصارحه بحبي الخالد الوليد في ربيع عام تسعة
وتسعين، حين اقتحمتُ خلوته ليعصف به نبأ الحقيقة القاسية بين زوابع
صارخة وعواصف غاضبة..

انجلت سماءه من الغيوم بعداً، فما كان بيده حيلة سوى أن يقصّ
على مسامعي كلمات رحلة صوفيا المقدسة الإلهية.. وقد وهبني كتابها

وكتابه وكتاب أدان، وميراث اليقين الذي بزغ له أخيراً.. جزعت من قسوة عناده التي كبّلتني رغم عهد صوفيا ووعدده لها، فإن النبوءة بداخلي ستمنح الغازي خلاصه..

- الابنة: كنت فقيراً لا حول لك ولا قوة حين سألتك أن تأتي لتكمل النبوءة وتُتمِّ الدين القديم..

- صفي: كان جدك أغنى الأثرياء وكنت شاباً عصامياً كأبي بلا ثروة ولا سطوة، لكن إيماني بعشقها صار قارب النجاة في نهر ينتهي تدفقه بهاوية شلال أو سدّ حاجب..

فبعدما أطلقت رصاصة الاختيار إما أن آتي إليها لأحملها على صهوة جوادي أو أقبر حُبِّي في لحدِّ النسيان، لم يكن هناك خيار سوى المُضي قُدُماً في اختراق حصون المستحيل..

كان من العجيب رغم صعوبة إجراءات منح البسطاء أمثالي تأشيرة السفر لإسبانيا، التي تصل لحد الاستحالة.. إلا أن دموع صراحتي وأَناتِ توسُّلاتي لاقت قبولاً وتعاطفاً عند مسؤولي السفارة حين أخبرتهم بتفاصيل القصة كلها..

- صوفيا: لأيام لم أنبس بينت شفة عن رحلة بحثه عني في إسبانيا.. حتى تلقيتُ منه مكالمة هاتفية طالباً مني الذهاب إلى كنيسة القديس توماس على الفور والصلاة لي.. ذهبت وعلى أعتابها كانت البُشرى والمفاجأة، حين طُبعت صورته على عيني واقفاً باسطاً جناح

أحضانهُ لي مُنتظراً مُنتصراً.. هُرعَت صوبهُ لألقي عشقي المقدس بين
أحضان أحلامه وقد قابلني كما يقابل الربيع أشجار الكرز..

- الابنة: يا إلهي كم كنتُ أتمنى أن أواقعَ هذا المشهد!

- صفي: سألتني: هل قطعَت كل تلك الأُميال لتقنعني بالعدول
عن الاعتقاد بأساطير صوفيا الغابرة؟

فأجبتها: لا، بل لأقول لكِ إنني العربي الذي استطاع فتح قلب
أستورياس بعد قرون طوال ومئات السنين من العصيان..

- البرفيسور: أظنُّ أن اللقاء بين السالف والخالف كان
أسطورياً..

- صوفيا: كان لقاء بين ورثتين أحدهما ظنُّ أن النفس ضيفاً،
والآخر يؤمن أنها مضيف..

- الابنة: وكيف كانت صوفيا حينئذٍ؟

- صفي: كانت هي ذاتها تعويذة ساحرة باهرة الجمال، أطالت
قامتي فبلغت السماء بيديها واتَّسع لها منكبي، فاحتويت الأرض
بذراعيها.. تبعثرت أفكارِي المتضاربة كأوراق الخريف في شلال دافق
من المشاعر يغرق القلب بين الضلوع كلما أخذت وجنتيها تحمَّر من
فرط الخجل، والكون يكاد يغرق في دموع عينيها..

عناق الماضي الدافئ لها أنبت زهرات العشق الثلاث من توق
حاضرنا.. زهرة بيضاء باكية تجمَّدت فوق خيلة عينيها، زهرة وردية

ناصرة تنمو على حافة قلبها وزهرة بنفسجية تنحني خاشعة فوق قبر
الخيال متدثرة بالدموع مُلتقّة بالحزن متحينة لحظات الوداع الأخير..

- صوفيا: نامت السكينة مليئة العيون في شواردها ونبوءتي تنثر
حروفاً نابضة من الخوف والغضب في أعماق جسديهما الهاجعين في نهر
على ضفتيه الروح والنفس تتناحran.. ساعة لم تنته من لعن الماضي
وسباب الألم، ويعقوب يُضيقُ الحناق على صدر صفى، الذي اتسع من
عشق صوفيا فضاءً رحباً ملء السموات والأرض..

طرده يعقوب مرات عديدة ليعود الحبيب بأخلاق فارس لا
يستسلم.. ستة أيام هكذا حتى جاء الغازي للمرة الأخيرة عصرًا، وقد
أعددتُ حقائبي للأرحل إلى مصيري المحتوم حيث سطره القدر في
كتابي..

خرجنا من البيت العتيق ليوقفنا سؤال يعقوب عن اسم الفتى عند
فسقية الملائكة المجنحة.. وما إن أجابه باسمه حتى سقط جائئًا، وعيناه
تعلقتا بالشمس الراحلة وكأنه يبصر في لحظاتها الأخيرة تلك قوس قزح
وهو يعانق درب التبانة مُردِّدًا:

أنتَ ابن منقذي وقائدي.. أنقذني في الماضي كي تأتي وتنقذي اليوم
تارة أخرى.. أين حلم الخلود؟ أين دار البقاء وحدقتاي تفرَّان إلى
السماء؟ وما قد أتى الوقت حتمًا كي أستريح على جانب الطريق بعد أن
هرمت الأصائل وشابت الأسحار وأتى الوقت لتهجر نافذتي..
فلتمضوا الآن ولا تحافوا من رهبة الليل ولا من ظلام النهار...

انتفض مٌهرولاً داخل البيت وهو يصرخ: دعك من التشفي وتدنّر بالغفران فالعفو يلحقه حمد العاقبة، أما التشفي فيلحقه ذم الندم..

- صفى: وعدنا إلى مصر بعدما رويت ليعقوب بطولة استشهاد منقذه على جبل الجلالة في حرب التحرير أكتوبر.. عدنا إلى الإسكندرية حيث والدي.. إلى البحيرة حيث عائلتي ومرقد البطل صفى الدين غازي.. مضت أيام حتى بعث إلينا العجوز رسولاً أنه قد وهبنا الميراث كاملاً.. ميراث صوفيا.. أما المقام ففيلاً ابتاعها هدية زفافنا الذي حضره كي يموت بين يدينا تلك الليلة الماطرة..

- الابنة: هل لك أن تعطني كتابي أدان ويعقوب يا أبي؟

- صفى: لقد انتهيت من كتاب أدان فهو لك، أما كتاب يعقوب فما تبقى منه لي سطور قليلة.. ريثما أنتهي منه سأعطيك إِيَّاه، فلعله يؤنس رحلتك معي إلى صوفيا.. فلتذهبي حببتي الآن كي أنتهي ممّا أنا فيه، وسألحق بك سريعاً..

- صوفيا: كان عليهم منحه بكالوريوس الهندسة بعد أن نجح في أن يكون جِسراً يربط المشرق بالمغرب..

- إذن لا بد أن بات يعقوب جار أدان في الجحيم الآن..

- كيف لهما أن يكونا في الجحيم وهما قد ولدا ليكونا في القلب خالدين.. لقد توعدهما أديم الأرض بالوحدة بعد أن أزلفت لهما جنة المأوى بين أحضانها.. فما كان منهما إلا أن يطردا بلعنة أبدية ليسقطا في

هاوية الغواية إلى أرض الآثام يدورون في دائرة من حلقات مفرغة من
نهم وجوع..

ذنوب وفناء.. خلاص وغفران.. سلام وشبع حتى يصلهما ريح
وحي من جهة بلاد العرب.. بعدها يعودان بكتابي إلى خلاصهما.

- وبعد أن مات يعقوب ما الذي حلَّ بصفي؟

- حسنًا.. لقد رأى صفي يعقوب والليل يسرق غفوته.. بعدما
كان الهوى فوق تحمله حين توشم زحل على حجر الدم نيرانًا ماحقة
تنهش أي حلم، ورثما انصبت نار الجحيم على عواصف آثامه، بزغ
وميض من نور ما بين عينيه.. سنا مشرق يهدي إلى سبيل الرشاد..

- لقد أمسيّت في حيرة من أمرك.. فكيف لأدان ويعقوب وقد
لعتهم الآثام أن يتساويا في النهاية مع صفي؟ أم أن كتابك ليس بوعد
بل نقض للعهد معهما..

- قد يغرق البعض في بحر من رمال الخطايا وأشواك من قسوة
التيه مسيرة خمسمائة سنة، ليبدو لهم برقيع الدخان سقر وبريق القيدوم
سعيًا أو نور الماروم الحطمة.. بالعهد والوعد يتحول قيظ الجحيم إلى
ريح الهيفوف الذهبية، والهاوية تصبح ماعوًا من لجين الأرقلون..
وعند حافة اللَّطى تخرج العروس بياقوتتها الخضراء لتصير جهنم عجماء
من درة بيضاء..

- اعذرني ولكن قد يبدو هذا للبعض ألعيب ساحرة تفتن
الناس بالشُّبهات وبغموض سحرها؟

- هل من ساحرة تزين شجرة خُلدِها للبشر، لتعين المنشودين على تحمل قسوة هيب القیظ. ليكون ثمر أيامها طعامًا، وخطب عشقها دفئًا.. خشبها دار ومأوى؟ فلتتدبر خيوط العنكبوت السبعة.. نوتة الطيور الموسيقية.. النباتات المتسلقة الباحثة عن الشمس.. مقياس خلايا النحل.. أجنحة جذور أشجار الصحراء.. أوراق نباتات الصحراء.. أمل ظامئ مُتَعَطِّشٍ .. حينها سيدركك اليقين..

- إذن سيدركني اليقين بماهيتك؟

- نعم.

- قبل أن أودعك الآن دون إدراك اليقين هل لك أن تُجيبني عن أول أسئلتي؟ مَنْ أنتِ؟

- فلتنسّ كرات البلور وقراءة خطوط الكف.. فأنا لا أدعي الوحي الكاذب ولا أتطَّلع إلى رصد النجوم ومقاسمة السماء وسؤال الجان.. لا أدري صقل السهام والنظر في الكبد وكؤوس الماء.. فلتعلم أنني أنا الأف والياء.. البداية والنهاية الأول والآخر.. أنا رسالة لأدان وتابعيه ولولا رسالتي ما اهتدى عقله وألباهم.. ينبوع يرتوي من نديره كل ناج وسالم.. طوبى لمن يقرأ كتابي أو يسمع أقواله.. أنا المطر الناري اللامع ذو الأوجه المتعددة الغامضة مفتوحة النهاية.. أنا زهرة الخلود وجنة العشق الرباني..

- دقيقة ستعودين إلينا قبيل ذلك هل لك أن تخبرينا عن النهاية؟

- بعد ملء الزمان وصمت السماء وغضب الأرض من خطايا قاطنيها سيصل الخلاص إلى هذا العالم البائس الراضح تحت آثامه وأثقاله.. حينها لن يضحي الموت إلا أن يكون عبورًا إلى الحياة الأبدية، فلا خوف مع المسيح ولا هلع من الغد الآتي..

* * *

بينما كان البروفيسور الروسي يُلملم أوراقه ويُجهّز أغراضه، بعد أن انتهى من مهمته تاركًا تقريره النهائي بين يدي الدكتور توفيق، وقُدم أعينه منذ ما يزيد عن الساعة.. هُرع الطبيب المصري صوب البروفيسور مُحاولًا إخفاء قلقٍ قد لاح على مُحَيَّاه قسرًا ويده ملفٌ من عشرات الصفحات لتخترق كلماته جدار هدوء الروسي:

- بروفيسور فلاديمير، لقد قرأت قراءةً مستفيضة تقريرك النهائي وتوصياتك العلاجية، لكن ألم يكن هناك مجال للشك أن ما تؤمن به تلك السيدة هو حقيقة بعيدًا عن الحقائق العلمية التي نستند إليها؟

- حسنًا.. هي ليست الأولى التي تؤمن بمثل هذا الاعتقاد، فأجدادكم الفراعنة كانوا أول من آمن بالتقمُّص.. فلكيلا تلتصق الروح بجسد آخر كانوا يرسمون وجه المتوفى على التابوت حتى يتسنى للروح التعرف إلى جسدها.. كذلك الرومان واليونانيون في كتابات أفلاطون وأرسطو وسقراط وغيرهم ممن آمنوا بتناسُخ الأرواح وكتبوا عنه أيضًا بإسهاب.. الهنود الحمر في الأمريكتين وقبائل التسميسيان

والأنك في أمريكا الجنوبية وقبائل التلينجيت في آلاسكا هم أيضًا يؤمنون بالتناسخ والتقمص مع الطيور الجارحة..

حتى يومنا هذا يمجدون ويقدسون أرواح الآباء والأجداد.. الهنود والهندوس والبوذيون وفينة من الديانات المنتشرة في الصين والشرق الأقصى تؤمن بهذا الاعتقاد ليس فقط مع الإنسان، ولكن مع الحيوانات والنباتات أيضًا، أي تؤمن بالفسخ والرسخ المسخ، وأيضًا قبائل كثيرة في أستراليا وأفريقيا تؤمن بالتقمص وبتناسخ الأرواح وكل على طريقتها. كذلك اليهودية والمسيحية وبعض الطوائف الإسلامية كطائفة الموحدين الدروز في الشرق الأوسط التي يعد التقمص لديهم أحد ركائز العقيدة أو المذهب التوحيدي الدرزي..

- أخشى أنني قد بُتُّ على وشك تصديق ما تدعيه صوفيا منذ سنوات ولا سيما بعدما سردت وقائع تاريخية بلغة لم تعرفها من قبل..

- ظاهرة سيكولوجية مثيرة للفضول، هذه الذكريات في واقعها ذكريات زائفة متوهمة أكثر منها ذكريات دقيقة لأحداث مر بها الشخص في حياة سابقة..

- ما شاهدته بأمر عيني خلال الأسبوع المنصرم هو توثيق لظاهرة خارقة للطبيعة، على الرغم من عدم قبولها علميًا.. أيها البروفيسور لقد أقر السيد صفي أن زوجته لا تتحدث الروسية ولم تتعلمها قط، وأنت قد أخبرتنا أنها تتحدثها بطلاقة! والعلم يُقرُّ أنه كلما تقدّم الإنسان في العمر صعب عليه تعلّم لغة أجنبية جديدة، وكلما بكَر في تعلمها زادت فرصة إجادتها بلهجتها الأصلية..

فبعد سن الرابعة عشرة يصعبُ إتقان اللهجة الأصلية لأي لغة أجنبية بسبب ظاهرة التحجّر اللغوي العصبية. وبعد سنّ الستين يصعب - ولا أقول يستحيل - تعلم لغة أجنبية جديدة بسبب الجذور العميقة للغة الأم واتخاذها مرجعًا في الألفاظ والتراكيب لأي لغة جديدة ننوي تعلّمها.

- يا عزيزي.. بعض مرضى السكيزوفرنيا كما تعلم يختلقون لغة خاصة بهم في أثناء حالات هستيرية، هذا ما نطلق عليه النيولوجيزم، وفي بعض الحالات النفسية الغريبة حين تتفاقم مع الوقت، يستخدم فيها المريض لغة أخرى لا يعرفها.. لغة لم يتعلمها لكنه يُجيدُها فجأة.. تسمّى زينو جلوسيا وفيها يتكلم الشخص بلغة أجنبية لم يتعلم حرفًا منها من قبل ..

- ولكن هناك فرقًا بين الزينو جلوسيا أي التكلم بلغات غريبة موجودة والجلوسولاليا أو البرطمة أي رطن اللسان بكلام غير مفهوم تحت تأثير نشوة دينية، التي تُعدُّ إحدى علامات الامتلاء بالروح القدس عند بعض المسيحيين، وهذا لا تنفرد به الجماعات المسيحية الخمسينية والرسولية والكاريزماتية، فقط بل معروف في الإسلام الصوفي والهندوسية والمرونية وحركة مناجاة الأرواح وبين قبائل الإسكيمو والديانات الشرقية القديمة..

والذين في المصححات العقلية، وممارسو السحر الأسود، ففي كل الأديان تقريبًا عندما تصل الحرارة والنشوة الدينية إلى حدّ التطرّف

تحدث ظواهر مشابهة لظاهرة التكلم باللسنة.. أما الزينولوجوسيا التي يطلق عليها الغربيون التكلم باللسنة، والهندوس يعتبرونها دليلاً على التناسخ.. أليس كذلك؟

- هي ظاهرة نفسية بحتة لا علاقة لها بأي دين، وربما تحدث مع الملحد نفسه.. فالغريب اعتبار أن التكلم باللسنة من قبل المختلين عقلياً هذياناً، ولكن في الأوساط الخمسينية يعتبر موهبة مقدسة!

- ولكن هناك عدداً من الناس من مختلف الديانات، وعلى مر العصور لديهم قدرة على الاندماج الروحي والنشوة في الصلاة..

- إنهم يسقطون في حالة من اللاوعي، فيها يتأثر ذلك الجزء الذي أسفل المخيخ المسمى جهاز الهيبوثلاموس كما يحدث في الحالات السييكوسوماتية، فيقوم بترجمة هذه المشاعر الحماسية التي تنتاب الإنسان في صورة حركات بدنية؛ فيجعل اللسان يتحرك بطريقة ما ناطقاً كلاماً غير مفهوم مكوّن من مقاطع مُتقطّعة من لغة أو لغات يعرفها المتحدث، وغير مرتبة ترتيباً يُعطي معنى سيما نطيقاً!

- العلم أحياناً يصطدم بالدين في بعض من الظواهر..

- لا صدام على الإطلاق.. لكن هكذا هم تابعو الأديان دائماً، فحينما يدركون ظاهرة نفسية استعص تفسيرها على عقولهم، سرعان ما ينزحون لتبجيل الأمر، وإضفاء مسحة من القدسية، وكثيراً ما يتمادون في اعتبارها معجزة دينية، مُغدقين عليها تأويلات شديدة الخصوصية..

وبجانب التكلّم بالسنة يندرج تحت هذه الظواهر، ما يُسمى بالتباس أو سكنى الجان أو الشياطين والأرواح الشريرة وحالات الشفاء اللادوائي..

أما بعض علماء النفس فيقومون بتفسير تلك الظاهرة على أنها حالة من التنويم المغناطيسي أو تقنية إيقاف التفكير تاركين للجميع مجالاً تجربة هذه الحالة عبر تناول عقاقير الهلوسة مثل فطر السيلوسليبين.. فليس هناك ظواهر خارقة في علم النفس دكتور توفيق.

- لكن هناك مصطلحاً خارقاً في علم النفس يُدعى الاستشعار عن بُعد، الذي يتعلق بالقدرة على اكتساب معلومات جديدة بدون استخدام حواس البشر العادية، ولا تنسَ متلازمة اللهجة الأجنبية، أي الحديث المفاجئ بلهجة مختلفة؛ وأن هناك أكثر من خمسين حالة مؤكدة رُصدت في أوروبا وحدها منذ عام ١٩١٩.. على العلم أن السفارة الألمانية في إيران رصدت عام ١٩٠٧ حالة رجل إيراني أمسى بين ليلة وضحاها يتحدث فجأة بلهجة ألمانية سليمة.

- أعتقد أنك وقعتَ في شَرَكِ العاطفة مع هذه الحالة.. صدقني هي ليست الحالة الأولى التي أقابلُها..

- حسناً.. حين كنتُ مدعَوْاً لأحد المؤتمرات الطَّبَّية في لندن وفي الرابع من يوليو عام ٢٠٠٦.. تحدثت صحف الجارديان والديلي ميل والميترو والصنڊاي تايمز ونيوكاسيل عن سيدة بريطانية مُسنّة لم تغادر إنجلترا في حياتها تُدعى ليندا ووكر.. فبعد تعرضها لأزمة قلبية مفاجئة،

استيقظت على إثرها تتحدث بلهجة غريبة لم يفهمها أحد إلى أن أتى أحد الأطباء الجامايكيين المتدربين ليتفاهم معها بسهولة..

لقد فَقَدَتْ لهجتها الإنجليزية، وصارت تتحدّث بلهجة جامايكية حتى إنها حين تتحدث عبر الهاتف أو تقابل شخصاً لا يعرفها يصعب عليه فهمها، وسرعان ما يسألها من أي بلد أنتِ.. أتذكر أيضاً حالة أخرى في عام ١٩٨٧ لا امرأة من قبيلة الزولو في جنوب أفريقيا فقدت لهجتها الأصلية وأصبحت تتحدّث بلكنة إسكتلندية قوية..

وهناك حالة أخرى أثناء الاحتلال الألماني للنرويج في الحرب العالمية الثانية حيث أُصيبَت سيدة نرويجية تُدعى ريتا هندرسون في رأسها مما استدعى نقلها إلى المستشفى وبعد غيبوبة استمرت تسعة أيام استيقظت وهي تتحدث بلكنة ألمانية قوية وواضحة، وسرعان ما أُبلغَ عنها واحتُجِزَت قوا تُ المقاومة باعتبارها جاسوسة ألمانية وحُكم عليها بالإعدام..

- دكتور توفيق، بعض علماء الأعصاب في جامعة نيوكاسيل يرجعون بعض هذه الحالات من الجلطات إلى تضرُّر مفاجئٍ لمركز اللغة في الدماغ وفي أعصاب الفم واللسان والشفَتين.. فبعد مرور المريض بسكتة دماغية قد يُصاب بضرر جزئي في الأعصاب المتحكم بمخارج الحروف، فيصعب عليه الحديث بلهجته المعتادة.. ولأن نسبة الضرر تتفاوت بين المخارج المختلفة تظهر كل حالة بلهجة مميزة لا تشبه غيرها فتُلصَقُ بأقرب لهجة عالمية معروفة.. ويعتقد أولئك الأطباء أن تلك

الحالات تحدث أكثر بكثير ممَّا تبدو عليه، ولكن ببساطة لا يُبلَّغُ عنها أو لا تُمَيَّزُ كلُّهجةٍ أجنبية موجودة..

- ربما لابتعاد الغرب عن الدين جعلهم لا يؤمنون بالروحانيات.. بعيداً عن التشخيص العلمي هل تعتقد بإمكانية التناسخ وهذا أمر مختلف عن الإيمان به، هل مثل هذه الحالات تطلب تفسيراً خارجاً عن المعتاد والمألوف رغم أن هذا - بالتأكيد - لا يعني أننا جميعاً سوف نتناسخ ونعود إلى الحياة؟

- غموض مفردات رحلة الإنسان بعد الموت في عالم البرزخ، الضبابية في ظلمة القبور تولج بشغف البعض وحاجاتهم المعرفية إلى أبواب خلفية، وبما أن نظرية تناسخ الأرواح تُعدُّ أقدم النظريات فهي تفي بذلك..

- عزيزي توفيق، الحياة هي نعمة عظيمة ومعجزة عجيبة غامضة، فعلى الرغم من بيان شمسها والتدثر بها منذ الأزل فإنها قد بقيت متوارية عن سماء البشر منذ آدم وحتى بلغ بنوه يومنا هذا.. الحياة هي عنوان الحقيقة التي لا خِسةَ فيها بوجه ولا ران عليها، لا في جهة الملك ولا في جهة الملكوت.. فلتأمل جسد ذلك الجبل اليتيم الذي لا حياة فيه ربما يغبط العقدة الحياتية لنا نحن، أبناء آدم الذين واقعتنا الحياة، وقد يحقد علينا وهو يرانا بنور العقل نجول في عوالمٍ روحانية، وكما نسافر نحن إلى تلك العوالم، كذلك تسافر هي إلينا بالتمثل في مرآة نور أرواحنا..

فلما كان النور سبباً لظهور الألوان والأجسام، كانت الحياة كاشفة لجميع الموجودات وسبب لظهورها.. لذا فإن آية خلق الموت والحياة تدلُّ على أن الموت ليس إعدامًا وعدمًا، بل إطلاق للروح من المحبس إلى صحراء واسعة وهو مقدمة للحياة الأبدية.. فهل هناك حقيقة علمية أو ناموس أرضي يُبيح العودة إلى الحياة مرة أخرى من جديد؟

دكتور توفيق لأن الموت حقٌّ ولأن الروح من أمر الله، ولما كانت أمرًا من أسرار الخلق فإن العلم غير قادر على اختراق سدود الغموض والألغاز لسرايب الأرواح.. غير أن مثل هذا الاعتقاد بالتناسخ واعتبار الموت تبديلًا لثوب أحد الأجساد، بثوب جسد آخر أو اللبس في ازدواجية الجسد والروح يعني الإنسان من حساب الآخرة، ويعطيه براءة مما يفعل في حياته من حلال أو حرام أو جرائم كبرى أو صغرى، ويعفيه حتى من الخطأ مع عائلته وهي أمور كان يمكن أن تتسبب في اختلاط الأنساب وزوال البشرية إن صحت.. ليس كل الغرب ملحدًا دكتور توفيق، وبعيدًا عن الطبِّ، فأنا مؤمن بالله كإيمانك به..

رافق صوت أذان المغرب المتسلل داخل غرفة الطبيب صدى المذياع الداخلي للمصحة، الذي قاطع حديثهما بصوت سيدة تكرر عبارات.. الدكتور توفيق مطلوب في الغرفة ٩٢٣ للأهمية..

بعد ثوانٍ قليلة تسارعت وقع الأقدام في الخارج لتطرق الغرفة بقوة وبسرعة، دافعة الباب إحدى الممرضات التي اعترى وجهها الشاحب علامات التوتر والاضطراب المضطرب وكلماتها تحاول اللحاق بأنفاسها المتسارعة.. لتخرج بصعوبة وهي تقول بصوتٍ مُتَحَرِّجٍ مُتَقَطِّعٍ:

- دكتور توفيق..السيدة صوفيا ..نزيلة غرفة ٩٢٣ ..عليك أن تأتي..إنها.....

* * *

- صفي..استيقظ..صفي..صفي..
اعتدل وهو يحاول زحزحة شطري أجفانه بثناقلٍ شديد، مُثائبًا في كسل:

- صوفيا! أين أنا؟ وكيف...؟
- ما الذي تفعله في غرفة مكتب يعقوب؟ لم أجدك في الفراش حين استيقظت!

انتفض صفي كالمجنون قافزًا من فوق الأريكة ليهرع إلى خزانة الكتب وقد أخرج مُفكرة التقويم.. تجمّدت أو صاله برهة متأملًا حروف الأيام والشهور وأرقام السنين في اضطراب شديد..

- ماذا بك صفي؟ ما الذي تفعله؟
- يا إلهي! مستحيل.. ما تاريخ اليوم؟
- إنه يوم جديد من أيامي معك!
- بالله عليك خبريني بتاريخ اليوم..
- حسنًا، فلتتدبر التقويم في ساعتك أو جهازك المحمول أو حتى ما تحمله يدك من مفكرة التقويم..

- مستحيل! مستحيل!
- صفني كفاك غرسا لبذور القلق في قلبي..
- لا بد أنه كابوس..
- فلتهداً وأخبرني: ما الذي كنت تحلم به؟ ولم أمضيت ليلتك في غرفة يعقوب!؟
- لا أتذكر شيئاً.. وما أشعر به الآن أنك قد غسلتني في نهر الكوثر.. هل لك أن تأتي لي بسيجارة حتى يتسنى لي أن أروي لك قصة الحلم الغريب..
- وكأنها ضرة لي، حبيبة لك.. خادمتك المخلصة تحترق بين أصابعك مضممة لوعتك، مهدئة لروعك حين تدغدغها بفمك وتقبلها متى تريد غير آبه بوجودي معك..
- حبيبتني أنت من أحياء بحياتها، أما هي فأحيا بموتها..
- ما الذي حلَّ بك حين كمنت بين الغفاة خلف سواد الليل وعتمته؟
- حسناً.. كأنني نزلت في بقعة جدباء ملأى عظاماً.. كأنني قد طُردت من جنة الرحمة إلى أرض ملعونة من المشقة، بعدما أخذت أبحث عن ثمار البهجة الملعونة لشجرة الخلد وهيب سيف متقلب يصفع شيطان نفسي.. وكأنني في رحلة صعاب إلى أرض الخلود، طردت نفسي بيدي بعدما خلدت بالنعم الأبدية، لم أكل النبتة، بل

غرستها فخرجت حية الخطايا الرقطاء لتأكلها وتتركني لتنهمر دموع
فؤادي نهرًا من الحسرة والندم..

أصابتنى لعنة رياح الجنوب بعدما كنتُ كاهنًا ومرشدًا وقائدًا
للرجال.. تسربت برداء الحداد وأطلقت حية الحزن.. أين بلجماش؟
أين حراس السماء؟ أين الشباب بلا هرم؟

داج الدجى وتبدى النور، وكدت قاب قوسين أو أدنى أن أكون
هالكًا خالداً بين الوجود والفناء.. أحيط بي الفراغ وملأني العدم..
مرقت نفسي من الأفق إلى ربوع أطلال الماضي وديار الخلاء والخواء
تروعني كساحرة أبحرت بي في بحر السراب بين أمواج الخداع
الهائجة..

وساوس حب البقاء باتت قاربًا ضائعًا بين ظلال الروح وظلام
الهاوية.. نسيت أني زائل كالبقية، شمعة تحترق كي تضيء روحي
السَّرمدية.. زرعت عشقك كل درب لم يذبل من حرّ العطش وجر
الواقعة، ولكنني تعثرت بالقرب من بئر الخطايا ولم أنزلق..

انكسرت أجنحة الطائر وتساقطت من حولي مياه الفضاء وملائكة
وأفكار تتهافت.. سقطت من السماء دموعك لتحتضنها سقائف عذابي
المقيتة.. التوبة والخلاص أمسوا جبابرة حاكوا لي لباسًا من جلد طائر
البيلكان.. انتزعوا لحمي وجفّفوا عظامي بالرماد الساخن وغطوني
بقناع الوحل الرمادي الثخين، واشمين جسدي بسخام السناج.. حتى
تدركيني عند ملوك النور العالين.. إلى أن أدركتك هالة خلقت من بريق

السكينة.. وبرغم نجيع حرب نفسي فإن كل شيء ما زال مُطمئنًا في قلب روحي.. فالإنسان ما هو إلا بشر يحتضن روحًا بداخله.. أخبرني الوصايا والعهود.. أخبرني بسر الحياة ببسمة ودمعة سالت على أصابعي..

غبت عني لأرتحل هائمًا على جناح الأمس لتعود لي الظنون والشكوك كموج البحر يلاطم أفكاري.. بكاء وصراخ مدفون تحت التراب.. أصداء صوت صامت أضناه الضعف أخذ يتساقط أوراقًا تلعن كل واحدة أختها.. وقبل أن أعبر على متن الحلم مغادرًا وقبلتي قلبي.. غاب خلف الضباب حارس نومي..

- وكأنك رويت كتاب الحقيقة بهاء الحياة وكلمات أذان ويعقوب..

- صدقيني كان حلمًا قاسيًا.. شديد القسوة..

- تستطيع أن تعود له أو تبقى معي..

- ما الذي تقولينه صوفيا؟ لقد ولى الحلم البائس ومضى حين أيقظتني..

- ربما دنياك حيث كنت، كانت حلمًا أبديًا، وقد يكون ما نحن فيه، هو حلمًا أزليًا.. قد يوقظك شيء، ليبلج حلم جديد سرمدى.. فلتبق معي ولا تتركني..

- لقد بتُّ عاجزًا عن الفهم! صوفيا.. ما الذي يجري؟

- تستطيع أن تهزمه فقط إذا ما آمنت..
- ماذا هو؟
- الإيهان آتٍ إليك عندما يُسمي المألوف غريبًا..
- صوفيا! أدركيني.. أدركيني..
- يا عاشق الروح حرّزني..
- صوفيا.. صوفيا.. صوفيا..



- .. حبيبي.. استيقظ.. لقد تأخرنا كثيرًا، وساعات تفصل شمس الصيف عن الرحيل.. ولا تزال أمامنا رحلة شاقّة.
- قام صفى الدين بجسده الذي كان كالغصن المكسور المعقوف،
ليجد الابنة على حافة الأريكة في غرفة يعقوب وأصوات دوي مكتومة
تتسلل إلى داخل الغرفة.. أخذ يتحسّس بأصابعه لحيته التي نبتت من
شعر صغير يابس كأنه جفّ تحت شمس أيام صعبة.. بدا وجهه
الواجم الشاحب كخريطة ممزقة قطعتها تجاعيد الحزن، وكأن ريحًا
عاصفة، وسيلاً عارماً من الدموع قد حفره..
- ماذا بك يا والدي؟ تبدو مُنهكًا شديد الإعياء بعد غفوتك
تلك..

- لقد كان الفجر على مرمى حجر وأنا أتنزّه في حلم من سراب
ظننت أنه سينتشلني من دوامة عدم استطاعتي النوم أبدًا ملء جفوني

خلال سنين مضت لم تنذو .. تقاطرت من سماءوات العشق ..
وأسقطت نجومات الحب فزيت حياقي التي تأبطت بذراع الحلم
لأجوب بها مدن الخيال وهي تختال بين يدي وتسقط مترنحة بين دفء
أحضاني .. أيقظت أحلامي ورويت أنفاسي بأريجها حين ارتشفت ندى
شفتيها .. أغرقتني في بحر غرامها حتى استسلمت للغرق .. رقصت
تحت إسدال أيامها متشبهاً بها أرتشف عشقها إكسیر حياة ..

سكن طيفها الوهمي صدري، طيف رسمته أنامل حلمي .. وبعد أن
غابت كثيراً ما كنت أشعر تلك النافذة كي أهرب إلى السماء فهناك فقط
التقيها .. بعيداً عن صخب الحياة .. بعيداً عن البشر .. بعيداً عن كل
شيء كي أخفيها عن أعينهم بين أنفاسي ونبضي .. وبين دهاليز
السنوات وأوراق الأيام الذابلة أنهكني الماضي وانتهك سكوني،
وتناثرت ليااليه بين يدي طيفاً ملتصقاً بظلي .. جل ما تمنيت أن أذوب في
كل زاوية يمتد إليها ظلها .. لكنني ها قد عدت والظلام شديد،
وأخشى المضي قدماً وبرائن الخوف تنهش في رأسي .. خوفاً من الوجود
ذاته، وليس الخوف من الوجود ..

الآن أجدُّ في أرجاء غرفة يعقوب، غريباً في بحر أفكار ..
تتقاذفني أمواج الألم وترميني على شاطئ الفراق المر بعد أن أضناني
السهر وأمسى السَّهْدُ رفيقاً ..

فهل رحلتي سترفع ستار الخيال عن المجهول؟ هل سيمزق عباءة
الغموض عنه لتسكن صوفيا تارة أخرى في أحضان الواقع؟

صدقاً لقد اكتفيتُ وخطاي تتلاشى عن موطني من مرارة غربتي
عنها في الوهم وأنا هائم على أعتاب ليل لا ينضوي..

- هل تعلم يا أبي كم أحبُّ أن أرى ذلك الصفاء الذي يكون على
مُحَيَّاك عندما يعتريك النوم! قبيل أن أوقظك ابتعدت عنك قليلاً خشيةً
أن توقظك أنفاسي أو دقات قلبي.. فتذهب عنك الغفوة.. ولكن حين
كنتَ تغطُّ في ذاك النوم العميق، تسارعت أنفأسُك وانتفخ وجهُك
وكأنك مكروب.. ربما مَسَّكَ أذى كابوس أو حلم مزعج..

- يبدو صوت الرياح في الخارج كدوي انفجارات قصفٍ
عنيفٍ..

- هيا بنا يا والدي.. ربما تصيبنا إحدى القذائف ونحن
نتسامر.. ولن يدري بنا أحدٌ فلا أحد هنا سوانا..

- فلنسرعُ إذن..

خرج صفي بعدما أفلتت الابنة يديها وراحت من أمامه تتمايل
مسرعة في رواق البيت الكبير.. خرجت مسرعة وما إن لحقَ بها صفي
إلى الخارج حتى تجمّدت فرائضه حين وجد نفسه على أعتاب سلام
كنيسة القديس توماس في أبيليس.. بينما وقفت صوفيا الصغيرة
مشدوهة أمام امرأة ناصعة بياض، ذات وجه طويل تتدلّى خصلات
شعرها الحريري من تحت حجاب صغير..

أخذ صفي يقترب شيئاً فشيئاً منهما منصتاً لحوار خافتٍ يدور
بينهما، قاطعه حين سأل صوفيا:

- مَنْ تلك السيدة يا صغيرتي؟
- صه..إنها عرّافة وستخبرني بطالعي..
- عاد الصمت ليسكن في الأب الذي بدا على حافة هاوية الجنون،
وعيناه تتعاظمان جاحظتين لعرّافة لم تعره أيّ انتباه..
- فلتخبريني: ما الذي جاء بك إلى هنا؟
- لقد أرسلتُ إليك نبأً عظيم..
- حقاً؟ لي أنا؟! كيف ولم يك لي سابق معرفة بك؟!
- هكذا تسير الأمور صغيرتي..
- إذن فلتخرجي لي ما بجعبتك، ولتنبئني بما جئت من أجله..
- جئتُ إليك برسالة ونبوءة.. فلقد تميزت روحك التي
ضمخت من طين السماء بحكمة يد القدير بمعجزات كلام الألسن
لشفاء الأنفس الحائرة، منحة ومحنة فحبك السرمدى قاتل لجسدك
الفاني.. حين يكتمل القمر الجديد الوليد، سيأتي إليك مُبقياً بيتلات
الورد الحمراء تحت قدميك، أجراس صغيرة على أبواب الجنة، سوار في
معصمك أعلى نافذة الحياة تدقُّ هامسةً بلطف بنسيم الخلود ورياح
الشمال في أذان العاشقين..

بعدها سترحلين جسداً بعد جسد حين ينزل ميلادك القادم ضيفاً
ليكون بوابة تعبرين بها برفقة الطيور المهاجرة إلى دنيا أَدان، ومَنْ يعقبه

حتى يأتيك الغازي من الشرق بالبُشرى فاتحًا.. ستسخرين لصراط
دفائن العقول وحي وإلهام لأمر خارق للعادة.. سرّ خفيّ، عصيّ على
الورى إدراكه لتطهير الأرواح..

ستتحركين في الأجساد روحًا تُخزين صلف القلوب الطاغية مهادًا
تحتهم وسقفًا فوقهم، آجال تفنيهم والأوصاب تهزهم.. لا تجزعي
وافرحي فرياح الشمال ستظلّ دومًا حياة تنفس بأريج زهرة النار
المقدسة.. بروتياس.. فلقد خلقت سفيرة بين الخلق، شمعة معطرة
بأريج الحب، بوابة البداية الجديدة كي تُمهّدي الطريق ساكبة الهوى من
كأس البهاء على رمال دروبهم..

من قمم جبال الجلالة سيُصبّ سيل تدافع خلاصهم إلى أحضان
واديك المقدس، حينها ستتحركين روحًا في أجساد الغد المتهاوي،
تُخزين صلف قلوبهم الطاغية ريثًا تروح وتغدو منكبة على الدنيا
وزينتها.. ستكونين لهم الطريق والحق والحياة حينما تصرخ الطيور
المهاجرة ليل نهار كي تنير لك الدرب.. ستكونين شجرة يسرون في
ظلها سنوات طوال، ظلًا عميقًا كثيرًا طيبًا، ظلال من غمام في رحلة
شاقة.. ستكونين مرآة لمعبر وجسر لعوالم أخرى.. جسر الحقيقة.. سعادة
الدنيا.. سفارة بين السماء والأرض..

ستكونين لهم خبز الحياة، من يقبل منهم إليك لا يجوع، ومن يؤمن
بك فلا يعطش أبدًا.. صوت صارخ في البرية يُلقى في القلب، وينفث في
الروح وحيًا وإلهامًا وراء حجاب رسالة وكتاب.. المملكة الشالية..

أورشليم.. أرض الميعاد.. روما القديمة .. ستُعَدِّين الطريق لنفوسٍ
عَطَشَى تَرَقَّبُ، وأرواح تتشَوَّقُ وتتطلَّعُ بشغفٍ.. سيجول في خاطرك
كلمات ليست ببنات أفكار المدينة المحاصرة، ولكنهم سيشحذون
مشاعرهم من نبع موسيقى ترانيمِك..

سينتقلون بك إلى أرض النعمة ويدك يد الرحمة ممدودة لأولئك
الذين يستحقونها والآخرين حتى يدخلوا ملكوت تيممة من الطلاسم،
لا يفهم معناها إلا مَنْ كتبها ومن آمن بها.. قلادة عقيق المشتري اللبني
في العنق أو متوجة فوق الرأس، قلادة خُصِّبت بمياه مقدسة وملح
مبارك..

سينصبُ جامُ الجحيم على خيوط عواصف ضبابية قائمة، نسجتها
الآثام، وتجمَّعت زاحفة من الغرب للشرق، تولد في الأفق وتنتهي في
المدى حيث تربض هناك وحوش قفر طوفان غامر..

خراب المدينة المحترقة.. نينوى، بابل، أورشليم.. صواعق نيران
ماحقة ارتعد لها صهيل البرق، تنهش أيَّ حلمٍ، تقتلع جذور الروح من
أوردتهم والأفئدة من بين ضلوعهم، إلا من حمل مسبحتك لدرء شرور
من دنس شال الصلاة الذي ربطت جميع عقده في كوكبة العقرب..
أحرف قصيدة ماهاياترا الأسطورية على ألواح صخرية بابلية..
ستحترق شمعة الجسد في سبيل نور ولید يخرج من رحم رفاة أطلاله
لِيُضِيءَ حياةً جديدةً حينما يحزمون الحقائق لرحلة أبديةٍ ليرتدي فيها
الرحالة ملابس من أوراق شجرة الخلود الغضة النورانية..

ومهما يطل عمر الليل سيستغرق الظلام شبابه ليشيب رأسه، حينها سيخلع الأفق ستر الدُّجى ويقوض خيامه بعد أن يكشف الفجر عن نواجذه لتتدلّى عناقيد الثريا من قميص الصباح المطرز بنوره، كي ترتديه بنات النهار بعد أن قهرن جند الظلام..

أنبئهم أن من أطال النظر لم يدرك الغاية، وليس لناظر نهاية.. فكثيراً ما يبصر الأعمى سبيل رشاد، ويضل البصير قصد المراد.. أخبرهم أن البعض يأكل من شجرة الخُلد والبعض يأكل من شجرة الزقوم، وكلاهما واقفان تحت ذات السماء مذبذبين بين الحقيقة والخطيئة.. ولأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان، وذلك ليس منكم، هو عطية الله.. لأن أجره الخطية هي موت وأما هبة الله فهي حياة أبدية..

قولي لهم: إن الحب يتسلل إلى القلب في هدوء ويرحل في صمت جثة هامدة ليكفنه النسيان ويواريه الثرى، ولكن في يوم مشهود سيتكلم الجميع باللسنة مفهومة عند السامعين، ولن يكون هناك حاجة إلى مترجم، فسيكون التكلم باللسنة علامة أو إثباتاً للمؤمنين ليكون سبباً في خلاص السامعين.. وسيُيهت الغرباء الذين سمعوا وتعجبوا حتى يكون الانسجام التام لمشيئة الله..

استدارت صوفيا صوب صفي الذي قد تجمّدت فرائصه وزاغ بصره، وكاد الدم يبیس في عروقه من الهلع.. يكاد لا يستطع السيطرة على نفسه، وهو يرتعش غير قادر على أن يتفوه بكلمة واحدة، كأنه معقود اللسان، يجابه جاثومًا لا ينتهي.. فالمشهد خيالي أقوى من

احتماله، والواقع مختلف، والمفاجأة مُرعبة يمكن أن توقف قلبه، وتقطع أنفاسه حتى سقط على الأرض مغشيًا عليه فوق سلاالم الكنيسة المهيبة..
شاهد بنظراته الزائغة أناسًا هرولوا إليه لإنقاذه، اهتمامهم مُنصبٌ عليه، حملوه جانبًا في محاولة لإفاقته وبمساعدة الآخرين استردَّ أنفاسه المقطوعة، وقد شحب وجهه بعد ما هربت منه الدماء، سألوه عمَّا حدث له، لم يستطع أن يفتح فمه ولا أن ينطق بكلمة، أشار لهم بيده المرتعشة إلى صوفيا والعرافة التي تبخرت، لم يفهموا شيئًا، فأعادوا السؤال، وأعاد الإجابة على طريقة الخرّس بلغة الإشارة حتى فَقَدَ الوعيَ تمامًا...



استيقظ صفي على دقائق الساعة ليجد نفسه مُلقًى على أريكته داخل غرفة يعقوب.. انتفض تارة أخرى وهو يُهرع إلى الخروج من عزلته مناديًا ابنته حتى وافته مسرعة ترتدي فستانها الأبيض..

- مررتُ عليك بضع مرات لأجذك غافياً، فلم أُرِدْ إزعاجك حتى أيقظتك دقائق الساعة الخامسة..

- أهى الخامسة مساءً؟

- نعم يجب علينا التحرك الآن حتى نستطيع أن نوافي صوفيا قبل غروب الشمس..

- أخشى أن يكون هذا حلماً آخر..

- ماذا؟! إذا لم تتحرك الآن ستضرنا العاصفة الترابية، وسأكون أنا كابوسك إذا لم أر أُمي اليوم..

بكلمات رقيقة مازحة توارى القلق قليلاً وراء ستار الترقُّب.. خرج صفي برفقة الابنة ليركبا السيارة البي إم دبليو الضخمة رباعية الدفع، عابرين أبواب بيت صوفيا خارجين منه والرياح الشديدة العاتية تدفع السيارة دفْعاً إلى الأمام وسط شوارع مزدحمة اكتظت بالسيارات التي تتحرك بصعوبة..

عَلِقَ صفي في رتلٍ طويلٍ من السيارات والآليات والبشر، قبل أن يصل إلى قلب المدينة.. راح يتقدَّم بسيارته ببطء شديد وتغزوه صورة صوفيا.. في ذلك الحين غفت صوفيا وقد استسلمت إلى النوم بعد التملُّل والملل من شدَّة الزحام المروري لشوارع الإسكندرية المؤدية إلى الطريق الصحراوي..

غابت الشمس تماماً وراء آكام من الغمام الرمادي وحِجاب الرياح المُشبعة بالأتربة والمُحمَّلة بالرمال.. اقتربت الساعة من السادسة والنصف، وقد أدرك صفي بداية طريقه في أطراف المدينة الشمالية.. توقَّف بالسيارة على أعتاب بوابة طريق القاهرة.. عبرها بعدة كيلومترات مسرعاً بسيارته التي عانت الوحدة وهي تنطلق دون رفقة طريق.. وكأنهم يسرون على الصراط وحدهم.. راحت أحوال الجو تسوء أكثر فأكثر وهو يُسابقُ الإعصار الذي بزغ في مرآة سيارته شَبْحاً يُطارِده..

خارت قوى الرجل ليهوي على الأرض بجانب سيارته.. فينة من الوقت مرت حتى شرع الهاتف في الرنين تارة أخرى، وما إن أجاب على مكالمة الدكتور توفيق حتى بزغت في الأفق صوفيا الصغيرة، آتية صوبه، راسمة على وجهها ابتسامة بريئة لتحضنه وهي تُردّد:

- هل أدركتنا الطيور المهاجرة اليوم يا والدي؟!!

كأن الفلك الأعلى قد تهاوى من جوانبه، وتهافت على مناكبه، ريثما اصطكت لكلمات صوفيا مسامع صفى، وقد ارتجت به الأضلع، ووجفت به الأرض، وانكسفت الشمس، وانخسف الفلك.. لتغرق الأجفان، وقد هطلت أسراب سحائب العبرات، وانفرطت عقود الدموع واحترقت اعشار الفؤاد ليجهش باكياً بالنحيب والنشيج، وصوت فيروز يفعم جنبات المكان ويغمر آذان الصمت..

ليالي الشمال الحزينة.. ظلي اذكريني اذكريني ويسأل عليّ حبيبي.. بليلي الشمال الحزينة يا حبيبي.. وبحبك ع طريق غياب.. بمدى لا بيت .. نخيينا ولا باب..

خوفي للباب.. يتسكر شي مرة بين الأحباب.. وتطل تبكينني ليالي الشمال الحزينة.

تمت

إبراهيم زويل ٢٣/١/٢٠١٦